وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجزائر 02-أبو القاسم سعد الله
كلية العلوم الإنسانية
قسم الفلسفة

فلسفة الحضارة بين بديع الزمان سعيد النورسي ومالك بن نبي

" دراسة تحليلية نقدية مقارنة "

The philosophy of civilization between Bediuzzaman Said Nursi and Malik Bin Nabi a comparative-critical analytical study

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه الطور الثالث، تخصص فلسفة العلم والحضارة .

إعداد الطالبة :
أسماء أبوطالب

إشراف الأستاذ الدكتور:
أ.د/الأخضر شريط

أعضاء لجنة المناقشة

الإسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
أ.د جويدة جاري	أستاذة التعليم العالي	جامعة الجزائر 02	رئيسا
أ.د الأخضر شريط	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 02	مشرفا ومقررا
د.جوزي عبد المجيد	أستاذ محاضر "أ"	جامعة الجزائر 02	عضوا مناقشا
أ.د غازي محمد	أستاذ التعليم العالي	المدرسة العليا للأساتذة	عضوا مناقشا
د .حاجي مباركة	أستاذة محاضرة أ	جامعة الجزائر02	عضوا مناقشا
د. خالد مرزوق	أستاذ التعليم العالي	جامعة خميس مليانة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية : 2022/2021

Ministry of Higher Education and Scientific Researche
University of Algiers2 Abou al Kacim Saadallah
Faculty of Humanities
Department of Philosophy

the topic

The philosophy of civilization between Bediuzzaman Said Nursi and Malik bin Nabi, a comparative-critical analytical study

A thesis submitted for obtaining a doctorate degree in the third phase specializing in the philosophy of science and civilization.

Under the supervision :

Prof . /Lakhdar Cheriet

prepared by student:

Asma Aboutaleb

Discussion Committee Members

Name And Surname	University Institution	Adjective
P.Dr /Djaouida Djari	Algiers 2 University	President
P. Dr / Lakhdar Cheriet	Algiers 2 University	Rapporteur and Supervisor
P.Dr Ghazi Mohammed	Graduate school Teachers	Member
Dr. Hadji Mebarka	Algiers 2 University	Member
Dr. Jouzi Abdelmadjid	Algiers 2 University	Member
Dr. Khaled Merzoug	Khemis Miliana University	Member

University year 2021 -2022

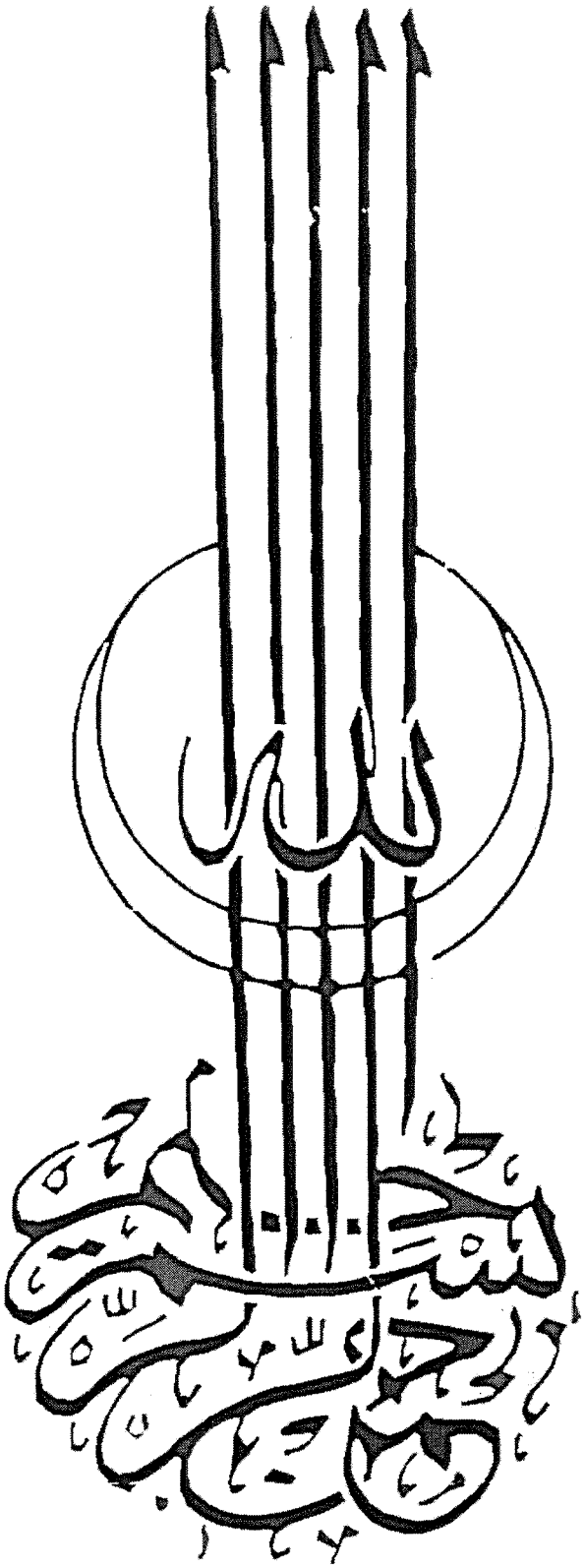

إهداء

الحمد لله وكفى والصلاة على المصطفى وأهله ومن وفى :

الحمد لله الذي وفقنا لتثمين هذه الخطوة في مسيرتنا الدراسية بعملنا هذا ثمرة الجهد والنجاح بفضله تعالى.

مهداة إلى الوالدين الكريمين حفظهما الله وأدامهما نورا لدربي

لكل العائلة الكريمة التي ساندتني ولا تزال،إلى رفيقات المشوار

إلى كل أساتذة قسم الفلسفة، إلى كل من كان لهم أثر على حياتي.

الشكر والعرفان

الحمد لله أولا وأخيرا فهو من هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله...إلى ذلك الصرح العظيم الذي علمني الخلق الكريم أستاذي صاحب الفصل الكبير الأستاذ المشرف: الأخضر شريط

أتقدم بالشكر والامتنان لقبوله الإشراف على هذا العمل وكل التوجيهات التي قدمها لي ،كما لايفوتني أن أشكر أعضاء اللجنة المناقشة الذين تكبدوا عناء قراءة هذا العمل وفي تفانيهم في النقد وتصويب الأخطاء.

أشكر كل من علمني حرفا وكل من ساعدني من قريب أو من بعيد.

فهرس المحتويات

إهداء

شكر وعرفان

فهرس المحتويات .....أ

1.المقدمة 1-4

الفصل الأول :الحضارة ،المفهوم ،المعنى والتاريخ 5

0.1 تمهيد الفصل 6

1.1المفهوم اللغوي.....6-10

2.1المفهوم الاصطلاحي 10

3.1في نشأة الحضارة وتطورها 10

1.3.1مفهوم الحضارة في الاصطلاح الغربي 10-12

1.1.3.1الحضارة عند شفيتزر.....12-13

2.1.3.1الحضارة عند شبنجلر.....13-14

3.1.3.1الحضارة عند توينبي.....14-15

2.3.1المفهوم الإسلامي للحضارة 15-18

3.3.1مصطلح فلسفة الحضارة.....18-21

الفصل الثاني :فلسفة الحضارة عند بديع الزمان سعيد النورسي.....22

0.2 تمهيد الفصل.....23

1.2الرؤية النورسية لبعض القضايا الحضارية الشائكة.....24

1.1.2مفهوم الحضارة 24-29

2.1.2دور الإنسان في صناعة الحضارة.....29-32

2.2منهج النورسي 32

1.2.1المشروع النهضوي المعاصر 32-33

1.1.2.1عوامل التقهقر والتأخر الحضاري للأمة الإسلامية.....33-57

2.2.1تصور النورسي للبعد الإيماني في الجوانب الحضارية.....58

1.2.2.1مستقبل الإسلام وحضارته الإيمانية.....58

1.1.2.2.1الإيمان دعامة للحضارة الاجتماعية 58-59

2.1.2.2.1الإنسان في الفكر النورسي 59-62

3.1.2.2.1العبادة وأثرها في نفس الإنسان والمجتمع.....62

4.1.2.2.1الإيمان وأثره في الإسلام الاجتماعي 62-63

1.4.1.2.2.1الأسس التي يتحقق بها السلام الاجتماعي.....63-65

2.4.1.2.2.1 تحقيق الترابط بين أبناء الحضارة الإسلامية... 65-67

3.4.1.2.2.1الجانب العلمي والثقافي 67-70

1.3.4.1.2.2.1 البحث العلمي وتحقيق التقدم الحضاري ..70-73

3.2موقف النورسي من الحضارة الغربية وتقويمه لها 73

1.3.2أسباب رفض النورسي للحضارة الغربية 73

1.1.3.2آراء المفكرين الإسلاميين حول الحضارة الغربية.....74

2.3.2النورسي وصدمة الحضارة 74-82

1.2.3.2المدينة الحديثة وأمة المعيارية 82-86

1.1.2.3.2تصفية الذات قبل نقد الآخر.....86-89

3.3.2الحضارة الغربية في ميزان النقد البناء 89-90

4.3.2ازدواجية بناء الحضارة الغربية 90

1.4.3.2اوربا النصرانية.....90-94

2.4.3.2أوربا المادية 94-95

2.3.2دفع مفاسد الحضارة الغربية 95

1.2.3.2تصفية المدينة الغربية بمصفاة الشريعة الإسلامية...95-97

1.1.2.3.2الدعوة إلى حضارة مؤمنة 95-103

4.2 الرؤيةالحضارية للنورسي من خلال الأخلاق والسياسة والاقتصاد.....103

1.4.2الأخلاق 103

1.1.4.2الأخلاق ونظام القرآن 103-105

2.1.4.2قيمة الحضارة للنسق الأخلاقي النوري 105-108

2.4.2السياسة 108-110

1.2.4.2أهم دعائم الفكر السياسي 110-111

2.2.4.2أهمية العدل في التشريع الإسلامي 111-112

3.4.2الإقتصاد 112-113

1.3.4.1-الاقتصاد في التشريع الإسلامي 113-119

2.3.4.1 الإسراف الاقتصادي في الميزان الأخلاقي 120

3.3.4.1نتائج الإسراف على اقتصاد الأمة الإسلامية وحضارتها.....121-123

4.3.4.1كيفية النهوض الاقتصادي 123-126

الفصل الثالث :فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي 127

0.3تمهيد.....128

1.3عوامل نشأة الحضارة عند مالك ومفهومه لفلسفة التاريخ والحضارة.....128

1.1.3مفهومه للتاريخ 128-133

2.1.3مفهومه للحضارة 133-138

2.3الدورة الحضارية ومراحلها.....139

1.2.3دورة الحضارة.....139-143

2.2.3مراحل الحضارة 143-151

3.3الدين كعامل مركب للحضارة.....151-155

4.3منهج مالك بن نبي في فلسفة الحضارة وأهم ومراحل فكره.....155

1.4.3منهج البناء الحضاري.....155

1.1.4.3تشخيص واقع التاريخ الإسلامي.....155-162

2.1.4.3إشكالية فهم الإسلام 162-178

2.4.3دور الأفكار في البناء الحضاري وتصوره لمستقبل الإسلام 178

1.2.4.3 دور الأفكار في البناء الحضاري 178-196

2.2.4.3تصوره لمستقبل الإسلام.....196-201

5.3مشكلات النهضة معاييرها وشروط بنائها 201-224

6.3 محاور فكره الأخلاقي والسياسي والاقتصادي.....224

1.6.3 الأخلاق 224

1.1.6.3 أخلاق الفكر والعمل بين النظرية والتطبيق..... 224

2.1.6.3موضوع الأخلاق.....225-231

2.6.3السياسة عند مالك بن نبي.....231

1.26.3بين السياسة والدين الأخلاقي..... 231-232

2.2.6.3تعريف السياسة عند مالك بن نبي 232-238

3.2.6.3علاقة السياسة بالحضارة.....238-240

3.6.3الاقتصاد.....240

1.3.6.3أسس النهضة الاقتصادية حسب مالك بن نبي.....240-244

2.3.6.3الرؤية الحضارية للاقتصاد في البلدان النامية 244-248

1.4الفصل الرابع :مقارنة بين المفكرين في نظرتهما لفلسفة الحضارة.....249

1.1.4مقارنة في المحتوى والبعد الفكري.....250-261

2.1.4مقارنة في المنهج 262-263

3.1.4غايات وآفاق فلسفة الحضارة بينهما.....263-267

2.4نتائج البحث 267-274

الخاتمة 275

قائمة المصادر والمراجع.....277

مقـــــــدمة

المقدمة:

1.مقدمة:

إن موضوع فلسفة الحضارة من الموضوعات الهامة التي لها مساس كبير في حياة الإنسان فلـــــقد كتب فيها الكثيرون ،وألف عنها العديد من الكتاب، وبحث فيها الباحثون والكل يقدمـــــــــون ثمـــــار جهودهم وعصارة تفكيرهم وذلك لكي ينيروا للأجيال المتلاحقة طريق العلم والمعرفة نظرا لما يحتويه هذا الموضوع من غموض ولبس فتعد المسألة خلافية بشكل واضـــــــح فهي ليست مجرد موضوع تاريخي ينتظر بحثا وتفكيرا متجردا وخاليا من العاطفة بل إنها موضوع ملتهب فلكل رأيه، فهذا يشرحها من وجهة النظرية المادية وآخر يفسرها من وجهة النظـــــــرية الرأسمالية وثالث يـــــدرسها من وجهـــــة النظر الإسلامية فلـــــم نصل إلى نظرية واضحة قطعية فهي ذات مدلولات وأهداف ولها مقومات ودوافع ،ذلك أن الحضارة إنتاج الإنسان صاحب الفكر والوجدان والإرادة فهي لا تقاس بالكم بل بالكيـــــــــف فمشكلة الإنسان عمومـــــا هي مشكلة الحضارة وهذا ما جعل الإنسان يفقد توازنه في عالمـــــه الداخلي والخارجي بين قيم الكم والكيف وينتابه القلق إزاء مستقبل مشئوم خاصة وأنه يدرك تمام الإدراك أن ما يجري من فساد في العالم لا يتـــــــجه نحو خدمة الإنسانية 'بل أكثـــــــــره موجه نحو الدمار'فليست الحضارة سوى تعلم الثقافة أي لابـــــــد أن نستخدم جميع ملكاتنا الضميرية والعقلية في عالم الأشخاص لأن العلم في الأخير ما هو إلا بعض نتائج الحضارة ولهذا فما معنى الحضارة إذا كانت لا تحل المشكلات التـــــي تواجه حيـــــاة الناس !

فهذه العوامل دفعت الفلاسفة والمفكرين إلى تشخيص الأمراض 'وتنبيه الإنسان المظلوم إلى ضرورة استرداد دوره المسلوب ،ومن الذين سعوا جهدهم تفكيرا وكتـــــــــابة لمهمة النـــــهضة والإصلاح والبحث عن أسباب التخلف وتحقيق التقدم الحضاري المفكران بديع الزمان سعيد النورسي ومالك بن نبي إذ تميزا بثقافة واسعـــــــــــة وموضوعية في تحليل الأمور،ومنهجية ودقة في اختيار الألفاظ فعندما تصفو المشارب ويستقيم المنهج وتتحد الغايات يلتقي الفكر حتى ولو وقع خلاف في بعض الاجتـــــــــهادات الجزئية' فالتقارب الفكري الكبير الذي نلحظه بين العلامة بديع الزمان سعيد النورســــــــــي (1876-1960) ومالك بن نبي (1905-1973) هـــــو تقارب من هذا القبيل فكانا يعيشان قلقا واحدا هو تخلف المسلمين العملي في مواجهة تقدم الحضارة الأوروبية كما كانا يسعيان إلى غاية واحدة هي بعث المسلمين بعثا قرآنيا يستوعب حضارة فسعيد النورسي يـــــــــكاد يعلن في كل صفحة من صفحات رسائل النور أنه تلميذ للقرآن ولئن كان النورسي هو هذا الرجل القرآني فإن مالك بن نبي كان كذلك فحفظ القرآن في سن مبكرة فتبصر بالبصيرة القرآنية كل حقائق الحياة والكون .

الأسباب والدوافع لاختيار الموضوع:

المقدمة:

نظرا لما لهذا الموضوع من أهمية بالغة أثارت في نفسي دهشة ' خاصة عندما قرأت رسائل النور فوجدت فيها الروح العلمية لهذه العبقرية الفذة كما أنني وجدت لديه نسقا متكاملا متناهيا في الدقة الفكرية، فعمدت لإجراء مقارنة بين هاتين الفلسفتين باعتبارهما يختلفان في المصدر الفكري ويتفقان في الغاية الحضارية الإسلامية ومعرفة الدافع الذي قاد كل من المفكرين النورسي ومالك بن نبي إلى اكتشاف الضعف الحضاري الذي عجز الإنسان أن يتحرر من قيوده وبذلك تزول الفجوة المعرفية بين الناس كأفراد ،وبين الحضارات العالمية التي تهدف إلى تحرير الإنسان من الضغوط التي يعانيها في حياته وتعطل تفتحه وتطوره إضافة إلى ذلك إن موضوع دراستنا موضوع مهم بالنسبة للفكر الفلسفي عامة والثقافة العربية الإسلامية خاصة فهو موضوع يثير قضايا تدخل في صميم عدة اختصاصات سواء في مجال الفلسفة في عمومها أو في مجال فلسفة العلم والحضارة في خصوصها.

ولقد تم اختياري لهذا الموضوع على الرغم من أن غيري تطرق إليه،إلا أنهم درسوه من جانب معين لا مجال المقارنة ولإثراء مكتبتنا ارتأيت إلا أن أبحث في هذين المفكران بديع الزمان النورسي ومالك بن نبي في مجال فلسفة الحضارة فلم أجد دراسة علمية تتناول المفكرين معا وهذه بعض الدراسات السابقة التي اطلعت عليها:

1- أمينة تشيكو ،مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وارنولد توينبي،جامعة الجزائر ،قسم الفلسفة.

2- أشرق عبد الرافع الدرفيلي ،البعد الإيماني في فلسفة الحضارة عند الإمام بديع الزمان سعيد النورسي دكتوراه فلسفة إسلامية ،جامعة المنوفية ، 2012.

فلقد تناولت الأطروحة الأولى مفهوم الحضارة عند كل من مالك وارلوند توينبي لأننا نجد أن هذا المفهوم ذاع صيته وتنوعت واختلفت آراء المفكرين فيه فكل يعرفها حسبه فاختارت الباحثة هذين المفكرين . إلا أن الدراسات في فلسفة الحضارة عند النورسي قليلة جدا فوجدت هذه الدراسة التي تتناول البعد الإيماني في فلسفة الحضارة عنده .

وسنحاول في هذا الطرح التطرق إلى أهم نقاط التشابه والاختلاف بين المفكرين عن طريق المقارنة بين فكريهما وإجلاء أسس الموضوع من خلال تحليل واستنطاق نصوص كليهما .ومن خلال هذا التصور الموجز للموضوع فإن الإشكال الجوهري لبحثي هو: **ما هي الآليات التي انطلق منها كل من المفكرين في تحليلهما لمشكلة الحضارة في حل ما يواجه واقع الإنسان المعاصر من مشكلات حضارية عموما والإنسان المسلم خصوصا؟**فإذا كان تصور كل منهما يتميز بطريقة وبصيغة تختلف عن الآخر في الطرح ؟ فما هي أوجه الاختلاف والتشابه بينهما؟ وما هي الحلول المقترحة لكل منهما ؟ ولمعالجة هذه الإشكالية استندت لبعض الإشكالات الجزئية:إذا كان لكل حضارة خصائصها العلمية والعقلية والثقافية المميزة لها فما هو الموقف الذي انتهجه كل من المفكرين لمعالجة هذه الخصائص ؟ وإذا كانت الحضارة في ماهيتها وجوهرها أخلاقية فما هي المكانة التي تحتلها القيم الأخلاقية في الحضارة

المقدمة:

الإسلامية؟ تلك هي الإشكاليات التي نطمح من خلال بحثنا هذا إلى إيجاد إجابات لها بواسطة دراسة تحليلية نقدية مقارنة بين المفكرين بديع الزمان ومـــــــــــــــالك بن نبي

ولمعالجة هذه الإشكالات قسمنا البحث إلى مقدمة وأربعة فصول وأخيرا نتائج البحث.

عنونت الفصل الأول بـ: **الحضارة المفهوم ،المعنى والتاريخ :والفصل الثاني بعنوان: فلسفة الحضارة عند النورسي**

تناولت فيه: الرؤية النورسية لبعض القضايا الحضارية الشائكة فعند الحديث عن بعض الجوانب الحضارية في فكر النورسي تتزاحم قضايا كثيرة يشد بعضها بعضا .... ذلك أن النورسي عاش هموم أمته 'محللا أسباب تخلفها 'باحثا عن أسباب نهضتها ' يقرأ بعمق كتاب الله المسطور ولهذا سوف نعالج بعض القضايا الدالة على منهجه يقود الوعي بها إلى خير كثير في فقه التاريخ والحضارة من منظوره القرآني الكوني المتناغم والمتكامل.**ومنهج النورسي في الفكر الحضاري الإسلامي من خلال رسائل النور** كتصوره لمستقبل الإسلام وأيضا إلى الأسباب والعوامل التي أدت إلى انحطاط العالم الإسلامي وكيفية الخروج من هذا المأزق . ووضحت فيه البعد الإيماني لفلسفة الحضارة عنده وبعض مفاهيم المشروع النهضوي الإسلامي المعاصر. **وموقف النورسي من الحضارة الغربية وتقويمها** فنجده يعالج الموضوع بحكمة وعمق شديدين ، مبينا أبعاد العلاقة بين العالمين الغربي والإسلامي مدافعا عن رأيه بقوة الحجة والبرهان خاصة بعدما أدرك خبايا الحضارة الأوروبية واستشرف مستقبلها ومن خلال عنايته المنهجية الدقيقة بالعلاقة بين الحضارة الأوروبية والعالم الإسلامي . فتناولنا **أولا:** أسباب رفضه لها مثلا أنها أضاعت أهم شي وهو قدسية الإنسان وذلك كله راجع إلى سوء استخدام التقنية والتكنولوجيا وأيـــــــــضا الطبيعة الإلحادية للحضارة الغربية لأنها مضادة للفطرة الإنسانية ومنافية للقيم الأخلاقية وذلك لمعالجته مفاسد الحضارة الغربية كما نجده يربط بين هذه الحضارة والعالم الإسلامي سعيا منه إلى تبصير المسلمين بمكامن الداء في هذه الحضارة أملا في درء مفاسدها وعليه فلا ينبغي إغلاق باب الحوار مع هذا الغرب بل يجب محاورته بالتي هي أحسن بغية إزالة ماران على قلبه من مواقف سلبية ومخلفات ملفقة ومزورة تجاه قضايا الأمة قبل أن يعم الطوفان الذي عم القارة الأوروبية ووقفنا على جملة من القضايا الجوهرية في حياة الأمة الإسلامية .

ثانيا: الهدف منه الوصول لإعطاء البديل الحضاري لدفع المفاسد عنها كتصفية المدينة الغربية بمصفاة الشريعة وأيضا نبه إلى ضرورة الالتفات إلى عنصر الإيمان في التعامل مع الحضارة الغربية هادفا من وراء هذا كله إلى حتمية التواصل بين الحضارتين. وأخيرا **الرؤية الحضارية لبديع الزمان** من خلال إبراز الجانب الأخلاقي وهو ما سنوضحه، إضافة إلى الجانب السياسي والذي أعطاه دور كبير في بناء الحضارة و الاقتصاد محاولة في ذلك أن نبين منهج سلوك المستهلك في الإسلام

فنجده في رسالة الاقتصاد يركز أساسا على حكمة حرمة الإسراف ضمن سلوك المستهلك وإيضاح تأثيراته الإيجابية والسلبية وهذا ما يشكل مسألة أساسية من مسائل الإنسانية اليوم .

وتناولنا في الفصل الثالث : فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي

فتناولنا في **المبحث الأول**: عوامل نشأة الحضارة عند مالك بن نبي ويتضمن مفهومه لفلسفة التاريخ ونقد بعض نظريات التاريخ كابن خلدون وهيجل وماركس و جيزو والحضارة بحيث سنعرض مختلف التعريفات ونتتبع عن طريق التحليل الخيط الذي يربطها ويجعل منها وحدة منسجمة فيما بينها 'متسقة مع التصور العام الذي يعكس الأهمية الوظيفية للحضارة بالنسبة للفرد والمجتمع وفي **المبحث الثاني**: تعرضت للدورة الحضارية ومراحلها **وفي المبحث الثالث** تطرقنا إلى الدين كعامل لمركب الحضارة في منظور مالك بن نبي كما سنرى لاحقا وقد أعطى أولوية كبيرة للدين في التجديد الحضاري كما قام بذلك النورسي فما دور الفكرة الدينية بالنسبة لمالك بن نبي في بناء الحضارة ؟ أما **المبحث الرابع**: فعنونته بمنهج مالك بن نبي في البناء الحضاري وأهم مراحل فكره.

وفي المبحث الخامس: تطرقنا إلى عوائق النهضة وشروط بناءها وتوضيح القضايا المفصلية لبعث النهضة والأسباب التي أعاقت سير تقدمها .

وفي **المبحث السادس**: تناولنا فكره الأخلاقي والسياسي والاقتصادي

وفصل رابع للمقارنة بين المفكرين في نظرتهما لفلسفة الحضارة في المحتوى والبعد الفكري، في المنهج، وغايات وآفاق فلسفة الحضارة بينهما . وينتهي البحث بنتائج وخاتمة نجمل فيها الآفاق والاقتراحات التي من شأنها تعبيد الطريق أمام المهتمين بفلسفة الحضارة كما نذيل بحثنا بقائمة المصادر والمراجع المعتمدة.

واتبعنا في ذلك المنهج التحليلي والتركيبي 'إضافة إلى منهج المقارنة والنقد باعتبار أننا سنعالج فلسفتين مفكراها ينتميان إلى الحضارة الإسلامية إلا أن النورسي أعجمي عاش في تركيا ومالك بن نبي مسلم عاش في الغرب فكانت غايتهما الحضارية الإسلامية تصب في قالب واحد فعاشا قلقا وهو تخلف المسلمين العملي في مواجهة تقدم الحضارة الأوروبية كما كانا يسعيان إلى غاية واحدة وهي بعث المسلمين بعثا قرآنيا يستوعب حضارة العـــــــصر واكتشاف الضعف وبذلك تزول الفجوة المعرفية بين الناس كأفراد 'وبين الحضارات العالمية التي تهدف إلى تحرير الإنسان من الضغوط التي يعانيها في حياته وتعطل تفتحه وتطوره.

الفصل الأول

الحـــــــــضارة المفهوم :المعنى والتـــــاريخ

0.1تمهيد:

لقد تعددت أقوال الناس عن مفهوم الحضارة بحسب اختلاف عقائدهم وأفكارهم وتصوراتهم للكون والحياة والإنسان وبحسب تجاربهم وتاريخهم الخاص فهناك من وسع مفهوم الحضارة ، في مقابل من اجتزأها وقصرها على بعض الأمور فكما أن هناك من فصل بين الحضارة والإنسان وهناك من وصل بينهما' كما نجد بأن مصطلح الحضارة من المصطلحات المتداولة بشكل كثيف جدا وخاصة عند الذين لهم اهتمام بالقضايا المتقابلة مثلا (التقدم والتخلف 'النهضة والركود ...الخ) فكل يذهب في تعريف الحضارة حسب ثقافته وقناعته ومفاهيمه واعتقاداته وفلسفته ونظرته لتلك الأمور المتقابلة أو المتداخلة وقد كتب في موضوع الحضارة كتبا مستقلة وعنيت المعاجم بتعريفها وتبحر الناس في بيان ماهيتها ومكوناتها وعلاقتها بالتاريخ (الزمن) وعلاقتها بالإنتاج والقوة التقنية والسياسية والإعلامية وتكثف الحديث عنها.[1]

فلا شك في أن هناك خلطا واضحا في فهم معنى الحضارة وتباينا فكرا تاريخيا للحضارات المختلفة مما يكون له انعكاساته المتعددة عند تناول مدلول هذا المصطلح ومن تم يتحول عدم فهم معنى اللفظ ببنية كل حضارة، يضطر الباحث إلى مواجهتها فألفاظ مثل "الحضارة" "المدنية " "الثقافة "كلمات شائعة كثيرا ما تتردد في كتابات المفكرين والفلاسفة وعلماء الاجتماع وغيرهم بوعي وفهم بغير وعي ،حتى أن بعضهم يستخدمها على أنها تحمل معان واحدة، حيث يمكن استخدامها مترادفات دون أي تمييز أو مراعاة لمنطق اللغة والاشتقاق وهذا المعنى اللاموضوعي ترفضه الكيانات الحضارية المختلفة ،لأن كل حضارة تنطوي على قدر متنوع من عناصر تاريخية وعقيدية واجتماعية بشكل يثير فينا ضرورة تناول كل حضارة ككيان خاص . حيث يكون لها رموزها الخاصة التي تعبر عن نوازعها وطاقتها ،وهذه الرموز هي التي تسيطر وتوجه نتاج الحضارة من أدب وفن وفلسفة ومذاهب[2] ،وإذا أردنا أن نبحث عن معنى الحضارة فلها معنيين :

1.1:الحضارة بالمعنى اللغوي :[3]

تعني الحضارة الإقامة في الحضر يقال :فلان هذا الشخص من أهل الحاضرة وهذا من أهل البادية وشخص حضري وشخص بدوي ثم أريد منها ما يستتبع الإقامة في الحضر من تعاون وتآزر وتبادل للأفكار والمعلومات في شتى شؤون الحياة من علوم وعمران وثقافة وعرفان وما إلى ذلك مما يتصل بتقدم الإنسان وترقيه في مناحي الحياة المختلفة وذلك أن اجتماع الناس في مكان واستقرارهم به إنما يكون للتعاون على دفع الضرر وتحصيل أسباب المعاش بالزراعة والصناعة والتجارة والفنون والعلوم المختلفة والترقي بها حتى تصل إلى مداها المقدر لها.[4]

---

[1]- سعيد محمد الغامدي ،**مقدمة في الصدمات الحضارية** ،ط1،مركز صناعة الفكر للدراسات والأبحاث 2015،ص46-47.

[2]- سليمان الخطيب ،**أسس مفهوم الحضارة في الإسلام** ،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،ص23.

[3]- انظر مادة "حضر "في :ابن منظور '**لسان العرب** ،الطبعة الجديدة الصادرة عن دار المعارف ،القاهرة (ب.ت)،ص907.

[4]-أبو زيد شلبي ،**تاريخ الحضارة الإسلامية** ،مكتبة القاهرة ،1984،ص7.وانظر جميل صليبا ،**المعجم الفلسفي**،دار الكتاب اللبناني ،بيروت ،1971،ج1،ص475-477.واندريه لالاند :**موسوعة لالاند الفلسفية** ،تر دكتور خليل احمد خليل ،منشورات عويدات بيروت ،باريس،(ب،ت)ج1،ص172-173.

أما في القاموس المحيط "الحضارة " ضد فعل "غـــاب " والحاضـــــرة والحضارة خـــــلاف البادية [1] وفي تاج العروس "الحاضرة والحضرة والحضر هي المدن والقرى والريف فسميت بذلك لأن أهلها كانوا حاضرين في البيوت التي يكون لهم بها قرار .[2]

كما جاء في القاموس الفلسفي الصادر من مجمع اللغة العربية في مصر :

أ) الحضارة ضد البداوة وتقابل حياة الغاب والتوحش وهي مرحلة عالية من مراحل ا تطور الإنسان .

ب) جملة مظاهر التطور والازدهار في المجالات الفنية والتقنية التي تتغير من أفراد لآخرين أو من مجتمع إلى مجتمعات أخرى .[3]

كما نجد معجم صليبا يعرف الحضارة بأنها في اللغة هي :الإقامة في الحضر بخلاف البداوة وهي الإقامة في البوادي ....والحضارة عند المحدثين لها معنيين أحدهما موضوعي مشخص والآخر ذاتي مجرد أما المعنى الموضوعي فهو إطلاق لفظ الحضارة على جملة من مظاهر التطور في جميع المجالات سواء العلمية أو الأدبية أو الفنية أو والتي تتغير من جيل إلى جيل في مجتمع واحد أو عدة مجتمعات متشابهة. وأما« الحضارة بالمعنى المتفق عليه فتطلق على مرحلة من مراحل التقدم الإنساني المقابلة لمرحلة الوحشية والهمجية».[4]

لهذا نجد أن بعض الباحثين يميز بين لفظي "حضارة "و"مدينة" فيجعل لفظ حضارة خاص بالتكوين المعنوي والثقافي لمجتمع ما ولفظ مدينة يعد أكثر اتصالا بالمظاهر المادية العملية .

غير أن تحديد الحضارة بأنها تختص بالجوانب الثقافية والمعنوية بينما تختص المدينة بالجوانب المادية والعملية ،أدى هذا إلى اقتراب لفظ "الحضارة " من لفظ "الثقافة" إلى حد صعوبة التمييز بينهما حتى أن تايلور قد استخدمها كمرادفين حيث يرى أن لكل مجتمع بالضرورة مدينة لأن الأخيرة تمثل نمطا معينا من التطور .[5]

منه فإن جاز لنا أن نميز بين كلمة "مدينة" وكلمة "حضارة" فسنجد التمييز الدقيق في أن الأولى تستخدم لتدل في الأغلب على أسلوب حياة سكان المدن أو التمدن سواء كان هذا الأسلوب متبع أو مبتدع وسواء كانوا مستهلكين و مقلدين لأسباب التمدن أو مشاركين مبدعين في بناء وتقدم تلك المدينة التي تختلف هنا مع ما لمفهوم الحضارة من أصالة وإبداع وحيوية وروح ونشاط وقوة ونماء ونظام نابع من تراث وتقاليد ذلك المجتمع المتحضر فهي كيان قائم له سمات وانعكاسات عديـــــدة تعد المدينة واحـــــــدة مـــــن تـــــــلك السمات.[6]ومن هنا نلاحظ بأن هناك فارقا جوهريا بينهما من حيث الاستخدام الدقيق للمعنى فمن الممكن أن نتحدث عن مجتمع متمدن، بمعنى أنه قد تعدى في تنظيمه مرحلة البداوة ولكن ليس من الضروري أن نصف هذا

---

[1]- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادي ،القاموس المحيط ،دار ابن الخوارزمي ،القاهرة ج2،ص10.

[2]- محمد مرتضي الزبيدي ،**تاج العروس** ،دار مكتبة الحياة ،بيروت ،م3،ص146.

[3]-**المعجم الفلسفي** ،من إصدار مجمع اللغة العربية في مصر ،عالم الكتب بيروت ،1979،ص73.

[4]- جميل صليبا ،**المعجم الفلسفي**،الشركة العربية للكتاب ،بيروت ،1994،ص476.

[5]- أحمد محمود صبحي،**فلسفة الحضارة**،مؤسسة الثقافة الجامعية ،الإسكندرية ،(د.ت) ص4.

[6]- سعيدمحمد.مالسقا ،**فلسفة الحضارة وحوار الحضارات**،دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ،2010،ص10

المجتمع بأن له حضارة.فليس كل مجتمع متمدن هو مجتمع حضاري ولكن العكس صحيح وبالتالي فإنه إذا كانت الحضارة تتضمن من بين مكوناتها معنى المدينة ،فإن المدينة قد لا تفي بنفس شمولية معنى الحضارة في جميع الأحوال .[1] ونفس هذا الفارق الدقيق نجده بين لفظتي حضارة وثقافة فإذا كان الفرق واضحا في اللغة العربية كون الثقافة تعني الإلمام بالعديد من المعارف والفنون والآداب ففي اللغة العربية نجد ثقف بمعنى قوم وهذب وإذا رجعنا إلى الاشتقاق اللغوي للفظ culture فإنه مشتق من فن حراثة التربة أي أن الثقافة فن تهذيب العقل بعد أن كان اللفظ يتصل بفن تشذيب الأرض والزرع ، ومن ثم فإن لفظ cultureيفيد طريقة شعب ما ،ومجموعة أنظمته ونظرته إلى الحياة والكون .[2] وقد جاءت في بعض كتب التراث كالمعاجم اللغوية والكتب الأدبية وهي تعني في أصلها إقامة ما اعوج ،وإصابة ما يسمعه المرء على استواء والظفر بالشيء والإمساك به [3]ومدار كلامهم فيها على الإتقان والحذق ،والفطنة المقتضبة لسرعة أخذ العلم وفهمه،وتقويم المعوج من الأشياء وأصل الكلمة في اللغة من ثقف ،يثقف ،ثقفا وثقافة أي صار حاذقا خفيفا فطنا .... وأصل التّقف ،الحذق في إدراك الشيء علما وعملا ....يقال ثقف الرجل أي علمه وهذبه ولطفه . [4]ومن هنا يتبين لنا اتساع هذا المفهوم وهذا لا يقتصر فقط على هذا المفهوم بل يتعداه إلى أمور أخرى كالحضارة والمدنية والنهضة والفن والأدب وغير ذلك من الألفاظ التي أصابها التعويم الاصطلاحي وتداخل مجموع عناصرها واشكالياتها واستعمالاتها فنجد مثلا مصطلح ثقافة متعدد الاستخدامات كقولنا ثقافة شعبية ، إنسانية ،تاريخية،جنسية ،اجتماعية إلى عشرات من المسميات التي قد تدل على تهلهل المفهوم وتمزق نسيجه أو تدل على نموه واتساع دلالاته حتى أخذ معاني مركبة واتجه اتجاهات عدة فلا نكاد نجد باحثا أو معجميا يتحدث عن الثقافة إلا وتعترضه إشكالية مفهوم الثقافة وخاصة في تداخلها مع مفهوم الحضارة مما دعا مالك بن نبي إلى القول بأنه :«...لا سبيل لعودة الثقافة إلى وظيفتها الحضارية إلا بعد تنظيف الموضوع من الحشو أو الانحراف الذي أحدثه عدم فهمنا لمفهوم ثقافة »[5] فالثقافة في أدنى مستوياتها هي :مجموع الاستجابات والمواقف التي يواجه بها شعب من الشعوب ضرورات وجوده الطبيعي من مأكل وملبس وتناسل أما على المستوى الأعلى فإن الثقافة أوجهها ثلاثة هي:

أولا: تقوية الفكر وتطور النقد الحسي

ثانيا: إرهاف الذوق وتكوين الحس الجمالي .

ثالثا: زرع الحس الأخلاقي والاستمساك بالقيم النبيلة.[6]

من خلال ما سبق يمكن رصد الفارق الدقيق بين الثقافة والحضارة فمن الممكن أن نتحدث عن (ثقافة بدائية) كالتي نجدها عند البدائي ولكن لا نستطيع أن نتحدث عن

---

[1]- سعيد محمد.مالسقا ،**فلسفة الحضارة وحوار الحضارات**،مرجع سابق، ص11.

[2]- أحمد محمود صبحي ، مرجع سبق ذكره ،ص3.

[3]- ابن فارس ، **معجم مقاييس اللغة** ،تحقيق عبد السلام هارون ،دار الجي،بيروت،ط1991،1،ص383،382

[4]-ابن منظور ،**لسان العرب** ،ص19-20.

[5]- مالك بن نبي ،**شروط النهضة** ،تر عبد الصبور شاهين ، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر،ص125.

[6]- موسى عبد اللاوي ،**الحضارة الإسلامية وآثارها على المدينة الغربية** ،دار العلوم ،عنابة ،2008،ص16.

حضارة بدائية ،لاستحالة استقامة هذا المصطلح لأن الحضارة عبارة عن كيان متسق ومترابط من الاختراعات والاكتشافات الصناعية والعلمية وتقاليد ثقافية ،تراكمية فهي نمط واعي للحياة يوفر الرفاهية التي تنعكس على أفراد المجتمع كثمرة لنمط وخُلق جديد يختلف عن كونه مجرد رد فعل لمواجهة الآثار الطبيعية وحدها .[1]

فيمكن أن نستخلص بإيجاز مما جاز ما يلي :

1- القول بأن الحضارة والثقافة عبارة عن شيء واحد خاصة عند المفكرين الغربيين الذين لا يضعون حدا فاصلا بينهما فيرون أن الحضارة والثقافة كليهما يشير إلى منهاج حياة أمة من الناس وإنما الحضارة هي الثقافة مبكرة وأن كليهما يشمل القيم والمعايير والمؤسسات وطرائق التفكير السائدة في أمة من الناس وأن الدين هو أهم العناصر المكونة للحضارة والحضارة هي أوسع وحدة ثقافية وأعلى تجمع ثقافي للناس وأوسع مستوى للهوية الثقافية لهم وليس فوق الانتماء الحضاري للناس إلا انتماؤهم للجنس البشري .[2]

2- القول بأن الثقافة لها معنى مستقل والحضارة لها معنى آخر ويمكن أن نفهم ذلك من خلال المثال التالي : بناء منزل على أرض بياض فالأرض هي بمثابة الثقافة التي هي القيم والمثل العليا والخصوصية الإعتقادية والمبادئ العامة والتصورات الكلية ،والمنزل المبني على هذه الأرض بتنسيقه الهندي وتركيبه وألوان طلائه...بمثابة الحضارة والتي تشمل التقنية وسائر العوامل المادية[3] .

فالحضارة ليست فطرية في الإنسان وإنما نزعة إنسانية تبدو كإضافة ضرورية تلبي مطلبا ملحا لنزعة الإنسان نحو حفاظه على نوعه بأن يرتقي بمستوى معيشته ورفاهيته ورغبة منه في تطور دوره على كوكب الأرض من عمارة هذا الكون من جهة ،ولرفعة سلوكه ليرتقي به عن السلوك الحيواني من جهة أخرى . [4]وهكذا فإنه يكون من الواضح أن الثقافة أو الحضارة بمعناها الواسع ، هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والاعتياديات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع .وبغض النظر عن تدقيقات الأنثروبولوجيين والاجتماعيين في التفرقة بين حضارة ومدينة أو بين حضارة وثقافة ، فإن حديثنا سيقتصر على لفظ حضارة قاصدين بذلك جميع مظاهر النشاط (مادية ومعنوية) لشعب من الشعوب بحيث تبدو أساليب حياته وأنشطته الدينية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية باعتبارها نسيجا متداخلا متفاعلا حتى تبدو الحضارة وحدة عضوية متكاملة ،وكأن الحضارة ليس سوى مجموعة الإبداعات التي تهدف إلى التقدم والارتقاء في مجالات المعرفة والسيطرة على الطبيعة وفي التنظيم الاجتماعي للمجتمعات الإنسانية وفي مظاهر الحياة الروحية والمتمثلة في الدين والأخلاق .[5]

وفي الأخير يمكن القول بأن هناك من المفكرين من يطابق بين مفهومي الحضارة والثقافة وبعضهم يشترط الثقافة أصلا للحضارة وهناك من يجعل الحضارة عبارة عن

---

[1]- سعيد محمد محمدالسقا ،**مرجع سبق ذكره** ،ص12.

[2]- سعيد بن ناصر الغامدي ،**مرجع سبق ذكره** ،ص 74.

[3]- سعيد بن ناصر الغامدي ،**مرجع سبق ذكره** ،ص74.

[4]- سعيد محمد محمدالسقا،**مرجع سبق ذكره** ،ص13.

[5]- إبراهيم محمد تركي ،**في فلسفة الحضارة** ،قضايا ومناقشات ،ط1،دار الوفاء لدن،القاهرة ،2005،ص34-35.

تطور اجتماعي وسياسي واقتصادي وتقني وعمراني ،ولا اعتبار عنده لأي وجود حضاري ما لم يتجسد في تقنية متقدمة وتنظيمات سياسية معينة وآخرون يربطون الحالة الحضارية بالمعايير الأخلاقية والآفاق الإنسانية المتكاملة التي لابد من توافرها ومن خلال تعريف الحضارة والثقافة يتضح لنا الفرق من عدة وجوه :

أولا :إذا كان مفهوم الثقافة ينزع إلى الخصوصية فإن الحضارة تذهب إلى العموم فالثقافة فالحضارة تكون خاصة بأمة من الأمم ،لا يشاركها في شأنها أحد 'تحمل صبغة هذه الأمة وتتسم بسماتها ،وقد تصب عدة ثقافات في حضارة واحدة.

ثانيا:أن الثقافة وصف عام للفرد والأمة والحضارة وصف خاص بالأمة يقال حضارة الأمة وليس حضارة الشخص الفلاني مثلا بخلاف الثقافة فتصدق على الشخص والأمة.[1]

3.1الحضارة من حيث الاصطلاح :

بعد تناولنا معنى الحضارة في اللغة نحاول الآن التعرف على المعنى الاصطلاحي للفظ وما جب الإشارة إليه هو أن كلمة "حضارة" و"تحضر" لم تكن شائعة الاستعمال عند العرب طوال القرون التي أعقبت الفتوحات الإسلامية ويستثنى من ذلك العلامة ابن خلدون لأنه أول من عبر عن هذا المعنى في مقدمته بالرغم من أنه كان يستخدم مصطلح العمران البشري كمرادف لمعنى الحضارة [2]، والذي يريده ابن خلدون من لفظ العمران هو أسلوب الحياة ،أي أسلوب حياة جماعة أي ثقافتها ، فالحضارة عنده هي الوصول إلى منتهى العمران أي إلى منتهى التطور الثقافي الشخصي المحلي للجماعة والدخول في دور الحضارة وهو دور الرقي الاجتماعي الثابت الـــــــذي لا يتطور،ولهـــــــــــذا يقول :«إن الحضارة هي نهاية العمران وخروجه إلى الفساد[3]» والحضارة تتفاوت بتفاوت العمران فمتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل، فقد تبين أن الحضارة هي سر الوقوف لعمر العالم في العمران ،والدولة ،والله سبحانه وتعالى يقول :﴿**يسئلُه من في السموات والأرض كلّ يوم هو في شأن** ﴾(**الرحمن الآية 29**) لا يشغله شأن عن شأن. [4] وقبل أن نتعرض للدلالة الاصطلاحية في النص القرآني والسنة النبوية ولنماذج من الفكر العربي الإسلامي نحاول أن نعرض مصطلح الحضارة في الفكر الغربي، بحيث أن هذا اللفظ حديث الاستخدام نسبيا ،إذ نشأ خلال الاحتكاك الثقافي بين الشرق والغرب .

3.1في نشأة الحضارة وتطورها :

1.3.1مفهوم الحضارة في الاصطلاح الغربي :

إن كلمة حضارة في المصطلح الغربي ليست عريقة الاستعمال كما تذكر إحدى الموسوعات الفرنسية الكبرى وحتى قاموس الأكاديمية لم يتضمنها إلا ابتدءا من 1835 وهي تقابل كلمة توحش أو همجية وبالرغم من تداول هذا اللفظ إلا أن معناه يبقى

---

[1]- موسى عبد اللاوي ، **مرجع سبق ذكره**،ص16.

[2]- عماد الدين خليل ،**التفسير الإسلامي للتاريخ** ،دار العلم للملايين ،ط3،بيروت ،1978،ص174.

[3]-ابن خلدون ،**المقدمة** ،د ط،دار الشعب ،ص174.

[4]- ابن خلدون ،**مرجع سبق ذكره** ،ص371-374.

غامضا ويصعب تعريفة تعريفا جيدا ولعل تعريف ليتري*LITTRE للحضارة هو أوضح وأدق من غيره يقول :«الحضارة هي مجموع الآراء والعادات والتقاليد التي تنتج من الفعل المتبادل للفنون الصناعية والدينوالفنون الجملية والعلوم » كما نجد أن الحضارة هي ما في الحياة الاجتماعية المنظمة من مجموع العناصر التي وفرت للإنسانية تفوقها على بقية الكائنات الحيوانية وسيطرتها على الأرض .[1] وما تاريخ الحضارة إلا تاريخ الحياة الباطنية للإنسانية في تطورها المادي والفكري في مقابلة التاريخ السياسي القديم الذي يعطي للأفراد الاعتبار الأول وقد ظهر هذا المفهوم الجديد في القرن الثامن عشر على يد مونتيسكيو (1689-1755) CHARELES DE MONTESQUIEوفولتيرVoltaire وجيبون(Gibbon Edward) وفي القرن التاسع عشر على يد كليم وبوكل1862,1821(Buckle Henry Thomas) العلماء الذين استمدوا آراءهم من نظريات الداروينية .[2] فتذهب نظرية التقدم التي يعتبر جيبون أحد المدافعين عنها إلى أن الإنسان يندرج في الهمجية ،ومن الهمجية إلى الحضارة وهذه النظرية تقابلها أحيانا نظرية التدهور فيرى جوزيف دومستير JOSEPH DE MAISTRE أنه انطلاقا من شبه الحضارة حالة نصف حضارية سارت الشعوب في طريقتين مختلفتين فسار بعضها في اتجاه صاعد نحو ثقافة عليا 'وانحدر بعضها الآخر نحو حالة الهمجية وهذه النظرية في الحقيقة تفتقر إلى أساس إذ لا يوجد شعب من الشعوب عاد إلى حالة الهمجية ،وما يمكن أن نسميه (شبه حضارة) يمكن أن يقتصر على عادات إذ يمكن أن تتأثر حضارة راقية بحضارة أدنى أما فيما يتعلق بآثار مجتمع متحضر قديم عند بعض الأقوام المتوحشة يمكن أن ينتسب إلى أجناس أخرى [3] . وإذا أردنا أن نوجز مختلف المفاهيم التي وردت بخصوص مصطلح الحضارة ،فإننا لن نجد أفضل من تعريف الحضارة الذي قدمه جان كازانوفا (Jean Cazanova) في موسوعة أونيفرساليس قائلا: " تستخدم كلمة حضارة بمعان شديدة التنوع وكثيرا ما تكون غير دقيقة بالكامل وبشكل عام ،يمك تصنيف المعاني التي تنسب إلى هذه الكلمة بشكل واضح أو ضمني إلى فئات ثلاثة أولا : اللغة الأكثر شيوعا ،يرتبط مصطلح حضارة بحكم قيمة ويصف بشكل ايجابي المجتمعات التي تستخدم هذه الكلمة لوصفها ،،وهو يفترض بالتالي وفي المقابل وجود شعوب غير متحضرة أو متوحشة ...ثانيا:لحضارة هي مظهر معين من الحياة الاجتماعية .ثمة مظاهر في الحياة الجماعية يمكن تسميتها بالظواهر الحضارية أو تسمى في حال تجسدت ضمن مؤسسات ونتاجات ،أعمالا حضارية ،في حين أن أخرى لا تستحق بالطبع أن تنضم إلى هذه الفئة .وأخيرا تنطبق كلمة حضارة على مجموعة من الشعوب أو المجتمعات .وهكذا إلى جانب الحضارة التي هي درجة عالية من التطور أو مجموعة من السمات المميزة ،ثمة حضارات متنوعة تمتلك هذه السمات وتستقي منها شخصية خاصة تعطيها مكانة محددة

*-ايميل ليتري (1863-1873):ولدفي باريس وضعي المبدأ معروف بتأليف القواميسوخاصة منها القاموس التالي dictionaries de la langue Français .

[1] -la grande Encyclopédie (inventaire raisonné des sciences des lettres et des arts) H.la miaulât et Cie .Editeur .P513.

[2]- ibid. ,p513 .

[3] -la grande Encyclopédie,ibid ,p513 .

في التاريخ أو بين مجموعة من الشعوب في لحظة معينة .فكل هذه المفاهيم مجتمعة تدخل في إطار تحليل الواقع الاجتماعي "[1] ومنه فقد أصبحت كلمة"حضارة " موضوع دراسة معمقة وقد عرفت بطرائق مختلفة حسب نوع التخصص واختلطت مع عدة مفاهيم كما بينا آنفا فمن الصعب ذكر كل التعريفات المتعلقة بالحضارة كونها غزيرة .لذلك سوف نتتبع نشأة المفهوم وتطوره.

ومما لاشك فيه أن الحضارة من أهم مجالات الدراسة التاريخية على اعتبار أن التاريخ يدرس الحضارات ضمن مجالاته ،حتى أن توينبي المؤرخ الإنجليزي قد جعل الحضارة محور الدراسات التاريخية وذلك في موسوعته "دراسة التاريخ " فيترتب على هذا أن الحضارة جزء من التاريخ ،ومن هنا تبدو أهمية التعرف على ماهية التاريخ ،والفائدة من دراسة الوقائع التاريخية بوصفها معبرة عن كيانات حضارية ،فلقد تطورت دراسة التاريخ بعد العصور الوسطى تطورا بعيد المدى حيث أخذ يتحول إلى علم ثابت الأركان والقواعد وله موضوعه ومناهجه بين فروع المعرفة المختلفة ،بعد أن خيمت عليه خيالات الميثولوجيا اليونانية ،وانغلق في عقلية العصور الوسطى ،ولأن التاريخ في حاجة إلى مناهج الفكر الفلسفي ،فقد اتسع مجال فلسفة التاريخ حتى أصبح مصطلحها في الدراسات الحديثة يشير إلى جانبين مختلفين من جوانب دراسة التاريخ :الأول يتعلق بدراسة مناهج البحث في هذا العلم من وجهة نظر فلسفية وهذه الدراسة تتضمن في جملتها الفحص النقدي الدقيق لمنهج المؤرخ 'والفحص النقدي يدخل في مجال النشاط التحليلي في الفلسفة الحديثة ،وأما الجانب الآخر من جوانب دراسة التاريخ في الفلسفة الحديثة ،فإنه يدخل فيما يسمى بالنشاط التركيبي في الفلسفة وفي هذا النشاط يستطيع فيلسوف التاريخ أن يبحث عن أشمل رأي ممكن يفسر معنى الحياة وهدفها ،بحيث تكتمل لديه نظرة شاملة إلى الوجود،أو تتكون لديه صورة كاملة عن الكون والحياة [2] .

يمكن القول بأن الحضارة هي موضوع فلسفة التاريخ وإن الحضارة كموضوع شغلت أذهان المفكرين قبل أن تظهر إلى الوجود الكلمة التي تدل على هذا الموضوع [3]' فلقد تأسست نظريات تتناول مفهوم الحضارة بالتحليل والتفسير في محاولات جادة تحاول كلها بيان القوانين التي تتحكم في حركة التاريخ الإنساني ومن ثمة دراسة الكيانات الحضارية المختلفة كوحدات لدراسة التاريخ ومن أبرز هذه النظريات:نظرية الحضارة عند ألبرت شفيتزر وأزوالد شبنجلر وتوينبي .

1.1.3.1-الحضارة عند ألبرت شفيتزر(1875_1965):" هي التقدم الروحي والمادي للأفراد والجماهير على السواء ،وأول مقوماتها أنها تقلل الأعباء المفروضة على

---

[1] - برتراندبينوش ،**التباسات الحضارة** ، تر :هدى مقنص ،المنظمة العربية للنهضة –بيروت ،ط1،2013.،ص 11-12بتصرف .

[2]- محمد الشرقاوي ،**أدب التاريخ عند العرب** ،دار العودة ،بيروت (دت) ،ص29-30 .وانظر أيضا :سليمان الخطيب ،**مرجع سبق ذكره** ،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،1990 ،ص26-27.

[3]- زينب محمود خضيري ،**فلسفة التاريخ عند ابن خلدون** ،القاهرة ،دار الثقافة 1979،ص69.

الأفراد والجماهير الناشئة عن الكفاح في الوجود ،وإيجاد الظروف المواتية للجميع في الحياة قدر الإمكان مطلب يطلب لنفسه من ناحية ، ومن ناحية أخرى يطلب من أجل كمال الأفراد روحيا وأخلاقيا ،وهو الغاية القصوى من الحياة ،فالحضارة إذن هي جماع كل تقدم حققه الناس كل فرد في مجال عمله ،ومن وجهة نظره ،من حيث كون هذا التقدم يساعد الكمال الروحي للأفراد..فهذا الأخير هو التقدم كل التقدم "[1] ففي هذا التعريف ما يؤكد تلاحم الجانبين الروحي والمادي في معنى الحضارة ،كما أنه قدم الجانب الروحي على الجانب المادي ،فأسبقية الروح على المادة هي ما يؤكد في حضارة البشر إنسانية الإنسان فلا معنى لأي تقدم مادي ما لم يسبقه ويقوده التقدم في المجال الروحي والأخلاقي فالحضارة الإنسانية هي صورة كفاح الإنسان في هذه الحياة ،وهي تمثل أرقى ما وصل إليه الإنسان في تنمية واكتساب القيم الأخلاقية وتمثل أرقى صورة وصل إليها المجتمع الإنساني في التقدم العلمي والفني ،وبدون هذا الكفاح وبدون تجديد الإنسان لإبداعاته في مختلف المجالات تتجمد الحياة الإنسانية ويتوقف النمو الحضاري عند حد معين .ولما كان من المستحيل أن، يتوقف الإنسان عن تطوير حياته وتجديدها لأن هذه فطرة الله في الإنسان فإن الحضارة الإنسانية دائما ما تتجدد وتتطور في جانبيها الروحي والمادي وإن كانت عصور التاريخ الإنساني قد شهدت غلبة جانب على آخر، لكن تبقي الصورة المثلى للحضارة الإنسانية حينما يتلاحم ويتساوق التطور الروحي والأخلاقي مع التطور التقني والمادي. ومن البعد الأخلاقي الروحي للحضارة عند اشفيتزر نحاول أن نتعرف على مفهوم الحضارة عند أزوالد شبنجلر .

2.1.3.1-الحضارة عند أزوالد شبنجلر(1880-1936):يعرفها بقوله :«إن الحضارة هي نفس بلغت التعبير عن ذاتها بأشكال محسوسة ومعقولة ، لكن هذه الأشكال هي حية متفتحة وولود ويوجد رحمها داخل الكينونة المصعدة للأفراد والجماعات ...ليست الحضارات شئ عظيما فقط ،بل إنها بكليتها شئ لا يماثله أي شيء آخر في هذا العالم العضوي ،فهي النقطة الواحدة التي يسمو عندها الإنسان بنفسه فوق قوى الطبيعة ويصبح هو نفسه خالقا »[2]فيرى أن أزمة الحضارة الغربية تكمن في مشكلة المدنية حيث يعتبر المدينة ،الطور الحرج من أطوار الحضارة فيتساءل ماهي المدنية ؟ إنها نتيجة منطقية جوهرية ومفهومة ،وهي تحقق مكتمل ونهاية لمطاف الحضارة ،ذلك لأن لكل حضارة مدنيتها الخاصة ، فالمدينة هي المصير المحتوم للحضارة ،والمدنيات تشكل خواتم لا يمكن أن تصمد أمام تلبيتها أي طموح أو إرادة أو عقل ،ومع ذلك تبلغها الحضارة مرة بعد أخرى مدفوعة بضرورة باطنية "[3]

فالحضارة في جوهرها تعود برأيه إلى الجانب الروحي يقول :"إن حيوية الإنسان الحضاري تتجه مجراها إلى الباطن بينما تتجه حيوية الإنسان المدني إلى الخارج "[4] وفي نقده للمذهب العقلي يرى "أن الدستور الحضاري لا يعتمد على العقل أبدا ،بل انه يعتمد على الوجدان المتمثل في الشعور لا في الحس ،وأن العقلانية في مذاهبها هي

---

[1]- ألبرت شفيتزر،**فلسفة الحضارة** ،تر عبد الرحمان بدوي ،ط2،دار الأندلس ،1980،ص34-35.

[2]-أزوالدشبنجلر،**تدهور الحضارة الغربية** ،تر أحمد الشيباني ،ج2،مكتبة الحياة بيروت ،سنة 1964،ص487.

[3]-المرجع نفسه ،ص87.

[4]- المرجع نفسه ،ص97.

فلسفة مدنية لا حضارية ،لذلك عندما تدخل حضارة الطور العقلاني في تطورها تبلغ خريف عمرها ،وتشيخ وتهوى إلى درك المدينة ثم تتابع انحدارها إلى الانحلال "[1] .
فالحضارة لا الدولة كما ذهب هيغل– هي وحدة الدراسة التاريخية أو الظاهرة الأولية للتاريخ العالمي كلياً ما كان منه وما سيكون 'لأن الحضارة ظاهرة روحية لجماعة من الناس لها تصور واحد عن العالم وتتبلور وحدة تصورهم في مظاهر حضارية من فن ودين وفلسفة وسياسة وعلم ،وتشكل هذه الوحدة شخصية حضارية لها الذاتية المتميزة عن الحضارات الأخرى [2].

3.1.3.1- نظرية الحضارة عند توينبي: (1898-1975): تعد من أهم النظريات في فلسفة التاريخ ،ومن أهم مؤلفاته نذكر موسوعته الضخمة "دراسة التاريخ "الذي حقق أفضل صورة تقريبية للتاريخ الشامل ،وقد اعتمد نهج الدراسة الحضارية المقارنة ،حيث أحصى ما لا يقل عن ست وعشرون حضارة ،وصنف المجتمعات إلى صنفين رئيسين:
ا) الحضارة الأصلية أو الأصيلة: وعرفها بأنها الحضارات التي لم تشتق من حضارة سابقة وعددها ستة،في مقدمتها حضارة وادي الرافدين ،وحضارة وادي النيل.
ب) الحضارة البشرية الأخرى التي أدرجها ضمن الصنف الثاني وأطلق عليها مصطلح "الحضارات المشتقة "أو بالحضارة التي تنتمي بصلة "النبوة " إلى تلك الحضارات الأصلية فلقد قام بهذا التصنيف لاستخراج قواعد ونواميس لتفسير ظهور الحضارات والمجتمعات والعوامل المسيرة لها وعوامل انحلالها وسقوطها.[3] كما يعرف توينبي المدنية "بأنها جزء صغير من الدراسات التاريخية يصل إليها المرء حين يحاول فهم تاريخ بلاده "[4]'كما تبدو نزعة توينبي الدينية واضحة من خلال تفسيره للحضارات ،في أنه يرد الحضارات إلى الأديان ذلك أن الإمبراطوريات في نظره ليس مقياسا للحضارة ،بل العكس إنها تمثل بداية مرحلة انهيار الحضارة ،إذ تلجأ الأقلية المسيطرة إلى التوسع حين تفقد مقومات الإبداع ،وإذا كان هناك مستقبل لحضارة ما فهو للحضارات الخمس "الحضارة المسيحية الغربية " (أوربا وأمريكا) "والحضارة المسيحية الشرقية الأرثوذوكسية "(روسيا ودولة البلقان) "والحضارة الإسلامية " "والحضارة الهندية " "وحضارة الشرق الأقصى ،وذلك في حدود هذه الأديان أو بسبب منها .[5] فتقوم الأديان بدور الأم ،لقد تولدت الحضارات المسيحية الشرقية والغربية عن الحضارة الهيلينية عن طريق العقيدة المسيحية ،كذلك أنجبت الحضارة الصينية حضارة الشرق الأقصى ،وقامت بوذية الماهايانا ،بدور الأم ،وتولدت الحضارة الهندية عن السندية عن طريق العقيدة الهندوكية،أما الحضارة الإيرانية والعربية فهما ابنتا الحضارية السريانية من الإسلام .وليس دور الأديان في أنها تحمل جذور الحضارات القديمة وتحتضنها من أجل

---

[1]- المرجع نفسه ،ص14.
[2]- أحمد محمود صبحي ،**في فلسفة التاريخ** ،مرجع سابق ،ص249.
[3]- أرلوند توينبي ،**مختصر دراسة التاريخ** ،تر فؤاد محمد شبل ،ط1،ج1،القاهرة ،1964،ص21-157بتصرف.
[4]- سليمان الخطيب ،**مرجع سبق ذكره** ،ص34.
[5] -المرجع نفسه ،ص35.

إنجاب حضارات جديدة ،ولكنها تضفي على هذه الأخيرة بعض خصائصها ،ومن ثم تكسبها الحيوية والإبداع . والدين يظهر دوره في تماسك المجتمع والدفع به إلى التطور حين يدين الحاكم بدين رعيته ،إذ في ذلك قوة الدين والدولة معا ،لكن أن يجعل الرعية على دينه هو فذلك ما لم يتم .[1] فلقد توغل توينبي في البحث والتفتيش الأولى عن معرفة البداية للحضارة وتاريخ ظهورها الأول ،لكنه لا يبحث عنها في صفحة الطبيعة وما بها من آثار للإنسان .بل يبحث عنها في عمق الإنسان خالق الحضارة كما قال شبنجلر آنفا إذ يقول في كتابه "البشر وأمهم الأرض ":«إن وعي الإنسان لنفسه أو ميلاد ما يسمى بالضمير يعتبر بداية حضارة الإنسان أو بداية وجوده كمخلوق متميز بنفسه عن سائر الحيوان وقادر على صنع الحضارة ومدرك لبعض القيم الإنسانية »[2].فالحضارة عند توينبي تبدأ في الإنسان مع بداية تحضره ،وتحضر الإنسان يكون قبل أن يحضر محيطه وغيرة .فمن لا يكون متحضرا لا يحضر غيره ،فالحضارة هي بداية تميز الإنسان عن غيره من المخلوقات بما فيهم بنو جنسه من وعي بالنفس وصحوة ضمير وإدراك للقيم ،من هنا تكون بداية الحضارة في نظره.

فالحضارة هي حياة المجتمع المتمثلة في نظمه ومؤسساته وفي مكاسبه وانجازاته وفي القيم والمعاني التي تنطوي هذه الحياة عليها ولولا خوفنا من خطر التشابيه التي قد تجر إلى أخطاء الاستنتاج والحكم لقلنا أن المجتمع هو كالجسد أو كالوعاء وإن الحضارة هي كالروح أو كالمحتوى والمضمون .[3]

2.3.1المفهوم الإسلامي للحضارة :

يقوم هذا المفهوم على المرجعية التي تشكل رؤيته للأمور وحكمه عليها وموقفه من القضايا والمستجدات والمذاهب والأفكار والاتجاهات ،وتفسيره للحوادث والمشكلات وأدوات التعبير عنه كالفنون والآداب وهذه المرجعية هي أساس الخصوصية الحضارية والثقافية التي بدونها تصبح الأمة في مهب ريح القوى المهيمنة في العالم والمتسلطة ويمكن أن نلخص هذه المرجعية في الآتي :

"الإيمان بالله ربا وإلها له صفات الكمال المطلق وليس كمثله شيء وله الحكم المطلق كونا وشرعا ،وله الخلق غيبا وشهادة وهو مستقل عنهم ولم يتركهم هملا وهم إليه راجعون"ومن هنا يمكن لنا إدراك الفرق الكبير بينها وبين المرجعية المادية التي ذكرت في التعريفات والمفاهيم السابقة للحضارة [4]،فلا ننكر بأن العرب والمسلمين اهتموا بالظاهرة الحضارية لاسيما بعد مجيء الإسلام فلقد كف العرب أن يكتفوا بحياة الرجال والانزواء وعدم الدخول في تحدي مع الإمبراطوريات المتمدنة التي استوطنت بعضا من ربوعهم في الجزيرة العربية الأمر الذي جعل الحدث الإسلامي حدثا حضاريا [5] والمتأمل في القرآن يجد مفهوما عن الحضارة بالمعنى الذي يتداول في زماننا الحاضر والنصوص القرآنية التي تداولت قصص الأقوام التي كانت تمثل نسبة من التحضر

---

[1]- أرلوند توينبي ،**مختصر دراسة التاريخ** ،ج4،ص17-18.

[2]- حسين مؤنس ،**الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها** ،ط2،الكويت ،المجلس الوطني للثقافة والفنون للآداب ،1998،ص94.

[3]- قسطنطين زريق ،**في معركة الحضارة** ،دار العلم للملايين، ط4،بيروت ،1981،ص40.

[4]- سعيد بن ناصر الغامدي ،**مرجع سبق ذكره**،ص57.

[5]- إدريس هاني ،**حوار الحضارات**،المركز الثقافي العربي ،ط 02، 2002، ص94.

توضح لنا كيف أن القرآن يصفها بأوصاف عدة أهمها :القوة فالحضارة هي صناعة القوة والمتحضرون هم من أمة قوية ، والحضارة كيان قوي ذو حضور راسخ في العمران وتمكن ضارب في الأرض ومما يجدر إليه هو أن القرآن عادة ما يستعمل عبارة القرن والقرون أو القرية والقرى في حديثه عن هذه الكيانات التي أوتيت أسباب القوة فهو يتحدث عن سمات القرون والقرى الحاضرة بالأوصاف ذاتها ،كما يتحدث عن تمكنها أو هلاكها على نحو يوحي بالترادف ،فالقرى تشير إلى المكان في حين أن القرون تشير إلى الزمان وكأن الحضارة هي رسوخ في المكان ورسوخ في الزمان [1].
قال تعالى في الآية الكريمة : ﴿ **وعاداً وثمودا وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيراً** ﴾ **(الفرقان الآية 38)** فلم يستخدم القرآن الكريم لفظ الحضارة أو مشتقاتها إلا في مورد واحد واصفا القرية قائلا ’قوله تعالى :﴿**واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر**﴾**(الأعراف الآية 163)** وفي قوله تعالى:﴿ **فمن شهد منكم الشهر فليصمه** ﴾ **(البقرة الآية 175)** فورد لفظ الحضارة مرادفا للفظ "شهد" ومعناه "حضر مجيء الشهر وشاهده "[2]
ومنه يمكن القول بأن التعريفات للحضارة في المفهوم الإسلامي تتمحور حول الدين والأخلاق باعتبارهما الركيزة الأولى لإنسان يتجاوز حدود المادة معطياتها ثم تأتي الإنجازات المادية (فالحضارة من حيث الجانبين المادي والمعنوي لا تنقسم وإنما تتكامل فالحركة الحضارية يجب أن تتم داخل إطار الثبات ثبات القيم ثم حركة الوسائل التي تحيل تـــــــلك القيـــــــم إلى برنامج عملي يميـــــــز الحضارة إبان مسيرتها ويَسمـــــــــــها بسمتها الخاصة [3].وبالتالي فإن القيم الإيمانية التي هي من سنن الله في الكون كقوانين الطبيعة ونتائجها مترابطة ومتداخلة وليس هناك في عقل ووجدان المسلم أي فصل بينهما كما ينص على ذلك القرآن كثيرا ويذكر ذلك في قصص الأولين الذين حاذوا عناصر قوة عمرانية وصناعية وإبداعية كبيرة ولكنهم تخلوا عن الركيزة الإيمانية والمقتضيات الأخلاقية فحل بهم الدمار والبوار كما هو حال قوم عاد وثمود وقوم لوط فهذا هو الجوهر وبعد ذلك تأتي الأشكال المعبرة والعناصر الخارجية الاقتصادية ،الاجتماعية ،السياسية والتقنية وهذا ما يعطي للحضارة صيغتها ويرشد مسيرتها ،وإذا كان لكل حضارة هويتها الخاصة التي تنطلق منها وتعبر عنها فإن الدين هو الصفة الحقيقية لحضارة الإسلام والمقوم الأساسي لها.[4] فالحضارة في المفهوم الإسلامي لها معيار أساسي تستند إليه وهو معيار شامل،فإذا كان المتأخر في المجال التقني يوصف بأنه تخلف ’فإن القيم والأخلاق هي أقصى قيمة التقدم ،وهي تثمر التقدم العلمي إذا كان لها فعالية حقيقية في قلوب المؤمنين بها ،وبهذا تكون التقوى والعمل الصالح معيار التقدم والتخلف. قال تعالى :﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ **(الحجرات الآية 13)** وهذا المعيار أو الأصل هو ما يسميه مالك بن نبي الفكرة التي وراء الحدث أي المفهوم الذي تتبعه الممارسة الحضارية المادية يقول: « الحضارة هي إنتاج فكرة حية

---

[1]- إدريس هاني،**المرجع نفسه** ،ص95.
[2]- انظر **تفسير الرازي**، فخر الدين الرازي ، دار الفكر،ج3،بيروت ،1985،ص95.
[3]- سليمان الخطيب ،**فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر،بيروت ط1993،1،ص143.
[4]-سعيد بن ناصر الغامدي ، **مرجع سبق ذكره** ،ص58.

في مرحلة ما قبل التحضر وهي الدفعة التي تجعله يدخل التاريخ فيبني المجتمع نطاقه الفكري طبقا للنموذج المثالي الذي اختاره ،وعلى هذا النحو تتأصل جذوره في محيط ثقافي أصيل يتحكم بدوره في جميع خصائصه التي تميزه عن الثقافات والحضارات الأخرى»[1].ويمكن القول هنا بأن لكل حضارة خصائص وهوية تقوم عليها ولذلك تنوعت الحضارات واختلفت ،وأهم خصائص وهوية حضارة المسلمين :القيم الإيمانية والأخلاقية ،فلما تخلو عنها تردى حالهم ،فبدون هذه الخصائص الجوهرية التي تميزهم عن غيرهم فلن يفلحوا مهما حاولوا اللحاق بغيرهم من الأمم ومنه نقول بأن بداية صعود المجتمع الإسلامي كانت مع خط التقائه مع القوانين الطبيعية في حياته مع القيم الإيمانية،وبدأ خط هبوطه مع نقطة افتراقهما،وظل يهبط كلما انفرجت زاوية الافتراق حتى وصل إلى الحضيض عندما أهمل السنن الطبيعية والقيم الإيمانية جميعا.

وفي الطرف الأخر تقف الحضارة المادية اليوم كالطائر الذي يرف بجناح واحد جبار بينما جناحه الآخر مهيض، فيرتقي في الإبداع المادي بقدر ما يرتكز في المعنى الإنساني ويعاني من القلق والحيرة والأمراض النفسية والعصبية ما يصرخ منه العقلاء هناك ،لولا أنهم لا يهتدون إلى منهج الله وهو وحده العلاج والدواء.[2]وإهمال هذا الجانب الجوهري في الإنسان هو الذي أودى بأمم وحضارات سابقة . أما في الإسلام فإن القرآن والسنة يؤكدان على إيجاد مجتمع حضاري قائم أولا على القيم الأخلاقية والإيمانية لا على النظرة المادية باعتبارها هي القيم العليا التي تهدر في سبيلها خصائص الإنسان ومقوماته ...فحينما تكون القيم الإنسانية والأخلاقية كما هي في ميزان الله هي السائدة في مجتمع،فإن هذا المجتمع يكون متحضرا متقدما.وبالمقابل فأية حضارة أو مجتمع تكون المادة هي القيمة العليا في أية صورة من صورها النظرية أو الإنتاجية فيها ، يكون الناتج في تلك الحضارة وفي ذلك المجتمع في المفهوم الإسلامي وفي التوصيف القرآني بالذات يعتبر متخلفا محدود النظرة ،مأسورا داخل السور المادي ومرهونا بالقوة والتنافس الدنيوي والصراع والاستغلال الذي يحول الإنسان إلى سلعة أو شئ .[3]

لقد أفاض المودودي في بيان الحضارة ومفهومها فقال في هذا الصدد :« يظن الناس أن حضارة أية أمة عبارة عن علومها وآدابها وفنونها الجمالية وصنائعها وبدائعها وأطوارها للحياة المدنية والاجتماعية وأسلوبها للحياة السياسية ،ولكن الحقيقة أنه ليست كل هذه الأمور خاصة بالحضارة ذاتها ،وإنما هي نتائج الحضارة ومظاهرها ،ماهي بأصل الحضارة وإنما هي أوراق شجرة الحضارة وثمارها ،إذا صح هذا فلا يجوز أن تُحدَد وزن حضارة وقدرها وقيمتها على أساس مالها من هذه الصور الظاهرة والملابس العارضة وإنما علينا أن نتوصل إلى روحها ونتحسس أساس أصولها » فما يعبر عنه المودودي بكلمة الحضارة يتكون عنده من العناصر التالية :1-تصور الحياة الدنيا ،2-غاية الحياة ،3-العقائد والأفكار الأساسية ،4-تربية الأفراد ،5- النظام الاجتماعي يقول :"ما من حضارة في الدنيا إلا وقد تكونت من هذه العناصر الخمسة ليس غير [4] .

---

[1]-مالك بن نبي ،**مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي** ،تر عبد العظيم علي ،مكتبة عمار،القاهرة ،1997،ص49.

[2]- سيد قطب ،**في ظلال القرآن** ،دار الشروق، ط7، 1978.ص17.

[3]-سعيد بن ناصر الغامدي ،**مرجع سبق ذكره** ،ص60 .

[4]- أبي الأعلى المودودي ،**الحضارة الإسلامية أسسها ومبادؤها**،دار الخلافة للطباعة والنشر ،(دط)،ص6-9.

فتركيزه على هذه النقاط يبين لنا الفرق الواضح عنده بين الحضارة بالمفهوم الغربي والحضارة بالمفهوم الإسلامي وبطبيعة حال الغلبة فإن الغربيين وكثيرا من أمم الأرض ومنهم المسلمون لا يرون هذا الفارق الكبير المهم وقد لا يصدقون بوجوده إما الجهل بالدين أو لضعف يقين به ، أو لكثافة وقوة تأثير الحاضر الراهن ولقد لخص أحد الغربيين بعض من جوانب الحالة المرضية للإنسان الغربي وحضاراته في حديثه عن اللامنتمي لقوله:« إن حالته هي في الواقع كونه الوحيد الذي يعرف بأنه مريض في حضارة لم تعلم أنها مريضة » وليس هذا الحال خاصا بالوجودي أو اللامنتمي بل يكاد يكون عاما في سلوك إنسان سحقت معنوياته عجلات الحضارة وفي دراسة أخرى يقول: «...كلما تغلغلت في دراسة اللامنتمي شعرت أنه ليس غير عرض من أعراض هذا العصر فأما من حيث الجوهر فهو عاص ،وأما سبب عصيانه فهو انعدام الجانب الروحي في حضارتنا الغنية ماديا ... »[1] ويقول في موضع آخر(إن إنسان الغرب كان ميالا دائما إلى التأكيد على طاقاته العقلية وهذا هو سر تقدمه المادي الهائل ولكنه في الوقت نفسه سر تدهوره'فهو يفقد القوة الروحية المفهوم الحيوي الذي يحتفظ للنوع البشر ببقائه ، وبدون هذا المفهوم الحيوي فإن كلمة التقدم تكون مجرد سخرية بل إنها تشبه سيارة لا وقود فيها) [2] .ومنه يمكن القول بأن تعريف الحضارة ينحو في التركيز على البعدين، الروحي والأخلاقي الذي يشير إلى الحضارة في جانبها المعنوي والثقافي والبعد الثاني هو البعد المادي الذي يمثل طور المدينة ،والمفهوم الإسلامي للحضارة لا يفصل بين القيم العقيدية والإيمانية التي تمثل الجانب الروحي في الحضارة ، وبين الجوانب المادية التي تمثل الحضارة في شقها المدني الذي اصطلح على تسميته باسم المدنية وهو ما يشير إليه مالك بن نبي في تعريفه لمصطلح الحضارة حين يقول :«إن الحضارة يجب أن تحدد من وجهة نظر وظيفية فهي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين ،أن يقدم لكل فرد من أفراده ،في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة ،المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه »[3]وهذا ما يرتضيه الإسلام الذي يدعو إلى حضارة تنمو على المستويات الروحية والأخلاقية والمادية العملية شرط أن تكون خاضعة للقيم الآتية من عند الحق سبحانه وتعالى أي القيم الواردة في النصوص المنزلة قرآنا وسنة .

ومن خلال هذه التعريفات للحضارة وتطور هذا المدلول نعرج إلى مصطلح فلسفة الحضارة باعتبارها موضوع بحثنا لذا وجب الوقوف قليلا عند هذا المصطلح والذي يتناول التساؤلات والإشكاليات التي انبثقت عن الحضارة والتي تندرج ضمن المستوى الأول من مستويات اللغة إضافة إلى المستوى الثاني وهو ما حول الحضارة و ثالثا تاريخ الحضارة والمستوى الرابع وهو ما نحن بصدد البحث فيه وهو :

3.3.1مصطلح فلسفة الحضارة :

إن مصطلح فلسفة الحضارة يتكون من كلمتين "فلسفة " و"الحضارة " و وإذا كان لا يوجد تعريف جامع مانع للفلسفة فإننا نستطيع القول بأن الفلسفة في حقيقتها ليست سوى

---

[1]-كولن ولسن ،**سقوط الحضارة** ،دار الآداب -بيروت ،ط3 ،1972،ص5.

[2]-كولن ولسن ،**سقوط الحضارة**،المرجع السابق ،ص168.

[3]- مالك بن نبي ،**القضايا الكبرى** ،تقديم نور الدين بوكروح ،دار الفكر الجزائر ودار الفكر ، دمشق _سوريا ط1991،1،ص42.

مجموعة الأفكار والآراء النظرية ذات الطابع التأملي المجرد التي تدور حولها المسائل الكبرى التي تواجه العقل الإنساني ،وإذا كان الأمر فيما يتعلق بتعريف الحضارة كما رأينا سابق أقل صعوبة فإننا نستطيع القول على أن الحضارة ليست سوى مجموعة من الإبداعات الفكرية والفنية والتقنية التي يقوم بها قادة الفكر في مجتمع ما .

وطبقا لهذا فإنه يمكن القول بأن فلسفة الحضارة ليست سوى البحث في تعريف الحضارة وأسباب نشأة الحضارات وهل هناك حضارة إنسانية واحدة تتخذ مظاهر مختلفة أم هناك حضارات متعددة لكل منها شخصيته المستقلة كما يتضمن البحث في فلسفة الحضارة ،الحديث عن عوامل تكوين الحضارات والمقومات الأساسية التي لابد من توافرها لكي تقوم الحضارة وتزدهر.[1]

ولذلك فإن البحث في فلسفة الحضارة يقتضي الإشارة إلى أهم النظريات التي وضعها الفلاسفة في هذا الصدد والمذكورة سابقا مثل ابن خلدون واشبنجلر ونظرية التحدي والاستجابة لدى توينبي ...الخ وأيضا تقتضي فلسفة الحضارة طرح القضايا الراهنة مثل حوار الحضارات ونهاية التاريخ والعولمة وصدام الحضارات هذا من جهة ومن جهة أخرى هناك من الباحثين الذين كتبوا في فلسفة الحضارة من يتحدث عن حضارة معينة في إطار نظرية واحدة من نظريات فلسفة الحضارة فيقال مثلا فلسفة الحضارة اليونانية الإسلامية ،الغربية الحديثة ،وهذا لا يعني أن الدراسة الفلسفية تكون لحضارة معينة وفي ضوء نظرية من نظريات فلسفة الحضارة .ومن جهة ثالثة فيمكن الإشارة إلى أنه قد يفهم من مصطلح "فلسفة الحضارة "أنها تعني الإطار الفكري والروحي الذي تسير بمقتضاه الأحداث التي تحدث في حضارة معينة وهذا ما يفهم من قول أحد الباحثين "إن استجلاء المقومات التي تقوم عليها فلسفة حضارة ما تعد من أهم مقتضيات الممارسة الحضارية السليمة ،حيث تحدد هذه المقومات الغايات التي تتجه إليها حياة الأفراد والمجتمعات وتعين الوسائل التي تتخذها هذه الحياة ،وتكيف سائر الاختيارات الواعية وغير الواعية التي تكونها وتميزها عن سواها ،فاستيضاح هذه المقومات ضروري لمن يرغب في فهم مجتمع من المجتمعات ،أو دور من أدوار التاريخ البشري وينبغي النفاذ إليه واكتناه المبادئ والروابط التي تنظم حياته والعوامل التي تحركه ،وهذا الاستجلاء نفسه ضروري لأبناء ذلك المجتمع ودورهم التاريخي ،لأنه يكشف لهم عن غاياتهم ووسائلهم واتجاهاتهم ويمكنهم من تدبرها ،ويعينهم على معرفة ما يتضمنه من قيم مختلفة وفي هذا كله يندرجون في سبيل السلوك الواعي[2] .

ومن هنا يمكن القول بأن فلسفة الحضارة تختلف عن تاريخ الحضارة اختلاف الفلسفة عن التاريخ ،فبينما تاريخ الحضارة وصف وتقرير فإن فلسفة الحضارة تعليل وتفسير وبينما يتعلق تاريخ الحضارة بالتفاصيل والجزئيات فإن فلسفة الحضارة تنحو نحو التعميم والكليات فضلا عن المقارنة بين مختلف الحضارات.[3]

---

[1]-إبراهيم محمد تركي ،**مرجع سبق ذكره** ،ص19

[2]- قسطنطين زريق ، **في معركة الحضارة** ،المرجع السابق ،ص7-11.

[3]-إبراهيم محمد تركي ، **في فلسفة الحضارة قضايا ومناقشات**،المرجع السابق ،ص22.

وإذا ما انتهينا من التعريف بفلسفة الحضارة باعتبارها فرعا مستحدثا من فروع الدراسات التاريخية ،فإننا نستطيع أن نشير إلى ذلك الرأي الذي مؤداه أن الفلسفة لم تتفلسف في الحضارة إلا قليلا.[1]

وفضلا عن ذلك فلقد ظهرت فلسفة الحضارة باعتبارها مبحثا أساسيا من مباحث الفلسفة عندما أثير التساؤل عن التأريخ وهل يكون لأفراد أم لحضارات فهذه المشكلة وإن كانت تخص المؤرخين إلا أن الفلاسفة قد لعبوا الدور الأكبر فيها ،فإن التحول في العصر الحديث من التأريخ لأفراد إلى التأريخ لحضارات قد دعا إليه فلاسفة ،وأصبح التأريخ للحضارات يتخذ موقفا وسطا بين التاريخ والفلسفة .فيما اصطلح على تسميته بفلسفة الحضارة . [2]وهكذا فإننا نستطيع أن نخلص مما سبقت الإشارة إليه إلى القول بأن فلسفة الحضارة تعتبر فرعا مستحدثا من فروع الفلسفة يدور البحث فيه حول بعض المسائل العامة التي تتعلق بالحضارة، هذه المسائل العامة قد تم تعميمها من خلال دراسة الوقائع الجزئية والأحداث الفردية التي تتعلق بالحضارات المختلفة ،والتي يهتم بها المؤرخون من دون الفلاسفة ،إذ أنه نادرا ما يظهر من يجمع بين التأريخ للحضارات والتفلسف فيها على نحو ما ظهر لدى ابن خلدون .[3] وما يمكن قوله فإن فلسفة الحضارة ليست تاريخا للحضارات ولا فلسفة للتاريخ كما قد يتبادر إلى ذهن البعض كونهما حقلان معرفيان قريبان منها ،فتاريخ الحضارات يعنى بتقديم وقائع تاريخية لحضارات غابرة ويعرف بما تركته من آثار مادية ومعنوية ،فيعمل المؤرخ وفق منهج تاريخ معين متطرقا إلى عدد من الحضارات المختلفة زمانا ومكانا دون الغوص في أسباب انهيارها أو قيامها من جديد باختصار يمكن القول أن تاريخ الحضارات يقدم لنا "خريطة بارزة للحضارة رسمت فيها الطرق التي سلكها الناس أو ابتدعوها ،واقتادتنا خلال السهول والتلال التي يتألف منها مجرى التاريخ منذ عصر النهضة حتى القرن العشرين .[4] أما فلسفة التاريخ فتقوم على اختزال "العلل الجزئية للوقائع الفردية إلى علة واحدة ثم يفسر في ضوئها التاريخ العالمي "[5] أي أن فلسفة التاريخ تنطلق من عملية تنازلية بإخضاع التاريخ لفكرة مسبقة لدى فيلسوف التاريخ فيجعل كل الأحداث التاريخية تتماشى مع فكرته الفلسفية حول تلك الواقعة التاريخية .

في حين أن فلسفة الحضارة لا تقتصر على مجرد سرد للوقائع بل تسعى إلى تعليلها وتفسيرها للوصول إلى أحكام وقوانين عامة من أجل استشراف مستقبل أفضل ومنه قد تكون أشبه بعلم أصول الفقه الذي يضع القواعد الكلية التي يحتكم إليها الفقهاء عند التعرض للفتوى في المسائل الجزئية .[6] ويرى اشفيتزر أن فلسفة الحضارة هي التي تقود الأفكار وترشدنا ...وتهتم بالمسائل التي تتبدى للإنسانية في كل فترة وتحمل فكر

---

[1]- ألبرت شفيتزر ،**مرجع سبق ذكره** ،ص19.

[2]- أحمد محمود صبحي ،**في فلسفة التاريخ** ،مرجع سابق ،ص8.

[3]- إبراهيم محمد تركي،مرجع سبق ذكره ص24.

[4]- البرت شفيتزر ،مرجع سابق ،ص 11-12.

[5]- علاقة الفلسفة بالحضارة والتاريخhttp://filosofia-nabilmeciad.eklablog.com/تاريخ التصفح 10/02/26،2022سا و30د.

[6]- علاقة الفلسفة بالحضارة والتاريخ ،الموقع نفسه .

الإنسان على إدامة النظر فيها مما يولد نوعا من الفلسفة الشعبية الحية التي تهيمن على التفكير العام وتحافظ على الحماسة للحضارة .[1]
وبالتالي فإن فلسفة الحضارة مهمة جدا وضرورية للشعوب المقهورة لأنها تمنحهم مفاتيح الإبداع الحضاري والتغير للأحسن للخروج من أزمتهم الحضارية ،وهو الأمر الذي أرق الفلاسفة ومنهم بديع الزمان سعيد النورسي ومالك بن نبي اللذان أولى اهتماما منقطع النظير بفلسفة الحضارة وهو ما سنعالجه في موضوع بحثنا من خلال تحليلهما ونقدهما لأهم المسائل الحضارية.

[1]-البرت شفيتزر ،المرجع السابق ،ص13.

الفصل الثاني :فلسفة الحضارة عند النورسي

0.2.تمهيد الفصل:

يمكن القول بأن النورسي عليه رحمة الله قام بتعريف مفهوم (الحضارة) تعريفا جامعا شاملا مما جعله يستوعب المفهوم ويعالجه بحكمة وعمق شديدين،يركز فيه على الجوانب الوظيفية،التي يستجلب بها ما ينفع الأسرة الإنسانية من الجوانب الإيجابية النافعة من التجربة البشرية عموما والتجربة الحضارية الغربية على الخصوص منبها في الوقت نفسه إلى الحضارة الحقة ، والحقيقة بالعناية يستفاد هذا المعنى من قوله:"إن قصدنا من المدنية هو محاسنها وجوانبها النافعة للبشرية"[1]وقال في موضع آخر:"تسعى المدنية الحقيقية لترقية النوع الإنساني وتدفعه إلى التكامل، وتخرج ماهيته النوعية من القوة إلى الفعل ، لذا فإن طلب المدينة والسعي لها انطلاقا من هذه الزاوية يعد سعيا نحو الإنسانية "[2] فيتضح بأن مفهوم المدينة والحضارة لديه رحمه الله، إنما يقاس بما يقدمه من منفعة للبشرية والإنسانية عامة، والسعي نحو إسعادها سعادة حقيقية من جميع الجوانب وبذلك جعل النورسي ترقية الجوانب الإنسانية والتكامل بين مكوناتها المادية والمعنوية ركنا أساسيا في تقويم الحضارة والمدنية لهذا تقاس الحضارة بما تقدمه للأسرة الإنسانية من جهة رفع إنسانية الفرد والمجتمعات، فحلل هذا بصورة موضوعية وعلمية يجب أن يعتنى بها من لدن المهتمين بالدراسات العلمية خاصة المتخصصة عن الحضارة الإسلامية.

فعند الغوص في الجوانب الحضارية في فكر النورسي* تتداخل قضايا كثيرة من فكره، فعاش هموم أمته،محللا أسباب تخلفها 'باحثا عن أسباب نهضتها، يقرأ بعمق كتاب الله المسطور "القرآن"ويتأمله متدبرا ليصل إلى ما يقوده لعلاج الحاضر وبناء المستقبل وبذلك سوف يكون من الصعب الإلمام بكل الجوانب لذا سنعالج بعض القضايا الدالة على منهجه يسير الوعي بها إلى خيرات كثيرة في فقه التاريخ والحضارة من منظوره القرآني الكوني المتناغم والمتكامل.

كما لا يمكن الخوض في نظر النورسي في قضية من القضايا مهما كانت طبيعتها،إلا بعد أن يحدد مفهومها في نظره وتفكيره بدقة ووضوح ،ذلك أن وعيه رحمه الله بأهمية تحديد المفاهيم والمصطلحات في عرض القضايا المختلفة ومعالجتها بعمق قبل إبداء الرأي فيها،جعله يولي دقة للتعريف وضبط المفهوم اهتمام بالغا فما هو مفهوم الحضارة عند بديع الزمان؟

---

[1] -النورسي ،**صيقل الإسلام** ، /الخطبة الشامية ،ص 500-501.

[2] - **المصدر نفسه** ،ص462.

*-ولد سعيد النورسي سنة 1877 في قرية نورس التابعة لولاية بتليس الواقعة في شرق الاناضول بكردستان تركيا من أبوين كرديين والده ميرزا بن علي ووالدته نوريه بنت ملا طاهر وكان مضرب المثل والتقوى والورع من أشهر مؤلفاته رسائل النور منها المكتوبات، اللمعات، الكلمات ,صيقل الإسلام، الشعاعات ,الملاحق في فقه دعوة النور.....توفي سنة 1960ودفن في مدينة أورفة.انظر كليات رسائل النور :**سيرة ذاتية** , تر إحسان قاسم الصالحي، ص35_40.

1.2الرؤية النورسية لبعض القضايا الحضارية الشائكة.

1.1.2مفهوم الحضارة عند النورسي :

سوف نلقي الضوء على الأسس التي تقوم عليها المدنية الحاضرة وذلك من خلال التحليل العلمي الدقيق،والتصوير الرائع الذي توصل إليه رجل القدر في حياة الأمة النورسي رحمه الله في عدد من كتبه وكتاباته ورسائله .فلئن وصف الواصفون المدنية الحاضرة بمختلف الأوصاف ،وقدم المحللون قديما وحديثا صنوفا متعددة من التحليل والتصوير للمدنية الحاضرة ،وهذا ما ذكرناه آنفا، فإن نظرة متمعنة للتحليل النوري لمرتكزات تلك المدنيّة تكاد أن تكون فريدة من نوعها وغير مسبوق إليها، ذلك لأن تحليله أوفى على كل ما يجب توفره في الطروحات العلمية الأصيلة النادرة من موضوعية في الطرح ،وسداد في المنهجية وتجرد في النقد وواقعية وشمولية في المحتوى والمضمون فضلا عن أن ما جاد به يعد أوفى تحليل وأدقها لأسس المدنية الحاضرة فالمتأمل في رسائله سوف يجد أنه تمكن من كشف النقاب عن حقيقة تلك المدنية وأهدافها ومثلها ،وغاياتها ووسائلها وهذا ما سنتطرق إليه من خلال هذا العنصر بتسليط الضوء على المنظور النوري لمرتكزات المدنية الحاضرة بصورة علمية منهجية كما سنوضح مرتكزات المدنية الإسلامية من المنظور النوري .

أ) مرتكزات المدنية الحاضرة عند النورسي :

أولا :تعريف بالمدنية الحاضرة والمدنية الإسلامية[1] :

قديما عني ابن خلدون بتقديم تعريف للمدنية التي كان يعبر عنها بالحضارة كما نجد ويل ديورانت يعرفها في كتابه قصة الحضارة بأنها عبارة عن «نظام اجتماع يساعد الإنسان على التطور في إنتاجه الثقافي،وتتألف من عناصر أربعة :الموارد الاقتصادية والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية،ومتابعة العلوم والفنون، فإذا ما أمن الإنسان من الخوف،تحررت فيه حوافز التطلع ،وعوامل الإبداع والإنشاء وبعدئذ،لا تنفك الدوافع الطبيعية تستحثه للسير في مسلكه لفهم الشؤون الحياتية وتطورها»[2] كما نجد الكثير من الباحثين أفاضوا في تعريفهم للمدنية نذكر منهم شهبندر فقد عني في كتابه القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي بتعريف المدنية بأنها «حالة من الثقافة الاجتماعية تمتاز بارتقاء نسبي في الفنون والعلوم وتدبير الملك،حيث جرت عادة الكتاب المتأخرين أنهم إذا أطلقوا كلمة المدنية أرادوا بها المدنية الحاضرة في مقابل الهمجية التي كانوا عليها البشر في الأزمنة الخالية،أو التي لا تزال بعض الأقوام المنحطة تعيش في كنفها ».[3] ولئن كانت هذه التعريفات للمدنية الحاضرة بشكل أو بآخر،فإن ثمة

---

[1]- يفضل عدد من الباحثين في الفكر الحضاري استخدام مصطلح الحضارة على مصطلح المدنية ،غير أننا فضلنا استخدام مصطلح المدنية على الحضارة باعتبار أن النورسي آثر مصطلح المدنية ولذلك فإننا سنتجاوز استخدام مصطلح الحضارة ...مع إيماننا بكون المصطلحين مترادفين نوعا ما مع وجود بعض الفوارق غير ذات بال بينهما عند بعض المعاصرين انظر كتاب :نصر محمد عارف ،**الحضارة** ،**الثقافة** ،**المدنية** :دراسة في سيرة المصطلح ودلالة المفهوم ،واشنطن ،المعهد العالمي للفكر الإسلامي ،ط1994،1.

[2]- ول ديورانت ،**قصة الحضارة** ،تر زكي نجيب محمود،(القاهرة ،لجنة التأليف والنشر ،ط1956،2)، ص3.

[3]- عبد الرحمان شهبندر، **القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي**،القاهرة ،مطبعة المقتطف ،1963،ص35.

باحثين معاصرين حاولوا تقديم تعريفا للمدنية الإسلامية تمييزا لها عن المدنية الحاضرة منهم نصر عارف في كتابه "الحضارة،الثقافة،المدنية " وقال ما نصه: الحضارة - أي المدنية الإسلامية – هي الحضور والشهادة بجميع معانيها التي ينتج عليها نموذج إنساني يستبطن قيم التوحيد والربوبية ،وينطلق منها كعبد غيبيّ ،يتعلق بوحدانية خالق هذا الكون وواضع نواميسه وسننه ،والمتحكم في تسييره ،ومن ثم فإن دور الإنسان ورسالته تحقيق الخلافة عن خالق هذا الكون في تعمير أرضه ،وتحسينها وتزجية معاش الناس فيها ،وتحقيق تمام التمكين عليها ، والانتفاع بخيراتها ،وحسن التعامل مع المسخرات في الكون وبناء علاقة سلام معها ،لأنها مخلوقات تسبح بحمد الله ،أو رزق لابد من حفظه وصيانته وكذلك إقامة علاقة مع بني الإنسان في كل مكان على ظهر الأرض أساسها الأخوة والألفة،وحب الخير والدعوة إلى سعادة الدنيا والآخرة .."[1]وثمة محاولات وتعريفات عديدة للمدنية الإسلامية، وقبلها للمدنية الحاضرة بيد أن المقام لا يتسع لسردها وما أوردناه يكفي لإعطاء تصور عام عن مفهوم المصطلحين في الكتابات الحديثة والقديمة، ومنه نلاحظ بأن هذه التعريفات خلت من الإشارة إلى الأسس التي تقوم عليها المدنية الحاضرة ،ولم تشر إلى مرتكزات هذه المدنية واكتفت بذكر محاسنها وكونها مخالفة للحياة الهمجية الغالبة على ساكني البوادي والقفار، وأما تعريف المدنية الإسلامية التي ذكرها الدكتور نصر ،فإنه تطرق إلى عدة قضايا يمكن اعتبارها أهم مرتكزات للمدنية الإسلامية ،لكن شرحه المفصل أخرج التعريف من أن يكون تعريفا علميا إلى كونه تصورا عاما عن المدنية الإسلامية وغايتها والأساس الذي تقوم عليه وبذلك يمكننا القول بأننا لم نحظ بالوقوف على تحديد علمي دقيق لكلتا المدنيتين في كتابات النورسي ، ولكن ذلك لا يعني أن رسائله وكتبه خلت من التعرض لأهم الموضوعات التي يمكن أن يتشكل منها تعريف دقيق لكلتا المدنيتين ،بل إن تأملا فيها أورده الإمام من تحليل لمرتكزات كلتا المدنيّتي ،يمكن تشكيل تعريف لهما بصورة دقيقة بل إن نظرة متفحصة في أسس المدنية الحاضرة التي ذكرها الإمام النورسي تمكننا من إعادة صياغة سائر التعريفات والتصورات التي تحدث عنها الأقدمون والمعاصرون عن المدنية الحاضرة ،كما أن تأملا دقيقا في مرتكزات المدنية الإسلامية التي أصّل فيها القول كفيل بأن يقف الأمر على حقيقة هذه المدنية وغايتها ودستورها.

ثانيا : مرتكزات المدنية الحاضرة وأسسها من المنظور النوري .

يمكن لنا القول بأن الأساسات الأهم التي تقوم عليها المدنية الحاضرة من المنظور النوري تتلخص في خمسة وهي :**القوة** بوصفها ركيزة الحياة الاجتماعية للأمم التي تعتنق هذه المدنية في العصر الراهن ،فإن هذا الأساس كان ولا يزال أهم مظهر واقعي واضح للمدنية الحاضرة التي تؤمن بأن منطق القوة يجب أن يكون حاضرا ،كما تؤمن

[1]-نصر محمد عارف ،**الحضارة ،الثقافة ،المدنية :دراسة في سيرة المصطلح ودلالة المفهوم** ،واشنطن ،المعهد العالمي للفكر الإسلامي ،ط1، 1994،ص59.

بأنه يجب التلويح باستخدام القوة في حالة وجود معارضة لمقرراتها ومبادئها ومناهجها في الفكر والاجتماع والسياسة والاقتصاد.

و**النفعية** بوصفها الهدف الأعظم للمدنية ويقوم هذا الأساس على تقديم المنفعة والمصلحة على كل شيء ،فلا عجب أن تتبدل مبادئها وتوجهاتها وعلاقاتها بتبدل المصالح وتغيرها ،بل لا عجب أن يتحول صديق اليوم إلى عدو الغد ،وعدو الغد إلى صديق حميم بمجرد تغير المصالح وتبدلها ،وبذلك فإن الحفاظ على المصالح والمنافع هو الذي يدفع بهذه المدنية إلى إثارة البغضاء والكراهية بين الأغنياء والفقراء وتعميق مشاعر الحقد والحسد والشحناء بين مختلف الطبقات ،ولا تزال حماية المصالح والمنافع أهم محور يعتمد عليه في معرفة الصديق و العدو في المدنية الحاضرة يقول الجابري في كتابه قضايا في الفكر المعاصر:"..الغرب(يقصد المدنية الحاضرة) مصالح،ولاشيء غير المصالح .وكل حوار معه، أو تفكير ضده لا ينطلق من المعادلة التالية (الغرب =المصالح)إنما هو انزلاق وسقوط في شباك الخطاب التمويهي السائد في الغرب والهادف إلى صرف الأنظار عن "المصالح" وتوجيهها إلى الانشغال بما يخفيها ،ويقوم مقامها في تعبئة الرأي العام مثل "الحضارة " و"الثقافة" "والدين" ..."[1] وثالثا :**الصراع** بوصفه الدستور الذي يحرك المدنية الحاضرة وهذا يكون نتيجة حتمية للأساسين السابقين ،ذلك أن القوة تغري صاحبها في الاعتداء فالاصطدام مع الآخر،كما أن الحرص التام على المنفعة وتقديمها على التكامل والتعاون ،يقود إلى محاربة سائر الأمم والحضارات والشعوب التي تعترض سبيل المدنية ،وتقف عثرة في طريق مصالحها ومنافعها أما عن الأساس الرابع وهو **العنصرية** باعتبارها المحور الذي يستند إليه في توجيه العلاقات والروابط ويشكل أحد أهم الأسس والمنطلقات التي تقوم عليها المدنية الحاضرة وعليه نلاحظ بأن العالم عاش ولازال يعيش مزيدا من الصراع الطبقي ،وفي هذا يقول النورسي :"...إنه بسبب التعصب العنصري والأنانية التي نشأت في هذا العصر العاصف من المدنية الغادرة والدكتاتورية العسكرية التي أعقبت الحرب العالمية، وما أفرزته الضلالة من القسوة وعدم الرحمة ،ساد أشد أنواع الظلم ،وأشد أنواع الاستبداد..."[2]وأما **الأساس الخامس فهو تشجيع الرذيلة**

فهذه هي أهم الأبعاد التي اشتمل عليها الطرح النوري لمرتكزات المدنية الحاضرة، مما جعل طرحه طرحا علميا ثريا في مبناه وغنيا في محتوياته ،وفذا في أبعاده وغاياته وفريدا في منهجيته،وعميقا في مضامينه وبما أن الحديث عن مرتكزات المدنية الحاضرة في منظور النورسي لا يمكن أن يكون متكاملا ما لم يتم كشف الغطاء عن مرتكزات المدنية الإسلامية من منظوره لذلك لابد أن ننوه إلى مرتكزات الحضارة الإسلامية كما يعبر عنها الباحثين المعاصرين بإيجاز .

ب) مرتكزات المدنية الإسلامية وأسسها عند النورسي :

أولا:**مرتكزات المدنية الإسلامية من المنظور النوري :**

[1]-الجابري ،**قضايا في الفكر المعاصر** ،بيروت ،مركز دراسات المستقبل العربي ،ط1997،1،ص128.

[2] - بديع الزمان النورسي ،**الشعاعات** ،تر إحسان قاسم الصالحي ،اسطنبول ،دار سوزلر ، ط1992،1،ص346.

لئن أوسع الإمام النورسي أسس المدنية الحاضرة جانب التأصيل والتحقيق بصورة علمية ومنهجية وواقعية فذة ،فإننا نحرص بأن نعقب تحليل تلك الأسس بعرض وتحليل مرتكزات المدنية الإسلامية ، فلقد تعرض النورسي رحمه الله إلى أهم الأسس التي تقوم عليها المدنية الإسلامية فنجده في كتابه الكلمات ذكر أهم هذه الأسس بقوله : «...إنه لا ميزان في الأرض غير ميزان الشريعة، إنها رحمة مهداة نزلت من سماء القرآن العظيم ...أما أسس مدنية القرآن، فهي إيجابية تدور سعادتها على خمسة أسس إيجابية، نقطة استنادها: **الحق بدل القوة**، ومن شأن الحق دائما العدالة والتوازن، ومن هذا ينشأ السلام ويزول الشقاء،وهدفا الفضيلة بدل المنفعة ،وشأن الفضيلة:المحبة والتقارب، ومن هذا تنشأ السعادة،وتزول العداوة، دستورها في الحياة :التعاون بدل الخصام والقتال وشأن هذا الدستور: الاتحاد والتساند اللذان تحيا بهما الجماعات، وخدمتها للمجتمع :بالهدى بدل الأهواء والنوازع ،وشأن الهدى :الارتقاء بالإنسان ورفاهه إلى ما يليق به مع تنوير الروح ،ومدَّها بما يلزم،رابطتها بين المجموعات البشرية:رابطة الدين والانتساب الوطني وشأن هذه الرابطة:أخوة خالصة،وطرد العنصرية،والقومية السلبية، وبهذه المدنية يعم السلام الشامل، إذ هو موقف الدفاع ضد أي عدوان خارجي...»[1]. أما كتاب المكتوبات فلقد أوجز فيه الإمام هذه الأسس بصورة مركزة، فقال ما:نصه «...أما المدنية التي تتضمنها الشريعة الأحمدية وتأمر بها :فإن، نقطة استنادها:الحق بدلا من القوة،والحق من شأنه :العدالة والتوازن وهدفها:الفضيلة بدلا من المنفعة ،والفضيلة من شأنها:المودة والتجاذب، من جهة الوحدة فيها : الرابطة الدينية، والوطنية،بدلا من العنصرية والقومية ،وهذه الرابطة من شأنها:الأخوة المخلصة،والمسألة الجادة، والدفاع حال الاعتداء الخارجي فقط، دستورها في الحياة :التعاون بدلا من الصراع والجدال ،والتعاون من شأنه : الاتحاد والتساند، وتستند إلى الهدى بدلا من الهوى،فالهدى من شأنه :رفع الإنسان روحيا إلى مراقي الكمالات ..."[2] هذه أهم النصوص التي أودعها النورسي وهي تمثل الحديث عن أسس المدنية التي تدعو إليها الشريعة الإسلامية فلا يمكن لنا الاكتفاء بنقد أسس المدنية الحاضرة دون تقديم البديل لها ،فلا يعدو أن يكون هدما لا من أجل البناء ،وإنما من أجل العبث لذا سوف نلقي الضوء على أهم الأسس التي تقوم عليها المدنية التي يباركها القرآن الكريم من المنظور النوري ،فلم يكتف النورسي بالإشارة إلى تلك الأسس وإنما أصل القول في آثار تلك الأسس على المدنية هدفا ودستورا وغاية ومنهجا وركيزة.

ثانيا :أسس المدنية الإسلامية من المنظور النوري :

1. **الأساس الأول**:"**الحق** و **الثاني**:وهو حراسة الفضيلة وحمايتها ضد النفعية و المصلحية و**الثالث:**وهو الرابطة الدينية والوطنية والمهنية ،فإنه يشكل ركنا أساسيا في بقاء المدنيات ودوامها واستمرارها ،ذلك أن المدنية التي تقوم على العنصرية والتعصب ،مآلها الزوال والاندثار لأنها تتناقض مع السنة الكونية المتمثلة في جعل الناس لحمة واحدة وليتعارفوا ويتكاملوا مصداقا لقوله تعالى :" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ

[1]- النورسي ،**الكلمات**، مصدر سبق ذكره ، ص 855-856.
[2]- النورسي، المكتوبات ، مصدر سبق ذكره ، ص607.

وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"[1] كما أنها تناهض الإرادة الإلهية فجعل الله من آياته اختلاف الألسنة والألوان مصداقا لقوله جل وعلا :" وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ"[2]وانطلاقا من هذه الإرادة الإلهية الخالدة، فإن المدنية الإسلامية تقر بالروابط الدينية كما تحافظ على الروابط المهينة ،والروابط الوطنية ، أما **الأساس الرابع** : فهو تقديم التعاون والتساند على الصراع والجدال والخصام ،فذا الأساس سمة أساسية لعقيدة الإسلام ، وأما **الأساس الخامس** فهو جعل الهدى نبراسا يهتدى به في ظلمات الحياة ،ويلاذ به أمام جميع مغريات الدنيا ومتاعها الفانية ،فهذا الأساس يمثل في حقيقته سياجا ضروريا وحصنا حصينا لكافة الأسس التي تقوم عليها المدنية الإسلامية.

فنلاحظ بأن كلمة **"مدنية "** من الكلمات المستحدثة التي لا وجود لها في المعاجم القديمة فهي من المبتكرات الجديدة ويقال في هذا الصدد :التمدن الإسلامي ،والمدنية الإسلامية ،وهكذا نطلقها على معنى الحضارة ،ونجعلهما مترادفين وهذا الإطلاق يتفق مع المدلول اللغوي للكلمة لأن "المدنية "نسبة إلى المدينة في الأصل مع انه قد شاع في مصطلحات علم الاجتماع "الإنسان مدني بالطبع "أي نزاع إلى الاجتماع ،والاختلاط ببني جنسه "[3] ورغم مرادفة كلمة المدنية لمعنى الحضارة في اللغة العربية الحديثة فإن الأرجح أنها مستمدة من الكلمة الإفرنجية (civilization) ومعناها الجانب المادي والمظهري في الحياة وهذا ما يظهر لنا من خلال مفهوم المدنية عند النورسي الذي نجده في رسائل النور ولكنه يذكر بجانبه السلبي لمذموم خاصة في مقارنته بين المدنية الغربية والإسلامية وتفنيده ومقارنته لأسس كل منهما كما سبق وأن ذكرنا. وعليه يمكن القول بأن بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله قام بتعريف مفهوم المدنية (الحضارة) تعريفا جامعا شاملا مما جعله يستوعب المفهوم ويعالجه بحكمة وعمق شديدين،يركز فيه على الجوانب الوظيفية ،التي يستجلب بها ما ينفع الأسرة الإنسانية من المناحي الإيجابية النافعة من التجربة البشرية عموما والتجربة الحضارية الغربية على الخصوص ، منبها في الوقت نفسه إلى الحضارة الحقة ، والحقيقة بالعناية يستفاد هذا المعنى من قوله :" إن قصدنا من المدنية هو محاسنها وجوانبها النافعة للبشرية "[4] وقال في موضع آخر:" تسعى المدنية الحقيقية لترقية النوع الإنساني وتدفعه إلى التكامل، وتخرج ماهيته النوعية من القوة إلى الفعل ، لذا فإن طلب المدينة والسعي لها انطلاقا من هذه الزاوية يعد سعيا نحو الإنسانية "[5] فيتضح بأن مفهوم المدينة والحضارة لديه رحمه الله، إنما يقاس بما يقدمه من منفعة للبشرية والإنسانية عامة ، والسعي نحو إسعادها سعادة حقيقية من جميع الجوانب وبذلك جعل النورسي ترقية الجوانب الإنسانية والتكامل بين مكوناتها المادية والمعنوية ركنا أساسيا في تقويم الحضارة والمدنية لهذا

---

[1]- **سورة الحجرات** ،الآية 13.

[2]- **سورة الروم** ،الآية 22.

[3] -على الرغم من عدم وجود تعريف علمي دقيق للحضارة في رسائل النور ،فإن المتأمل فيما أورده النورسي من تحليل لمرتكزات المدنية الإسلامية والغربية يمكن أن يشكل صورة دقيقة لتعريف كلا منهما وإذا كان التوسع في التفاصيل للأسس والغايات يخرجهم من دائرة التعريف المنهجي كمصطلح .

[4]- النورسي ،**صيقل الإسلام /الخطبة الشامية** ص500-501.

[5]-المصدر نفسه ،**المحكمة العسكرية العرفية** ،ص462.مم

تقاس الحضارة بما تقدمه للأسرة الإنسانية من جهة رفع إنسانية الفرد والمجتمعات، فحلل هذا بصورة موضوعية وعلمية يجب أن يعتني بها من لدن المهتمين بالدراسات العلمية خاصة المتخصصة عن الحضارة الإسلامية، وبما أن الإنسان هو جوهر العملية الحضارية فلقد أولى النورسي اهتمام كبير به خاصة وأنه العنصر الديناميكي والفاعل لتحقيق الغاية المنشودة فما هو دور الإنسان في صناعة الحضارة ؟وهذا ما سنتناوله في العنصر الثاني.

2.1.2دور الإنسان في صناعة الحضارة :

إن اختلاف علماء اللغة في اشتقاقهم لكلمة الإنسان بالنظر إليه باعتباره حيوان مدني بالطبع ،أو مخلوق اجتماعي مستعد للفكر والتأمل،والعمل والإنتاج فسيكون بذلك الإنسان هو المخلوق المدني بالطبع،الاجتماعي بالميول، المسؤول عن البناء والتشييد ،والمتعاون مع الآخرين من أجل سعادته وسعادتهم[1] فتعاون الإنسان مع الآخرين ،وتقديم العون لهم يساعد في دفع عجلة الحضارة ويقوي من بنيانها ،فقد اعتبر الإسلام أن من مقتضيات الإيمان حب الخير للآخرين ، وذلك من أجل القضاء على الأنانية وحب الذات وفي ذلك من المعاني السيئة التي تساهم في تقويض أي بناء حضاري من أساسه، لقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم :"لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[2]فلقد ذكر الدكتور عادل العوا في كتابه (الإنسان ذلك المعلوم) بـــأن :" البحث في مضمون الإنسان قد يشتمل على وجهتي نظر :سكونية تتصل بما نسميه بنية الإنسان والإنسان في الفكر العربي جسد وروح ،وحركية تتصل بما نسميه حياة الإنسان أو صيرورته من الولادة فالنمو فالموت "[3] فالإنسان هو ذلك الكائن الحي الذي خلقه الله تعالى في أحسن تقويم ،وصوره فأحسن صورته، وكرمه على كثير من المخلوقات ،وسخر له ما في البر والبحر والشمس والقمر والجبال قال تعالى) وقال عز وجل :﴿الله الذي جعل لكم الأرض قرارا َوالسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾[4] وقوله : ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾[5]فالله الذي خلق الإنسان،كرمه بالعقل والتمييز والفهم الذي جعله سيدا على سائر الخلق وتفضيله به إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف ، وبه يعرف الله ،ويفهم كلامه ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله هذا من جهة ومن جهة أخرى فالتكريم كذلك يكون بخلقه في أحسن حالات التعديل والتهذيب ،وجودة التفكير ،وحسن البيان وقوة الإرادة ،وغير ذلك من الصفات المحمودة التي جعلها الله في النفس البشرية، ويرى النورسي في خلق الإنسان قمة الإعجاز الذي شاء الله أن تتجسد قدرته وعظمته من خلاله ’إذ الإنسان هو جوهر الوجود وكل ما أبدعه الله من الأكوان والنعم والأفضال أنما هي مسخرة لفائدته ولتكريمه وباعتباره المرآة العاكسة وله وظيفة

---

[1]- حسن رمضان فحلة، **مقومات الحضارة الإنسانية في الإسلام**، دار الهدى، الجزائر، ط1، 1989، ص18.

[2]- سليمان الخطيب ،**أسس مفهوم الحضارة في الإسلام** ، مرجع سبق ذكره ، ص 126.

[3]-عادل العوا، **الإنسان ذلك المعلوم**،ط 2، منشورات عويدات، بيروت باريس، 1982م، ص26-27.

[4] -سورة غافر -أية 64

[5] - سورة الإسراء -أية 70

فاعلية حضارية، ويقول رحمه الله: «إن الإنسان هو الثمرة النهائية لشجرة الخلقة ومن المعلوم أن الثمرة هي أبعد أجزاء الشجرة وأجمعها وألطفها 'لذا فالإنسان ثمرة العالم 'وأجمع وأبدع مصنوعات القدرة الإلهية وأكثرها عجزا وضعفا ولطفا، بل إن الإنسان –كما يراه الأستاذ النورسي -هو فهرس للكون العظيم ونسخة شاملة لكل ما في الوجود من خواص حتى يشعره الحق سبحانه وتعالى كل أسمائه الحسنى المتجلية بمكنون ابداع ما في نفس الإنسان من مزايا مودعة جامعة». فوجوده الحقيقي ليس إلا في تأديته إلى ما يدل عليه من المعاني ويرمز إليه من الأبعاد وبذلك فإن حديث الإسلام عن الإنسان يبرزه مخلوقا مكرما مؤهلا لصناعة الحضارة ويدعوه إلى أن يلتفت إلى مؤهلاته ووظيفته كي يبني الحضارة فالإنسان طراز خاص بين المخلوقات استخلفه الله في الأرض وبذلك فنجد عدة آيات تحيل الإنسان إلى العقل قال تعالى"أفلا تعقلون" فالقرآن يحوي أمورا متنوعة في مساحة واسعة وفيه مطلوب كل قاصد فلا غناء عنه في حل كل معضلة وتلبية كل حاجة ولقد وهب الله تعالى له العقل ليستقيم له تحصيل هذه الغاية فالإنسان قبل أن يسري ماء القرآن في عروقه وكيانه يكون ميتا بصريح القرآن "فيا أيها الإنسان الذي ذاته إنسانا اقرأ ذاتك وإلا قد تكون إنسانا في حكم الحيوان والجماد"

فلقد عمق الفقه النورسي دور الإنسان في صناعة الحضارة وأبرز حقيقة الصلة بين الله والإنسان وجعله خليفة الله في الأرض وأصبح بذلك مفوضا للاستخلاف وكذلك لمعنى الإنسان الرباني الموصول بالله ،ولمعنى تفضيل الله لآدم على الملائكة بل نكاد نفهم بالمعنى النورسي اشراقات جديدة لمفهوم تعليم الله آدم للأسماء كلها فهي ليست مجرد كلاما تعبر عن عالم الخلق أو عالم القيم والمعنويات، أنها قد تتمثل بالمواهب والقدرات الفطرية التي تحفز الإنسان لتقصي السنن الكونية والاجتماعية وفقهها واستخدامها لتحقيق وظيفة الاستخلاف ولتجلي بعض آثار أسماء الله الحسنى التي لا تطلق على مخلوق إلا على هذا الكائن البشري ....البشر المستخلف الإنسان المرآة ...الإنسان الذي تفرد بحمل بعض أسماء الله الحسنى مع محدوديته ونسبيته فيكون بذلك أحيان الإنسان اللطيف الكريم الحكيم ويكون أحيانا أخرى الإنسان الجبار المتكبر إنه تكريم عظيم وإنها لأمانة كبيرة ولكن هل يؤدي أمانته وينقذ أمته من وعكاء التخلف ويحقق التقدم ويبني حضارته" فالعناية الإلهية اختارت الإنسان من بين جميع المخلوقات وأزالت عنه سبل الجهل بطريق التعليم ورفعت قدره بتحمل الأمانة لذا فإن الإنسان هو ثمرة العالم وأجمع وأبدع مصنوعات القدرة الربانية وأكثرها عجزا وضعفا ولطفا "[1] ويؤكد النورسي على ضرورة الاستقراء الكوني والانسجام الحركي للإنسان من خلال سعيه للتعمير والنهوض –مع القوانين الفطرية للكون والتأكيد على ماهية العلاقة المتلازمة بين السنن الكونية والقوانين الطبيعية والفطرية ،وحركة الإنسان في الوجود وعمارته في الأرض فيقول "إن من يشق طريقا في الحياة الاجتماعية ويؤسس حركة ،لا يستثمر مساعيه ،ولن يكون النجاح حليفه في أمور الخير والرقي ،ما لملم تكن الحركة منسجمة مع القوانين الفطرية التي تحكم الكون،بل تكون جميع أعماله في سبيل

[1]_النورسي ،**الشعاعات**، تر احسان قاسم الصالحي ،دار سوزلر للنشر ،اسطنبول،القاهرة ،2004،رسالة الثمرة ،ص 257،260.

التخريب والشر"[1] هذا الربط بين حركة الإنسان نحو تحقيق النهوض وسنن الكون وقوانينه من شأنه أن يعمق النظر ،ويرسم المنهج السديد في اكتشاف معطيات الكون وسننه ،وربطها بقوانين التشريع الاجتماعي لتحقيق النهضة الشاملة لحضارة الإسلام في ظل الواقع المعاصر يقول النورسي :"إن من أراد التوفيق يلزمه مصافاة مع عادات الله ،ومعارفه مع قوانين الفطرة ، تناسب مع روابط الهيئة الاجتماعية ،وإلا أجابته الفطرة بعدم الموفقية جواب إسكات ،أما النواميس العامة الجارية فتقذف من يخالفها إلى صحراء العدم "[2]ولعل هذا يؤكد استيعاب النورسي ووقوفه على دراسة الحضارات السابقة وأسباب نهوضها وتقدمها ثم انحدارها وسقوطها ،ومرجع السقوط هو تفرعن الإنسان وانحرافه عن طريق السنن الكونية الإلهية ومعارضته لقوانينها وأخلاقياتها الفطرية مما حدا بهذه السنن أن تقذف بجهوده إلى صحراء العدم وفي هذا تلميح إلى ما ستؤول إليه الحضارة الغربية بسبب بعدها عن سنن الكون وقوانينه الإلهية واعتمادها على العقل المادي كرد فعل انتقامي عل الكنيسة وعليه يمكن القول بأن بديع الزمان سعيد النورسي عليه رحمة الله قام بتعريف مفهوم (الحضارة) تعريفا جامعا شاملا مما جعله يستوعب المفهوم ويعالجه بحكمة وعمق شديدين،يركز فيه على الجوانب الوظيفية ،التي يستجلب بها ما ينفع الأسرة الإنسانية من المناحي الإيجابية النافعة من التجربة البشرية عموما والتجربة الحضارية الغربية على الخصوص منبها في الوقت نفسه إلى الحضارة الحقة ، والحقيقة بالعناية يستفاد هذا المعنى من قوله :" إن قصدنا من المدنية هو محاسنها وجوانبها النافعة للبشرية "[3] وقال في موضع آخر:

"تسعى المدنية الحقيقية لترقية النوع الإنساني وتدفعه إلى التكامل، وتخرج ماهيته النوعية من القوة إلى الفعل ، لذا فإن طلب المدينة والسعي لها انطلاقا من هذه الزاوية يعد سعيا نحو الإنسانية "[4]فيتضح بأن مفهوم المدينة والحضارة لديه رحمه الله، إنما يقاس بما يقدمه من منفعة للبشرية والإنسانية عامة، والسعي نحو إسعادها سعادة حقيقية من جميع الجوانب وبذلك جعل النورسي ترقية الجوانب الإنسانية والتكامل بين مكوناتها المادية والمعنوية ركنا أساسيا في تقويم الحضارة والمدنية لهذا تقاس الحضارة بما تقدمه للأسرة الإنسانية من جهة رفع إنسانية الفرد والمجتمعات، فحلل هذا بصورة موضوعية وعلمية يجب أن يعتنى بها من لدن المهتمين بالدراسات العلمية خاصة المتخصصة عن الحضارة الإسلامية.

ومنه فيمكن القول بأن التقدم الذي حققه الإنسان كان من نتائج التطور الثانوية النادرة المتقطعة ولكن في وسع الإنسان إن يكن هو الصورة الأساسية لتطوره المقبل ولتوجيه طريقه بالنسبة لهدف مقصود غير أن عليه "ألا يخاف تفرده فقد يكون في هذا العالم المترامي الأطراف كائنات أخرى انعم الله عليها بالعقل والعزم والطموح إلا أننا لا نعرف عنها شيئا وكل ما نعلم أن للإنسان عقلا وشخصية لانظير لهما وأنهما أرقى ما

---

[1]- النورسي ،**اللمعات** ،تر احسان قاسم الصالحي ،دار سوزلر للنشر ،اسطنبول،القاهرة ،2004،ص257.
[2]- النورسي،**صيقل الإسلام**،تر احسان قاسم الصالحي،دار سوزلر للنشر،اسطنبول،القاهرة ،2004،ص149
[3]- النورسي ،**صيقل الإسلام /الخطبة الشامية** ص500-501.
[4]-المصدر نفسه ،**المحكمة العسكرية العرفية** ،ص462.مم

أنتجه التطور حتى الآن "[1] فالإنسان يحتل موقعا هاما إذ يمثل المحرك الأول في العملية الحضارية فهو كرأس مال الحضارة فلا تقوم الحضارة إلا إذا شرع هذا الإنسان في بنائها وكلما أحكمت قواعد هذا البناء وتجسد في الواقع مشروعه انتفع الإنسان بعطاء حضارته ولقي مكانته في الوجود والتاريخ وعلى حسب المرحلة التاريخية التي تمر بها الحضارة يكون الإنسان ،ويكون حظه منها فإذا كانت الحضارة في أوج قوتها يكون الإنسان على صورتها فعالا مبدعا ويكون حظه أوفر، وإذا آلت إلى الانحدار آل الإنسان بدوره إلى الخمول والكسل وتضاءل حظه ومن هنا يعد الإنسان نتاجا للحضارة. ومن هنا ينطلق النورسي رحمه الله مجتهدا من أجل إحياء روح الاجتهاد في الأمة من جهتين :من جهة اكتشاف أنوار الوحي المتجددة عبر الزمان والمكان ومن جهة التنبيه إلى أن الكون أيضا محل للنظر والاستنباط لأن له شريعة ينتظم بها سيره وعليه فإن منطلق بناء الحضارة عند النورسي :فهم الشريعة التكليفية وحسن العمل بها وفهم الشريعة الكونية وحسن الإفادة منها والعمل بمقتضاها .ولا يستغنى بالواحد عن الآخر في مجال العمران والحضارة والمدنية فهذان النوعان من الشريعة أقام عليهما النورسي منهجه الحضاري.

2.1منهج النورسي في الفكر الحضاري الإسلامي من خلال رسائل النور

1.2.1المشروع النهضوي الإسلامي المعاصر (نقد وتوجيه)

من خلال هذا المبحث سوف نناقش تفسير النورسي لمعوقات التقدم الحضاري ولعوامل التي ساهمت في تأخر المسلمين في الجوانب الحضارية –حسب رؤية النورسي – والتي يراها عائقا أمام التقدم الحضاري للأمة الإسلامية ،وجعلتنا نقف على أعتاب القرون الوسطى وكانت سببا في سحب بساط الريادة من تحت أقدام أبناء أمة الشهادة وبعبارة أخرى :ما الذي جعل الحضارة الإسلامية تنكمش وتتأخر عن مواكبة التقدم المعاصر وجعل أبناءها يوصمون بالتخلف والرجعية ؟وما هي العوائق التي عطلت مسيرة تقدمها ونهضتها، وبزوال هذه العوائق تعود لها حيويتها وقيادتها وفاعليتها ؟

نجد أن النورسي يرتكز في تفسيراته وتحليلاته التشخيصية لعوامل التقهقر الحضاري على المرجعية الإيمانية حيث يرى أنه بفقدانها –أي المرتكز الإيماني– من الواقع التطبيقي الفاعل بين أفراد الأمة كان التراجع الحضاري ،وبالإيمان الفاعل الشهودي يمكن العودة مرة أخرى بالحضارة إلى ما كانت عليه في أول أمرها ،وأنه لا صلاح للأمة غلا بما صلح به أولها ،صلاح أولها كان بالإيمان المستمد من القرآن والسنة فعلا وقولا وسلوكا .ولاشك في أن فجائية الانحدار الحضاري للأمة الإسلامية وما سببته من عبثية في جميع الجوانب الحضارية للأمة ،ولد تباينا صداميا للأفكار بين أبناء الأمة الواحدة ،وخاصة بين النخبة الذين رأوا أن العالم الإسلامي بتقهقره عن مسار التقدم ،وتخلفه عن ركب ومسايرة الحداثة المعاصرة ،يقف عند مفترق طرق خطير ،فأودت هذه الرؤية إلى انقسامهم في تحديد العلة إلى« مفتونون وآخرين آسفين ومتشككين :

[1]-عادل العوا ،المرجع السابق ،ص206.

فأولا: المفتونون بالحضارة الغربية ،بهرتهم الآراء المستوردة وعمدوا على مهاجمة الدين وأهله، وأن الدين الإسلامي هو السبب في التراجع الحضاري وأنه في الحقيقة لا يصلح إلا للبداوة وأهل الصحراء ،ويرون أن الحديث عن إحياء التراث الإسلامي ،نوعا من الردة غير المستحبة وتهمون من يرعى هذا التراث بالجمود والرجعية .

وثانيا :الآسفين على مجد أدبر ،والمترحمين على شمس غربت ،وأيام انقضت وهؤلاء يحلو لهم بين الحين والآخر،أن يقيموا لها عزاء في شكل مؤتمرات ،يذكرون فيها محاسن حضارة الآباء والأجداد ،ويتغنون بأمجاد الماضي شحا للهم واستثارة للعزائم .

وثالثا :المتشككون في ماضي الحضارة الإسلامية وحاضرها ومستقبلها فيمثلون الجانب الهدام ،الذي لا يرى في ماضيها إلا جمودا ،ولا في حاضرا إلا عجزا ،ولا في مستقبلها إلا قنوطا ،وأن الحديث عن الحضارة الإسلامية هو حديث عن السراب والماضي السحيق الذي لا أمل في إرجاعه ووجوده ».[1]وهؤلاء فاتهم أن عظمة الحضارة الإسلامية وفضلها على مسيرة الحضارة البشرية لا ينقطع في جميع المجالات الحضارية.[2] السياسية والثقافية والاجتماعية والآداب والعلوم ..الخ وإن كنا لا ننكر أنها ذبلت ولكنها لم تسقط ولم تمت ،وأنها كالشجرة الضخمة الممتدة الجذور في الأعماق ،فلو جفت أوراقها فلافتقارها للغذاء المناسب ،أو لعدم العناية بها ،فإنها من الممكن بزوال هذه الأسباب أن تستعيد نضرتها وحيويتها ،لتستظل البشرية جمعاء بظلها في الحاضر والمستقبل،ثم إن ذبول شجرة الحضارة الإسلامية اليوم ،لا يرجع إلى عدم قدرتها على مسايرة التطور العلمي الحديث ومواكبة الحداثة وإنما يرجع ذلك في المقام الأول إلى تقصير أبناء هذه الحضارة وأصحابها وتخليهم عن روحها ومبادئها وقيمها، ويكفي الحضارة الإسلامية أنها كانت بروحها وعلمها وعملها أكبر حركة تقدمية عرفتها مسيرة التاريخ ،كل ما في الأمر أنها حركة تقدمية داخل إطار متماسك القيم والتعاليم الدينية الصحيحة الموحى بها ،والأخلاق الكريمة .[3]

1.1.2.1عوامل التقهقر والتأخر الحضاري للأمة الإسلامية :

لقد تنوعت الرؤى،وتباينت الأفكار،وسالت الأقلام لدى المفكرين والمصلحين الإسلاميين للبحث عن أسباب التقهقر الحضاري للأمة الإسلامية من أجل تحقيق أمرين :

أولا: الوصول إلى تفسير شامل لعوامل التقهقر والانحطاط للواقع المتردي للحضارة الإسلامية،وعدم قدرتها على مسايرة النهوض والحداثة المعاصرة .

---

[1] - أبرز من ناقش هذا التنوع في الرؤى والأفكار هو الدكتور . سعيد عبد الفتاح عاشور ،**حضارة الإسلام**،طبعة المعهد العالي للدراسات الإسلامية ،القاهرة ،2004،ص 13،12،ثم شكيب أرسلان في كتابه **"لماذا تأخر المسلمون ...ولماذا تقدم غيرهم"**،تقديم :رشيد رضا ،دار البشير ،القاهرة ،1985،ص 88-117 .

[2] - عبد التواب يوسف ،**الحضارة الإسلامية بأقلام عربية وغربية** ،الدار المصرية اللبنانية ،القاهرة ،1994،ص 94-133.

[3] -سعيد عبد الفتاح عاشور ،**حضارة الإسلام**،طبعة المعهد العالي للدراسات الإسلامية ،القاهرة ،2004،ص 12-13 بتصرف .

ثانيا :إيجاد تحليل مؤسس على العقلانية والواقعية والمنهجية العلمية ،يكشف عن حالة التقوقع والانكماش والانزواء لأبناء هذه الحضارة .

ومن اجل الوصول لتحقيق الهدف الأول تم التركيز على ترشيح الأدوات والأساليب والمرتكزات والأسس والمصادر التي تولدت منها الحضارة الإسلامية ،وكانت سببا في قيامها ونهوضها وتقدمها ،فكان أبرز ما توصل إليه المفكرين من تفسيرات ،وبغالبية كبيرة ،هو بعد الحضارة الإسلامية عن المنهج الإيماني ، ذلك المنهج الذي كان منشئا وحاضنا لها منذ اللحظة الأولى لانطلاقها ثم تخليها عن الأخذ بالأدوات والأساليب والمرتكزات والأسس والمصادر التي نفخت في روحها وأمدتها بالحياة والحيوية . ومن أجل إيجاد تحليل لحالة الفقر والجهل والتقوقع والانزواء..الخ التي أصيب بها أبناء هذه الحضارة ،عمدوا تتبع ودراسة الحركة التاريخية لبناء هذه الحضارة[1]–الإنسان – قبلها وأثناءها وبعدها أي حالتهم وطبيعتهم وسلوكهم ...الخ قبل انضمامهم في تشييدها –قبل إسلامهم–ثم مقارنة وموازنة ذلك أثناء إسهامهم في بنائها ،وبعد بنائها وبسط نفوذها على حضارات العالم ،فكان أبرز ما توصل إليه المفكرين من تحليلات هو بعدهم عن المنهج الذي شيد به النبي (ص)وصحابته هذه الحضارة وبعدهم عن الروح الإيمانية الموحى بها ،تلك الروح التي نفخت في نفوس الصفوة الأولى بناء هذه الحضارة ،فحولتهم من متقوقعين في بقعة الجزيرة العربية يتقاتلون فيها على جرعة ماء،إلى فاتحين-وسادة العالم وحولتهم من حالة الانزواء والتقوقع على الأخلاق الذميمة كشرب الخمر والتعامل بالربا ووأد البنات وعبادة الأصنام إلى خلق آخر -

فعلى الرغم من تنوع الرؤى والأفكار والكتابات من طرف المفكرين والمصلحين إلا أنهم يتوافقون على أن السبب الأصيل في حالة التراجع الحضاري للأمة الإسلامية هو بعدهم عن مقومات التجديد التي يحتويها المنهج الإسلامي –القرآن والسنة –والتي تمد وتغذي كل تطور وتقدم في أي مكان وزمان ،بعيدا عن الجمود والتطرف، ولكننا إذا تجاوزنا هذا التوافق ،فإننا نرى من خلال النظر إلى بؤرة هذا لتنوع أسبابا فرضت نفسها وبقوة على أغلب المفكرين والمصلحين ، وفرضت عليهم وبدون اختيار، لواقع هذا النوع أثناء سعيهم للكشف عن سباب التراجع الحضاري وإيجاد تفسير لحالة التخلف ،والرجعية للأمة الإسلامية ولعل أبرز الأسباب :

-تنوع البناء الفكري الذي أفرز التعدد في الطرح والرؤى للمدنية والحضارة في أفكار الإسلاميين المحدثين والمعاصرين فمثلا نجد رفاعة الطهطاوي [2]على الرغم من مرجعية ثقافته الإسلامية ،إلا أنه تأثر بالثقافة والحضارة الغربية ،وعكف على دراسة

---

[1]- للتعرف أكثر على ما أحدثه الإسلام من تغيير في إعادة صياغة الإنسان وتاريخه ،وكيف حول الرسول خامات الجاهلية إلى عجائب الإنسانية، وتأثير الإيمان الصحيح الفاعل في الأخلاق. انظر توفيق محمد سبع :**قيم حضارية في القرآن** ،ج2،سلسلة البحوث الإسلامية ،1982،ص15-102.،شكيب أرسلان :**لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم** ،ص39-51،أبو الحسن الندوي :**ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمون** ،دار الكلمة للنشر ،المنصورة مصر ،2011،ص 83-135.

[2]- رفاعة الطهطاوي :**تخليص الابريز في تلخيص باريز** ،الهيئة المصرية لعامة للكتاب ،القاهرة ،1974،ص 80. **مناهج الالباب المصرية إلى مباهج الآداب العصرية** ،القاهرة ،1869،والمرشد الأمين للبنات والبنين ،1872،ص 120-151.

المدنية الغربية لدى الفرنسيين وانتهى إلى أنه لابد من الاستعانة بالآليات والأدوات وليس بالروح الأوروبية من أجل المضي في سباق التقدم .

أما خير الدين التونسي[1] فإننا نجد أن الفكر السياسي وعمله به كان الأساس في بنائه الفكري ،بل ولكل أطروحاته الحضارية التي أوردها في كتابه "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"وهي التي ترتكز على أمرين :دراسة تفصيلية لأسس التمدن الأوروبي ،ثم إيضاح الشروط الضرورية لتجديد التمدن الإسلامي ،إلا أنه جعل الأساس في طرحه مؤسس على اعتبار أن التنظيمات السياسية هي الآلية والأداة للوعي بالمنافع العمومية في مسائل التمدن والنهوض .

ومالك بن نبي على الرغم من مرجعيته الإسلامية في بنائه الفكري ،إلا أن للغزو الثقافي الفرنسي المستعمر لبلاده ،أثر بارز في أغلب تصوراته الحضارية وبنائه الفكري والنورسي ليس بمعزل عن أحوال سابقيه ،فلقد كان للتنشئة الدينية –تربويا وفكريا –والجو الصوفي السائد في تركيا ،الأثر البارز في بنائه الفكري ،وكانت للهجمة الشرسة على الإسلام وكتابه ورسوله ،الحافز الأكبر في دفاعه عن الحقائق الإيمانية وطرح جميع تصوراته الحضارية على أساس المرجعية والإيمانية والمنهجية الإسلامية.

_ تنوع القضايا التي يواجهها كل مفكر،تبعا لتنوع الزمان والمكان ،والقضية الحضارية التي يواجهها كل مفكر يتحكم فيها أمرين :الحاجة الملحة وعامل الزمن فمثلا نجد أن جمال الدين الأفغاني وخير الدين التونسي والكواكبي كانوا يرون من منظورهم،أن الاستبداد السياسي وقمع الحريات هو العائق لأي تقدم،بينما نرى في جانب آخر مالك بن نبيل يرى أنه لا سبيل للتقدم والنهوض إلا بالقضاء على الاستعمار –ثقافيا وسياسيا واقتصاديا – ومواجهته وإزالة آثاره هي من أهم القضايا،بينما نرى في الوقت ذاته ابن باديس يرى أن السبيل الأول للنهوض والتقدم يكون بمحاربة البدع والضلالات ومحاربة الجهل والفقر .

وإذا نظرنا إلى النورسي فإننا نجد أن معايشته للتحولات التاريخية الفارقة في حياة الأمة الإسلامية عامة والأمة التركية خاصة ،قد فرضت عليه واقعا من القضايا الحضارية الملحة ،ومعالجتها بمنظور إيماني قرآني ،بعيدا عن المنظور الإيماني الصوفي الانزوائي ،،أو المنظور الإيماني الكلامي الجدلي، ولكن على الرغم من هذا التنوع في الرؤى والأفكار ،فإنها جميعا تتقارب في طرحها وتفسيراتها وتلتقي عند غاية واحدة :وهي إنقاذ الواقع الحضاري المتردي للأمة الإسلامية ،لهذا فإننا سوف نستعرض فيما يلي تفسيرات الإمام النورسي وبعض المفكرين الإسلاميين،التي توصلوا إليها أثناء دراستهم التحليلية للوقوف على أسباب الانحدار الحضاري للأمة الإسلامية ،وعوامل تقهقرها،لسعي لعلاجها أو إزالتها لإفساح الطريق أمام عجلة التقدم الحضاري واستعادة الفاعلية الإيمانية للأمة .

[1] -خير الدين التونسي ،**أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**،تقديم المنصف الشنوفي ،الدار التونسية ،تونس 1972،ص8-44.

نبدأ أولا بمفكر يمثل الشرق العربي وهو "شكيب أرسلان "[1] الذي خص كتابه "لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم " من أجل مناقشة وتحليل الوضع الحضاري المتردي للأمة الإسلامية والوقوف على الأسباب التي أوجدت هذا التقهقر ولو دققنا في تفاصيل هذا الكتاب ،لرأينا أنه ركز على الجانب النظري -وهو الغالب -والعملي في تحليله لأسباب تأخر المسلمين ،مما يجعل تفاصيله تأريخا دقيقا ومعبرا لتلك الفترة الحرجة التي مرت بها الأمة الإسلامية ،خاصة تلك المرحلة التي شهدت الحربين العالميتين ،وأفول دولة الإسلام –الدولة العثمانية –وتربص الدول الاستعمارية لاقتناص أطرافها وابتلاع ولاياتها ،والسعي للوقيعة بينها وبين شعوبها [2].

ومن الممكن أن نلخص ما عده الكاتب وقام برصده من العوامل المؤدية إلى تأخرهم المسلمين وأسباب تقهقرهم الحضاري ،في الآتي :

1_ فقد المسلمين السبب الذي ساد به سلفهم:فشكيب أرسلان يرى أن أسباب الارتقاء للمسلمين في الماضي كانت عائدة في مجملها إلى الديانة الإسلامية وبما تحويه من شمولية القيم الإيمانية وجماعها ،وتحولوا بهدايتها خلقا آخر ،ونهضوا وفتحوا وسادوا وبلغوا من المجد والرقي مكانة عالية ،وعندما ارتفع هذا السبب من بينهم ،ولم يبق من الإيمان إلا اسمه ،ومن الإسلام إلا رسمه ومن القرآن إلا الترنم به ،ولم يبقى من الدين إلا تعاليمه إلا كما يبقى الوشم في ظاهر اليد ،فلو كان الله تعالى وعد المؤمنين بالعزة والمجد والتقدم والنهوض بمجرد الاسم دون الفعل لكان يحق لنا أن نقول :أين عزة المؤمنين من قوله تعالى :﴿ولله العزة ولرسوله والمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾[3] ولو كان الله وعد بنصرهم بدون استعدادهم المادي والمعنوي لكونهم مسلمين فقط ،لكان ثمة محل للتعجب من هذا الخذلان بعد هذا الوعد الصريح بالنصر ،كما في قوله: ﴿وكان علينا حقا نصر المؤمنين﴾[4] ولكن الله غير مخلف وعده، والقرآن لم يتغير،وإنما المسلمون هم الذين تغيروا ،والله تعالى أنذر بهذا فقال :﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغير ما بأنفسهم﴾[5] بل إن زوال الحضارات مرهون بفساد القيم الإيمانية لأفرادها ﴿و ماكان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾[6] فكيف ترى أمة ينصرها الله بدون عمل ،ويفيض عليها بالخيرات،وهي قعدت عن جميع العزائم التي كان يقوم بها الصفوة الأولى ؟

2_ "إن السبب في اندثار بريق العالم الإسلامي وحضارته وذهاب ريحه لم يكن في غفلة من التاريخ كما يظن البعض ولكنها عوامل الضعف والشيخوخة التي بدأت توهن جسد الأمة ولعل الفرقة وتشتت الكلمة ،كانوا من هم العوامل "[7] وذلك بسب بعد أصحاب هذه الحضارة عن المنهج الإيماني الذي دعا إلى الوحدة والاعتصام فقال

---

[1] - ولد شكيب ارسلان(1869-1946م) في لبنان ببلدة تقع بين بيروت وصيدا تسمى الشويفات .
[2] -شكيب أرسلان ،**المرجع السابق** ،ص 16.
[3] -**سورة المنافقون** :الآية رقم 8.
[4] -**سورة الروم** :الآية رقم 47
[5] - **سورة الرعد** :الآية رقم11
[6] - **سورة هود**:الآيةرقم117.
[7] -شكيب أرسلان ،**لماذا تأخر المسلمون** ،ص8

تعالى :﴿واعتصموا بحبل الله جميلا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾[1]

- "من أعظم أسباب تأخر المسلمين :هو الجهل الذي يجعل فيهم من لا يميز بين الخمر والخل،وارتفاع نسبة الأمية المتفشية في قطاعات كبيرة من المسلمين ،ولاشك أن نسبة ارتفاع الأمية في أمة "اقرأ" كفيل بأن يطيح بأي سبيل من سبل التقدم "[2]

- "العلم الناقص الذي هو أشد خطرا من الجهل البسيط ،لأن صاحب العلم الناقص لا يدري ،ولا يقتنع بأنه لا يدري،وكما قيل :ابتلائكم بمجنون خير من ابتلائكم بنصف مجنون ..وأقول ابتلائكم بجاهل خير من ابتلائكم بشبه عالم "[3] وفساد الأخلاق،وفقد الفضائل التي حتى عليها القرآن،والعزائم التي حمل عليها سلف هذه الأمة وأدركوا بها الفلاح،والأخلاق في تكوين الأمم فوق المعارف ولله در شوقي القائل:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

- فساد أخلاق أمرائهم،وإتباع شهوات الأنفس بلا قيد والتنافس على الأمارات والرئاسات وظن هؤلاء أن الأمة وثرواتها ملك لهم يفعلوا ما يشاءون بها،ومن حاول نصحهم بطشوا به ليكون عبرة لغيره وداء العلماء، المتزلفون لأولئك الأمراء،المتقبلون في نعمائهم،وأفتوا بجواز قتل ذلك الناصح بحجة أنه شق عصا الطاعة وخرج عن الجماعة،ومع تعاقب الأيام خلف من بعدهم خلف جعلوا من العلم مهنة لكسب العيش، واتخذوا من الدين مصيدة للدنيا،فسوغوا للفاسدين من الأمراء أبشع موبقاتهم،وأباحوا لهم باسم الدين خرق حدود الشريعة،هذا والعامة المساكين مخدوعون بعظمة عمائم هؤلاء العلماء وعلو مناصبهم يظنون فتياهم صحيحة،وآراؤهم موافقة للدين،والفساد بذلك يعظم ،ومصالح الأمة تذهب والإسلام يتقهقر،والعدو يعلو ويتنمر،وإثم كل هذا في رقاب هؤلاء العلماء[4] .

_ سيطرة الجبن والهلع على المسلمين[5]بعد أن كانوا أشهر الأمم في الشجاعة واحتقار الموت للفوز بلقاء الله ورضوانه ،ومن الغريب أن الإفرنج المعتدين لا يهابون الموت والتهلكة في سبيل قوميتهم ووطنهم ونصرة صليبهم مع أن المسلمين أولى بذلك منهم وقد قال الله تعالى :﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ ۟ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[6]وقال تعالى :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[7] فبسبب فقد أبناء الحضارة الإسلامية للدافع الإيماني،كان الجبن والوهن والهلع مسيطرا عليهم وانضم إلى ذلك اليأس والقنوط من رحمة الله وذلك حين وقر في نفوسهم أن الإفرنج هم الأعلون على كل حال

---

[1] -**سورة آل عمران** : الآية رقم103.
[2]-شكيب أرسلان ، **المرجع السابق** ،ص 75.
[3]-**المرجع نفسه** ،ص75.
[4]- شكيب أرسلان ،**المرجع نفسه** ،ص 76-125.
[5]-**المرجع نفسه** ،ص77.
[6]- **سورة آل عمران** :الآية رقم175 .
[7]-**سورة محمد** :الآية رقم 7.

،ولا سبيل لمغالبتهم فصار المسلمون يهزمون بالرعب ،بعكس ما كان في العصر الأول : **يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم .**

ففقدهم الثقة بأنفسهم ولد لديهم هذا المرض ،وهو من أخبث الآفات الروحية ،وقد أجمع الأطباء في الأمراض البدنية ،أن القوة المعنوية هي رأس الأدوية ، وسلاح الحرب الأول لهزيمة الأعداء ،ولعل المستعمرين أحسنوا في استخدامه ضد المسلمين ،مع أن المسلمين مأمورون بعدم القنوط واليأس لأن ذلك يتنافى مع جوهر الإيمان قال تعالى : ﴿وَ لَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[1]

لذلك فإن الواجب على المسلمين أن ينهضوا ويتقدوا ويترقوا كما ترقى غيرهم من الأمم هو الجهاد بالمال والنفس،الذي أمر الله به في قرآنه مرارا ،وهو ما يسمونه اليوم بالتضحية قال تعالى :﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2].ولعل أخطر ما يتم له الترويج من أعداء الإسلام ،وبعض أبنائه المنتسبين إليه ،هو أن الحضارات نتاج مجهود بشري خالص "ولا علاقة للأديان بالتقدم أو التردي الحضاري ،بل إن الشرق كان متقدما،ورائعا في سعة العمران ،فجاء الإسلام وطمس المدنيات الشرقية القديمة وكان اليونان قبل النصرانية أرقى أمم الأرض وكانوا واضعي أسس الفلسفة،وكان الإسكندر المقدوني من أعظم الفاتحين الذين عرفهم التاريخ ،وحاملا للأدب اليوناني،وناشرا لثقافته بين الأمم ،وروميه لم تعرف طريق التردي والانحطاط الحضاري مادةً ومعنى ،إلا بعد تنصرها في عهد قسطنطين وأوروبا لم تتقدم وتنهض إلا بعد فك الارتباط مع الدين الكنسي"[3] .فهناك "عوامل داخلية وأخرى خارجية كثيرة كانت السبب في التردي الحضاري للرومان واليونانيون بل ولجميع الحضارات التي أصابها التدهور،حتى المسلمين ومنها –فساد الأخلاق وانحطاط الهمم ،وشيوع الإلحاد والإباحة ،والتنافس على السلطة وهرم الدولة التي تكلم عليها ابن خلدون ،وغير ذلك من الأسباب الداخلية منضمة إليها غارات البرابرة من الخارج فكانت ثمة أسباب قاسرة ،ومؤدية إلى السقوط ،الذي كان لابد منه ،فلو فرضنا أن النصرانية لم تكن جاءت وقتئذ ، لم يكن الرومان ولا اليونان قد نجوا من عواقب تلك الحوادث ،ولا تخطتهم نتائج تلك الأسباب،فالأوضاع الجديدة تذهب بالأوضاع القديمة، سنة الله في خلقه ،وفي خضم هذا التحول لابد من اضطراب الأحوال وانحلال القواعد ،واستحكام الفوضى وإلا فلا أحد يقدر أن يقول :أن الوثنية أصلح للعمران أم النصرانية ؟مع أن علماء المسلمين يعتقدون أن النصرانية على ما طرأ عليها من الوثنية بالتثليث الوثني القديم،أصلح لأنفس البشر من الوثنية الخالصة ،ولكنها ليست أصلح... ولا أقبل للعمران المدني الذي تتنافس فيه أوربا وغيرها ،لان

---

[1]-سورة يوسف :الآية رقم 87.

[2]-سورة التوبة: الآية رقم 111.

[3]- شكيب أرسلان ،**المرجع السابق** ،ص 123-126 بتصرف .

النصرانية ديانة مبنية على المبالغة في الزهد والخضوع لكل حكم دنيوي ،والعمران ،لا يتم ولا يسمو إلا بالسيادة والملك والغنى"[1]

ولا نجد مسوغات العمران وتصوراته إلا في الإسلام –القرآن والسنة النبوية الصحيحة –حيث يحض على التقدم الدنيوي والأخروي قال تعالى:﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[2]كما حث المسلمين على السعي في الأرض لتعميرها والاستفادة من خيراتها﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[3] وسخر لهم كل مقومات التقدم الحضاري .فإذا كان صحيحا –على الافتراض –أن يقال أن الدين سبب للتأخر الحضاري فهذا صحيح في جملة الأديان ،إلا الدين الإسلامي ،فقرآنه وتاريخه يثبتان قولا وعملا ونظرا وتطبيقا ،أنه سبب لتقدم أهله حين اهتدوا به وسبب تأخرهم حين أعرضوا عنه . ففولتير يرى أن سيدنا محمد (ص)بلغ من الإصلاح والتقدم والرقي المادي والمعنوي ،ما لم يبلغه لوثير وكفلين ،مع أن الكثير يعتقد أن مذهبهما كان سببا لفجر أنوار أوربا .

فالتدهور الحضاري لأي حضارة يرجع إلى حوادث وأصول شتى وأسبابا وعوامل مشتركة ،فإذا تراكمت هذه العوامل في خير أو شر ،تغلبت على تأثير الأديان والعقائد وأصبحت فضائل أقوم الأديان عاجزة بإزاء شرها ،كما أصبحت معايب أسخفها غير مؤثرة في جانب خيرها ،ولعل نظرة سريعة على مسيرة التاريخ الإسلامي ترشدنا لحقيقة ذلك ،ففي الوقت الذي كان فيه الوعي الإيماني متفاعلا وحركيا ،ومطبقا واقعا عمليا بين المسلمين ،كان البعث الحضاري حيا وأثره ملموس في جميع الجوانب الحضارية .

ولكن حين طغت على النفس :الأنا،وحب الرياسة والزعامة،والانغماس في الملذات والشهوات ،كانت الكبوة والتراجع الحضاري ،فعلى الرغم من تواجد جميع المقومات الحضارية في الدين الإسلامي ،إلا أنهم حين تخلوا عن الأسس الإيمانية الدافعة للبعث الحضاري،كان التدهور وشيوع التخلف والفقر،بل والتقهقر المادي والمعنوي على جميع الأصعدة ،وهذا ما يؤكده الإمام النورسي حيث يقول :«يرينا التاريخ أنه متى ما كان المسلمين متمسكين بدينهم فقد ترقوا بقدر تمسكم بدينهم ،بينما تدنوا كلما بدا ضعف الدين يدب فيهم ،بخلاف ما يحدث لأصحاب الأديان الأخرى،إذ متى ما تمسكوا بدينهم –المحرف –فقد أصبحوا كالوحوش الكاسرة ،ومتى ما ضعف لديهم الدين ،ترقوا في مضمار الحضارة ،كما أن ظهور الأنبياء في الشرق،رمز من القدر الإلهي :أن المهيمن على شعور الشرقيين هو الدين، فما نراه في الوقت الحاضر من مظاهر اليقظة في أنحاء العالم الإسلامي تثبت لنا،أن الذي ينبه العالم الإسلامي وينقذه من الذل،والهوان ،هو الشعور الديني ليس إلا »[4].

---

[1]- **المرجع نفسه** ،ص 126-128. بتصرف.
[2]- **سورة القصص** ،الآية رقم 88.
[3]- **سورة الملك** :الآية رقم 15 .
[4] - النورسي ،**صيقل الإسلام** ،ص351.

- ومن أسباب التقهقر الحضاري :ضياع الإسلام بين الجامدين والجاحدين[1]

فالفئة الجامدة: هي الفئة التي لا تريد أن تغير شيئا،و لا ترضى بإدخال أقل تعديل مستحدث على أي شيء ،وتحارب من أجل صب واقعنا في قالب السلف دون تحديث أو حتى مراعاة لواقع الحال ومستجدات العصر ومواكبته ،ومن ذلك أصول لتعليم الإسلامي ،ظنا منهم بأن الإقتداء بالكفار كفر،وأن نظام التعليم الحديث من وضع الكفار،ولعل هذا أوجد حالة من الكسل الفكري والمنافسة،وقتل أي خطوة للابتكار والاكتشاف،وأصبحوا عالة على من يسمونهم بالكفرة،بل والمستهلكين لصنائعهم ومنتجاتهم ومخترعاتهم.

وأما الجاحد :فهو الذي يأبى إلا أن يفرنج المسلمين وسائر الشرقيين ويخرجهم من جميع مقوماتهم،ويغير ثقافتهم،وهويتهم وشخصيتهم،بل ومنهم من يحملهم على التنكر لتاريخه وماضيه .

وإذا نظرنا لما ذكره شكيب أرسلان في كتابه الذي أعده وألفه من أجل إيجاد تفسير عن سبب تدهور الواقع الحضاري للأمة الإسلامية والبحث عن إجابة شافية ،لماذا تأخر المسلمون ،ولماذا تقدم غيرهم؟ لوجدنا أنها لا تتعدى شيئا من جملة ما طرحه النورسي في رسائله من تفسيرات لحالة التقهقر الحضاري،بل وتتلاقى معها وتتوافق مع جملتها ،مع تفرد النورسي وسبقه بطرح الحلول العلاجية.

والمتصفح لرسائل النور،يستطيع أن يقف على أبرز العوامل التي أدت للتقهقر الحضاري للأمة الإسلامية،وذلك من خلال كتاب **"صيقل الإسلام "** وخاصة **"الخطبة الشامية "**وإن كانت بقية الرسائل لا تخلو من الحديث عن الأسباب والتفسيرات التي أدت إلى التدهور الحضاري ولكنها متناثرة بين طيات جميع الرسائل .

فنراه يبين في خطبته الشامية [2]:«أن هناك ستة أمراض جعلتنا نقف على أعتاب القرون الوسطى ،وكانت سببا في تأخرنا وجمودنا الحضاري ،هذا في الوقت الذي طار فيه الأجانب –وخاصة الأوروبيين –نحو المستقبل – وتلك الأمراض هي :

أولا : حياة اليأس الذي يجد فينا أسبابه وبواعثه .

ثانيا :انعدام الصدق في حياتنا السياسية والاجتماعية .

ثالثا :الميل نحو العداوة

---

[1] - لقد عكف الكثير من المفكرين الإسلاميين على حل هذه الإشكالية ،لتوافقهم على خطورتها في إعاقة النهوض الحضاري من أبرزهم النورسي ومالك بن نبي ومحمد عبده ورفاعة الطهطاوي ومن المعاصرين نجد الدكتور يوسف القرضاوي حيث ناقش بموضوعية علمية الأثر السلبي للجمود والجحود والغلو والتطرف ،على الصحوة الإسلامية وحركة التجديد في كتابه :**الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف** ،دار الشروق ،القاهرة ،2001،ص 4-84. والشيخ محمد الغزالي في كتابه :**سر تأخر العرب والمسلمين** ،دار الصحوة ،القاهرة ،1985،ص31-63.وعبر فيه عن خواطر مفكر مهموم بالتردي الحضاري للأمة .

[2]-النورسي ،**صيقل الإسلام** ،الخطبة الشامية ،ص 491-515

رابعا :عدم المعرفة بالروابط النورانية التي تشد المؤمنين لعضهم ببعض .

خامسا :انتشار الاستبداد،انتشار الأمراض المعدية ف.

سادسا : حصر الهمة في المنفعة الشخصية .»

ثم يستطرد النورسي في بيان كيفية الخلاص من هذه الأمراض ،وذلك من خلال مقابلة الأمراض الستة السابقة بالكلمات العلاجية الستة اللاحقة ،والتي يحويها بالتفصيل لكيفية المواجهة والعلاج ،ومجمل هذه العلاجات الست تتمركز تحت العناوين التالية :

الأمل–اليأس داء قاتل –الصدق أساس الإسلام – المحبة – تضاعف السيئات والحسنات – الشورى .

وفيما يلي تفصيل ما تم إجماله:حيث يقول النورسي :«ولمعالجة هذه الأمراض الستة الفتاكة ،أبيين ما اقتبسته من صيدلية القرآن الحكيم الذي هو بمثابة كلية الطب في حياتنا الاجتماعية أبينها بست كلمات .

الكلمة الأولى :الأمل :أي شدة الاعتماد على الرحمة الإلهية والثقة بها نعم..إنهبناءا على ما تعلمته من دروس الحياة ،يسرني أن أزف إليكم البشرى يا معشر المسلمين أنهقد أَزَفَ بزوغ أمارات الفجر الصادق ،دنا شروق شمس سعادة عالم الإسلام الدنيوية ،وبخاصة سعادة العثمانيين ،ولاسيما سعادة العرب ،الذين يتوقف تقدم العالم الإسلامي ،ورقيه على يقظتهم وانتباههم ،فإنني أعلن بقوة وجزم بحيث أُسمع الدنيا كلها وانف اليأس والقنوط راغم ،أن المستقبل سيكون للإسلام ،وللإسلام وحده ،لأن حقائق الإسلام تمتاز باستعدادها ،استعدادا كاملا لدفع أهلها إلى مراقي التقدم المادي والمعنوي معا ،وهذه الحقائق قادرة أن تمنح البشر "نقطة استناد "عند مهاجمة المصائب والأعداء من الخارج والداخل ،مع عجزه وقلة حيلته وكذا "نقطة استمداد "لآماله غير المحدودة ،الممتدة إلى الأبد مع فقره وفاقته وهذا المنح طريقه هو "معرفة الصانع " والإيمان به ،والتصديق بالآخرة فلا سبيل للبشرية،المتيقظة إلى الخلاص من غفوتها سوى الإقرار بذلك ،وهذا بعد مراجعة العقل والفكر ومشاورتهما ،للوصول إلى التأكد من صدق الحقائق الإسلامية ،فنحن معاشر المسلمين نتبع البرهان ،ونقبل بعقلنا وفكرنا وقلبنا حقائق الإيمان ..فالمستقبل الذي لا حكم فيه إلا للعقل والعلم ،سوف يسوده حكم القرآن ،الذي تستند أحكامه إلى العقل والمنطق والبرهان.»[1]

ثم يستطرد النورسي في أمرين :

1_ بث روح لثقة والأمل لتحفيز الهمم واستنفار العزائم ،وذلك من خلال تباشيره بإزالة الحجب والموانع ،التي كانت سببا في كسف شمس الإسلام وحضارته ،فهذه الموانع بدأت بالانكماش والانسحاب ،وأخذت تنزاح وتنقشع ،وبزغ شمس الإسلام وحضارته ،أو على وشك البزوغ .

[1]-صيقل الإسلام ،المرجع السابق ،ص 495-496 بتصرف .

البشرية إلى السعادتين الدنيوية والآخروية ليس إلا الإسلام والنصرانية الحق ،المنقلبة إلى الإسلام ،والمتفقة معه ،والتابعة للقرآن بعد تحررها من التحريفات والخرافات .[1]

بعد هذا الاستطراد للنورسي نلحظ أمرين :

_ أن النورسي في ذكره للموانع الثمانية أراد أن يذيب حالة الجمود الفكري والنفسي بين المسلمين والغرب ،وأن يزيل الحاجز الذي يعوق أي فرصة تتيح لحوار حضاري بين أبناء الحضارات المختلفة مع احترام كل طرف لمبدأ التعدد الثقافي والعقدي بعيدا عن التقليد ،أو فرض منتجات حضارة ما على الأخرى وخاصة السيئ منها .

_ أن النورسي في النص الأخير يهيئ لعملية التلاقي والتلاقح الحضاري بين الحضارة الإسلامية والحضارة النصرانية ،ولكنه يشترط لتحقيق هذا التهيؤ أن تكون النصرانية الحقة المنقلبة إلى الإسلام ،والمتفقة معه والتابعة للقرآن فإنها هي فقط المعنية بهذا الخطاب وليس النصرانية المحرفة ،المليئة بالخرافات .

لبيان الندية الحضارية بين الحضارتين الإسلامية والنصرانية وإظهاره للقوة المعنوية والمادية التي تمتلكها الحضارة الإسلامية ،وقدرتها على الترقي المادي ،يعلل النورسي عن سبب تأكيده وتبشيره بقيادة الحضارة الإسلامية للبشرية وأنها ستسود المستقبل وتغلب محاسنها بفضل قوة الإسلام،وستطهر وجه الأرض من الأدناس ،وتحقق سلاما عاما للبشرية وذلك لامتلاكها قوى خمسة لا تقهر فيقول : «في قلب العالم الشخصية المعنوية للعالم الإسلامي قد اجتمعت وامتزجت خمس قوى لا تقهر ،وهي في منتهى الرسوخ والمتانة:

القوة الأولى: "الحقيقة الإسلامية" والتي لا يمكن أن تهزمها أية قوة مهما كانت لأنها مجهزة بالمدنية الحقيقية والعلوم الصحيحة والتي أستاذ جميع الكمالات

القوة الثانية :"الحاجة الملحة "والتي هي الأستاذ الحقيقي للمدنية والصناعات المجهزة بالوسائل والمبادئ الكاملة وكذا "الفقر "الذي قصم ظهرنا .

القوة الثالثة :"الحرية الشرعية "التي ترشد إلى سبيل المنافسة نحو المعالي والمقاصد السامية ،والتي تمزق أنواع الاستبداد وتشتتها والتي تهيج المشاعر الرفيعة لدى الإنسان فتجعله يقضا ويميل إلى التجدد والنزوع إلى التحضر وتعني هذه القوة التحلي بأسمى مايليق بالإنسانية من درجات الكمال والشوق والتطلع إليها.

القوة الرابعة :"الشهامة الإيمانية "المرتكزة على الشفقة والرأفة أي لا يقبل الذل لنفسه أمام بطش الظالمين ، أي عدم الخضوع للمستبدين ،وعدم استغلال المساكين واستضعافهم والتكبر عليهم وهذا أساس مهم من أسس الحرية الشرعية .

القوة الخامسة :" العزة الإسلامية " التي تعلن إعلاء كلمة الحق وهذا متوقف في زماننا على التقدم المادي ،والدخول في مضمار المدنية الحقيقة ،ولا ريب أن شخصية

[1]- النورسي ،**صيقل الإسلام**، ص 495-498 بتصرف .

العالم الإسلامي المعنوية ،سوف تدرك وتحقق في لمستقبل تحقيق تام ما يتطلبه الإيمان من الحفاظ على عزة الإسلام .

وكما أن رقي الإسلام وتقدمه في الماضي،كان بالقضاء على تعصب العدو وتمزيق عناده ودفع اعتدائه .. وقددت مذلك بقوة السلاح والسيف ،فسوف تغلب الأعداء ويشتت شملهم بالسيوف المعنوية –بدلا من المادية- للمدنية الحقيقية والرقي المادي ،فقصدنا من المدنية هو محاسنها وجوانبها النافعة للبشرية ،وليس ذنوبها وسيئاتها كما ظن الحمقى من الناس أن تلك السيئات محاسن فقلدوها وخربوا الديار ،فقدموا الدين رشوة للحصول على الدنيا ،غما حصلوا عليها ،ولا حصلوا على شيء ».[1]

بناءا على ما سبق نود أن نقف عند بعض النقاط الهامة والتي تضمنتها هذه القوى في طياتها ومنها :

_أن الجهاد لإعلاء كلمة الله في هذا الزمان هو "الجهاد المادي "[2]. من خلال

التقدم الصناعي والعلمي والاقتصادي وليس الجهاد الحربي والاقتتال وهذا يؤكد على قدرة النورسي العجيبة في استعماله للمصطلحات والمفاهيم وتغيير مسارها المفهومي حسب واقع العصر ومتطلباته وشحنها دائما ببعد ايجابي يتوافق مع القاعدة الإيمانية التي ينطلق منها وتتلاقى مع البعث الحضاري الإسلامي ،الذي يتلاءم مع إنسانية الإنسان ،والكون والواقع والعالم والأشياء، فالجهاد الذي يقصده النورسي هو الجهاد الذي يلتصق فيه الإيمان بالعمل [3] .

_إن رقي الأمة الإسلامية في الماضي تحقق من خلال قضائه على تعصب العدو وتمزيق عناده ودفع اعتدائه بقوة السلاح والسيف ،ولكن بسبب عدم تكافؤ هذه القوة فإنه لا يجب التراخي والتقوقع والتكاسل ،بل يجب أن نبارزهم بالسيوف المعنوية، والحقائق القرآنية ،وهذا يكون أجدى وأفلح وأقوى لمواجهة أعداء الإسلام والكلمة والبراهين والأدلة أقوي خاصة في عصرنا الذي يرمى فيه الإسلام بأنه منبع التطرف والإرهاب –في تأكيد معقولية الحقائق الإسلامية ،وفتحها لمعابر الحوار الحضاري وإبراز جوانب السماحة والاعتدال التي تتميز بها الحضارة الإسلامية .

_ عدم مداهنة المستبدين ،وخاصة بعض العلماء الذين قدموا الدين رشوة للحصول على الدنيا ،وكانوا سببا في تأخر نهضة الأمة ويقظتها الحضارية ،وجروا على أمتنا هذا التخلف المهين ،وكنوا السبب في الأمراض التي أقعدتها ،في وقت انطلق فيه أهل الأرض ينسفون العقبات ،فلم يكفهم أن بلغوا السحاب حتى غزوا الأرض ولم يكفهم أن

[1] - النورسي ،صيقل الإسلام ،ص499-501.

[2]-النورسي ،سيرة ذاتية ،ص528-529.

[3] -المتأمل في كتاب الله نجد دائما لفظ الإيمان مقرونا بالعمل ولقد ورد اقتران العمل بالإيمان في القرآن 49 مرة .

بنو الجواري في البحر كالأعلام حتى غاصوا في أجواف البحار يحملون معهم الرؤوس النووية ،أما علماء السلطان فإنهم تفننوا في طبخ الفتاوى .[1]

الكلمة الثانية :اليأس داء قاتل [2].

يبين النورسي أن اليأس داء قاتل ،وهو أشبه ما يكون بالسرطان ،وهو مانع عن بلوغ الكمالات وهو شأن الجبناء والسفلة والعاجزين وذريعتهم ،وأنه دب في قلوبنا فأوقعنا صرعى كالأموات وقتل في نفوسنا الخصال الحميدة وصرف أنظارنا عن النفع العام وحصرها في المنفعة الشخصية ،وأمات فينا المعنوية ،التي بها استطاع المسلمون أن يبسط سلطانهم على مشارف الأرض ومغاربها بقوة ضئيلة ،ولكن ما إن ماتت تلك القوة المعنوية الخارقة باليأس ،حتى تمكن الأجانب الظلمة أن يتحكموا في ثلاثمائة مليون مسلم ويكبلونهم بالأغلال ،بل وأصبح الواحد بسبب اليأس يتخذ من قتور الآخرين وعدم مبالاتهم ،ذريعة للتملص من المسؤولية ،ويخلد إلى الكسل قائلا: «مالي وكل الناس ،فكل الناس حائرون مثلي »فيتخلى عن الشهامة الإيمانية ويترك العمل الجاد للإسلام .فما دام هذا الداء قد فتك فينا إلى هذا الحد ،ويقتلنا على مرأى منا ،فنحن عازمون على أن نقتص من قاتلنا ، فنضرب رأس ذلك اليأس بسيف الآية الكريمة :" لا تقنطوا من رحمة الله "[3]ونقصم وجهه بالحديث الشريف "ما لا يدرك كله لا يترك جله"، فاليأس مخالف لروح الشهامة الإسلامية قط ،وليس من شأن العرب الممتازين بسجايا حميدة ،هي مفخرة البشرية ،فقد تعلم العالم الإسلامي من ثبات العرب وصمودهم ،الدروس والعبر،وأملنا بالله عظيم أن يتخلى العرب عن اليأس ،ويمدوا يد العون والوفاق الصادق إلى الترك ،الذين هم جيش الإسلام الباسل ،فيرفعوا راية القرآن عالية خفاقة في أرجاء العالم .[4] ولعل النورسي أصاب كبد الصواب ،حين جعل أول أسباب الانحطاط الحضاري للمسلمين وحضارتهم هو" حياة اليأس" واللافت في كلام النورسي شيئين :

1_ أنة بسبب زلزلة الحربين العالميتين ،و ما نتج عنهما من جرائم تدميرية واستعمارية ،أصبح المسيطر على حياة الناس هو اليأس ،وجعل من الحياة ذاتية نفسها،أننا أمددناه بالأسباب والبواعث الكفيلة ببقائه واستمراره .

2_ أن اليأس لم يكن له وجود، على ساحة الحضارة الإسلامية لأنه مناف للتوا بث الإيمانية والأركان الإسلامية ،ولكنه نتاج الحركة الاستعمارية في المقام الأول ،تلك الحركة التي مكنت لنفسها وسياستها وثقافتها ...الخ بترسيخ أسس اليأس في البلدان المستعمرة ،من خلال الاستبداد والقهر والظلم والنهب المنظم للثروات والطاقات وحين أدرك النورسي لدور اليأس التدميري على الحضارة الإسلامية وأبنائها وجه سؤال

---

[1]- هذه النقطة هي موقف توافق بين كافة المصلحين وخاصة الأفغاني ومالك بن نبي والنورسي والقرضاوي وغيرهم ولكن شكيب أرسلان وجه نقدا شديدا ولاذعا فيما يخص هذه النقطة ،وأيضا محمد الغزالي في كتابه **"مشكلات في طريق الحياة الإسلامية** "ص 15-41-42.

[2] - النورسي ،**صيقل الإسلام**، ص 505 -506.

[3] - سورة الزمر :الآية رقم 53.

[4]-النورسي ،**المرجع نفسه** ،ص 505-506

لأصحاب المدنية الغربية الاستعمارية فيقول :«ترى هل يجدي أعظم علومكم ،وأعلى صروح حضارتكم ،وأرقى مراتب نبوغكم ،وأنفذ خطط دهائكم شيئا أمام هذا السقوط المريع للإنسان ؟ وهل يستطيع الصمود حيال هذا اليأس المدمر للروح البشرية التواقة إلى السلوان »[1]

لقد كان النورسي على وعي كبير أن اليأس رأس الكثير من البلايا الأخلاقية[2] وسبب قوي في استئصال أصول السعادة وتضييق الصدر ومنيع السفاهة والتفاهة وذلك أن اليأس مخبوء بسوء الظن ،وينخر السعادة ويقتل الحياة[3] ويعد عاملا رئيسيا في الألم المهين على القلوب ،حتى أنه لا يكاد يطاق صراخه من شدة الألم ،لهذا يقول النورسي :"ألا إن ألم اليأس لا يطاق حقا "[4] .

وتتجلى أهمية تشخيص النورسي لحالة الأمة وسيطرة اليأس على حياتها ،في الكشف عن أهمية الرجاء والإيمان في دفع اليأس عن حياة الأفراد المؤمنين ،المنوط بهم في عملية الإحياء الحضاري ،فالإيمان يمنح صاحبه الصبر والسلوان ،ويقابل اليأس القاتل بالأمل والرجاء في حياة أفضل ولولا الإيمان لشعر المسلم الضعيف الذي هو أجدر بالشفقة والرحمة باضطراب نفسي وقلق قلبي ،ولضاقت عليه الدنيا بما رحبت ولتحولت سجنا رهيبا ،ولا انقلبت الحياة إلى عذاب أليم قاسي .[5]

والنورسي في ذكره لليأس كأحد أمراض الأمة ،وسبب تراجعها الحضاري ،أراد أن يشير إلى أن هذا المرض لا يجد أرضا خصبة له في حاله الإعراض عن ذكر الله – القرآن والسنة – وبعد الإنسان عن المنهج الإلهي المحدد له ، في هذه اللحظة فقط يحيا الإنسان حياة الشقاء واليأس والحرمان والتراجع الحضاري والتخلف قال تعالى :﴿وضرب الله مثل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا منكل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾[6] أما الإيمان بمنهج الله الحق :فإنه هو فقط سبب التقدم ،والسعادة الحقيقية والراحة والطمأنينة ،لأن الشواهد والتجارب التاريخية ،وما قصه القرآن وما ذكرته السنة النبوية ،يثبتون أن الإنسان المتشائم الشقي والمحزون ،لا قدرة له على العطاء ،لأن الحياة في نظره لا تستحق كل هذا العناء ،فالحزين والمتشائم لا يمكن، أن يقيم حضارة ،بل الذي يقيم الحضارة هو السعيد المتفائل ،الذي يرى في المستقبل غدا مشرقا ،والإيمان هو الباعث على الرضا والطمأنينة ،لأن "القلب لا يصلح ولا ينعم ولا يسر ولا يطيب ،ولا يسكن ،ولا يطمئن ،إلا بعبادة الله وحده وحبه ،والإنابة إليه "[7] . فلإنسان مهما أوتي من أمر الدنيا فلن يجد

---

[1]-النورسي ،**الكلمات** ،الكلمة32،ص757-117

[2]-النورسي ،**صيقل الإسلام** ،ص 405.

[3]-النورسي، **الكلمات**، 854—873.

[4]-النورسي ،المصدر نفسه ،ص893

[5]-النورسي **"صيقل الإسلام** ،ص422،**الشعاعات** ،ص229-281.

[6]-**سورة النحل** :الآية 112 وهناك الكثير من الآيات تحمل المعنى نفسه انظر الآية 57 من سورة الكهف والآية رقم 124 من سورة طه

[7]- أحمد عبد الحليم ابن تيمية ، العبودية ،تحقيق : محمد حامد الفقي ،مكتبة السنة المحمدية ،القاهرة ،1996،ص 48.

راحة ولا طمأنينة مادام بعيدا عن الله ومنهجه ،لأن الإنسان مركب من الجسد والروح ،والإيمان هو الذي يقوم بتغذيتهما ،ويمنحهما السعادة والطمأنينة الضرورية للعطاء والإبداع والإعمار للكون،فالمؤمن متفائل أثناء سعيه،وواثق بكرم مولاه في حركته وعمله﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[1]والإيمان يشعر المؤمن بالانسجام والراحة والطمأنينة والأنس مع جميع مخلوقات الله ،ومع جميع ما هو مبثوث في الكون ،ولا يعرف هذه النعمة إلا من فقدها ،فالذين يعيشون في ظل عقيدة محرفة ،ومهتزة غير يقينية ،يعيشون في قلق واضطراب ،رغم ما يملكون من تقم مادي،فإنهم في فقر وتخلف وتقهقر روحي قال تعالى : ﴿وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب ﴾[2]

الكلمة الثالثة:" الصدق أساس الإسلام " يبين النورسي أن تجربته الذاتية في الحياة الاجتماعية والسياسية ،ومن خلال معايشته للحقائق الإسلامية ومدارسته لها ،أن الصدق خلق أصيل في الإسلام ،وأنه منبع الأخلاق الحميدة ويستشهد بعصر الحبيب محمد (ص) وصفوة البشر من الصحابة الأجلاء ،وهو ما يسميه بعصر خير القرون ،ثم مقايسته وموازنته بين الصدق والكذب وأثارهما ،وأن الصدق هو نتاج الإيمان والكذب هو نتاج الكفر ، فنراه يقول :" لقد علمتني زبدة تعليماتي وتحقيقاتي في الحياة الاجتماعية أن الصدق هو أس أساس الإسلام ،وواسطة العقد في سجاياه الرفيعة ومزاج مشاعره العلوية ،فعلينا إذا أن نحيي الصدق الذي هو حجر الزاوية في حياتنا الاجتماعية في نفوسنا ونداوي به أمراضنا المعنوية " إن الرياء والتصنع والنفاق هو نوع من الكذب الفعلي الدنيء المرذول ،والكذب نفسه إنما هو افتراء على قدرة الصانع الجليل ،والكفر بجميع أنواعه كذب ،والإيمان إنما هو صدق وحقيقة ،وعلى هذا فإن البون شاسع بين الصدق والكذب ،بعد مابين المشرق والمغرب .

ولقد سجل النورسي في هذه الكلمة ثلاثة أمور يمكن تسميتها قواعد يجب الإرتكاز عليها أثناء استعمالنا لخلق الصدق ،إذ أن تبليغ الصدق والدفاع عنه ليس محمودا بإطلاق ،وهي :

1_ "إذا كانت الضرورة والمصلحة لا يلتقيان مع الصدق ،فلا يمكن للضرورة والمصلحة أن يكونا علة للكذب ،لأنه ليس للكذب حد معين ،وهو مستنقع ملائم لسوء الاستعمال ،وعلى هذا فالطريق اثنان لا ثالث لهما، إما الصدق وإما السكوت وليس الصدق أو الكذب أو السكوت معا .

2_ عليك أن تصدق في كل ماتتكلمه،ولكن ليس صوابا أن تقول كل صدق ،فإذا مأدى الصدق أحيانا إلى ضرر فينبغي السكوت ،أما الكذب فلا يسمح به قطعا .

[1]-سورة الرعد :الآية 28.
[2]-سورة الشورى :الآية 14.

3_ عليك أن تقول الحق في كل ما تقول ،ولكن لا يحق لك أن تقول كل حق لأنه إن لم يكن الحق خالصا ،فقد يؤثر تأثيرا سلبيا ،فتضع الحق في غير محله "[1]

الكلمة الرابعة :"المحبة : يرى النورسي أن البناء الحضاري لابد وأن تتضافر فيه جميع الجهود البشرية ،ولن يتحقق هذا التضافر إلا بالمحبة والشفقة والرأفة،ويبرز ما خلفته الحربين العالميتين من عداوة وخصام وكراهية بين أفراد الحضارات المختلفة مما سبب انقطاع التواصل الاجتماعي والمعرفي والحوار الحضاري فنراه يقول:"إن ما تعلمته من الحياة الاجتماعية البشرية طوال حياتي،و ما أملته على التتبعات والتحقيقات هو ،أن أجدر شيء بالمحبة هو المحبة نفسها ،وأجدر صفة بالخصومة هي الخصومة نفسها "[2].والقارئ لرسائل النور ،يجد أن النورسي يتناول القضايا المركزية بالتمحيص والتفصيل ،فلا يدأب إن تناول قضية ما ،إلا وتجده قد تناولها في أكثر من موضع أخر في رسائله توضيحا وتفصيلا ،فقضية العداء ،ولأنها تتنافى مع قاعدة كظم الغيظ والعفو والمحبة والأخوة الإيمانية التي رسخها القرآن الكريم كما في قوله تعالى :﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾[3]. فنجد قد تناول علاج الداء بين أفراد الأمة الإسلامية وبين الأمة جمعاء في الكلمات واللمعات وصيقل الإسلام ولكنه خصص لهذا العلاج رسالة "الأخوة" [4] في المكتوبات اتسمت بالشمولية والتفصيل ،والمنهجية التربوية ،والعلمية الدقيقة ،حيث يبين من خلالها ، "أن ما يسببه التحايز والعناد والحسد من نفاق في أوساط المؤمنين وما يوغره في صدورهم من حقد وغل وعداء ،مرفوض أصلا ،ترفضه الحقيقة والحكمة ،ويرفضه الإسلام ،الذي يمثل روح الإنسانية الكبرى ،إذ العداء والمحبة نقيضان كالنور والظلام ،بل هو سم زعاف لحياة البشرية قاطبة "[5] ثم يبين النورسي دور الإيمان الفاعل في إزالة "عهد العداوة والخصام ،اللذين أظهرتهما الحربين العالميتين،وما خلفاه من ظلم فظيع ودمار مريع" [6]بين أبناء الحضارة الإسلامية وذلك من خلال استحضار القواسم المشتركة بين المؤمنين يقول :" إن الإيمان بعقيدة واحدة يستدعي حتما توحيد قلوب المؤمنين بها على قلب واحد ووحدة العقيدة التي تقتضي وحدة المجتمع ،فالإيمان يهب لك من النور والشعور ما يريك به من علاقات الوحدة الكثيرة ،وروابط الاتفاق العديدة ،ووشائج الأخوة الوفيرة ، ،ما تبلغ عدد الأسماء الحسنى،فيرشدك مثلا إلى :أن خالقكم واحد ومالككما واحد ،ومعبدوكما واحد ورازقكما واحد ...وهكذا واحد واحد إلى أن تبلغ الألف ثم إن نبيكما واحد ودينكما واحد ،وقبلتكما واحدة وهكذا إلى أن تبلغ المائة ..وإن كنت تريد أن تعادي أحدا فعاد ما في قلبك من العداوة ،واجتهد في إطفاء نارها ،واستئصال شأفتها ،وحاول أن تعادي من هو أعدى من عدوك وأشد ضررا عليك ،تلك هي نفسك التي بين جنبيك فقاوم هواها ،واسع إلى إصلاحها ،ولا تعادي المؤمنين

---

[1]- النورسي :**صيقل الإسلام** ،ص508 لهذه القواعد والتي يسميها النورسي دساتير انظر مجلد المكتوبات ،المكتوب الثاني والعشرون ،في رسالة الأخوة ،ص342-343.

[2]-النورسي ،**صيقل الإسلام** ،ص509.

[3]- سورة الحجرات الآية رقم 10

[4]-النورسي ،المكتوبات ،المكتوب 22،ص339-358.

[5]-النورسي ،المصدر نفسه ،ص 339-340 بتصرف

[6]-النورسي ،صيقل الإسلام ،ص509.

لأجلها ،وإن كنت تريد العداء أيضا ،فعاد الكفار والزنادقة فهم كثيرون ،واعلم أن صفة المحبة محبوبة بذاتها ،جديرة بالمحبة،كما أن خصلة العداوة تستحق العداء قبل أي شيء آخر ،وإذا أردت أن تغلب خصمك فادفع سيئته بالحسنة فبه تخمد نار الخصومة ..كما أن العداء للمؤمن والحقد عليه ظلم عظيم ،لأنه إدانة لجميع الصفات البريئة التي يتصف بها المؤمن بجريرة صفة جانية فيه ،والآية الكريمة قوله عز وجل :﴿ألا تزو وازرة وزر أخرى ﴾تفيد العدالة المحضة .

ولعلاج داء العداء وإزالته ،ولعدم إعاقته للإحياء الحضاري لدى أفرادا الأمة الإسلامية

يتساءل النورسي "ترى هل هناك إنصاف يرضي أن يمتلئ صدر المؤمن لسنة كاملة غيظا وحقدا على أخيه لشيء جزئي تافه لا يساوي العداء ليوم واحد .علما أنه لا ينبغي أن تنسب السيئة التي أتتك من أخيك المؤمن إلية وحده و تدينه بها وذلك لما يلي :

أولا :القدر الإلهي له حظه في الأمر ،فعليك أن تستقبل حظ القدر هذا بالرضى والتسليم.

ثانيا :أن للشيطان والنفس الأمارة بالسوء حظهما كذلك ،فإذا ما أخرجت هاتين الحصتين،لا يبقى أمامك إلا الإشفاق .على أخيك بدلا من عدائه .

ثالثا:عليك أن تلاحظ في هذا الأمر تقصيرات نفسك ،هي التي لا تراها ولا ترغب أن تراها ،،فاعزل هذه الحصة مع الحصتين السابقتين ، ترى الباقي حصة جزئية ضئيلة ،،فإذا استقبلتها بهمة وشهامة رفيعة ،أي بالعفو والصفح تنجو من ظلم ،وتخلص من إيذاء أحد [1]. والعداوة من أبرز نقائضها من وجهة نظر النورسي هو نتاجها للقومية السلبية ،التي تستثمر للأفكار الدخيلة لتمزيق الأمة الإسلامية [2] استخفافها بالروابط والوشائج الإيمانية والإسلامية والإنسانية وحطاً من شأنها ،وهي أشبه بحماقة من يرجح أسبابا تافهة للعدواة ،على أسباب الجبال الراسيات للود والمحبة .[3]

فالإيمان في نظر النورسي يورث المحبة بين المؤمنين وجميع الكائنات والحضارة حين تنشأ في مجتمع ،لابد لهذه الحضارة من توافر شروط النهضة ،ومن بين أهم هذه الشروط :أن يكون المجتمع مترابطا ،وأقوى الروابط وأهمها هي التي تقوم على الحب بين أفراد المجتمع ،لأنه لا يمكن بناء حضارة إنسانية ويراد لها البقاء من أفراد يسود بينهم الكره والعداء ،إذ لابد لصناع الحضارة أن يعملوا كفريق واحد مترابط ،وهذا لا يتحقق إلا بالحب ،وأن يتفانى كل فرد في سد ثغرة الآخر ،كما كانت الصفوة الأولى من جيل الصحابة الكرام ،وبهذا الاستحضار للمشهد الأول ،وبهذه الروح الحية النابضة تبنى الحضارة .ويتوافق توينبي مع تفسير النورسي ،حيث يرى أن من بين أسباب سقوط الحضارة أن الصفوة تفقد روح التآلف والوحدة والمحبة فقال :"فإذا أصاب الصفوة تصدع وتدهور ،ففي حالات الهيئة الحاكمة لا تزال الجماعة بخير من الناحية

[1]-النورسي،**المكتوبات** ،ص 344-345.
[2]- النورسي ،**الملاحق** ،ص304. انظر أشرف عبد الرافع :**نحو التوحد الإسلامي الكبير** ،ص 95-122.
[3]- النورسي ،**صيقل الإسلام** ، ص 509.

السياسية مادامت هذه الجماعة بما نزل بها من خطوب ،مادامت صفوتها القائدة سليمة ولكن البلاء يأتي عندما تصاب هذه الصفوة أو تفسد أو يقع الشقاق بين أفرادها فتختلف كلمتها وتعجز عن القيادة [1].

ولكن على الرغم من استدلالنا بهذا التوافق ،إلا أنني لا أقر أن حالة السقوط والتزعزع يكون باختلاف وتناحر الصفوة ،ثم تأثيرها على بقية الأفراد فقط، حيث أن صياغة الإسلام للمجتمع المسلم ،والركيزة الإيمانية التي تحتضنهم صفوته وأفراده –تشكل منهم لحمة واحدة ،كجسد واحد:" مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " [2] وتلك تمثل سيمياء هيكلة صناع الحضارة في الإسلام ،وقد مثل الرسول (ص) المجتمع المسلم كبناء محكم مترابط يشد بعضه بعضا ،لأنه مجتمع يرتكز على الإيمان ،فالمؤمنون يشكلون الحجارة القوية في هذا البناء ،والإيمان يشكل الرابط الذي يربط هذا البناء ،ولولا هذا الرابط لظلت الأحجار متناثرة فالإيمان هو الذي وحد بينهم ،وألف بين قلوبهم وبه نشأ البنيان قال تعالى:﴿وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾[3] فالمحبة والترابط والقوة نتاج سلسلة متلازمة ،وأدوات ضرورية لعملية البناء الحضاري ،فالإسلام لا يعرف الطبقة المقيتة ،فالجميع سواسية في الحقوق والواجبات والرسول (ص) قضى على النعرة الطبقية في مهدها ،وعندما أظهرت رأسها حين عير أبو ذر رضي الله عنه رجلا بأمه استنكر رسول الله عليه ذلك وقال له النبي :" أعريته بأمه ،إنه امرؤ فيك جاهلية [4]"

نستنتج مما سبق أن :" أن أسباب المحبة هي الإيمان والإسلام والإنسانية وأمثالها من السلاسل النورانية المتينة،والحصون المعنوية المنيعة ،فالود والمحبة والأخوة من طباع الإسلام وروابطه ،والذي يحمل في قلبه العداء فهو أشبه ما يكون برجل متشائم لا يحسن الظن بشيء مادام سوء الظن ممكنا ،فيحجب عشر حسنات للمرء بسيئة واحدة ومن المعلوم أن هذا مناف كليا للخلق الإسلامي ،القاضي بالإنصاف وحسن الظن ."[5]

الكلمة الخامسة :تضاعف السيئات والحسنات يبين النورسي في الكلمة الخامسة من خلال ما تعلمه من الشورى الشرعية "أن سيئة امرؤ واحد في هذا الزمان ،لا تبقى على حالها سيئة واحدة،وإنما قد تكبر وتسري ،حتى تصبح مائة سيئة ،كما أن حسنة واحدة تتضاعف إلى الآلاف من الحسنات وحكمة هذا وسره هو: أن الحرية الشرعية والشورى المشروعة ،قد أظهرتا سيادة أمتنا الإسلامية فحجر أساسات بناءها وقوام روحها هو الإسلام ، أما الخلافة العثمانية بجيشها التركي من حيث كونهما الحاملين

---

[1]-حسين مؤنس ،**الحضارة** ،ص 130.

[2]- حديث شريف ،رواه الإمام مسلم في صحيحه ،البر،**باب تراحم المسلمين وتعاطفهم** ، ح2586،ج 3 ،ص1999-2000.

[3]-**سورة الأنفال** :الآية رقم 63.

[4]- حسين مؤنس ،**الحضارة** ،ص130.

[5] النورسي ،**صيقل الإسلام** ،ص 510.

لراية الأمة،فهما بمثابة الحصن والقلعة لها و أن العرب والترك هما الأخوان الحقيقيان ،وسيظلان حارسين لتلك القلعة المنيعة .

"وعليه فإن هذا الوقت ليس وقت الإنطراح على فراش كسلا ولا وقت الخلود إلى الراحة وعدم المبالاة بالمسلمين بترديد "أنا مالي" ففهمي القاصر يُصور المجتمع الإسلامي ككل –في زماننا هذا – أشبه بمصنع ذي تروس وآلات عديدة ،فإذا ما تعطل ترس من ذلك المصنع ،أو تجاوز على رفيقه الترس الآخر،فسيختل حتما نظام المصنع الميكانيكي ،إذا فقد آن أوان الاتحاد الإسلامي ،وهو وشيك التحقق لذا ينبغي أن تصرفوا النظر عن تجاوزاتكم الشخصية وليعفو كل واحد عن الآخر "[1].

وينبه النورسي ببالغ الحزن والأسى إلى أن قسما من الأجانب كما سلبوا أموالنا الثمينة وأوطاننا بثمن بخس دراهم معدودة مزورة ،كذلك فقد سلبوا منا قسما من أخلاقنا الرفيعة ،وسجايانا الحميدة ،والتي بها يترابط مجتمعنا ،وجعلوا تلك الخصال الحميدة محورا لرقيهم وتقدمهم ودفعوا لنا نظير ذلك رذائل طباعهم وسفاهة أخلاقهم فمثلا : إن السجية الملية أخذوها منا ،هي قول واحد منهم "إن مت أنا فلتحيا أمتي ،فإن لي فيها حياة باقية "هذه السجية أقوى أساس وأمتنه لرقيهم وتقدمهم ،قد سرقوها منا ،إذ هذه الكلمة إنما تنبع من الدين الحق ومن حقائق الإيمان ،فهي لنا وللمؤمنين جميعا،بينما دخلت فينا أخلاق رزيلة وسجايا فاسدة فترى ذلك الأناني الذي فينا يقول :"إذا متت ظمأناً فلا نزل القطر " و "إن لم أرى السعادة فعلى الدنيا العفاء " فهذه الكلمة الحمقاء إنما تنبع من عدم وجود الدين ومن عدم معرفة الآخرة ، فهي تسممنا ودخيلة علينا ،ثم إن تلك السجية الغالية عندما سرت إلى الأجانب أكسبت كل فرد منهم قيمة عظيمة ،حتى كأنه أمة وحدة ،لأن قيمة الشخص بهمته ،فمن كانت همته أمته فهو بحد ذاته أمة صغيرة قائمة وبسبب عدم تيقظ أناس منا وبحكم أخذنا الأخلاق الفاسدة من الأجانب ،،لأن هناك من يقول نفسي نفسي "[2].

" فمن كانت همته نفسه ،فليس من الإنسان ،لأنه مدني بالطبع ،فهو مضطر لأن يراعي أبناء جنسه،فإن حياته الشخصية يمكن أن تستمر بحياته الاجتماعية فمثلا :إن الذي يأكل رغيفا عليه أن يفكر كم يحتاج إلى الأيدي التي تحضر له ذلك الرغيف ،فهو يقبل تلك الأيدي معنى وكذا لثوب الذي يلبسه ،كم من الأيدي والآلات والأجهزة تضافرت لتهيئته وتجهيزه لتعلموا أن الإنسان مفطور على الارتباط بأبناء جنسه من الناس ،لعدم تمكنه من العيش بمفرده ،وهو مضطر إلى أن يعطي لهم ثمنا معنويا لدفع حاجياته لذا فهو مدني فطرة ،فالذي يحصر نظره في منافعه الشخصية وحدها ،إنما ينسلخ من الإنسانية ،ويصبح حيوانا مفترسا ،اللهم إلا من لا حيلة له ،وله معذرة حقيقية "[3] ، فلقد وضعت هذه الكلمة كما سجلها النورسي في رسائله وذلك لأمرين :

- أنها مركبة بفكر أشبه بالديناميكية،فعناصرها التركيبية متلازمة ومترابطة ومتشابكة.

---

[1]-النورسي ،صيقل الإسلام ،ص 511-512.
[2]-المصدر نفسه ، 512 -513.
[3]-النورسي ،**صيقل الإسلام** ،ص 513-514.

- أنها تحتوي على التحليل الذاتي ،فكل نقطة تليها نقطة شارحة وموضحة للأخرى.

الكلمة السادسة :الشورى

وهذه الكلمة تمثل آخر وصفات النورسي والتي تضمنتها خطبته الشامية وهي كلمة تقدم العلاج المناسب لمرض الاستبداد وكيفية الخلاص منه ،وذلك بالشورى الشرعية ،حيث يقول : إن مفتاح سعادة المسلمين، قال تعالى :"وأمرهم شورى بينهم " [1] .

وإذا انتقلنا لموضع آخر من رسائل النور،فإننا نجد بعض العوامل التي أدت إلى التقهقر الحضاري وذلك من خلال إجابة النورسي على بعض الأسئلة الموجهة إليه ومنها :

سؤال :أأنت تاجر ؟**الجواب**: نعم ،وكيماوي كذلك ...كيف ؟هناك مادتان أمزجهما معا فيولدان ترياقا شافيا ،وضياءا كهربائيا ...أين هم ؟ الجواب :في سوق المدنية والفضيلة ،صندوق يمسي على رجلين مكتوب عليه "الإنسان " فيه جوهر ساطع ،أو أسود قاتم ،وهو القلب ، وما المادتان ؟ الجواب الإيمان والمحبة ..والوفاء والحمية .

سؤال :كان المسلمون هم الأغنياء ،وكان أولئك هم الفقراء ،إلا أن الآية انعكست الآن ،فما الحكمة ؟ .[2]

الجواب :هناك سببان لهذا حسب علمي

الأول :الفتور في السعي وعدم الرغبة ،خلافا لما هو مستفاد من الأمر الرباني :﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾[3]وانطفاء جذوة شوق الكسب المستفاد من الأمر النبوي بأن، "الكاسب حبيب الله " [4] وذلك نتيجة إيحاءات بعض الرجال وتلقينات قسم من الوعاظ الجاهلين ،أولئك الذين لم يدركوا أن إعلاء كلمة الله في الوقت الحاضر،يتوقف على الرقي المادي ، ،ولم يتفهموا قيمة الدنيا ، من حيث هي مزرعة الآخرة ، ولم يميزوا بين متطلبات القرون الوسطى والقرون الأخرى ،ولم يفرقوا بين فناعتين بعيدتين عن بعضهما "القناعة في التحصيل والكسب " وهي المذمومة و " القناعة في المحصول والأجرة " وهي الممدوحة،ولم يتبينوا البون الشاسع بين "التواكل" الذي هو عنوان الكسل و "التوكل ". الذي هو صدفة الإخلاص الحقيقي.

فالأول: هو تكاسل في فقه الاولويات ، اي يأخذ حكم التمرد على النظام القائم بين الأسباب التي هي من قضاء الله و مشيئته تعالى .
والآخر:هو توكل إيماني في ترتب النتائج وهو من مقتضيات الإسلام ،والذي يقود صاحبه إلى التوفيق حتى في النتائج ،شريطة عدم التدخل في التقديرات الإلهية .

---

[1]-**سورة الشورى** :الآية رقم ،38.
[2]-النورسي ،**المرجع السابق** ،ص 402-403.
[3]-**سورة النجم** ،الآية رقم 39.
[4]-حديث شريف ،كشف الخفاء 157/1 "أفضل الأعمال الكسب الحلال "

فالتبس عليهم كلا الأمرين ،ولم يتفرسوا سر" أمتي ..أمتي" [1] ولا يفهمون حكمة "خير الناس أنفعهم للناس " [2] وهؤلاء هم الذين حطموا ذلك الميل وأطفئوا ذلك الشوق .
والسبب الثاني هو سلوكنا في المعيشة مسلكا غير طبيعي ،مسلكا يوافق الكسل و يلائمه ويداعب الغرور ويربت عليه ،وهو المعيشة على الوظيفة الحكومية ،لذا لقينا جزاء ماكسبت أيدينا إن الطريق.
س:كيف ؟
ج: إن الطريق المشروع للمعيشة ،والسبيل الطبيعي والحيوي إليها هو "الصناعة ،الزراعة ،التجارة " أما الطريق الغير الطبيعي ،فهو الوظيفة الحكومية والأمارة ،بأنواعها وعندي أن الذين جعلوا مدار معيشتهم "الأمارة " _ وإن تسمت بأي اسم كان-فهم في زمرة الشحاذين العاجزين المتسولين ،ومن زمرة المخادعين الحاليين .
والباحث فيما كتبه المفكرون والمصلحون وما سجلوه من تفسيرات لعوامل التقهقر والانحدار الحضاري للأمة الإسلامية يجد أمرين :
شمولية التفسيرات :أي عدم الارتكاز على عامل تفسيري واحد وأبرز ممن تنطبق عليهم هذه الشمولية النورسي وأرسلان والغزالي ولكن النورسي تبرز لديه الشمولية المتكاملة من خلال طرحه لعوامل التقهقر وأسبابها وطرق علاجها ،أي تحليله لأسباب الداء ،ثم طرحه للعلاج وكيفية الدواء ،ولعل أهم شيء يلفت الانتباه في هذه الشمولية المتكاملة ،هو ارتكازها على الميزان الإيماني أثناء الطرح ،واستنادها على الامتزاج بين الإيمان والعقل ،وهو ما يمكننا تسميته بـ "الإيمان العقلي" المنبثق من العقل الإيماني ومرجع ذلك أن هذه الشمولية مستمدة من القرآن والسنة الصحيحة .
أحادية التفسيرات : أي الارتكاز على عامل واحد تفسيري مع ذكر في بعض الأحيان بعض العوامل الثانوية الأخرى ،وأبرز ممن تنطبق عليهم هذه الأحادية جمال الدين الأفغاني ،ورفاعة الطهطاوي ومالك بن نبي فجمال الدين الأفغاني كان يرى أن الاستبداد هو العائق للتقدم والطهطاوي يرى أن الجهل وعدم التلاقح الحضاري مع الغرب هما السبب في تراجع الأمة ،ومالك بن نبي يرى أن الاستعمار كان العال الأساس في تقهقر الأمة حضاريا ،وعمد إلى القرصنة الفكرية والثقافية ،وأذاب هوية الأمة وكبلهم بمرض القابلية للاستعمار وسلب الأشياء معناها ،واستهدف تحطيم كل إرادة أو شبه إرادة تدفع المستعمر إلى التقدم والحضارة ،ببرنامج يتطلب كل ما يتطلبه التحطيم المعنوي ،من تلويث أخلاقي يحط من قيمة الفرد الشخصية ويسلبه حريته ،وكفاءته وجهده في المسابقة الاجتماعية كما تصبح من ناحية أخرى المخدرات والكحول مؤسسة من مؤسسات الحكم ،لا يقف أحد إزاءها موقفا عدائيا إلا ويعرض نفسه للمساءلة ويصنف في أجهزة البوليس بأنه شخص خطير ويمكننا أن نلخص هذا الجانب في كلمة واحدة إنه أيسر على القاصر أن يحصل على من السلطات الاستعمارية على رخصة فتح مقهى من أن يحصل على رخصة فتح مدرسة .[3]

---

[1]- حديث أخرجه البخاري ،وهو جزء من حديث الشفاهة الطويل برقم 3361،3340،ومسلم برقم 194
[2]- حديث صحيح ،صحيح الجامع الصغير ،رقم 6538.
[3]- مالك بن نبي ،**في مهب المعركة** ،ط7 ،،دار الفكر بدمشق ،2006،ص32-47 ،بتصرف .

والنورسي يتوافق مع مالك بن نبي على أهمية العامل الاستعماري ،كمؤثر حقيقي في حالة التراجع الحضاري للأمة ،ولكنه لا يتوافق معه على أنه العامل الأوحد أو الأول ،ولكنه من جملة العوامل التي تلي التراجع الإيماني عند المسلمين ،ويؤكد على أن "الأوربيين ولا سيما شياطين إنجلترا وأباليس الإفرنج خصماء معاندون أبدا للمسلمين وأهل القرآن "[1]و يخاطب الغرب من خلال مظلته وعنوانه الاستعماري فيقول النورسي :«أيها الوسواس الخناس ،إن السبب الأصلي للسيئات التي ارتكبها رؤساء أمورنا ما هو إلا أنت ،لأنك قد ضيقت عليهم الدنيا ،وقطعت كل فرصة في مجاري حياتهم ، وشتت بينهم أولادك غير الشرعيين ،وأجبرتم على ترك الدين للدنيا ،إذ تنكحهم مدينة لا تأخذ مهرها إلا من دينهم ،ولا تعين حاكما إلا وقد أخذت دينه منه رشوة لقـــــــــاء منصبه »[2]وابن باديس يرى أن البدع والضلالات التي زحفت على المنهج الصوفي ،والبعد عن المنهج الشرعي الصحيح -القرآن والسنة – هما السبب الرئيسي في زيادة نسبة الجهل والعطالة مما نتج ذلك التقهقر الحضاري .

ويتوافق النورسي مع ابن باديس ،بأن التصوف الذي كان قائما على تربية الروح وتطهير النفس الإنسانية ،وتجسيد القيم الإسلامية الرفيعة ،أصبح في العصور المتأخرة أسرع الميادين في الثقافة الإسلامية تعرضا للانحلال والهدم ،واصطباغ الدين بصبغة الجهل والتخريف ،بل إن بعض الطرق الصوفية تحولت في بعض الأحيان إلى مراكز لابتزاز أموال الأتباع والمريدين وإلى أبواق لمحاربة ما تبقى من العلوم العقلية والعلمية ، فضل بعض المتصوفة الانزواء والتقوقع والتواكل والتقليد،على الاجتهاد والابتكار، واتجهوا إلى الشعوذة والتدجيل لهذا لاحظ النورسي أن احتياج العصر يتطلب إثبات الحقائق الإيمانية وتثبيتها ،وإعادة ربط التصوف بالحياة ،من أجل إعادة الفاعلية الحضارية لأمة الشهادة ،وحل الأزمات التي لحقت بالمسلمين فكرا وممارسة ،ولتحقيق ذلك أرى أن يكون الانطلاق من قاعدة الإيمان التي تحفظ للأمة توازنها أمام مغريات الحضرة الغربية المادية ولهذا أكد النورسي :" أن هذا العصر ليس بعصر التصوف والطريقة ،وإنما هو عصر إنقاذ الإيمان ..نعم، لا يمكن دخول الجنة بدون إيمان بينما يدخلها الكثيرون جدا بدون تصوف "[3]

ولكن على الرغم مما سبق ذكره ،فإنهم جميعا يتلاقون على أن الابتعاد عن الإيمان التفعيلي الحركي ،وعن المنهج الإسلامي الصحيح ،كان الأساس في تواجد العلل والأمراض التي أدت إلى لتراجع الأمة عن دورها الريادي للحضارة الإنسانية ،وهذا المنهج هو الذي صلح به حال أوائل الأمة من الصحابة والتابعين الكرام وشادوا بهذا المنهج أروع حضارة عرفتها البشرية وسجلها التاريخ لهذا يتوافقون على أهمية الرجوع إلى المنهج الإيماني المتفاعل في جميع مناحي لجوانب الحضارية وأنه لن يصلح حال هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

---

[1]- النورسي ،**المثنوي العربي النوري** ،تحقيق :إحسان قاسم ،سوزلر ،القاهرة ،2004،ص 180.
[2]- النورسي ،**صيقل الإسلام** ،ص 553.
[3]- النورسي ،**المكتوبات** ،ص 79محمد الصمدي ،أعمال مؤتمر العدالة باستانبول ،ص 275.

فبعد أن استعرضنا تفسير النورسي للعوامل التي أدت للتقهقر الحضاري للأمة الإسلامية ،وطرحه لكيفية إزالة هذه العوامل العائقة للتقدم والنهوض وبيانه للطرق العلاجية لابد وأن ننوه إلى أسس المدنية الإسلامية من المنظور النورسي وإن كنا مررنا عليه في السابق فبناءا على ما سبق نلاحظ:

_ أن النورسي انطلق في عرضه لأسس المدينة الإسلامية من قاعدة القرآن والسنة وكل أساس من أسس هذه المدينة خارج من بوتقة الإيمان ،ونابعة من روح الإنسان المؤمن ،وهذا التصور النورسي يرتكز على قناعة تامة ،بأن "الإسلام هو منهج حياة واقعية بكل مقوماتها ،منهج يشمل التصور الإعتقادي الذي يفسر طبيعة الوجود ويحدد مكان الإنسان في هذا الوجود ،كما يحدد غاية وجوده الإنساني ،ويشمل النظم والتنظيمات الواقعية التي تنبثق من ذلك التصور الاعتقادي وتستند إليه وتجعل له صورة واقعية متمثلة في حياة البشر ،كالنظام الأخلاقي ،والينبوع الذي ينبثق منه ،والأسس التي يقوم عليها ،والسلطة التي يستمد منها والنظام السياسي وشكله وخصائصه ،والنظام الاجتماعي وأسسه ومقوماته ،والنظام الإقتصادي وفلسفته وتشكيلاته ،والنظام الدولي وعلاقاته وارتباطاته "[1]فنجد أن، النورسي ينطلق من خلال قناعاته الإيمانية بتكامل التصور الإيماني للمدينة الإسلامية في التصور الإسلامي "إن للتصور الإسلامي مقوماته التي يتألف منها قوامه ،ويقوم عليها كيانه ،مثلما أن له خصائصه التي تتميز بها ملامحه ،وتنفرد بها شخصيته ....تلك المقومات وهذه الملامح ،جاء ليطبعها في الضمير البشري ،وليقيم عليها منهجه الواقعي ونظامه العلمي ،وليحول بها خط سير التاريخ الإنساني ،وليعلن بها ميلاد الإنسان الجديد وحضارته ،إذ يعلمه إلغاء عبودية الإنسان للإنسان والأشياء والأحياء في كل صورها وأشكالها وذلك بإعلان أن الإنسان عبد لله وحده"[2]وكما تمت الإشارة إلى أهم الأسس التي تقوم عليها المدينة الإسلامية ، وذلك من خلال اطلاعنا على رسائل النور كالكلمات والمكتوبات واللمعات وان كانت لا تخلو من أسس متناثرة بين ثناياها والمتمعن في هذه الرسائل يجد أن غالبيتها هي تصور وتفسير شامل ومتكامل لمشروع حضاري إسلامي وتصور وتفسير دقيق للأسس والمرتكزات التي تتطلبها المدينة التي يرغب في تحقيقها كبديل عن المدنية الغربية .

ويوضح لنا بديع الزمان النورسي أهمية البعد الإيماني الذي ترتكز عليه المدنية الإسلامية في بنائها الحضاري من خلال استرجاعه للصورة الأولى التي أحدثها النبي (ص) في شبه الجزيرة العربية واستناده على نفس البعد ،،وتفعيله واقعا عمليا ،فأحدث ثورة أخلاقية وحضارية وقيمية ،شهد بها العالم إلى يومنا هذا ،وبهذا البعد الإيماني سادوا العالم وكان لهم السبق في كل الميادين لهذا نرى النورسي يعطي لنا تصورا لطبيعة مدينة المؤمنين التي تؤسس على الإيمان وكيف أنه بسر الإيمان والتوحيد تتعانق وتنطلق جميع المخلوقات والكائنات،والكون بأسره ،للنهوض والتعمير والتقدم وتحقيق الاستخلاف المأمور به والمنشود يقول :"إن مدينة المؤمنين باطنها أعلى من

[1]-سيد قطب ،**المستقبل لهذا الدين** ،دار الشروق ،القاهرة ،2005،ص3.
[2]- سيد قطب ،**مقومات التصور الإسلامي** ،دار الشروق ،القاهرة ،2006،ص15.

ظاهرها ،ومعناها أتم من صورتها ،في جوفها إنسية وتحبب وتعاون ،والسر: أن المؤمن بسر الإيمان والتوحيد يرى أخوة بين كل الكائنات ،وإنسية وتحببا بين أجزائها ولاسيما بين الآدميين وبين المؤمنين ،ويرى أخوة في الأصل والمبدأ والماضي وتلاقي في المنتهى ،والنتيجة في المستقبل "[1]

فنجد أن بديع الزمان سعيد النورسي حين أثر البعد الإيماني كمرتكز لفلسفته في النهوض الحضاري ،فذلك لأنه يرى أن الإيمان التحقيقي يحتوي على أمرين في غاية الأهمية ،ويضمنان التقدم والتمدن المنشود وهما :

-النور المعرفي الكاشف ،والمرشد الأمين للنهوض الحضاري الملائم للإنسان وطبيعته الإستخلافية .

-القوة الدافعة للتعمير،والقوة اللازمة لتحدي كل ما يعوق مسيرته الحضارية .

لهذا يقول النورسي عن الإيمان "كما أن الإيمان نور ،وهو قوة أيضا فالإنسان الذي يظفر بالإيمان التحقيقي –أي الإيمان الحركي التفعيلي –يستطيع أن يتحدى الكائنات ،ويتخلص من ضيق الحوادث مستندا إلى قوة إيمانه ...لأن الإيمان يجعل الإنسان إنسانا حقا ،بل يجعله سلطانا "[2]ولعل تفاؤل النورسي :"بأن الإسلام وحده سيكون حاكما على قارات المستقبل حكما حقيقيا ومعنويا ،وهو الذي سيقود البشرية إلى السعادتين الدنيوية ،والأخروية "[3]"وأن أزاهير آسيا وإفريقيا ،وبساتين نصف أوروبا ستفتح وتزدهر بنور الإسلام "[4]فهذا التفاؤل مؤسس على ثقة بالمنهج الإيماني التحقيقي الموحى به وهو منهج الإسلام الحضاري ،الذي سار على خطواته النبي وصحابته الراشدين ،هذا بالإضافة إلى أن هذا المنهج الإيماني يضم بين جنباته قوى حضارية دافعة للتقدم لا تقهر ، وإلى هذا يستشهد النورسي بما قاله أليكسس كاريل ،فيقول :"لقد جاء الإسلام على تلك الملل الكاذبة والنحل الباطلة فابتلعها لأنه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة "ثم يستطرد فيقول :"إن الذي سيقود البشرية إلى السعادتين الدنيوية والأخروية ليس إلا الإسلام ،وان الإسلام مستعد للرقي المادي والمعنوي لأن في قلب الشخصية المعنوية للعالم الإسلامي قد اجتمعت وامتزجت خمسة قوى لا تقهر .

_ الحقيقة الإسلامية :التي هي أستاذ جميع الكمالات ،والمثل ،الجاعلة من ثلاثمائة وخمسين مليون مسلم كنفس واحدة ،والمجهزة بالمدنية،والعلوم الصحيحة .

---

[1]- النورسي ،**المثنوي العربي النوري** ،تحقيق :احسان قاسم الصالحي ،سوزلر ،القاهرة ،2004،ص181.
[2]-النورسي ،**الكلمات** ،ص352-353 .
[3]-النورسي ،**صيقل الإسلام**، ص449.
[4]-النورسي ،**سيرة ذاتية**، ص102.

_ الحاجة الملحة :التي هي الأستاذ الحقيقي للمدنية والصناعات المجهزة بالوسائل والمبادئ الكاملة ،والفقر الذي قصم ظهرنا ،فالحاجة والفقر قوتان لا تسكتان ولا تقهران

_ الحرية الشرعية :التي ترشد البشرية إلى سبل التسابق والمنافسة الحقة نحو المعالي والمقاصد الأمية ،والتي تعني التحلي بأسمى ما يليق بالإنسانية من درجات الكمال والتشوق والتطلع إليها.

_الشهامة الإيمانية : المعتمدة على الرحمة والرأفة والشفقة بمعنى :عدم مداهنة المستبدين ،وعدم التحكم بالمساكين،وهذا أساس من أسس الحرية الشرعية .

_ العزة الإسلامية التي تعلن إعلاء كلمة الله ،وفي زماننا هذا يتوقف إعلاء كلمة الله على التقدم المادي ،والدخول في مضمار المدينة الحقيقية .

لذلك نرى أن النورسي حين ينطلق في طرحه وتصوره لأسس المدنية الإسلامية وتفاؤله بمستقبل الإسلام ،وتأكيده على استعداد الإسلام للرقي المادي والمعنوي بسبب احتضان الإسلام لأبرز خمس قوى دافعة لتحقيق ذلك ،نرى انه نابع من شمولية دراسته العميقة والمتأنية لأصول الحضارة الإسلامية وأسسها وغاياتها وأهدافها ومسيرة تطورها ونموها ،ومراحل تقدمها وتأخرها ، ،وأن الأسباب الفاعلة في كلا المرحلتين –تقدمها وتأخرها – تكمن في مدى الحضور الإيماني وغيابه في المشهد الحضاري ،وفي التربية الواعية للضمير والأخلاق ،وكيف أنه بالإيمان تغيرت شبه الجزيرة العربية ،بل وجميع البلاد التي تم فتحها على يد من تربوا على الإيمان التحقيقي .ول نظرنا إلى جميع المرتكزات والأسس السلبية للمدنية الغربية ،نجد أن نفس هذه المرتكزات وتلك الأسس ،تغيرت في المدنية الإسلامية ،وتحولت إلى مرتكزات وأسس ايجابية بفضل التواجد الإيماني ،وأثره الراسخ في الفعل والعمل والسلوك والقول وفي جميع مناحي المرتكزات والجوانب الحضارية . فتغيرت بذلك الأسس السلبية إلى مرتكزات وأسس حضارية إيجابية ،وكل هذا بفضل ظهور الإسلام ،الذي أعاد مسيرة التوحيد إلى خريطة الكون ،بعد أن اندثرت ،والحافز الإيماني الذي أعاد الفطرة الإنسانية إلى طبيعتها وحفزها في الفوز برضي الله والثواب الأخروي ،عن طريق العمل الصالح وذلك من خلال الربط الوثيق بين الإيمان والعمل،والمتصفح لكتاب الله يجد أن معظم آيات الإيمان مقرونة بالعمل الصالح .فيمكن القول أن اعتماد النورسي على مصدرية القران والسنة النبوية مكنه أن يستقي منهم الأسس والمرتكزات ،التي تساهم في تحقيق الإحياء الحضاري من جديد لأمة الشهادة ،وتعيد لها الفاعلية الحضارية بين حضارات العالم ،ومن خلال ذلك الإحياء ،تكشف عن صورة الإسلام الحقيقية ومنهجه السمح المعتدل الذي يبتغي لخير للإنسانية ،ولكن ذلك كله لن يتحقق

إلا بالسير على طريق تلك الأسس التي استقاها ن القرآن والسنة ،وألا يحيدوا عنها وعن تحقيق غاياتها وأهدافها .وهذا ما أكد عليه محمد الغزالي :" بأن الحياة الإسلامية تكون أنضر حياة على الأرض وأرقاها وأعلاها ،بقدر شدة ارتباط المسلمين بالمصحف الشريف وبالنبوة التي طبقت أحكامه ،وأبرزت أهدافه ، وجعلت الحياة العامة والخاصة تستمد وجودها وضياءها من آياته وهداياته ،وعلى العكس من ذلك ،فإن سقوط المسلمين كان يوم قطعوا حبل الإسلام واستهانوا بروابطه ،فهم مطالبون بتطويع الحياة لخدمة الدين وتوجيه النشاط الفردي والجماعي لخدمة الرسالة العامة وتحقيق غاياتها ،وأن الكدح لله تعالى يتجاوز المسجد ،ليشمل المزرعة، والمصنع والمرصد ، والسوق ،والقصر والبحر والبر،وما يكتب وما يقرأ ،ويشمل همسات النفوس وأحلام النيام ، فالإسلام رسالة تجعل من معتنقيها،يعيشون بمجتمع أقدر على الحياة وأجدر بالنجاح"[1]

2.2.1تصور النورسي للبعد الإيماني في الجوانب الحضارية الإسلامية:

1.2.2.1المستقبل للإسلام وحضارته الإيمانية :نبحث في هذا العنصر عن مركزية التصور النورسي للبعد الإيماني في بعض الجوانب الحضارية واستخلاص رؤية النورسي المستقبلية واقع العالم الإسلامي ورؤيته وتفسيره للأبعاد الحضارية بجميع جوانبها تفسيرا يرتبط فيه الفكر بالواقع ،والنظر بالتطبيق بداية من الجانب الاجتماعي ودور الإنسان في النهوض الحضاري باعتباره أبرز محاور الارتكاز الحضاري والجانب الثقافي والعلمي ودورهم في النهوض الحضاري ،خاصة في عصرنا الحاضر،وأهمية العلم والمعرفة الإيمانية لبناء الإنسان روحيا وعقليا ،والنهي عن التقليد،ودعوة النورسي لإعمال العقل الإيماني والاجتهاد وهذا ما نشهده من تطورات واختراعات خاصة في الصين والتي غزت العالم بأفكاره وعلمها ولعل أثر البعد الإيماني في الجوانب الحضارية في فكر النورسي واضح جلي ،ولعل هذا التصور الحضاري الذي نحن بصدد الحديث عنه في فكر النورسي ،نستطيع أن نؤكد على أنه تصور مستمد من الرؤية الحضارية القرآنية للحياة والكون والإنسانية كما أن تصوره نابع من معايشة حقيقية لما كانت تعانيه الكثير من القرى التركية من تخلف وفقر وجهل ،ولكن البارز في فكره الحضاري والإصلاحي أنه ليس فكر محلي قاصر على الوضع الذي يعيشه فقط ولكنه تخطى ذلك إلى التصور الحضاري والإصلاحي العالمي ،ومرجع ذلك هو اتساق فكره مع عالمية الإسلام وكتابه.

1.1.2.2.1الإيمان دعامة الحضارة الاجتماعية :

[1]- محمد الغزالي ،**مشكلات في طريق الحياة الإسلامية** ،نهضة مصر ،القاهرة ،2005،ص3-4 بتصرف .

" إن كون التشريع الإلهي هو مصدر تنظيم هذه الحياة ،فإنه يضفي عليها مسحة من القداسة يجعل أفرادها يشعرون بأنهم مرتبطون برباط يظله الدين في كل خطوة من خطواته ،فيقيمون حكامه عن رضا واختيار وطيب نفس وارتياح بال "[1]

ولو نظرنا إلى مشهد الحياة الاجتماعية وحضارتها الراقية في الرسول (ص) وصحابته الأجلاء ،لعرفنا كيف أن هذا الدين أثرى الحياة الاجتماعية بالمفاهيم التي تحقق لها اليقظة الفعلية ،وتقيم أركانها على دعائم راسخة من تقوى الله ،تحميها وتصونها وترشدها ،وتساهم في تعمير النفس الإنسانية والكون والحياة ويؤكد الإمام النورسي من خلال حديثه عن عقيدة الحشر والإيمان باليوم الآخر [2] على أهمية الإيمان كدعامة أساسية في تنظيم الحياة ، وعلى احتياج الإنسان للإيمان كأساس لحياته الفردية والاجتماعية ، وأنه أساس لجميع كمالاته ومثله وسعاته ،وهذا التأكيد من خلال التذكير والربط بين الإيمان بالحياة الدنيا الوقتية ،وبين الإيمان بالحياة الأخروية الباقية الخالدة والهدف والغاية التي يريد النورسي تحقيقها ،هو فتح باب الأمل والرجاء ،وقطع طريق اليأس والقنوط،ثم بيان أن ما سيقوم به من تعمير حضاري وخاصة في حياته الاجتماعية " فإنه سيكافأ على خدماته الجليلة غير المحدودة،بعمر مديد غير محدود وهو أهل له "[3]ويبين النورسي ما يحققه الإيمان من تميز لمدينة المؤمن فيقول :"اعلم أن الفرق بين مدينة الكافرين و مدينة المؤمنين ،أن الأولى :وحشة مستحالة ،ظاهرها مزين باطنها مشوه،صورتها مأنوسة سيرتها موحشة ...ومدينة المؤمنين :باطنها أعلى من ظاهرها ،معناها أتم من صورتها ،في جوفها أنسية وتحببا بين أجزائها لاسيما بين الآدميين ،ولاسيما بين المؤمنين ،ولاسيما بين المؤمنين ،ويرى أخوة في الأصل والمبدأ والماضي وتلاقيا في المنتهى ،والنتيجة في المستقبل ،وأما الكافر ،فبحكم الكفر له أجنبية ومفارقة بل نوع من العداوة مع كل شيء لا نفع له فيه،حتى مع أخيه ،إذ لا يرى الأخوة إلا نقطة اتصال بين افتراق أزلي ممتد ،وفراق أبدي سرمد...وقد بينت الفروق بين مدينة القرآن والمدنية الحاضرة في "اللوامع والسانحات "[4] فراجعهما لترى فيهما أمرا عظيما تغافل ،عنه الناس كما أن تنامي الأخوة بين المسلمين يسرع في هز لمدنية الحاضرة ويقرب دمارها ،وستتبدل صورة المدنية الحاضرة ،وسيقوض نظامها وعندما تظهر المدنية الإسلامية ،وسيكون المسلمين أول من يدخلونها بإرادتهم وان

أردت التدقيق بين المدنية الحاضرة والمدنية الشرعية فدقق النظر في أسس كل منهما ثم انظر إلى آثارهما "[5]

2.1.2.2.1_الإنسان في فكر النورسي :فبعد أن تطرقنا إلى دور الإنسان في صناعة الحضارة الآن نتحدث عن الإنسان باعتباره المرتكز الأول والأساس في التقدم والبناء والرقي ،وبه ومن خلاله يتحقق المطلوب هدفا وغاية ،و النورسي جعل كل جل

---

[1]- زينب رضوان :**النظرية الاجتماعية في الفكر الإسلامي** ، دار المعارف ،القاهرة ،1982، ص145.
[2]- النورسي ،**الشعاعات** ،ص 228-230.
[3]- النورسي ،**خديجة النبراوي** ، ص237دور رسائل النور في يقظة الأمة ،ص 177.
[4]- النورسي :**الكلمات** ،اللوامع ص854، **صيقل الإسلام** :السانحات ،ص355-360.
[5]- النورسي :**المثنوي العربي النوري** ،ص181،الكلمات:ص 857،845 بتصرف .

اهتمامه وفكره الإنسان ببعديه :التكويني والغائي ،ورأى أن التأسيس لأي مشروع حضاري يرجى ديمومته،لابد وأن يستهدف فيه أولا إصلاح الذات الإنسانية الفردية والجماعية ،وأن يجيب عن مجموع من الأسئلة التي تكشف للإنسان سر وجوده من أين؟وإلى أين ؟ما تصنعون ؟ من سلطانكم ؟ ومن أين مبدؤكم ؟ وإلى أين المصير؟[1] إجابة يقنع بها العقل ويرضي غروره ،ويطمئن إليها القلب ،وترتاح إليها النفس ،وتتلاقى مع فطرة الإنسان السليمة ،وهي أسئلة في مجموعها تشكل تاريخ الفكر الفلسفي ،ولكنه فكر وتاريخ لم يقدم حلا كافيا أو إجابة .[2]

ويخاطب النورسي الإنسان من خلال حديثه مع نفسه التي يحدد لها خلاصة وظائفها في الحياة ويجيب عن أسئلتها فيقول : " إن كنت تريدين أن تفهمي شيئا من :غاية حياتك ،ماهية حياتك ،صورة حياتك ،سر حقيقة حياتك ،كمال سعادة حياتك ،فانظري إلى مجمل غايات حياتك فإنها تسعة أمور "[3] ثم يلاحظ النورسي بوجود تداخل في هذه الوظائف التسعة، فيعود إلى صياغتها ،وإجمالها في ثلاث وظائف جامعة ،من بينها :

"كون الإنسان مرآة عاكسة لتجليات أسماء الله الحسنى ومظهرا لها " [4]ولعل أكثر مايلفت الانتباه ، هو حديثه عن تجليا الأسماء الحسنى وفاعليتها في التاريخ والكون من خلال الإنسان ، وهو ما يمكننا تسميته "الإنسان بين وظيفة المرآة العاكسة والفاعلية الحضارية "[5]

ومن خلال تتبع الإنسان في دائرة رسائل النور ،فإننا نرى أن النورسي ينظر إلى الإنسان بشمولية متكاملة ،فتكاملية الإنسان عنده تبدو من خلال تكوينه التكاملي الذي يشتمل على :[6]

_ التكوين العقائدي الإيماني الذي يؤدي إلى تعميق البعد التعبدي والروحي والاتصال بالله .

_ التكوين الفكري والمعرفي : الذي تستقيم به رؤية الإنسان ونظرته للكون والحياة والإنسان ،فيكون بذلك منتظما في فكره ومعرفته ،ويصبح عقله مستقيما مع غاياته ومقاصده ،ملتزما لحدوده ، مرابطا في ما أتيح له من النفاذ في أقطار السماوات والأرض بحثا عن الحق والخير .

---

[1]- النورسي ،**صيقل الإسلام** ،ص185.

[2]- هذا ما انتهى إليه سارتر بعد تناوله لقضية الإنسان حيث يقول : " إن الإنسان هو الموجود الذي يشعر بأنه قد وجد جزافا ،ويدرك ذاته بوصفه عبثا لا طائل تحته و،القاهرة ،ب ت ،ص7.

[3] - النورسي ،**الكلمات** ،137-138.

[4] - النورسي :**اللمعات** ،ص 182-183 .،593-597،الكلمات : ص 65-828،96-829.

[5]-عبد الحليم عويس : **رجل الإيمان والتجديد في وجه العلمانية والتقليد سعيد النورسي** ،سوزلر ،القاهرة ،2003،ص 23-36.

[6]- عبد العزيز برغوث:**موقع نظرية العلم في عملية الاستخلاف والتحضر عند النورسي** ،،أعمال مؤتمر نحو فهم عصري للقرآن ،نسل ،تركيا 1997،ص 38.

_ التكوين النفسي:الذي تبنى به نفسية الإنسان وإرادته وتطلعاته وتصوراته ،بصورة تسمح له بحمل الرسالة والأمانة على وجهها المطلوب ،فيكون بذلك قادرا على التضحية والبذل والعطاء من أجل تحقيق مشروعه الإستخلافي في الحياة .

_ التكوين السلوكي والعملي :الذي يصبح به الإنسان المعبر الحقيقي عن عقيدته وشريعته ورسالته ومبادئه ،فتنسجم وتتوازن في حياته النظرية والتطبيقية والكلام والفعل ،والفكر والسلوك .

_ **التكوين الاجتماعي والثقافي** : الذي يعطي للفرد والجماعة أدوات الاتصال الاجتماعي والثقافي التي تجعل المسلم غير معزول عن تيار الوعي العالمي ،ومعتزا بثقافته و تراثه وتاريخه .

فتكاملية الإنسان عند النورسي تعني التكوين العقائدي والفكري والنفسي والروحي والسلوكي والاجتماعي والثقافي مجتمعة في وحدة منهجية شاملة بحيث تتجسد واقعا حيا في تفاعلاته الحياتية ،ويكون معبرا عن حقيقة المنهج الإسلامي ونموذجا للإنسان الرسالي الكامل .

ولعل مركزية الإنسان في الفكر النوري لا يمكننا حصرها واستعراضها ومناقشتها ،فالرسائل جميعها تدور في فلك ذلك المخلوق المكرم لذلك سنقتصر على عرض بعض النقاط التالية :

_ **الإيمان بالله ومعرفته أشرف غاية :**تتعدد مظاهر تكريم الله للإنسان ومنها :أنه خلقه في أحسن تقويم ،وفضله على كثير من مخلوقاته ،وأهله ليكون موضع خطابه وأرسل له أنبائه ورسله وأنزل إليه كتبه ،وحمله أمانته ،وسخر له مخلوقاته ،وتكفل بتيسير رزقه حال تقواه ،من حيث لا يحتسب ،وأي تكريم يتصل بالإنسان أو يكون هو موضوعه ،يكون في موقع يتطلب من الإنسان السعي الحثيث إليه لينالـه بالعمل والجد والعزيمة ،فالتكريم قرين النشاط الإنساني في إطار الهداية القرآنية .

فيرى النورسي أن أعظم تكريم للإنسان ،وأسمى غاية للخلق ،واشرف وأعلى مرتبة ،وأفضل مقام للبشرية هو " الإيمان بالله ومعرفة الله التي في ذلك الإيمان وأن أزهى سعادة للإنسان والجن ،هو محبة الله النابعة من تلك المعرفة "[1]ففي هذا النص يرسم النورسي موقع معرفة الله تعالى وأهميتها في بنية الحياة الإنسانية ويقرر ضمنيا أنه لا يتصور الإنسان في غياب أربعة أمور منها : غاية تعطي لوجوده معنى ،وموقع لائق به في الكون ،وسعادة وطمأنينة تلبي حاجته الوجدانية ..ومتعة صافية تجيب الأشواق"[2] " وأهمية معرفة الله والإيمان به عائدة بنتائجها على الإنسان من ناحيتين :

1_ أن الترقي المادي الذي وصل إليه الإنسان، يقتضي بلوغ أضعافه من الترقي الروحي ،لأن تكريم الإنسان وعلو منزلته كان لأجل الروح ،والروح أسمى من المادة

---

[1]-النورسي ،**المكتوبات** ،ص 298.

[2]-مصطفى فوضيل :**النظرة القرآنية للإنسان** ،المؤتمر العالمي الخامس للنورسي ، البحوث العربية ،2002م ص 312، 313،

ومن أجل المحافظة على الترقي المادي وديمومته ،كان لابد من ترقي الروح وهذا لا يكون إلا بالإيمان بالله ومعرفته، وتكريم الإنسان بهذه المعرفة به إلى استقامة التفكير،وسلامة المنهج في قراءة هذا الوجود وأسمائه الحسنى .

2_ أن الإيمان بالله ومعرفته يمدان الإنسان بأعظم نقطتين لا غنى للإنسان عنهما :"نقطة الاستمداد ..ونقطة الاستناد،فهما ضروريتان لروح الإنسان حيث إن قلب الإنسان مثلما ينشر الحياة في سائر الجسد ،فإن العقدة الحياتية فيه وهي معرفة الله تنشر الحياة إلى آمال الإنسان وميوله المتشبعة في مواهبه واستعداداته غير المحدودة ..فهذه هي نقطة الاستمداد ،والمعرفة الإلهية نفسها هي نقطة الاستناد للإنسان أمام تقلبات الحياة ودواماتها ،وأمام تزاحم المصائب والنكبات عليه[1]

3.1.2.2.1العبادة وأثرها في نفس الإنسان والمجتمع :العبادة بوجه عام عنوان الترقي والكمال الإنساني "إذ الإنسان كالملك في كلية العبادة ،وشمول النظارة ،وإحاطة المعرفة ودلالية الربوبية ،بل أجمع منه إلا أن له نفس شريرة مشتهية ،فله ترقيات وتدنيات "[2]وهذه إشارة من النورسي إلى زيادة الإيمان ونقصانه ،وإلى ضرورة مجاهدة أهواء النفس ما لم الإنسان بطبيعته وفطرته يسعى نحو لترقي والكمال .

ويتسع مفهوم العبادة عند النورسي وأثره في الترقي الحضاري وخاصة في الجانب الاجتماعي ،ليشمل العمل على وفق سنة التدافع والمجاهدة داخل النفس وخارجها وهو ما يتطلب رقي الإنسان وفي هذا السياق يذكر النورسي :"أن الإنسان يتبع فنون التدافع والمبارزة إتباعا شديد الغرابة ،حيث يفتح أمامه باب المجاهدة التي يدور عليها رقي جميع الكلمات "الإنسانية وتكاملها"[3]

وللإيمان والعبادة أثرهم الذي لا يخفى حضارته ،سواء على نفسية الإنسان حضارته ولعل نظرة سريعة على سيرة الرسول وصحابته تؤكد كيف أنهم –الإيمان والعبادة- جددوا طبيعة الإنسان وقاموا بخلقته خلقا جديدا [4].

4.1.2.2.1_الإيمان وأثره في السلام الاجتماعي :إن السلام الاجتماعي هو الركيزة الأساسية التي تبنى عليها الشعوب والأمم حضارتها،لأنه يوفر المناخ الملائم لعملية التنمية في كل المجالات والأمة التي يسودها السلام الاجتماعي هي أمة يسود بين أفرادها الحب والإخاء والتعاون ،وتسودها الفضائل والمثل وبهذا تستطيع أن تشيد أركان حضارتها على دعائم ثابتة من العدل والحياة الكريمة بصرف النظر عن حجم مواردها الاقتصادية ،حيث سينخفض الاستهلاك إلى أدنى مستوياته نتيجة البعد عن التبذير والإسراف ،ويعتلي الإيثار نتيجة أن كل مؤمن يؤثر أخاه على نفسه حتى

---

[1] - النورسي : **المثنوي العربي النوري** ،ص431،**صيقل الإسلام** ص122 . د.زياد خليل الدغامين : **من قضايا القرآن والإنسان في فكر النورسي** ،سوزلر ،القاهرة ،2009 ،ص 109،-139.

[2]-النورسي:**المثنوي العربي النوري** ،ص479.

[3]- النورسي ،**اللمعات** ،ص145. وتقابل تلك المجاهدة عند أغلب مفكري الإسلام ما ذكره توينبي في فلسفته للحضارة ب"**التحدي والاستجابة** " وإن كانت أكثر شمولية وعدالة عند النورسي .

[4] توفيق محمد سبع :**قيم حضارية** ،ج2،ص 47-74.

يتساوى الجميع ولو في الكفاف هذا من ناحية الطلب والاستهلاك :أما من ناحية العرض والاستهلاك ، فسيتفانى الجميع في أعمالهم المنوطة بهم ،ويسعون إلى استثمار كل مواردهم التي حباهم الله بها من بحار وأنهار ومعادن وأرض زراعية وجبال وحتى الصحراء يحكمهم الإخلاص والتعاون المثمر، والعدالة في توزيع موارد الثروة الاقتصادية والرقابة على الضمير ،النابعة من روح الإيمان ،وهكذا فالسلام الاجتماعي ليس أمرا هينا ،أو ألفاظ يتلاعب بها ،بل هو مبادئ وضرورية ،ودعائم أساسية لكل أمة تسعى لتحقيق الحضارة الحقيقية ،ولهذا اهتم الإسلام اهتماما بوضع القوانين والتشريعات التي تكفل تحقيق ذلك السلام الاجتماعي ،سواء تشريعات الحدود والعقوبات للجرائم المختلفة :مثل القتل والزنا والسرقة ،أو التشريعات التي تنظم الحياة الاجتماعية :مثل تشريعات الزواج والطلاق والبيع والشراء،أو صياغة التشريعات الوضعية التي تتطلبها مستجدات العصر ومقتضيات الحال ولا تخالف النصوص الشرعية[1].

والسلام الاجتماعي وآدابه لا يتحقق إلا من خلال العقيدة السليمة الصحيحة ،ثم الفهم السليم الواعي والعميق لمنهج الله وتعاليمه وخطابه للبشرية ،والتي من خلالها ينظف الإنسان نفسه من أدرانها ،ويعالج ما أصاب قلبه من أمراض، ويتفهم جيدا طبيعة وظيفته في الكون والحياة ،ويقف على حقوقه وواجباته ،ويسعى لتعمير أخرته من خلال ما يقوم به من أعمال صالحة يعمر بها دنياه ،وهذا ما وقف عليه النورسي واصل له في رسائله .

1.4.1.2.2.1 الأسس والمرتكزات التي يتحقق بها السلام الاجتماعي :

* **الأخوة**[2] : قال تعالى ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾[3]

﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾[4].

إن ما يسببه التحايز ،والعناد والحسد من نفاق وشقاق ،في أوساط المؤمنين وما يوغر في صدورهم من حقد وغل وعداء ،مرفوض أصلا ،ترفضه الحقيقة والحكمة ،ويرفضه الإسلام ،الذي يمثل روح الإنسانية الكبرى ،فضلا على أن العداء ظلم شنيع ،يفسد حياة البشر :الشخصية والاجتماعية والمعنوية ،بل هو رسم زعاف لحياة البشرية قاطبة ،ويؤصل النورسي لتحقيق الأخوة يتلخص مجملها في أن الأخوة تتنافى مع العداء وأن عداء الإنسان لأخيه ظلم في نظر الحقيقة وفي نظر الحكمة،ويستشهد بالسنة بأنه لا يحل لمسلم هجر أخاه ،وأن إضمار العداء للمؤمن والحقد عليه ظلم وإدانة لجميع الصفات البريئة التي يتصف بها المؤمن،ثم يبين النورسي ما تتطلبه الأخوة بين أبناء الحضارة من الاختلاف الايجابي وليس السلبي فيقول :إن الاختلاف الوارد في الحديث

---

[1]- خديجة النبراوي :**المرجع السابق** ،ص 198-215. بتصرف ،حسن أيوب :**السلوك الاجتماعي في الإسلام** ،ط5 ،دار التراث العربي ،القاهرة ،1987،وهو كتاب مهم جدا بالنسبة لأي أسرة ولا غنى عنه .

[2]-النورسي ،**المكتوبات** ،المكتوب الثاني والعشرون ،**رسالة الأخوة** ،ص 335-347.

[3]-**سورة الحجرات** ،الآية رقم 10.

[4]- **سورة فصلت** ،الآية رقم 43.

" اختلاف أمتي رحمة " هو الاختلاف الايجابي البناء المثبت ومعناه: أن يسعى كل واحد لترويج مسلكه وإظهار صحة وجهته ،وصواب نظرته ، دون أن يحاول هدم مسالك الآخرين أو الطعن في وجهة نظرهم وإبطال مسلكهم ،بل يكون سعيه لإكمال لنقص ورأب الصدع ،والإصلاح ما استطاع إليه سبيلا .

أما الاختلاف السلبي :فهو محاولة كل واحد تخريب مسلك الآخرين وهدمه ومبعثه الحقد والضغينة والعداوة .

الإخلاص[1] :«إن الإخلاص بوجه عام هو أساس الرفعة والتقدم ،وهو بوابة القبول والفوز بالدارين ،وهو المقصود والمطلوب في العبادة والعمل ،وبدونه تنشأ المزاحمة والمنافسة والحسد والغيرة ،فيتبدل الوفاق نفاقا ، والاتفاق اختلافا وتفرقا ،فلا يشفى هذا المرض العضال إلا مرهم الإخلاص الناجع ،أي : أن ينال المرء شرف امتثال الآية الكريمة :﴿ إن أجريَ إلا على الله ﴾[2] بإيثار الحق والهدى ،على إتباع النفس الهوى ،وبترجيح الحق على أثرة النفس باستغنائه عن الأجر المادي والمعنوي مدركا أن استحسان الناس كلامه وحسن تأثيره فيهم ونيل توجههم إليه هو مما يتولاه الله سبحانه وتعالى ومن إحسانه وفضله وحده وليس داخلا ضمن وظيفته التي هي منحصرة في التبليغ فحسب ،بل لا يلزمه ذلك ولا هو مكلف به أصلا ،فمن وفقه الله إلى ما ذكر آنفا يجد لذة الإخلاص،وإلا يفوته الخير الكثير،ويصف النورسي تسعة أمور علاجية لتحقيق الإخلاص منها :

_ إيجابية العمل البناء، وهو عمل الإنسان بإخلاص وإتقان للوصول إلى الطريق الصحيح فحسب، فعليه أن لا يدخل جهات أخرى في تفكيره أو علمه ولا يهون من شأنهم و لا يهتم بهم أصلا .

_ عليه أن يتقصى روابط الوحدة الكثيرة ، التي تشترك في منابع الإسلامية المعروضة في الساحة والتي ستكون مشارب محبة وسبل أخوة وانسجام فيما بينها .

_ اعتماد دستور الإنصاف مرشدا ودليلا ،وهو أن صاحب كل منهج حق يستطيع القول :"إن منهجي حق وهو أفضل وأجمل" من دون أن يتدخل في مسالك الآخرين ولكن لا يجوز له أن يقول :" الحق هو مسلكي فحسب" أو "أن الحسن والجمال في مسلكي وحده " الذي يقضي على بطلان المسالك الأخرى وفسادها .

_ الحفاظ على الحق والعدل بإيجاد شخص معنوي،وذلك بالاتفاق مع أهل الحق للوقوف اتجاه أهل الضلالة والباطل .

_ إن الاتفاق مع أهل الحق هو من التوفيق الإلهي وهو من منابع الكرامة .

_ ولأجل إنقاذ الحق من صولة الباطل .

---

[1]- النورسي ،**اللمعات** ،اللمعة العشرون والواحد والعشرون ،ص 225- 251.
[2]-**سورة يونس** ،الآية رقم 72 .

_ترك غرور النفس وحظوظها.

_ وترك ما يتصور خطأً أنه من العزة والكرامة .

_وترك دواعي الحسد والمنافسة والأحاسيس النفسانية التافهة .

وبهذه النقاط التسع يظفر بالإخلاص ويوفى الإنسان وظيفته حق الوفاء ويؤديها على الوجه المطلوب»[1] ثم يستشهد النورسي بحديث صحيح ليؤكد من خلاله على أهمية تضافر الجهود بين المسلمين والنصارى الحقيقيين لتشييد حضارة إنسانية مؤسسة على الإيمان ومواجهة المد الإلحادي الذي يعوق التقدم والاستقرار الحضاري فيقول :" لقد ثبت بالحديث الصحيح أن المتدينين الحقيقيين من النصارى سيتفقون في آخر الزمان ،مستندين إلى أهل القرآن للوقوف معا تجاه عدوهم المشترك الزندقة ،لذا فأهل الإيمان والحقيقة في زماننا هذا ليسوا بحاجة إلى الاتفاق حتى مع الروحانيين المتدينين الحقيقيين من النصارى ،فيتركوا مؤقتا كل ما يثر الخلافات والمناقشات دفعا لعدوهم المشترك الملحد المعتدي " [2].

2.4.1.2.2.1كيفية تحقيق الترابط بين أبناء الحضارة الإسلامية :

يرى الإمام النورسي أن القومية الإيجابية المؤسسة على الإيمان هي السبيل لتحقيق التعاون والترابط ،أما القومية السلبية فهي هادمة لأي تقدم ،ويؤصل لهذا بقول الله تعالى: ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ﴾[3]أي خلقناكم شعوبا وطوائف وأمما وقبائل لكي يعرف بعضكم بعضا وتتعرفوا على علاقاتكم الاجتماعية ،لتتعارفوا فيما بينكم ،ولم نجعلك قبائل وطوائف لتتنا كروا فتتخاصموا،ونقول بيانا لدستور التعارف والتعاون ،أن المجتمع الإسلامي الشبيه بالجيش العظيم، فقد قسم إلى قبائل وطوائف،مع أن لهم ألف جهة وجهة من جهات الوحدة ،إذ خالقهم واحد ورازقهم واحد ،ورسولهم واحد ،وقبلتهم واحدة ، وكتابهم واحد ،ووطنهم واحد ، وهكذا واحد واحد إلى غاية الألوف، من جهة الوحدة التي تقتضي الأخوة والمحبة والوحدة.

ثم يبين النورسي أن القومية قسمان :

1_ قسم منها سلبي مشؤوم مضر –وهي القومية السلبية يتربى وينمو بابتلاع الآخرين ،ويوم بعداوة ن سواه ،ويصرف بحذر ،وهذا يولد المخاصمة والنزاع ،ولقد ظهرت طوال التاريخ أضرار كثيرة نجمت عن القومية السلبية نذكر منها :أن الأمويين خلطوا شيئا من القومية في سياستهم ،فاسخطوا العالم الإسلامي ،فضلا عما ابتلوا ببلايا وأوغلوا في هذا العصر ،نجم العداء التاريخي المليء بالحوادث المريعة بين الفرنسيين والألمان ،كما أظهر الدمار الرهيب الذي أحدثته الحرب العالمية ،مبلغ الضرر الذي يلحقه هذا الفكر السلبي للبشرية .

---

[1]- النورسي ،**اللمعات** ،ص 228-229.

[2]-النورسي ،**اللمعات** ،ص 229

[3]- **سورة الحجرات** :الآية رقم 13.

2_ **القومية الإيجابية** : وهي نابعة من حاجة داخلية للحياة الاجتماعية ،وهي سبب للتعاون والتساند وتحقق قوة نافعة للمجتمع ،وتكون وسيلة لإسناد أكثر للأخوة الإسلامية ،هذا الفكر الإيجابي القومي ،ينبغي أن يكون خادما للإسلام أن يكون قلعة حصينة له ،وسورا منيعا حوله ،لا أن يحل محل الإسلام ،ولا بديلا عنه .[1]ولعل أبرز ما يحذر النورسي منه أبناء الحضارة الإسلامية ،والإنسانية جمعاء هو البعد عن التعصب ،والتطرف والعنف والجهل ،والتقليد الأعمى ، والتحرر من الأنانية والعجب والغرور...لأنها لا تتفق مع المنهج الإيماني وطبيعة المؤمنين لأنها عائقة للتقدم والرقي وسبب للهلاك وسلب السعادة في الدنيا والآخرة .[2]

وخلاصة القول أن النورسي كان على قدر كبير من الوعي بالمزاج الثقافي والفلسفي السائد في عهده ،وهو ذلك المزاج المتأثر بالفلسفة النفعية الغربية ،التي شكلت الكثير من العقول ، على ألا تتعامل مع الأفكار في سياق امتحانها ،بميزان الحق ، واتخاذ موقف القبول منها أو الرفض بما تثمره تلك الأفكار في الواقع من منفعة للإنسان ،حلا لمشاكله النفسية والاجتماعية ، فاستثر إذن هذا المزاج الثقافي ، الفلسفي ،وأفسح المجال في استدلاله على عقيدة البعث للأدلة المثبتة للمنفعة الدنيوية ،كي تكون مدخلا يدخل منه الإيمان بهذه العقيدة إلى غير المؤمنين ،ويدخل المزيد من اليقين إلى المؤمنين بها ،ولقد أجتهد في أن يستجمع أدلة متعددة ،ومتنوعة ،تخاطب في الإنسان كيانه أجمع – عقلا وحسا وعواطف وغرائز –ليدخل بالإيمان من الباب الذي يأنسه صاحبه ويناسبه ،فيعود نفعه المثمر على الفرد والمجتمع والعلاقات الأسرية ويرشد المؤمن في تصرفاته ،ولكي يبين أن الاهتمام بصلاح الآخرة هو عين الاهتمام بصلاح الدنيا وأن الحضارة الإسلامية في ظل الإيمان تقدس الإيمان المطلق المتوازن بين الدنيا والآخرة ،وبين المادة والروح ،وبين الإيمان والعمل.

ولقد استطاع النورسي أن يمنحنا خريطة متكاملة ،وتصورا شاملا لما يجب أن تكون عليه الحضارة الإسلامية في أهم جوانبها ،وهو الجانب الاجتماعي وقدرته العجيبة على صياغة خطوات متلازمة ومترابطة لواقع الحركة الاجتماعية في الحضارة الإسلامية وبناء منهج تدافعي حركي ،لا يؤدي للصدام والتنازع ،وإنما يؤدي للتكامل والتعاون ،منهج يرشد الطاقات ويستثمرها في الاتجاه الإيجابي ويستجمع قوى العالم الإسلامي ، ويوظفها في اتجاه التغيير الحضاري القائم على استيعاب شروط الحياة المعاصرة وأدواتها واصطباغها بصبغة الله .

لقد أعطانا النورسي: « المعنى الأولي للحضارة ،أن معنى التحضر هو أن يتعلم الإنسان –من خلال الوازع الديني ، كيف يعيش في جماعة ، ويدرك في الوقت ذاته، الأهمية الرئيسية لشبكة العلاقات الاجتماعية في تنظيم الحياة الإنسانية من اجل وظيفتها التاريخية ،ولعل جميع القوانين ،التي أملتها السماء ،أو وضعتها محاولات البشر ،هي في حقيقة الأمر إجراءات دفاعية ،لحماية شبكة العلاقات الاجتماعية وبدونها لا تستطيع الحياة الإنسانية أن تستمر ،لا أخلاقيا ،ولا ماديا فالوصايا العشر الموحى بها إلى سيدنا

[1]- النورسي ،**المكتوبات** ،ص 413-417 بتصرف.
[2]- أشرف عبد الرافع الدرفيلي ، **الحرية والمعرفة** ، ص

موسى ،هي من الصور التي تظهر فيها تلك الإرادة العليا ،التي تحوط وجودنا الاجتماعي من كل جانب ،بشبكة من الحماية الإلهية ، وهي تعلمنا أن نعيش مع أهلنا وأقربائنا :لا تقتل، لا تسرق، لا تكذب الخ بل إن جميع المبادئ الأخلاقية دينية كانت أو لا دينية ، إنما تنتهي إلى هذا الأساس المقدس،الذي يرتفع فوقه بناء الإنسانية،الأخلاقي ،كما أنه هو الذي يؤمن نشاطها المشترك أثناء سعيها للتقدم والرقي وحركته التاريخية ».[1]و "حين نقارن بين الوضع الاجتماعي في عهد الرسول (ص) وصحابته وكيف وصلت العلاقات الاجتماعية إلى ذروة الكمال والاكتمال بفضل الإيمان الصادق حتى أن الإسلام استطاع أن يجمع المهاجرين والأنصار،والأوس والخزرج تحت مظلة الإسلام وكيف وصل الأمر من التضحية والإيثار بين أفراد المجتمع ،حتى أن الواحد منهم كان يعرض على الآخر ماله وداره وحين نقارن ما أصاب المجتمع الإسلامي من تراجع حضاري ،حين تشرذم هذا المجتمع وتناحر وتنافر " كما في موقعة صفين "فأخرجه من جو المدينة والمدنية ،الذي كان مشحونا بهدي الروح و بواعث التقدم ،إلى جو دمشق ،حيث تجمعت مظاهر الترف وفتور الإيمان "[2].

ولعل أبرز ما يمكننا أن نستوحيه من فكر النورسي ونحدده ،أنه فكر يقوم على تحديد المرتكزات اللازم لتحقيق المفهوم الشامل لعملية الاستخلاف ومنها

* المرتكز التوحيدي للاستخلاف:وذلك بربط الإنسان الخليفة بخلقه وجعله متصلا بالله.

* المرتكز الكوني للاستخلاف:وذلك بربط حركة الإنسان الخليفة بالكون ودعوته إلى التأمل والسير في الأرض ،واستعمارها وتسخيرها لتحقيق النهوض المنشود ،وإثبات جدارته في حمل الأمانة التي عرضت عليه وقبلها باختياره .

*المرتكز الحضاري للاستخلاف :وذلك بتوجيه الإنسان ولفت نظره إلى الجمع بين متطلبات الجسد والروح ،والدنيا والآخرة .

*المرتكز الأخروي للاستخلاف: يربط حركة الإنسان بالجزاء الأخروي المضمون في حالة استقامته على الطريقة وحمله الأمانة على وجهها الصحيح وهذا المرتكز هو الذي يقدم الدعم النفسي والمعنوي للإنسان، عندما يضمن له ثمرة جهاده ونتيـــــــــجة للصالحات .[3]

3.4.1.2.2.1الجانب العلمي والثقافي :تنطلق رؤية الإسلام إلى العلم وعنايته بالمعرفة بمختلف أنواعها وتعدد مجالاتها وآفاقها ،من اهتمام الله تعالى وعنايته البالغة بتعلم البشر –منذ بدء الخليقة جملة من العلوم وأصنافا من المعارف التي تفي بحاجته ،والتي لا تستقر الحياة بدونها ، حاضرا ومستقبلا ،تمكن من تعمير الأرض والاستقرار فيها وليطمئن من الخلافة فيها، وإدارة شؤونها ،التي هي الوظيفة الأساسية ،والحكمة

---

[1]- مالك بن نبي: **ميلاد مجتمع** ، تر :عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ،دمشق ،سوريا ، 2006 ،ص94-95.

[2]- مالك بن نبي ،**شروط النهضة** ،تر :عمر كامل مسقاوي ،عبد الصبور شاهين ،دار الفكر ،دمشق ،سوريا ، 2006،ص 52-53.

[3]-د عبد العزيز برغوث :أعمال مؤتمر ،**نحو فهم عصري للقرآن ،موقع نظرية العلم في عملية الاستخلاف والتحضر عند النورسي** ،نسل ،تركيا ،1998،ص 38.

الكامنة من خلقه ووجوده على قيد الحياة ، وليكون أفضل مخلوقات الله تعالى وأشرفهم في هذا الوجود المتميز وخير دليل على ذلك قوله تعالى :" وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ " [1]

وهذا دليل على أن الإنسان ما فاز بالتشريف والخيرية والاستخلاف ،إلا بسبب ما تميز به سائر مخلوقات الله بالعلم والمعرفة .فالإسلام يقر أنه لا يمكن أن يسموا بالأمة إلى المستوى الأعلى والأرقى ،والانطلاق بهم إلى بلوغ الكمال إلا بالعلم والمعرفة وإعمال العقول وتشغيلها في النظر والتفكير الحر فيما أودع الله في هذا الكـــــــــون البديع . [2]ولقد ساد المسلمون الأوائل بفضل دعوة القرآن المعرفية لهم العالم كله وشيدوا حضارة عظيمة ،ولكن شيئا فشيئا وبسبب البعد عن المصدر المعرفي الأول للمسلمين- القرآن الكريم –كان الانحطاط الحضاري والعلمي في كثير من بلاد المسلمين " وذلك لأن واقع الجهل الذي ربطنا بديننا جعلنا نتمادى في الابتعاد عن مراميه البناءة حتى بات الدين غريبا بيننا ،ومما زاد الوضع تفاقما هو انحرافها المعرفي عن أصول هذا الدين القويم " [3] ثم يستنهض النورسي الأمة الإسلامية ويحثهم على أن " يحفروا بالفكر الملي في جوف الأمة حوضا للمعرفة "[4]،وذلك لأن " مستقبل الإسلام وآسيا يكمن في قوة الإسلام الحقيقية المدعمة بالمعرفة والمدنية " [5]وإذا " سأل أحد بما تقوم المدنية ، ؟فالجواب على المعرفة والصناعة والتجارة ،وإذا سأل: بم تدوم البشرية وتبقى؟ فالجواب بالعلم والعمل" .[6]

ثم يبرز النورسي للأمة الإسلامية سؤالا يستفز به القوى الكامنة في النفوس ويستنفر هممهم وعزيمتهم ،لكي يبين أنهم ليسو اقل شأنا من الأمم الأخرى بل الأفضلية لنا إذا نهلنا من منبع المعرفة الموحى به من السماء فيقول :" لماذا تكون الدنيا ميدان تقدم وترق للجميع وتكون لنا وحدنا ميدان تأخر وتدن " [7].

فقطار الزمن لا ينتظر من يتخلف عنه ،بل يمضي في طريقه لا يلوي على شيء ويترك من وراءه من المتخلفين ،فالذي يملك ناصية العلوم والمعرفة ،فإنه يمسك بعوامل التقدم والنهوض والذي لا يملكها فإنه يمسك بعوامل التقهقر الحضاري والتخلف والرجعية ،ويكون أسير دليل لمن يملك ناصية العلوم والمعرفة ،ولعل ما ذكره "شمعون بيريز " :« يؤكد هذا ،حيث قال :إن رخاء الأمة يأتي حصيلة تجميع العلوم والمعرفة ،فالمعرفة هي الثروة الحقيقية على أعتاب القرن الحادي والعشرين

---

[1]-**سورة البقرة** ،الآية رقم ،31.

[2]-داود عبدا لكريم زكريا :**عنايه الإسلام بالعلم والمعرفة** ، نقلا من صحيفة الدعوة الإسلامية ، العدد رقم 1122، ص 11، بتصرف .

[3]- د،عشراتي سليمان ، **النورسي في رحاب القرآن** ، سوزلر ، القاهرة ،1999م.ص 324.

[4]-النورسي :**صيقل الإسلام** ،ص416.

[5]- النورسي ،**صيقل الإسلام** ،ص55 .

[6]-النورسي ،**المصدر نفسه** ،ص74.

[7]-النورسي، **سيرة ذاتية** ، ص114.

،وأن مواقع الصدارة والهيمنة سيكون للمبادئ القائمة على العلوم والمعارف ،التي يتم إحرازها في الجامعات ومعاهد الأبحاث »[1].

إن العلم والتعلم أمر طبيعي في كل عمران بشري ،ولكن ما تميز به العصر الإسلامي من نهضة علمية ،كان مبعث اهتمام ،وويل ديورانت يقول :"بأنه لم يبلغ الشغف لاقتناء الكتب في بلد آخر من بلاد العالم ما بلغه في بلاد الإسلام خلال هذه القرون حيث وصل إلى ذروة حياته الثقافية ، وأن عدد العلماء في آلاف المساجد المنتشرة في هذه البلاد من قرطبة إلى سمرقند ،لم يكونوا يقلون عن عدد ما فيها من أعمدة "[2]

ولعل التوجيه النبوي لطلب العلم واعتباره فريضة على كل مسلم ،وقوله صلى الله عليه وسلم:" من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين " وقوله صلى الله عليه وسلم :"من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع" وقوله(ص):"من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة " وغيرها من الآيات والأحاديث ،جعلتهم لم يقفوا بجهودهم العلمية والمعرفية عند نتاج عقولهم وأفهامهم ،بل اتجهوا بالنقد البناء والتمحيص ،إلى علوم السابقين يدرسون ويبحثون ، ليخرجوها ن زوايا الإهمال والنسيان ،وهذا ما أكدته الكاتبة الألمانية الدكتورة "زغريد هونكه" في كتابه "شمس الله تشرق على الغرب " حيث تقول :" إن هذه الطفرة العلمية الجبارة ،التي نهض بها أبناء الصحراء من العدم ،من أعجب النهضات العلمية الحقيقية في تاريخ العقل البشري ،فسيادة أبناء الصحراء التي فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة وحيدة في نوعها ،ويحار الإنسان في تعليلها وتكييفها ،لقد انتقلوا من امة الأمية إلى أمة العلم وقادة الفكر" [3].

_ضرورة ترابط العلم بالإيمان [4]:

"العلم في الإسلام دعامة أساسية له وقاعدة رسالته والقرآن مصدر العلوم وينبوع المعارف ،وأداة لنشر العلم وتوجيه العلماء وهذا ما أ كده النورسي بقوله " إن الخطاب القرآني يخاطب كل طبقة من طبقات البشر في كل عصر من العصور وكأنه متوجه إلى تلك الطبقة بالذات ،إذ لما كان القرآن يدعو جميع بني آدم بطوائفهم كافة إلى الإيمان الذي هو أسمى القضايا وأدقها ،وإلى معرف الله وأنوارها ،وإلى الأحكام الإسلامية التي هي أهم المعارف وأكثرها تنوعا ويوقفنا على الترجمة الأساسية لهذه الكائنات[5] ، وهذا يؤكد أنه " لا تناقض بين العلم والدين"[6] فعلى الرغم من كون العلم بمفهومه الدلالي يعد ركنا أساسيا لأي مشروع حضاري ،فإن العلم ببعده ومرجعيته

---

[1]-د محمد عبد النبي :**بديع الزمان والمناعة من آثار العولمة** ،أعمال مؤتمر العولمة والأخلاق ، ص67.

[2] -أحمد عبد الرحيم السايح :**فلسفة الحضارة الإسلامية** ،المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ،1989،ص91-39.

[3]- أحمد السايح ،**المرجع السابق** ،ص136-138 بتصرف .

[4]النورسي ،**الشعاعات** ،ص257-261. **اللمعات** :ص532-534، كيف استطاع النورسي أن يربط بين العلوم الحديثة والإيمان ويجعلها مراقي لمعرفة الله وذلك من خلال إجابته على بعض الأسئلة .

[5]-النورسي: **الكلمات** ،ص 24-27 بتصرف .

[6]-النورسي :**سيرة ذاتية** ،506.

الإيمانية التوحيدية يعتبر الركيزة الأساسية للنهضة الإسلامية[1]، فهما متلازمان ومترابطان في الحضارة الإسلامية ،وفي ذلك يقول النورسي :" إن حكمة مجيء الإنسان إلى هذه الدنيا والغاية منه هي معرفة خالق الكون سبحانه والإيمان به،والقيام بعاداته ،كما أن وظيفة فطرته ،وفريضة ذمته ،هي معرفة الله والإيمان به" .[2]

فالبشرية من الممكن أن تتقدم وتزدهر وترقى بالتطور العلمي والتكنولوجي بعيدا عن تأليه العلم والطبيعة والتنكر للدين ،إلا أن هذا التطور والازدهار سوف يكون هشا وشكليا ما لم يتضمن في جوهره بعدا إيمانيا خالصا يستطيع الإنسان من خلال هذا الجوهر وذلك البعد ،أن يجعل من "الإيمان "طريقا إلى العلم والمعرفة "زمن "العلم والمعرفة "طريقا "للإيمان ".

والمعرفة الإيمانية التي رسم النورسي ملامحها وخط حدودها ووضع مفهومها و أبعادها ،منبثقة من فهمه لقول الله تعالى :" سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسكم حتى يتبين لهم أنه الحق "[3]فما من معرفة مما تتبادلها العقول فيما بينها ،إلا وترجع في أصولها الأولى إلى واحدة من المعارف الثلاث الآتية :

_ معرفة كونية :تشمل علوم ما في الأرض و السماوات وما بينهما وما تحت الثرى .

_ معرفة إنسانية :تشمل الكينونة الإنسانية وكل ما يتعلق بالإنسان فردا ونوعا ظهارا وباطنا .

_معرفة إلهية :ترتبط بوجود الله تعالى وبربوبيته وأسمائه وشؤونه في خلقه .

فهذه المعارف الثلاث متلازمة ،فليس ثمة معرفة منفردة ومستقلة ومنعزلة في هذا العالم وهي تمثل زوايا مثلث متساوي الأضلاع ،تقوم قاعدته في أحد طرفيا على المعرفة الكونية وعلى المعرفة الإنسانية في طرفا الآخر ،بينما تعلو قمته المعرفة الإلهية ،فعندما نقرأ المثلث من أي رأس فيه ،فيمكن أن نرقى بقراءتنا ن القاعدة إلى القمة ،أو ننزل من القمة إلى القاعدة أي :إما أن تكون معرفة الكون والإنسان ،فمن أية واحدة منها يبدأ عقلنا رحلته المعرفية ،فإنه ينتهي لا محالة إلى المعرفتين الأخيرتين فكأن الثلاثة ،تشكل معرفة واحدة ،كما تشكل أضلاع المثلث جسما هندسيا واحدا "[4]

1.3.4.1.2.1:قواعد البحث العلمي لتحقيق التقدم الحضاري[5] :يمثل هذا العنصر ذروة جهاد النورسي في تحقيق اليقظة العلمية للمسلمين ،حيث يبلور الخطوات العملية الواجب عليهم إتباعها ،خاصة وأننا في عصر لا يعرف إلا طريق الإقناع العقلي القائم على التحقيق العلمي والبراهين ،وذلك لمواجهة تحديات الحاضر والمستقبل

---

[1]- زينب عفيفي شاكر :**الرؤية النورسية للعلم الإيماني ودوره في بعث الأمة الإسلامية** ،ص327، أعمال مؤتمر العلم والإيمان والأخلاق لأجل مستقبل أفضل للإنسانية .

[2]-النورسي :**الشعاعات** ،ص 135.

[3]-**سورة فصلت** :الآية رقم 53.

[4]- أديب الدباغ ،**مطارحات في المعرفة الإيمانية عند النورسي**،ط1 ،مركز الكتاب للنشر ،القاهرة ،1997،ص 31-32.

[5] - خديجة النبراوي :**المرجع السابق** ،ص 149،173.

ومواجهة المعارف اللادينية ،التي يسعى لفرضها أصحاب الفكر الاستعماري ولعل صيقل الإسلام يضم أكثر هذه القواعد العلمية :

وسوف نتناول مايلي :

_تطور الأفكار ودوره في الرقي

_ البحث العلمي يفرض نفسه على أبناء الحاضر والمستقبل.

_أصول التحقيق العلمي

الاجتهاد المطلوب في عصرنا الحاضر

تطور الأفكار ودوره في الرقي : يرى النورسي أن التطور العلمي يساعد على فهم أكبر وأعمق لشريعة الإسلام ،ولا يعني أن الاستغناء عنها ،ويعني هذا تأصيل المسؤولية على الباحثين المسلمين بملاحقة هذا التطور ،وسيعطيهم قوة ووضوحا في براهينهم على عظمة العلوم والمعارف الإسلامية ،لهذا يقول النورسي :" قد يكون بديهيا في الحاضر ما هو نظريا في الماضي "[1] هكذا تحقق ،ففي العالم ميل للاستكمال و به يتبع العالم قانون التكامل ،ولأن الإنسان من ثمرات العالم وأجزائه ففيه كذلك ميل للترقي ،المستمد من الميل للاستكمال ، وميل الترقي ينمو ويترعرع مستمدا من تلاحق الأفكار الذي ينبسط بتكامل المبادئ واكتمال الوسائل ،وتكمل المبادئ يلقي بذور علوم الأكوان ،ماحقا رحم الزمان التي تربي تلك البذور وتنبتها فتستوي بالتجارب المتعاقبة وبناءا على هذا ،فإن مسائل كثيرة أصبحت في عداد البديهيات والعلوم المعتادة ،بينما كانت في السابق أمورا نظرية ،شديدة الخفاء والغموض ،و محتاجة إلى سرد البراهين ،إذ نرى كثيرا من مسائل الجغرافيا والفلك والكيمياء والهندسة العملية يعرفها حتى الصبيان ،وذلك بتكمل المبادئ وبرقي الوسائط وبكشفيات تلاحق الأفكار ،علما أنها كانت نظرية وخفية على "ابن سينا "وأمثاله من الفلاسفة ،مع العلم أن ابن سينا لو وزن بمئات من فلاسفة هذا الزمان لرجحهم في الذكاء وقوة الفكر وكمال الحكمة وسعة القريحة فالنقص إذا ليس في "ابن سينا " فو ابن الزمان ،بل في أبيه الزمان فالمسائل قسمان :

قسم يؤثر فيه تلاحق الأفكار ،بل يتوقف عليه وأغلب هذا القسم هو من العلوم المادية.

والقسم الثاني : لا تأثير للتعاون وتلاحق الأفكار فيه من حيث الأساس وأغلب هذا القسم هو من المعنويات والعلوم الإلهية .[2] وهنا النورسي يقصد بالزمان وأبو الزمان مشكلة المسلمين الحالية ليست في الزمان ،فوضع بين أيديهم احدث التطورات العلمية ولكن المشكلة تكمن في تقاعسهم عن البحث العلمي،وتسخير عقولهم في إزالة الأوهام ،بوجود تناقض بين الإسلام وحقائق العلوم وهو يحثهم على بذل الجهد لتحقيق التقدم .

---

[1]- النورسي :" البديهي ما لا يحتاج إلى نظر واستدلال ،والنظري هو ما يحتاج إلى نظر واستدلال "**صيقل الإسلام** ،ص 32.

[22]- النورسي ،**صيقل الإسلام** ،ص31-32

_البحث العلمي يفرض نفسه على أفراد الحاضر والمستقبل : يرى النورسي أن التطور العليم أدى إلى تحرر الفكر من الخيالات والأوهام فجيل الحضر والمستقبل لن يقنع إلا بالأدلة المنطقية والبرهان العقلي ،وهذا يضيف بعدا جديدا إلى ضرورة البحث العلمي الجاد،فيقول :إن الماضي مدرسة الأحاسيس والمشاعر المادية ،بينما الحاضر هو مدرسة الأفكار والبرهان بدلا من السفسطة ،لذلك فإن الإقناع الخطابي كان كافيا لإرشاد أهل الزمن الماضي ،أما مصدر تبخر حقائق الحكمة في الوقت الحاضر فهو :الأفكار والعقل والحق والحكمة مما ولد التحري عن الحقيقة وعشق الحق ،فنحن أبناء الحاضر والمرشحين للمستقبل ،لا يشبع أذهاننا تصوير المدعي وتزيينه بل نطلب البرهان ولما كان المهيمن هو الحق والبرهان والعقل والشورى في خير القرون وعصور السلف ،لم يكن للشكوك والشبهات موضع في تلك القرون ولكن بعدها تغير الوضع ،حيث تأسست المسالك والمذاهب غالبا على التعصب وتضليل الآخرين ،وغلبت القوة الحق ،ولكن بفضل انتشار العلوم في الوقت الحاضر وهيمنته بصورة عامة سيكون المستقبل المهيمن الحق بدلا من القوة ،والبرهان بدلا من التعصب والسفسطة ،والحمية بدلا من الأحاسيس المادية ،والعقل بدلا من الطبع ،والهدى بدلا من الهوى ،وهذا يبشر بأن الإسلام الذي هو الإنسانية الكبرى سيسطع كالشمس في ربعة النهار في سماء المستقبل ولذلك لسببين :

أولهما:من محاسن سلطان الأفكار:أنها تخلصت شمس الإسلام مما كان يحجبها من الأوهام .

ثانيهما: من محاسن مشاورة الأفكار:تأسيس المعتقدات والمـــــــسالك على البراهين القاطعة .[1]

أصول التحقيق العلمي[2] :يضع النورسي أصولا وقواعد لتصحيح منهاج البحث العلمي يلتزم بها الباحث الحق حتى ينجح في الوصول للحقيقة ونلخص أرز أصول التحقيق العلمي في النقاط التالية :

إتباع المنهج القرآني في إثبات الحقائق :فالقرآن يسلك أوضح طرق الاستدلال وأصوبها وأقصرها ،وأوفقها لأساليب اللغة العربية ،ويراعي حسيات العوام لأجل إفهامهم وإرشادهم ولما كان من الأصول المقررة أنه: إذا تعارض العقل والنقل ،يعد العقل أصلا ويؤول النقل ،ولكن ينبغي لذلك العقل أن يكون عقلا حقا فمهمة الباحث الحق ،أن يصل بعقله أولا إلى درجة من النضج والوعي ،تؤهله لفهم كنوز القرآن إلى أقصى مدى ،ثم يسخر هذا النضج في توصيل الحقائق القرآنية إلى عقول الناس وبما يتفق ودرجة فهمهم واستيعابهم لتطور علوم العصر .

القرآن لا يفسره إلا القرآن والسنة:ليك يحقق البحث العلمي أهدافه يجب البحث عن الحقائق القرآنية في أصدافه ،فالذي يفسر القرآن ليس إلا القرآن والحديث الصحيح ،ولا يمكن تفسير القرآن بالإنجيل والتوراة المنسوخة أحكامها والحرفة قصصها ،إن لكل

[1]- النورسي ،**صيقل الإسلام** ،ص 49-53 بتصرف .
[2]-النورسي :**المصدر نفسه** ،ص29-69.

زمان حكمة ،والزمان كذلك مفسر ،أما الأحداث والأحوال فهي كشافة ،والذي يستطيع أن يكون أستاذا على الأفكار العامة هو الأفكار العلمية العامة أيضا ،بناءا على هذا ،أراد تشكيل مجلس شورى علمي منتخب من العلماء المحققين ،كل نهم متخصص في علم لتأليف تفسير للقرآن الكريم بالشورى تحت رئاسة الزمان ،الذي هو مفسر عظيم ،ويجمعوا المحاسن المتفرقة في التفاسير ويهذبونها وهذا الأمر مشروط بأنتكون الشورى مهيمنة في كل شيء والأفكار العامة مراقبة وحجية الإجماع حجة عليه.

معالم محددة لرؤية الحقيقة مجردة : يرى النورسي أن مواصفات البحث العلمي الذي يحقق الترقي للبشرية ،لابد وأن يكون أساسه مبنيا على الحقيقة المجردة وهذا يتأتى عن طريق التحقيق العلمي البعيد عن الهوى أو الخيال ،والقائم على دعائم ثابتة من التواريخ الصحيحة والأقوال الثابتة ،الموزونة بميزان المنطق .

ومن أجل وصول المحقق على أسباب النجاح والوصول للحقيقة وما يجب أن يتحلى به الباحث مبادئ لابد من مراعاتها وهي :

- ✓ لا ينبغي الحكم على أي شيء بظاهره .
- ✓ يجب أن يكون للمعنى الحقيقي ختم خاص وعلامة واضحة متميزة .
- ✓ لا ينبغي التحكم في الرأي .
- ✓ المبالغة تشوش الأمور وتبلبلها.
- ✓ العاجز عن التمييز يجانب الحق ويغترب منه .
- ✓ عدم الانهماك في القشر والابتعاد عن اللب .
- ✓ شأن الشريعة الفناء في الصنعة والإخلال بالشريعة يخل بالصنعة ونواميسها.

الاجتهاد المطلوب في عصرنا الحاضر : لقد خص النورسي الاجتهاد برسالة خاصة في رسائله ،وهي تدور في مجملها حول أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن الاجتهاد التزام ،ولا اجتهاد مع النص،وأن يكون الاجتهاد قائم على الوعي العميق بأمور الدين ،وأن يستخلص من أساسيات الشرع بعض الأحكام التي تناسب ما يستحدث في المجتمعات من تطورات علمية واجتماعية وسياسية واقتصادية ،فباب الاجتهاد مفتوح ،إلا أن هناك ست موانع في هذا الزمان تحول دون الدخول فيه ،لاسيما في زمن المنكرات ،ووقت هجوم العادات الأجنبية،واستيلائها وكثرة البدع ،وتحكم الحضارة الأوربية ،وتسلط الفلسفة المادية وأفكارها وتعقد متطلبات الحياة اليومية بسبب تشتت الأفكار وحيرة القلوب،وتوجه هذا العصر لتأمين سادة الدنيا وتنكرها للدين والآخرة ،وتضييق المسافة بين الكذب والصدق فغذا الكذب يفضل على الصدق .[1]

3.2 موقف النورسي من الحضارة الغربية وتقويمه لها

1.3.2_أسباب رفض النورسي للحضارة الغربية :

[1]- النورسي ،**الكلمات** ، رسالة الاجتهاد ،ص 562-571،المثنوي العربي لنوري ،ص182-173.

1.1.3.2تنوع آراء المفكرين الإسلاميين حول الحضارة الغربية[1]

المعايشة التي أفرزت هذا الموقف :

إن أبرز ما يميز المرحلة التاريخية التي عاشها النورسي، هو تعاظم النفوذ الأوروبي، وإحكامه السيطرة التامة على العالم الإسلامي، وبروزه كقوة هائلة تمتلك العلم والمال والسلاح والتقدم والحرية، وتقدم للعالم أجمع نموذجا حضاريا راقيا، يحترم الإنسان، ويسعى إلى سعادته ورفاهيته، ويمجد العقل، ويقدس العمل، ويحفظ الحقوق، ويمني البشرية بمستقبل زاهر في ظل مبادئه وقيمه.

وقد عاش النورسي هذه المرحلة بكل ملابساتها، وشاهد اندفاع الفئات الإسلامية المتغربة نحو أنوار الحضارة الأوروبية البراقة، ورأى عن كثب، كيف غزت هذه الحضارة بلاده، وقدمت نفسها بديلا عن النموذج الإسلامي السائد، وأدرك بثاقب بصره أنها شكلت أكبر تحد واجه العالم الإسلامي في العصر الحديث، لأنها هددته في عقر داره، وفرضت عليه منظومتها الفكرية والقيمية بكل سلبياتها وإيجابياتها.

فكان طبيعيا أن يهتم النورسي بهذا التحدي، وأن يفرد له حيزا في رسائل النور، التي كانت مشروعا حضاريا ضخما لإعادة صياغة الإنسان المسلم الحديث، وتأهيله لممارسة دوره في الحياة، انطلاقا من القاعدة القرآنية، والأسس والمرتكزات الإيمانية التي تضمن له الركائز القوية، التي يستند إليها في مسيرة سعيه نحو التقدم والرقي.

ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن بديع الزمان سعيد النورسي كان واحدا من المجددين المسلمين القلائل الذين لم ينبهروا ببريق الحضارة الغربية، ولم يجر فهم تيار التوفيق بينها وبين مبادئ الإسلام، بل درسها دراسة واعية عميقة، ونظر إليها نظرة نقدية محضة، ووقف منها موقفا أصيلا، انطلاقا من تصورات قرآنية بحتة، حيث اتخذ من آيات الكتاب الحكيم ميزانا عادلا وزن به هذه الحضارة، فتكشفت له حقيقتها، وظهرت له مزاياها وعيوبها جلية واضحة.

لذا فإننا سنحاول استجلاء موقف النورسي النقدي – البناء - من الحضارة الغربية، من خلال تحديد السياق التاريخي والحضاري الذي عولجت فيه هذه القضية وبيان الأسس والمنطلقات المادية والإلحادية التي تأسست عليها الحضارة الغربية، و تحليل ظاهرة الانفصام بين الدين والعلم، وما ترتب عن ذلك من مضاعفات وأزمات، ورصد مظاهر

[1] -بتوسع انظر الصفصافي احمد القطوري : **حزب العدالة والتنمية والتجربة التركية المعاصرة** ،القاهرة ،2012 ،ص28-138 .حيث يتناول هذا الكتاب باستفاضة المنعطفات التاريخية التي مرت بها تركيا وعايشها النورسي ،وأثر الفكر النورسي فيها.

الأزمة التي تعصف بالحضارة الغربية - والتي تأسست عليها - وتنذر [1]بتدهورها وانهيارها، والبحث في الحلول التي طرحها النورسي، والتي دعا من خلالها إلى إيجاد تعاون وثيق بين المسيحية والإسلام كمرحلة أولى، مما يشجع حركة الحوار الديني والحضاري، ويفتح الباب على مصراعيه أمام عالم السعادة من باب القرآن، الذي هو أساس الحضارة الحقة الصحيحة.

2.3.2النورسي وصدمة الحضارة:

كانت الفترة التاريخية التي عاشها النورسي - والتي تمتد من نهاية القرن التاسع عشر، وطيلة النصف الأول من القرن العشرين الميلادي - مرحلة حاسمة من مراحل تاريخ الأمة الإسلامية، استفحلت خلالها أمراض العالم الإسلامي، وانهارت قواه تحت ثقل قرون الانحطاط والتخلف، ثم كان اختراق القوي الأوروبية المتعاظمة له، هي القطرة التي أفاضت الكأس، حيث بدأ الفرق الحضاري الشاسع الذي يفصل بين العالمين، وظهر الاختلال واضحا في موازين القوى، فخضعت البلدان الإسلامية فيها للقوة الغربية، وتدفقت تيارات حضارتها معها، تغزو المجتمعات الإسلامية، وتسيطر على مجالات الحياة المختلفة، وتزاحم أسلوب الحياة الإسلامية وتحاصره، وتصمه بالعجز والقصور، وتستقطب العقول والقلوب ببهرجتها وبريقها، وتسعى جاهدة لتكون البديل الذي يخلف الإسلام ويستوعب شعوبه، ويمحو آثار حضارته، ويوطد بدلها دعائم الحضارة الغربية في أرجاء العالم الإسلامي المترامي الأطراف.

لقد كان اصطدام العالم الإسلامي بالحضارة الأوروبية بكل عنفوانها وقوتها وأطماعها لحظة احتكاك تاريخية انتشت فيها أوروبا، وشعرت فيها بعظمتها وجبروتها، واهتز لها المسلمون هزة عنيفة زلزلت كيانهم، وخلخلت ثقتهم بأنفسهم، وصدمتهم صدمة صاعقة جعلتهم يدورون حول أنفسهم ولا يعرفون فوق أي أرض يقفون: «فإنسان أوروبا قام - دونيا قصد - بدور «الديناميت » الذي نسف معسكر الصمت، والتأمل، والأحلام.

وقد عايش النورسي السنوات الأخيرة للخلافة العثمانية، التي كانت تترنح تحت ضربات القوى الاستعمارية، وتتعرض للمؤامرات المتتالية، لتمزيق أوصالها، وتقسيم أطرافها، وتشهد غزوا حضاريا منظما، ورأى عن كثب، منجزات الحضارة الغربية على بلاده، ونال حظا لا بأس به من العلوم الحديثة، وأتاحت له رحلاته واحتكاكه بشخصيات المجتمع السياسية والثقافية، أن يقف على مدى تأثير هذه الحضارة في

المسلمين، ثم تعمقت تجربته واغتنت بما تمخضت عنه الأحداث التي شهدها العالم الإسلامي أثناء الحرب العالمية الأولى، وبعد سقوط الخلافة، وما نجم عن ذلك كله من أهوال وتغيرات عصفت بالأمة، واستباحت حرماتها، وأوردتها المهالك.

واختمر كل ذلك في ذهن النورسي،وعرضه على ميزان إيمانه، ورصيده من العلم، فتكون من حصيلته جل موقفه من الحضارة الغربية ، الذي أوضحه بجلاء في رسائل النور، وعبر عنه تعبيرا واضحا لابأس فيه .

ودعمه بالبراهين العقلية، والأدلة الواقعية، والحوادث التاريخية، واستشرف من خلاله المستقبل استشراف مؤمن موقن، وحدد العلل والأمراض، ووصف الدواء والعلاج، منطلقا في ذلك كله من القرآن الكريم وحي الله الصادق، وكلمته الأخيرة إلى البشرية، وهذا ما يفسر عدم انبهاره بمظاهر هذه الحضارة وقدرته على الاحتفاظ بتوازنه الروحي والعقلي تجاه منجزاتها، التي جرفت أعدادا كبيرة من المسلمين، وأعمتهم عن النظر السديد والرؤية الواضحة، وأوقعتهم في مأزق فكرية، وجرفتهم نحو أساليب عقيمة في الاقتباس والتقليد، لا يزالون إلى يومنا هذا يعيشون آثارها الوخيمة ونتائجها المرة.

وأول ما يلفت أنظارنا، ونحن نستجلي موقف النورسي النقدي من الحضارة الغربية، أنه استطاع أن يستوعب نشأتها وتطورها، وأن يتبين أصولها وأهدافها، الأمر الذي أتاح له متسعا من الحرية الفكرية، التي مكنته من وضعها في حيزها الحقيقي، وتسليط نظرات النقد البناء عليها دون تحيز أو افتراء، ونجح بذلك في احتواء الصدمة و تجاوزها.

تنوع أراء المفكرين الإسلاميين حول الحضارة الغربية

في غمرة الهزائم التي توالت على الأمة الإسلامية في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي إبان الحربين العالميتين، ومع شدة انبهار المنهزمين والمغلوبين من أبناء الأمة الإسلامية، بكل ما تعطيه المدنية الحاضرة من مواضيع ومسالك وطرق، تحتوي على سراب ووهم ليس بقليل .

وفي أثناء تضارب وتناقض مواقف أهل العلم من أبناء الأمة من المدنية الحاضرة، فهم ما بين معجبين بها ومغرمين بتمجيدها وتقليدها، وبين رافضين لها جملة وتفصيلا، وناكرين لجميع محاسنها و مساوئها على حل سواء، وبين الفريقين نجد فريقا ينادي بالوسطية والاعتدال في التعامل والأخذ من الحضارة الغربية.

ولقد كان الاختلاف أنظار المفكرين والمجددين والمصلحين، وتعدد اتجاهاتهم ومشاربهم، وتنوع أيدلوجياتهم الفكرية والمذهبية، واختلاف الظروف البيئية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، الأثر الكبير في إثارة الجدل حول موقفهم من الحضارة الغربية، وتفرقهم إلى اتجاهات ومجموعات تتمركز حول القبول والرفض:

1- فمنهم من يدعوا إلى ضرورة تقليد الغرب في كل شيء - حذو النعل بالنعل - حتى تمنى بعضهم أن نكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون، وأن نلبس كما يلبسون، وتراهم على شاشات التلفاز، أو في الندوات والمؤتمرات، يتحدثون بلغة الغرب اللاتينية، أكثر من تحدثهم بلغتهم العربية، وممن اشتهروا وأعلنوا تأييدهم الكامل للحضارة الغربية، والأخذ عنها، و تقليد نمط حياتها المعيشية، بل ونقلها كما هي: شبلي شميل، وسلامة موسى، وأحمد لطفي السيد، وطه حسين، وزكي نجيب محمود في مرحلته الأولى.

٢- وهناك من رفض الحضارة الغربية رفضا تاما، بحجة أنها لا تتوافق مع مرتكزاتنا الإيمانية والأخلاقية، وهم أصحاب الاتجاه السلفي - المحافظ - حيث يرون أن المرتكز الأساس للتقدم والنهوض، يكون بتطبيق نموذج حياة السلف الصالح في جميع الجوانب الحضارية دون تغيير أو تبديل، وبمعنى أخر: صب واقعنا المعاصر في قالب السلف كما هو دون تحديث، وأبرز دعاة هذا الرأي هم: الإمام محمد بن عبد الوهاب [1]وجمال الدين الأفغاني.. الذي يرى « أن علاج الأمة إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامها على ما كان في بدايته ».[2]

٣ -وهناك من يقرر التعامل مع الحضارة الغربية والأخذ منها، لأن الانغلاق والانزواء أمر لا يتوافق مع طبيعة الفطرة الإنسانية، وأن الانكفاء على الذات والتقوقع لا يخلق فكرا جديدا، ولا يدفع للتقدم أو التلاقح الحضاري.

وهذا الفريق رغم إقراره التعامل مع الحضارة الغربية، إلا أنه رهن هذا الإقرار على أساس تحقيق ما يلي:

أولا: أن يتوافق ما يتم الأخذ به مع مبادئ الإسلام ورفض ما يخالف تعاليمه .. ثانيا: أخذ ما هو نافع ويتوافق مع بيئتنا وهويتنا الفكرية والثقافية.

---

[1]-د أحمد محمد سالم :**تجديد علم الكلام قراءة في فكر بديع الزمان النورسي** ،ص 91.أشرف عبد الرافع الدرفيلي :**الحرية والمعرفة** ،ص208بتصرف

[2]- د.عزت قرني :**العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة** ،عالم المعرفة ،الكويت ،1980، ص 239 بتصرف .

وأبرز من يمثل هذا الاتجاه الوسطي المعتدل : الإمام رفاعة الطهطاوي، ومحمد عبده، ورشيد رضا، ومحمد إقبال، وبديع الزمان سعيد النورسي، وغيرهم من المفكرين.[1]

ولكن على الرغم من تلاقي النورسي مع الفريق المؤيد للتعامل مع الحضارة الغربية بروح إيجابية مشروطة، فإننا نود أن نبرز موقفه من الاتجاهات الثلاثة السابقة، سلبا وإيجابا:

1- نجد أن النورسي لم يتلاقى مع دعاة التقليد للغرب، والسير على نمط حضارتهم، واقتباسها كما هي، لأنه في المقام الأول لا يتلاقى مع تأصيله الفكري المؤسس على منهج القرآن، الذي عمل على تحرير العقل من رواسب التقليد وعادات البيئة السيئة، وعاب على المقلدين الذين يقولون : ﴿وإنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾.[2]

لهذا نجد النورسي يتأسف على هؤلاء المقلدين المفتونين بالحضارة الغربية قائلا: « فيا أسفي.. و ياويل من ضل بطواغيت الأجانب وعلومهم المادية الطبيعية ويا خسارة أولئك الذين يقلدونهم تقليدا أعمى، ويتبعونهم خطوة بخطوة، وذراعا بذراع، فيا أبناء هذه الأمة لا تقلدوا الإفرنج »[3]

ويبين النورسي « أن الأقوام المتيقظة في آسيا قد تمسكوا بالقومية و حذوا حذو أوروبا في كل النواحي حتى ضحوا بالكثير من مقدساتهم في سبيل ذلك التقليد، والحال أن كل قوم يلائمه لباس على قده وقامته، وحتى لو كان نوع القماش واحدا، فأنه يلزم الاختلاف في الطراز، إذ لا يمكن إلباس المرأة ملابس الشرطي، ولا يمكن إلباس العالم الديني ملابس الخليعات فالتقليد الأعمى يؤدي في كثير من الأحيان إلى حالة من الهزار والسخرية »[4]

إذا فالنورسي يدعو للتحرر من التقليد، وخاصة تقليد الأوروبيين، لأن طبائع العرب والمسلمين ومبادئ الإسلام لا تتوافق وما يجلبه المقلدون من أوروبا، وخاصة دعوى المقلدين لتقليد نساء الغرب بالتبرج، ولبس الزي الأوروبي والقبعة... الخ

لهذا يخاطب النورسي من أصيبوا « ببلاء التقليد »[5]قائلا لهم: «يا من يحث المسلمين ويشوقهم على حطام الدنيا، ويسوقهم قسرا إلى صنائع الأجانب والتمسك بأذيال رقيهم، ويا مدعي الحمية، أيها الشقي.. تمهل، وتأمل وأحذر من انقطاع عري الدين لبعض

---

[1]- النورسي :**اللمعات** ،ص 182.
[2]-سورة الزخرف ،الآية رقم 32.
[3]- النورسي ،اللمعات ،ص182
[4]-النورسي :المكتوبات ،ص317.
[5]- النورسي ،**اللمعات** ،ص216.

أفراد هذه الأمة وانفصام روابطهم معه، لأنه إذا انقطعت تلك الروابط لدى البعض تحت سطوة مطارق التقليد الأعمى والسلوك الأرعن فسيكونون ملحدين مضرين بالمجتمع مفسدين للحياة الاجتماعية كالسم القاتل.[1]

ويبرز النورسي العلة والسبب من عدم تلاقيه مع دعاة التغريب، وذلك طريقه عن الأثر السيئ الذي سينتج من جراء تقليد الغرب فيقول: «إن التقليد يشق ميه في ويؤدي إلى القول: مالي وما على فليفكر غيري »[2] « وليس له إلا التقليد، الذي يرميه في أحضان الاضطراب والارتباك »[3] فتسلب بذلك حريته، ويظل مكبلا وأسير غيره، ويحوطه الخوف والاضطراب "وتصبح الأفكار مقيدة بالتقليد"[4]

ويبين النورسي: « إن هذا العصر العجيب، الذي أثقل كاهل الإنسان بالحياة الدنيوية، بها كثر عليه من متطلبات الحياة، وضيق عليه موارده، وحول حاجاتها غير الضرورية إلى ضرورية بما ابتلاه من تقليد الناس بعضهم بعضا » [5] وخاصة في المتطلبات الاستهلاكية والترفيهية فقد أصبح الإنسان العصري من حيث التقليد والإدمان مفتقرا إلى عشرين حاجة بدلا من أربع منها ضرورية »[6] فقط ولعل من أبرز العلل التي يطرحها النورسي في رفضه لتقليد المدنية الأمل، أو المزج بها مع الحضارة الإسلامية، ما نراه في قوله: «وانه لجدير بأولها، استنكاف العالم الإسلامي من هذه المدنية، وعدم تلهفه لها، وتحرجه من عن لأن الهداية الإلهية، التي هي الشريعة، تعطي خاصية الاستقلال والاستغناء بها، الآخرين، ولا يمكن أن تطعم هذه الشريعة بالدهاء الروماني، ولا أن تمتزج ما - ولا يمكن أن تبلعها أو أن تتبعها، إن دهاء الرومان واليونان - أي حضارتيهما وهما التوأمان الناشئان من أصل واحد، قد حافظا على استقلالها وخواصها رغم بها، العصور وتبدل الأحوال، ورغم المحاولات الجادة لمزجها بالنصرانية أو إدماجها فلقد ظل كل منهما كالماء والدهن لا يقبلان الامتزاج، بل إنهما يعيشان الآن برامج بأنماط متنوعة، وأشكال مختلفة، فلئن كان التوأمان، مع وجود عوامل المزج والدمج .

[1]- النورسي ،**المصدر نفسه** ،ص 186.
[2]-النورسي ،**صيقل الإسلام** ،ص536.
[3]-النورسي ،**المصدر نفسه** ،ص 388.
[4]-النورسي ،**صيقل الإسلام** ،ص41.
[5]-النورسي ،**الملاحق** ،ص 145.
[6]- النورسي ،الملاحق ،ص387.

والأسباب الموجبة له، لم يختلطا طوال تلك المدة، فكيف يتجانس نور الهداية الذي هو نبض الشريعة، مع ظلمات المدنية، التي كانت دماء روما أساسها ؟ لا يمكن بحال من الأحوال أن يمتزجا، أو يهضما معا ».[1]

ويبين النورسى كذلك أن التقليد يسلب من الإنسان حرية الاختيار، وذلك ردا لمن قال له: «نحن الآن مضطرون » أي أننا مضطرون في تقليد بعض الأصول الأوروبية و موجبات المدنية حسب القاعدة المعروفة :« إن الضرورات تبيح المحظورات»

قلت لهم: إنكم منخدعون تماما، لأن الضرورة النابعة من سوء الاختيار لا تبيح المحظورات [2]

ويؤكد النورسي: « أن من أسباب تأخر المسلمين وتدنيهم وسوء أحوالهم ناتج من تقليد مساوئ المدينة الأوروبية تقليدا أعمى - بسوء حظنا أو سوء اختيارنا- مما ولد تركنا لمحاسن المدنية التي ستحصل بمشكلات و مصاعب ».[3]

لهذا يرفض النورسي رفضا قاطعا أن يتبع شبابنا هذه الحضارة وتقليدها تقليدا أعمى، معللا أن هذه الحضارة ترتكز على الإلحاد، في حين أن حياتنا تقوم على الدين والأخلاق، والإيمان بإله واحد، فتقليد الشباب لأوروبا وحضارتها هو « استخفاف بالملية، واستهزاء بالملة ».[4]

ونلحظ أن النورسي يرفض السير في ركاب دعاة التقليد الغربي بدون تمحيص، لما في ذلك من تذويب للشخصية المسلمة، وهذا ما يرفضه النورسي، لأن التقدم الحضاري في مجمل صوره، يتجلى ويبرز عندما يكون للفرد أثره ودوره الحقيقي والفعال في قيادة الفكر الإنساني لتحقيق النهوض في جميع الجوانب الحضارية، أما أن يقتصر دور الفرد على الاقتباس والتقليد من الغرب، فهو سرقة جهد الآخرين، وإهدار لأهم المرتكزات الإيرانية في الإسلام، وهو التفكر والابتكار، والعمل والسعي للتعمير في الأرض، وتكريس لمبدأ التواكل والخمول و العطالة والبطالة، وإهدار لقيمة الإنسان الحقيقية في الحياة.

لهذا يرفض النورسي التقليد، لأنه «يحجم الطاقات، وهو الأمر الذي أضر. بالإسلام والمسلمين ولم يسعفهم بالتطور، لأنهم انغلقوا تحت طائلة التسليم والتقليد "[5] .

---

[1]-النورسي ،صيقل الإسلام،ص 358.
[2]- النورسي :**السيرة الذاتية** ، ص470.
[3]- النورسي ،**صيقل الإسلام**،ص441.
[4]-النورسي :**المثنوي العربي النوري**،(زهرة من رياض القرآن)،ص 272.
[5]-د:سليمان عشراتي ،**النورسي في رحاب القرآن**،ص122.

فالتقليد السلبي يعني: « قبول قول الغير بلا حجة ولا دليل »[1]« ويعني السكونية والسير القهقرى والالتفاف إلى الخلف، إن التقليد هو الإقرار بالعقم، وانزلاق العقل في وحل الكسل والاستدانة »[2]ويجعل من الإنسان دمية متحركة في يد من يقلده، فيسلب منه حريته و اختياره، وهذا ما أكد عليه النورسي بقوله: «فمنذ انحطاط الخلافة ونحن لا نتحرك ذاتيا، بل بالوساطة، فأوروبا تنفخ، ونحن نرقص هنا »[3]

٢- رغم تلاقي النورسي مع الفريق الذي يدعوا الإنسانية - خاصة المسلمين - إلى السير على طريق السلف الصالح أثناء تشييدهم لمشروعهم الحضاري على سطح هذا الكون، إلا أنه لم يتلاقى معهم في رفضهم القاطع للحضارة الغربية، ومستندا في حيثيات رفضه إلى أن ذلك لا يساير واقع الحال ومستجدات العصر. .

- إن النورسي رأى أنه ليس من العدل والإنصاف رفض الحضارة الغربية رفضا مطلقا، أو قبولها قبولا مطلقا، لأن التطرف في كلتا الحالتين مضر، وأنه لا توجد ،

حضارة على سطح هذا الكون قائمة بذاتها، ولم تقتبس من سابقتها وتتفاعل مع لاحقتها، ولهذا اختار النورسى موقفا وسطا، أكد من خلاله أن المدنية الحاضرة ليست خيرا محضا ولا شرا محضا، وهو ما عبر عنه بقوله: إن أوروبا اثنتان: أوروبا النصرانية ... وأوروبا المادية.

-إنه لم يدعوا كبقية المجددين والمصلحين بالوقوف عند حدود السلفية الموروثة، وصب حاضرنا في قوالب السلف كانت في بداية عصر الإسلام بشبه الجزيرة العربية، والعودة لمنابعهم فقط دون تحديث أو إعلاء للعقل والفكر، ولكنه أثبت تميزه وانفراده حين دعا إلى التمسك بالسلف، من خلال ثورة تجديدية تواكب تطورات العصر ومسايرة مستجداته و استحداثاته، وباستلهام الأصول والثوابت، والنظر فيها بعقل معاصر، والمزواجة بين الصالح منها، وبين الجديد العصري، لمواجهة التحديات والحداثة الغربية، والانطلاق إلى الأمام بفكر عقلاني مستنير بهدي القرآن[4].

٣- على الرغم من توافق الإمام النورسي مع الرأي القائل بالتعامل مع الحضارة الغربية والأخذ منها لكل ما هو مفيد ونافع، ويتوافق مع منهج الإسلام وأخلاقياته، إلا أننا نلحظ أنه كان سباقا لمن توافق معهم، حين قام بالتأطير والتأصيل لهذا التعامل، ولعل أهم الركائز التي أصلها ورسخها وقام بطرحها، ووصى بالأخذ بها أثناء التعامل مع الحضارة الغربية، تتركز فيما يلي:

---

[1]-النورسي ،**المكتوبات** ،ص 476.
[2]-سليمان عشراتي ،**المرجع السابق** ،ص123.
[3]-النورسي ،**صيقل الإسلام**،ص 316.
[4]- اشرف عبد الرافع ،**الحرية والمعرفة** ،ص211-235.بتصرف

-النظر فيما يتم الأخذ به من الحضارة الغربية وتصفيته بمصفاة الشريعة

-تحقيق مبدأ المعيارية التي تتميز بها الأمة الإسلامية.

-أن ترتكز المعيارية على أساس الانتقائية « خذ ما صفا ودع ما كدر»[1]

1.2.3.2المدنية الحديثة وأمة المعيارية

إن المطلع على رسائل النور، يجد أنها جاءت لتؤكد للناس وللمجتمعات، أن الأمة الإسلامية هي أمة المعيارية، من خلال ما تتميز به من وسطية منهجها، واعتدالها بميزان الشرع الحنيف السمح، وقيمها الأخلاقية المتقابلة والمتلاقية مع رغبات الفطرة السليمة.

وهي أمة المعيار الذي وكل إليها أمر الشهادة على الناس والقيادة بهم، با تملك من قيم معصومة ومحفوظة في الكتاب والسنة.

والمعيارية في شخصية الأمة، والتي جاءت كليات رسائل النور تكشف عنها تعني: أن الأمة الإسلامية في أفرادها و مجموعها تبقى بمأمن من التحديات، لأنها عند التزامها بقيمها تعرف ماذا تأخذ وماذا تدع، فالتحديات الفاسدة - من مساوئ مدنية أوربا وغيرها- لا تستطيع في ظل تمسك الأمة بمعياريتها أن تذيب ثقافة الأمة، ولا أن تلغي هويتها، ولا أن تسيطر على قيمها.

ويكاد يكون مفهوما:أن التحديات الفاسدة إنها تمتد ابتداء في داخل المجتمعات الفاقدة للمعيار ومركز الرؤية، لذلك ترتكز وسائل التحديات في محاولة إخراج الأمة عن قيمها المعيارية لتصبح مهيأة لتقبل ما يلقى إليها، دون القدرة على اختياره ومعايرته بالشكل المطلوب، ومما يساعد على نجاح مسار المعيارية السليمة، هو تحصين النفس الإنسانية بمدرسة الإيران، لأن الإيمان يخط المسار، ويضع المنهاج، ويحول بين النفس وبين دواعي الانحراف، بتوفرها لها من قيم فعالة، تعالج ما قد يبتلى به الإنسان، وتعينه على المواجهات الضرورية، لإعادة شحذ الفاعلية واستعادة بناء الذات، وإنهاء حالة الاسترخاء والكسل.[2]

ولذلك فإن النورسي يتعامل مع المدنية الغربية على أساس دستور « خذ ماصفا ودع ما كدر » وفي ضوء هذا الدستور سيأخذ من الأجانب كل ما يعين على الرقي من علوم و

---

[1]- **المرجع السابق** ،ص 227،231. بتصرف انظر أحمد محمد سالم :**تجديد علم الكلام** ، ص79.

[2]- أحمد عبد الرحيم السايح:،د سامي عفيفي ،**قضايا معاصرة في فكر النورسي** ،ص 24،25.

صناعات، أما العادات والأخلاق السيئة فهي ذنوب المدنية ومساؤها التي لا يتبين قبحها كثيرا، لكونها محاطة بمحاسن المدنية الكثيرة.[1]

إذا فالنورسي من خلال دستوره المعياري، يرشدنا أن نبتعد عن عادات المدنية الحديثة ومساؤها الأخلاقية، وفي المقابل يوجه أبصارنا إلى منافع هذه المدنية ، وبصفة خاصة: العلوم و الصناعات التي كانت سببا في تقدمها.

ثم نراه يبرز الحكمة من أخذنا لهذه المنافع، لأنها أدوات نستطيع من خلال أخذنا بها، أن نحارب الجهل والفقر في حياتنا الداخلية، فيقول: « إن الأجانب يسحقوننا تحت تحكمهم المعنوي بسلاحهم المتمثل في العلوم والصنائع، ونحن سنجاهد بسلاح التقنية والعلم، فالجهل والفقر والخلاف هم ألد أعداء إعلاء كلمة الله، أما الجهاد الخارجي فندعه إلى الرماح الألماسية للبراهين الفاصلة للشريعة الغراء، لأن الغلبة على المدنيين إنها هي بالإقناع، وليس بالإكراه كما هو شأن الجهلاء الذين لا يفقهون شيئا، فأعظم وسيلة الإعلاء كلمة الله في زماننا هذا هو الرقي المادي » [2].

ولكن.. إذا كان النورسي يتخذ موقفا انتقائيا من المدنية الحديثة الغربية، في هو المعيار الذي على أساسه يتم الانتقاء، أثناء تعاملاتنا مع منتجات الحضارة الغربية ؟

يجيب النورسي: بأننا سنأخذ من الحضارة الغربية ما يتوافق مع ثوابتنا الإسلامية، والشريعة هي المرتكز، الذي على أساسه يتم التعامل مع منتجات الحضارة الغربية، فيقول: « إن نهر العلوم الحديثة والثقافة الجديدة الجاري والآتي إلينا من الخارج كما هو الظاهر، ينبغي أن يكون أحد مجارية قسا من أهل الشريعة، كي يتصفى من شوائب الحيل ورواسب الغش والخداع، لأن الأفكار التي نمت في مستنقع العطالة، وتنفست سموم الاستبداد، وانسحقت تحت وطأة الظلم، يحدث فيها هذا الماء الآسن ، العين خلاف المقصود، فلابد إذن من تصفيته بمصفاة الشريعة .[3]

ويبين النورسي أنه سوف يمنع مساوئ المدنية الحديثة أن تتسرب إلى المجتمع المسلم، وشاها في وجهها سيف الشريعة، وذلك حفاظا على حدود الحرية الإسلامية الحصين، فيقول: « سنمنع بسيف الشريعة مساوئ المدنية وذنوبها من الدخول إلى حدود حريتنا ومدنيتنا، حفاظا على فتوة مدنيتنا وشبابها، وينبغي لنا الإقتداء باليابانيين في المدنية، لأنهم حافظوا على تقاليدهم القومية التي هي قوام بقائهم، وأخذوا بمحاسن المدنية من

---

[1]- النورسي، **صيقل الإسلام** ،ص 530،468بتصرف .
[2]- النورسي ،**صيقل الإسلام** ،ص 527.
[3]- النورسي **صيقل الإسلام** ،ص 530 ،د ،أحمد السايح، **قضايا معاصرة** ،ص 27.يتفق ع ابن رشد في الأخذ من الحضارة الغربية وكيفية التعامل معها على أساس مبدأ المعيارية الانتقائية .

أوروبا، وحيث إن عاداتنا القومية ناشئة من الإسلام وتزدهر به فالضرورة تقتضي الاعتصام بالإسلام.[1]

ويتوافق المفكر الإسلامي - محمد الغزالي » مع النورسي في نفس الرؤية المعيارية الانتقائية التي تأخذ بها من الحضارة الغربية، وإلى أي مدى نقتبس منها، على أن نتمسك بأخلاقنا وتقاليدنا وثقافتنا وهويتنا، كما تمسك بها اليابانيون، فيقول: «كان رجال التعليم والتربية في اليابان أيقاظا عندما اتصلت بلادهم بأوروبا في القرن الماضي، أو قل: كان حراس التقاليد الموروثة صاحين عندما قررت اليابان الاستفادة من التفوق الصناعي الغربي، فقد أعدوا لكل جديد يقتبس مكانه فوق أرضهم، ومساحته المادية والأدبية التي لا يعدوها، وهيمنوا ببصر حاد على الآثار المتوقعة، حتى لا تفلت من أيديهم أو تتحرك بعيدا عن خططهم المرسومة ومع التزام هذا الخط الصارم، بقيت الشخصية اليابانية محفوظة السمات ثابتة الملامح، فانتقلت الصناعة الغربية إلى اليابان، ولم يتحول اليابانيون إلى أوربيين في عقائدهم، أو لغتهم، أو آدابهم، وأخلاقهم.. إنهم فعلوا ولم ينفعلوا.. وقادوا ولم ينقادوا.. أما العرب في الحضارة الحديثة فهي شعوب مستهلكة، تتنافس الدول الصناعية على إلهائها بالأدوات البراقة، والمخترعات المريحة »[2]

وتتوافق رؤية المعيارية عند الإمام محمد عبده » مع ما ذهب إليه النورسي « بأن نأخذ بأسباب الحضارة الغربية والمادية التي لا تتعارض مع الدين الإسلامي الحنيف، لذا لم يتردد « محمد عبده » من الدعوة إلى الاستفادة بالنظم الغربية ما دامت لا تخالف الشرع والعقل، ولهذا فهو لم يكن معبرا عن الفكر الغربي بدون وعي، وإنها عن إدراك بأن يأخذ ما ينفعه وطنه الإسلامي، ولم يخرج عن الإطار الديني الذي حدده الشرع في أصوله.[3]

بل ويؤكد الإمام محمد عبده « بأن الإسلام لن يقف عثرة في سبيل المدنية ، ولكنه سيهذبها وينقيها من أوضارها، وستكون المدنية من أقوى أنصاره متى عرفته ، وعرفه أهلها »[4].

وكذا ذهب «محمد إقبال » إلى أن الروح الإسلامية تمثلت كل ما أمكنها الحصول عليه من أفكار الأمم لمجاورة، فيقول: «إن روح الإسلام رحبة فسيحة، بحيث إنها تكاد لا

---

[1]-النورسي ،**صيقل الإسلام**،ص468.

[2]- محمد الغزالي ،**مائة سؤال عن الإسلام** ،دار ثابت ،القاهرة ، 1996، ص 512،513.

[3]- محمد ممدوح العربي : **الأخلاق والسياسة في الفكر الإسلامي والليبيرالي والماركسي** ،الهيئة المصرية للكتاب ،القاهرة ،2006،ص 145-147.

[4]- محمد عبده ،**الإسلام دين العلم والمدنية** ،مكتبة النافذة ،الجيزة ،2006،ص160.

تعرف الحدود، وقد تمثلت كل ما أمكنها الحصول عليه من أفكار الأمم المجاورة، فيما عدا الأفكار الملحدة، ثم أضفت عليها طابع تطورها الخاص ».[1]

ولعل ما سبق ذكره يؤكد شيئا أخر - من وجهة نظري - بجانب المعيارية والانتقائية، وهو قدرة الأمة الإسلامية العجيبة على الاستيعاب والاحتواء، ولعل هذا تحقق - كذكر إقبال – بفضل وجود عاملين أساسيين:

1- منهج الإسلام - القرآن والسنة الصحيحة - وروحه الرحبة والفسيحة، وإتاحته للحرية المنضبطة بجميع صورها وأشكالها.

٢- قدرة العقلية الإسلامية التي أضفت على ما انتقته طابع تطورها الخاص وما يلائمها ويلاءم عقيدتها وبيئتها وتاريخها، ويلائم ما تريد تحقيقه مستقبلا.

وهذا ما ذكره وشهد به الأوروبيون أنفسهم، ومنهم "ويلز » صاحب كتاب ملخص التأريخ» حيث قال: «هب العرب يظهرون ما خفي من مواهبهم، فبهروا العالم بما أوتوه من معجزات العلم، وأصبح لهم السبق بعد اليونان، فبعثوا كتبهم من مراقدهما، ونفخوا فيها من روحهم، واستودعوها الحياة والقوة، فجعلوا بذلك سلسة العلوم متصلة الحلقات، محكمة السرد لا يمسها انقطاع ولا وهن، وما جاءنا العلم والمدنية إلا عن طريق العرب، لا عن طريق اللاتين »[2]

وهذا يدل على قدرة العقلية الإسلامية، وعلى تميزها بخاصية الاستيعاب الحضاري واحتوائه كالنحلة تمتص رحيق الزهر، ثم تحوله في باطنها إلى عسل تقذف به طعاما خالصا للناس.

إذا فالمسلم حين يطبق مفهوم منهج الإسلام التفعيلي التحقيقي، لا يكتفي بالنقل واستيراد الفكر، بل يعمد إلى الإبداع، والخلق، والتجديد، والابتكار، وصناعة الحضارة، والعالم كله يعرف كيف شيد الكندي، والفارابي، وابن سينا في الشرق، وابن ماجة، وابن طفيل، وابن رشد في الغرب، فلسفة و علوما تدرس لليوم في أوروبا، فعلى الرغم من إفادة مفكرينا من فلسفة اليونان، إلا أنهم قاموا بإحيائها من مرقدها، وتجديدها، وتوضيحها، وإكمال ما فيها من نقص، ولقد وضع ابن طفيل قصته الفلسفية «حي بني يقظان » فكشف عن مواهب فنية في النخيل والتصور والتعبير فاقت تصور أفلاطون، وقد نقل هذه القصة إلى اللاتينية « إدوار بوكوك » فظهر أثرها في آدابهم .[3]

---

[1]-محمد إقبال ،**تجديد التفكير الديني في الإسلام** ،ط1،تر،عباس محمود العقاد،القاهرة ،1955،ص 189.

[2]- توفيق محمد السبع،**قيم حضارية في القرآن الكريم** ،ص152-153.بتصرف

[3]- توفيق محمد السبع ،**المرجع السابق** ،ج1،ص 117 بتصرف .

وسار محمد فريد وجدي على نفس الروح الانتقائية، المؤسسة على معيارية المنهج الإسلامي فيقول: «إن القرآن لم يردع الإنسان عن نيل مدنية أرضية مادية، ولكنه أرادها مدنية كاملة فاضلة، يراعى فيها شأن الإنسان.. الروح والجسد »[1].

ومهما يكن من أمر، فإننا لابد وأن نقر با أقر به هر درى : « بأن كل حضارة لاحقة تأخذ من سابقتها ما يناسبها ويناسب ظروفها، ويساعدها على سلم التـــــــــــــاريخ الصاعد »[2]وهو بهذا يلتقي مع النورسي في تطبيقه للمرتكز الانتقائي الهادف.

ولعلنا نلحظ مما سبق: أن النورسي يقرر أنه سيأخذ ويتعامل مع جميع جوانب الحضارة الغربية ما دام يأنس فيها الصلاح والنفع، ويتوافق مع ثوابت الشرع الحنيف وقيمه الأخلاقية.

كما أننا نلحظ أن أبرز المعايير التي يستخدمها الإمام النورسي في تعاملاته مع منتجات الحضارة الغربية كأساس للمعيارية والانتقائية، هي معايير أخلاقية ودينية ، وهذا طبيعي لرجل دين ومصلح يرتكز بنائه الفكري على المرتكز الإيماني الشامل، ويستمد منهجه من القرآن والسنة.

كما أننا نلحظ أن أبرز المعايير التي يستخدمها الإمام النورسي في تعاملاته مع منتجات الحضارة الغربية كأساس للمعيارية والانتقائية، هي معايير أخلاقية ودينية ، وهذا طبيعي لرجل دين ومصلح يرتكز بنائه الفكري على المرتكز الإيماني الشامل، ويستمد منهجه من القرآن والسنة.

ولكن هل اقتصر نقد النورسي للحضارة الغربية على الجانب الأخلاقي دون الفكري، أم أنه سلط سيف النقد على الجانب الفكري والفلسفي في حضارتهم؟ وبعبارة أخرى: هل كان للفلسفة الغربية أثر في حكم النورسي على الحضارة الغربية؟ أم أن موقفه من الحضارة الغربية و مكوناتها ونتاجها كان بمعزل عن نقده - الشديد واللاذع - للفلسفة الطبيعية المادية ؟ هذا ما سنقوم بالإجابة عليه تحت عنوان « تصفية الذات قبل نقد الآخر».

1.1.2.3.2تصفية الذات قبل نقد الآخر :

لقد كان نقد النورسي للحضارة الغربية، خاصة في جانبها الأخلاقي، هو امتداد لنقده للفلسفة الغربية - والتي لا تخلوا منها جميع صفحات رسائل النور

[1]- محمد فريد وجدي ، **مقدمة المصحف المفسر** ، طبعة دار الشعب ،القاهرة ،ص117 بتصرف .
[2]- منى علي يوسف: **فلسفة التاريخ عند هاردر** ،رسالة ماجيستير ،جامعة القاهرة ،ص 187.

لأنه رأي أن سيئات أوربا، وتوهمها بأن مساوئها فضائل، وسريان السفاهة والضلالة والانحلال، سببها ومرجعها: تعفنها بظلمات الفلسفة الطبيعية والمادية، تلك الفلسفة ؛ التي غاصت حتى ألهت الطبيعة، وأنكرت خالقها و كل ما هو غيبي، ولم تعترف أو تقر إلا بما هو محسوس ومشاهد.

لهذا أقر النورسى بوجوب تصفية ذاته من أثر الفلسفات الأوروبية التي علقت به، قبل أن يبين أسباب حكمه على الحضارة الغربية، معلنا بذلك عن بداية مرحلة جديدة في حياته الفكرية والعملية، فقد صرح قائلا في المذكرة الخامسة من « اللمعة السابعة عشرة : حينا سار «سعيد الجديد » في طريق التأمل والتفكر، انقلبت تلك العلوم الأوربية الفلسفية وفنونها، التي كانت مستقرة إلى حد ما في أفكار « سعيد القديم » إلى أمراض قلبيه، نشأت منها مصاعب ومعضلات كثيرة في تلك السياحة القلبية، فما كان من « سعيد الجديد » إلا القيام بتمحيص فكره، والعمل على نفضه من أدران الفلسفة المزخرفة، ولوثات الحضارة السفيهة فرأى نفسه مضطرا إلى إجراء المحاورة الآتية مع الشخصية المعنوية لأوروبا، لكبح جماح ما في روحه من أحاسيس نفسانية منحازة لصالح أوروبا، فهي محاورة مقتضبة من ناحية، ومسهبة من ناحية أخرى.[1]

فقد كان منبها في المرحلة السابقة - سعيد القديم - بالفكر الفلسفي وبقواعده العلمية والمنهجية، ظنا منه أنها تساعد على المعرفة الحقيقية للوجود والإنسان، وعلى تنمية وسائل الفهم والتحليل، وعلى الإسهام في الابتكار والإبداع والنهوض الحضاري، ولكن تكشف له أنه كان منخدعا، وأن لباس البحث العقلي - المادي الإلحادي - المجرد لا يناسبه، ولا يلبي حاجاته المعرفية والوجدانية، فقرر الانسلاخ منه انسلاخا كاملا، وقد تحكم في هذا التحول الجذري في حياته نضجه العلمي، وخبرته المكتسبة ، وتفكيره العميق المتزن، واستناده للمعرفة القرآنية والسنية الصحيحة .

لذا قام النورسي بتصفية دقيقة لنفسه، وباختيار عميق لمعارفه، فتبين وجود تعارض كبير بين منهج الإيمان والعقل التوحيدي، وبين منهج الفلسفة والعقل المادي، وهو ما عبر عنه بقوله: « راجعت أول ما راجعت، تلك العلوم التي اكتسبتها سابقا أبحث فيها عن السلوى والرجاء، ولكن كنت - ويا للأسف - إلى ذلك الوقت مغترفا من العلوم الإسلامية مع العلوم الفلسفية، ظنا مني - ظنا خطأ جدا - أن تلك العلوم الفلسفية هي مصدر الرقي والتكامل، ومحور الثقافة، وتنور الفكر، بينما تلك المسائل الفلسفية، هي التي لوثت روحي كثيرا، بل أصبحت عائقة أمام سموي المعنوي »[2].

---

[1] -النورسي: **اللمعات**، ص176، د. محمد بنتهيله: أعمال مؤتمر ،**العولمة والأخلاق في ضوء رسائل النور** ص306.. بتصرف.

[2]- النورسي ،**اللمعات** ،ص 367.

فقد انبهر في مرحلة تكوينه العلمي، بقواعد البحث الفلسفي، ومناهجه الاستدلالية، وأسسه المنطقية، سواء منها المناهج والأسس التي أبدعها اليونان، أو التي أنتجها علماء الإسلام، والتي أسهمت في تطور الفكر الغربي وحضارته، معتقدا أنها تمكن العقل الإنساني من معرفة حقيقة الوجود والحياة والإنسان، ومن حسن تحليل الكثير من الظواهر الفكرية والاجتماعية، ولكنه تنبه إلى تهافتها وعجزها عن استكشاف الحقائق والتصورات التي تقوم عليها سعادة الإنسان الدنيوية والأخروية، وعن حجبها للعقل في أغلب الأحيان للوصول للفهم الصحيح للحقائق الكونية المسخرة - وليست المؤلمة - والتي ينطلق منها الإنسان في بناءه الحضاري وتعمير الكون، والكشف عن أسراره، فعمد النورسي إلى القيام بمجهود عقلي كبير، ونشاط روحي عميق ومتوازن، للتخلص من كل ذلك، وهو ما أشار إليه بقوله :« فغسلت أدران تلك المسائل الفلسفية، وطهرت روحي منها - كما هو مبين في كثير من الرسائل - إذ كان الظلام الروحي المنبثق من العلوم الفلسفية، يغرق روحي ويطمسها في الكائنات، فأينما كنت أتوجه بنظري في تلك المسائل، فلا أرى نورا، ولا أجد إقبالا ولم أتمكن من التنفس والانشراح، حتى جاء نور التوحيد الساطع والنابع من القرآن الكريم، الذي يلقن » لا إله إلا هو فمزق ذلك الظلام وبدده، و تنفس بكل راحة واطمئنان.[1]

ورغم تصفيته لذاته قبل نقد الآخر، لكي يكون نقده نقدا موضوعيا، فإنه لم يكتفي بذلك فقط، بل إنه يدعوا من يسمعه ويقرأ رسائله إلى تصفية ذاته من حسن الظن به و بكلامه، وأن لا يقبل كلامه على علاته دون اختيار وتمحيص حيث يقول: « ليس هناك من يوصم نفسه بالفساد، بل غالبا ما يظهر المفسد نفسه بمظهر الصلاح والصواب... بناءا على حسن ظنكم بي ...حتى إذا ما نجح في الاختبار، وظهر صدقه، وبان معدنه

---

[1]- النورسي: **المرجع السابق**، ص 367 بتصرف. شاءت قدرة الله سبحانه وتعالى أن تتجدد تجربة شيخ الإسلام الغزالي المتوفي سنة 505 هي في القرن العشرين على يد الإمام بديع الزمان النورسي، فالغزالي نفسه قد نبه إلى فساد مذهب الفلاسفة الماديين، وبين أنهم « على كثرة أصنافهم يلزمهم وصمة الكفر والإلحاد » (**المنقذ من الضلال**، ص18وخصص كتابه القيم لا تهافت الفلاسفة » لتحليل آرائهم ومناهجهم، وأتجه بعد ذلك إلى مسلك التصوف بالتزكية والإغراق في التعبد والفناء، ولكن على الرغم من تشابه و تطابق الحالتين، إلا أن النورسي نجا بنفسه من وصم الفلاسفة بالكفر والإتحاد، و في مسلكه الصوفي لم يجعل التركية والانزواء والانغلاق والاستغراق في التعبد والفناء يفصله عن الواقع الخارجي ومعايشته وتحمل همومه، وإيجاد الحلول لمشكلات مجتمعه و أمته، وبمعنى آخر: لم يترك دورة الاستخلافي ومسؤوليته في النهوض الحضاري أثناء بحثه عن نور الإيمان الذي يغذي به جانبه الروحي بل واستعمل الإيمان كدافع حركي للنهوض بالأمة، هذا بالإضافة إلى أنه رسم أن غاية هدفه من هذا التحول في البناء الفكري والنفسي هو معرفة الحقائق الإيمانية والقرآنية، ونيلها عبر السير والسلوك الروحاني في ظل المعراج الأحمدي و تحت رايته، ولكن أيضا على الرغم من هذا - وغيره - فإن التقدير الكبير الذي يكنه النورسي للغزالي هو الذي أفرز هذا التوافق بينهما، إذ نجده يعتبره من ورثة الأنبياء (**المكتوبات**، ص361ويدعوا إلى وجوب الاسترشاد بتعاليمه (**المرجع السابق**، ص 577 بل ويرى: «أن مهمة رسائل النور وطلابها هي الحفاظ على مسلك أستاذهم حجة الإسلام الغزالي » (الملاحق ص196وهو مسلك بني على الإلمام الكبير بالعلوم النقلية والعقلية، وعلى الفهم العميق للمقاصد الشرعية، وعلى التصوف السني البعيد عن الانحرافات العقدية.

الذهبي، عند ذلك أحفظوه في القلوب، أما إذا كان صدأ - ومن معدن رخيص - فاطرحوه أرضا غير مأسوف عليه »[1]

ولعل هذا الطرح يعد من أبرز ما يميز موقف النورسي من الحضارة الغربية : وهي تصفية ذاته من أي أحكام مسبقة، حتى يكون نقده لهذه الحضارة نقدا علميا ومنهجيا بناءا، و مؤسس على الموضوعية، وبعيدا عن الازدواجية في المعايير والأحكام المؤسسة على الأهواء، أو النقد المبني على تأثيرات فكرية مسبقة، أو دفاع عن أيدلوجيات وقوميات خاصة.

3.2.2الحضارة الغربية في ميزان النقد البناء

-أسباب نهضة أوروبا

يبدأ النورسي كأول خطوة يقوم بها في تحديد موقفه من الحضارة الغربية ، بالحديث عن تفسير دقيق لأسباب نهضة هذه الحضارة وتقدمها، وكيف وصلت إلى ما هي عليه، حتى يمكنه هذا التفسير من تحديد مناطق قوتها وضعفها، وفرز أسسها ومرتكزاتها، والانتقاء من منتجاتها و صنائعها، والتي يمكن الأخذ بها لتحقيق نهضتنا، ومد شرايين حضارتنا بها لتقوى وتستعيد عافيتها. : فيرى النورسي أن أبرز أسباب نهضة أوروبا والتي دفعتها للتقدم والرقي تتجلى فيما يلي:

- ضيق ،وكثرة عدد السكان، ولطافة المناخ.
- وكثرة بحارها وأنهارها التي فتحت شرايين جديدة للتواصل وللطرق التجارية.
- ووفرة الحديد، وكثرة الحاجة التي تدفع للاختراع والصناعة،وحب الاستطلاع والسعي للعلم والمعرفة.

فيقول النورسي: « إن أوربا على الرغم من كونها عشر الخمس للكرة الأرضية ، فإنها جذبت ربع البشر نحوها بلطافة مناخها الفطري، وإنه ثابت أن اجتماع الأفراد الكثيرين يولد الحاجات، فلا يستوعب إنتاج الأرض تلك الحاجات التي تتزايد بأسباب كثيرة - كالتقليد وغيره- ومن هنا تصبح الحاجة أم الاختراع والصناعة، وحب الاستطلاع معلم العلم.

نعم إن التوجه نحو الصناعة، والميل إلى المعرفة، ينشأ من الكثرة، فبسبب ضيق المكان في أوروبا، وكثرة بحارها و أنهارها التي هي وسائط طبيعية فيها، والتعارف ينتج التجارة، ولكثرة ما فيها من الحديد الذي هو منبع جميع صناعات أوروبا، أعطى لمدينتهم السلاح القوي، حتى غصبت مدنيات الدنيا وأغارت عليها »[2].

---

[1] - إحسان قاسم، **النورسي حياته وآثاره** ، ص217.

[2]- النورسي ،**صيقل الإسلام** ،ص 367.

أراد النورسي من النص السابق أن يبين نعم الله التي أنعم بها على أوربا، وكانت سببا في نهضته ورقيه، والتي تستوجب الشكر للواهب المنعم، من خلال سعيها لمؤاخاة البشرية ونفعها، ولكنها حولت هذه النعم إلى نقم تنشر به الرعب و حمل السلاح، وسعيها للغصب والإغارة، وسلب حرية وكرامة الضعفاء، ونهب ثرواتهم.
كما أن تفسير النورسي و تحليله لأسباب نهضة أوروبا وتقدمها، يبين أن النورسي لم يحصر أسباب النهوض بعامل واحد، ولكنه أقر من خلال هذا التفسير، أنه لا يمكن لأي حضارة أن تقوم على عامل نهضوي آحادي فقط كا قال ماركس أو توينبي أو فيكو أو ابن خلدون وفلاسفة اليونان، وإنما يلزم لقيام أي حضارة، من تنوع العوامل وتضافرها لتحقيق التقدم والرقي بسواعد الإنسان المستخلف لتعمير هذا الكون، واستخدام الطبيعة المسخرة له وفق السنن الإلهية ونواميسها، وذلك كله بخطى ومعايير إيمانية .

4.3.2إزدواجية بناء الحضارة الغربية:

1.4.3.2أوروبا النصرانية:

يرى النورسي - من خلال ما سجله في رسائل النور - أن الحضارة الغربية تقوم على الازدواجية في المرتكزات والأسس التي قامت عليها، حيث اعتمدت في مراحل نهوضها وبنائها على الدين - وهو كما يرى النورسي اعتاد ضئيل - ثم أنكرته وقامت بمعاداته في أغلب مراحل نهوضها، مرتكزة على المادة وتأليه الطبيعة.ويعتقد النورسي أن مظاهر التقدم العلمي، الذي تميزت به الحضارة الغربية ن الحديثة، قد أسهمت فيه بعض التصورات الإيجابية في الفكر النصراني، فقد استثنى ، في انتقاده المقومات الحضارة الغربية قائلا: « ولئلا يساء الفهم، لابد أن ننبه! - أن أوروبا اثنتان .....

إحداهما: هي أوروبا النافعة للبشرية بما استفاضت من النصرانية الحقة، » وأدت خدمات الحياة الإنسان الاجتماعية با توصلت إليه من صناعات وعلوم تخدم ، العدل والإنصاف.. فلا أخاطب - في هذه المحاورة- هذا القسم من أوروبا »[1]

وأبرز ما يشد انتباهنا في هذا النص، هو الربط الوثيق الذي يعقده النورسي بين ن الحضارة والدين، فالجانب المضيء من الحضارة الغربية، إنها استفاض من النصرانية ، الحقة، أي من ذلك البصيص الخافت من الوحي الرباني الذي بقي عالقا بالمسيحية، ، والذي زرع في الإنسان حب المعرفة، وحب البشر، والسعي نحو التقدم، والبحث عن ، الأفضل، وأيقظ فيه فطرة السعي في مناكب الأرض، وتسخير المخلوقات والكائنات الفائدة بني البشر.وعليه: فإن حسنات الحضارة - في رأي النورسي - هي ثمرة من ثمرات النصرانية الحلقة التي حافظت على كلمة الله، والتزمت أصول الأديان، فانبثقت

[1]- النورسي ،**اللمعات**، ص 176،،أحمد عبد الرحيم السايح ، قضايا معاصرة ، ص21 بتصرف .

عنها الحضارة الغربية الحديثة، وهو بذلك يستبعد المسيحية المحرفة التي استغلت الإنسان وألهته، وحاربت العلم والمعرفة، وكانت سببا في ثورة الأوروبيين على الدين وإقصائه من الحياة في عصر النهضة.

والمفكر مالك بن نبي – الذي يلتقي مع النورسي في كثير من الآراء حول الحضارة الغربية في جانبيها السلبي والإيجابي - اعتبر أن الفكرة الدينية، متمثلة في ذلك التصور الذي يحمله الإنسان عن حقيقة الوجود والكون، وأنها أساس كل الجهود الحضارية التي يبذلها لأعمار الأرض، وأساس كل التغيرات الإنسانية الكبرى، لكونها القاعدة الحقيقية للبناء الفكري للحضارة، والدافع القوي الذي يضفي على الإنجازات الفاعلية والتقدم، وهو ما عبر عنه بقوله: «أن الحضارة لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية، ولا تظهر في أمة من الأمم، إلا في صورة وحي يهبط من السماء ويكون للناس شرعة و منهاجا... فكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية »[1]

ويؤكد النورسي في مواضع كثيرة، على ربط وتلازم الدين بالحضارة، واعتبار الدين أساسا مهما من أسس الحضارة التي يرجى بقائها ودوامها، وتتفاعل مع متطلبات الإنسان وحاجياته الحياتية، وتتلاقى أيضا مع طبيعته الفطرية، وهذه قاعدة مهمة من قواعد فكر النورسي، ومرتكزا قويا من مرتكزات بنائه الفكري والفلسفي في صياغته لرؤيته الحضارية.

وحين يتحدث عن محاسن الحضارة الغربية - المنبثقة من بصيص النصرانية الحقة الموحى بها، والتي لم تصلها أيادي التحريف - يشير إلى أن هذه الحضارة قد تدرجت في سلم التقدم العلمي، وترقت في مجالات المعرفة، حتى بلغت درجة لم تخطر ببال الإنسانية في القرون الغابرة، با أخرجت للوجود من صناعات متطورة، ، وسلع وفيرة، ومواصلات سريعة، وعلوم نافعة، واختراعات مدهشة، وهي كلها نعم ربانية تستحق الشكر، لأنها جاءت نتيجة لكن الإنسان وسعيه الذي باركه الله، وجعله جزء من وظيفته الإستخلافية في الأرض فيقول: «إن ما أنجزته هذه المدنية الحاضرة من خوارق في ساحة العلم، نعم ربانية تستدعي شكرا خالصا من الإنسان على ما أنعم عليه، وتقتضي منه كذلك استخداما ملائما لها لفائدة البشرية و منفعتهم »[2]

وهذه المنجزات المفيدة في جملتها، هي - في نظر النورسي - صورة بديعة للجهاد الإنساني المبارك، ومرآة عاكسة لفطرة الإنسان السليمة، التي تتفاعل مع الكون،

[1]- مالك بن نبي : **شروط النهضة** ،مصدر سبق ذكره ،ص 56-80.
[2]- النورسي ،**الملاحق** ، ملحق أميرداغ ، ص379.

وتتجاوب مع قوانينه، وتساير منهج الله الذي يدعو للتفكير، وثمن العمل، ويسعى دائما نحو الأفضل.

لذلك اعتبر النورس محاسن المدنية الغربية، أنها لا تعدو أن تكون وجها آخر الوحي الله الذي صاحب الإنسانية عبر مواكب الأنبياء، مؤكدا مرة أخرى على العلاقة الوثيقة بين الحضارة والدين فيقول: «إن الأمور التي تسمى بمحاسن المدنية، ما هي إلا مسائل شرعية حولت إلى شكل آخر ».[1]

وبالإضافة إلى الأثر النصراني الإيجابي، الذي كان السبب والموجه الأساسي للحضارة الغربية باتجاه قطاعات الحياة الأساسية وتقدمها، هناك الأثر الإسلامي الذي تسرب إلى أوروبا خلال قرون طويلة عبر الأندلس وصقلية وسواحل الشام، والذي أسهم بقسط وافر في التمهيد للنهضة الأوروبية، ومدها بالزاد العلمي الضروري، الذي انطلقت منه لتبني عليه معارف جديدة، وتستخلص منه آفاقا علمية أرحب، وهذا ما يجعل الحضارة الغربية في جانبها العلمي والتقني تراثا إنسانيا مشاعا، وثمرة من ثمرات التراكم المعرفي للخبرة الإنسانية عبر العصور، وخلاصة القول ،فإن النورسي يعتقد أن مظاهر التقدم العلمي التي تميزت بها الحضارة الأوروبية ،قد أسهمت فيه بعض التصورات الإيجابية في الفكر النصراني، فقد استثنى في انتقاده المقومات الحضارة الغربية « أوروبا النافعة للبشرية باستفاضة من النصرانية الحقة، وأدت خدمات الحياة الإنسان الاجتماعية ، بما توصلت إليه من صناعات و علوم تخدم العدل والإنصاف ».[2]

فلعله ربط بين مضامين بعض النصوص في الإنجيل[3]التي تدعو إلى التمسك بالحق ورحمة الضعفاء، وإلى السلام ونفع الناس والعفو عنهم، وإلى الإخاء والمساواة وبين سعي بعض علماء أوروبا إلى الاجتهاد والبحث عن بعض الوسائل التي تساعد على رقي و ازدهار الحياة البشرية، مخالفا بذلك بعض المفكرين المسلمين المحدثين، الذين لم يجدوا في النصرانية دعوة إلى العلم والرقي الحضاري .[4]

وبالإضافة إلى ذلك: يرى النورسي أن اهتمام أوروبا بالتقدم التقني والعلمي، وخدمتها للجانب المادي في المجتمع الغربي، لم يوقعها كلية في مستنقع التنكر المغرض

---

[1]- النورسي ،**صيقل الإسلام** ،ص57.

[2] - النورسي ،**اللمعات** ،ص 176.

[3] - لهذه التعاليم في الإصحاح الخامس من الإنجيل "متى"

[4] - ومن هؤلاء: محمد رشيد رضا في كتابه «**شبهات النصارى وحجج الإسلام** ، ص7 دار المنار، القاهرة، 1367 ه، وأبو الأعلى المودودي في كتابه «**نحن والحضارة الغربية** » ص42-41، سيد قطب في كتابه « **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته** » ص79، دار الشروق، القاهرة، 2007م.

للفكر الديني ولتعاليم النصرانية، بل « إن أوربا متعصبة بدينها »[1] بحيث إن « نقطة الاستناد، هي مدنية أوربا التي هي معسكر كتلة مسلحة وكنيستها العظيمة، وهي مستعدة في كل آن أن تنفخ الحياة في عروق رفقاء دينها الذين يمدون إليها أيديهم من كل صوب ».[2]

وإن كنت أرى لازما توضيح ما في النصين السابقين: فإن قول النورسي: « أوروبا المتعصبة بدينها » فإنني أرى أن ذلك التعصب لا يتجاوز موقعه الإطار الكنسي لرجال الكنيسة، ثم يلحقه النص الآخر ليكمله توضيحا، بأنها تنفخ في عروق بعض المتعصبين من خارج الكنيسة، الذين يرون بجهلهم في الإسلام خطرا وعداءا

ومن أبرز هؤلاء: بعض المستشرقين الذين يتفانون في تشويه صورة المسلمين والإسلام، والطعن في تعاليمه.

ويستحضر النورسي الدعم المادي والمعنوي الكبير، الذي مدت به الأنظمة الأوربية الحملات التنصيرية في شتى بقاع العالم، ويدرك أن كثيرا من منظري الحملة الاستعمارية الغربية على العالم الإسلامي، كانوا يعتقدون أنها استمرار للحملة الصليبية

وتجدر الإشارة إلى أن إقرار النورسى باستفادة الحضارة الغربية من تعاليم النصرانية، لا يعني أنه يؤمن بصحة عقائدها، بل نجده يشير: « إلى التحريف الذي لحق بالإنجيل من قبل الرهبان ».[3]

ويؤكد على فساد عقيدة النبوة - عندهم - والتي تمنح في نظره « أهمية للوسائط وقيمة الأسباب، فلا تكسر الغرور والتكبر، بل يسند قسطا من الربوبية الإلهية إلى الأحبار والرهبان »[4] «ولا تقاوم الأنانية باسم الدين، بل تمنح الأنانية نوعا من القداسة، وكأنها وكيل مقدس عن سيدنا عيسى عليه السلام »تأكيدا منه على الموقف القرآني، الذي يفرق بين النصرانية الحقيقية، التي جاءت على يد نبي الله وعبده عيسى عليه السلام"[5]، والتي توافق عقيدة التوحيد الإسلامية، وبين النصرانية المعتمدة في الكنائس، التي تضفي على الذات الإلهية صفات التجسيم، وتطعن في قيمة العبودية الخالصة لله تعالى، القائمة على الارتباط المباشر بين الحق سبحانه وبين عباده.

ولكن إذا كان هذا هو الجانب المضيء من الحضارة الغربية - رغم ضالته وصغر حجمه – والذي يرى النورسي أن فيه جزءا يأنس فيه الصلاح والنفع، بسبب استمداد

---

[1]-النورسي ،**المكتوبات** ، ص564.
[2]- النورسي ،**صيقل الإسلام** ، ص 369.
[3] -النورسي ،**الشعاعات** ،ص 664.
[4]- النورسي،**المكتوبات** ،ص 419.
[5] -النورسي،**المصدر السابق** ،563.

هذا الجانب و تأسيسه بقدر يسير على الدين، ويقتصر في محاورته لهذا الجزء على ذكر مميزاته وإنجازاته من غير إسهاب، فما هو الجانب الآخر من الحضارة الغربية، الذي يرفضه النورسي ويقوم بنقده وتشريحه ويسهب في محاورته، ويكشف عن عورته وخلله.

2.4.3.2أوربا المادية :

بعد أن خاطب النورسي أوروبا النصرانية النافعة للبشرية ,توجه بخطابه إلى أوروبا المادية الضارة و المخربة للبشرية وللكون بقوله :وإنما أخاطب أوروبا الثانية تلك التي تعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعية ,وفسدت بالمادية الجاثية, وحسبت سيئات الحضارة حسنات لها , وتوهمت مساؤها فضائل , فساقت البشرية إلى السفاهة ,و أردتها الضلالة و التعاسة ,ولقد خاطبت في تلك السياحة الروحية ,الشخصية المعنوية الأوربية ,بعد أن استثنيت محاسن الحضارة ,وفوائد العلوم النافعة , فوجهت خطابي إلى تلك الشخصية التي أخذت بيدها الفلسفة المضرة التافهة , والحضارة الفاسدة السفيهة ،وخاطبتها قائلا : يا أوروبا الثانية :اعلمي جيدا ,انك قد أخذت بيدك الفلسفة المضلة السقيمة ,وبشمالك المدينة المضرة السفيهة ,ثم تدعين أن سعادة الإنسان بهما, ألا شلت يداك ,وبئست الهدية هديتك , ولتكن وبالا عليك وستكون, أيتها الروح الخبيثة , التي تنشر الكفر وتبث الجحود, لقد أفسدت –أيتها الروح الخبيثة- البشرية , حتى طاشت بتعاليمك , فتقاسي منك العذاب المرير بإذاقتك إياها عذاب الجحيم في نعيم جنة كاذبة وأيتها النفس الأمارة للبشرية والى أين تسوقين البشرية , هب أن أمامنا طريقين ,فسلكنا أحدهما ,وإذا بنا نرى في كل خطوة نخطوها , في الطريق الأول مساكين عجزه يهجم عليهم الظالمون يغصبون أموالهم ومتاعهم , ويخربون بيوتهم وأكواخهم ,بل قد يجرحونهم جرحا بليغا تكاد السماء تبكي على حالتهم المفجعة ,فأينما يمد النظر ترى الحالة نفسها , فلا يسمع في هذا الطريق إلا ضوضاء الظالمين وصخبهم ,وأنين المظلومين ونواحهم ,فكأن مأتما عاما قد خيم على الطريق , لذا يضطر سالك هذا الطريق الى أحد أمرين :

-إما أن يتجرد من إنسانيته , ويحمل قلبا قاسيا غارقا في منتهى الوحشة ,لا يتألم بهلاك الجميع ,طالما هو سالما معافى .

- أو يبطل ما يقتضيه العقل والقلب .

فيا أوروبا : ما ورطك في هذا الخطأ المشين إلا دهاؤك الأعور أي ذكاؤك المنحوس الخارق ،فلقد نسيت بذكائك هذا رب كل شيء وخالقه ،وإذا أسندت آثاره البديعة إلى الأسباب والطبيعة الموهومة وقد قسمت ملك ذلك الخالق الكريم على الطواغيت التي تعبد من دون الله ,فانطلاقا من هذه الزاوية ,التي ينظر منها دهاؤك الأعور, يضطر كل

ذي حياة, وكل إنسان أن يصارع وحدة مالا يعد من الأعداء ، ويحصل بنفسه على ما لا يحد من الحاجات ،مع أنه لا يكفي كل ما في يده لواحد من مطالبه ، فعندما يصاب – مثلا –بمصيبة لا يرجو الدواء لدائه ،إلا من أسباب صم ,حتى يكون مصداق الآية الكريمة:﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾[1] إن دهائك المظلم قد قلب نهار البشرية ليلا، ذلك الليل البهيم بالجور والمظالم .[2]

ويلاقى النورسي مع ما ذكره محمد الغزالي في كتابه (الاستعمار أحقاد وأطماع) حيث يقول (إن حضارة الغرب لا ضمير لها ولا قلب, حضارة قطعان استغلت تفوقها العسكري لتملأ الحياة فسادا ونذالة)[3]

ورغم توافقنا مع كلام الإمام النورسي وتحليله للحضارة الغربية , وكشفه عن عورها ودهائها إلا أننا لا يمكننا الإنكار بأن الحضارة الغربية –عل الرغم من كل مساوئها وعيوبها –تفرض نفسها واقعا عمليا على حضارات العالم و أصحابها , وتفرض نفسها وأرائها وقراراتها وقوتها على بناء الحضارة الإسلامية أنفسهم وهم في عقر دارهم .

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه :ما هو أبرز ما يشوب الحضارة الغربية من عور-في نظر النورسي –ويرى أنها كانت سببا في عدم تقبلها تقبلا كاملا ،وسببا في حتمية سقوطها ؟ وبعبارة أخرى : ما هي أبرز المرتكزات التي أهملتها ،أو اعتمدت عليها الحضارة الغربية في نشؤها وبناءها الحضاري وكانت سببا في إفراز مساوئها وأمراضها,ويحذرنا النورسي من خلال عرضه لها , وكشفه عنها , من الوقوع فيها أثناء نهوضها الحضاري ؟ وللإجابة على ذلك سوف نعرض هذا في العنصر الموالي

2.3.2دفع مفاسد الحضارة الغربية :

1.2.3.2تصفية المدينة الغربية بمصفاة الشريعة الإسلامية: أشار الأستاذ النورسي رحمه الله إلى تصفية المدينة الغربية بمصفاة الشريعة والغراء في الكثير من رسائله رحمه الله، من ذلك مثلا، قوله رحمه الله: إن نهر العلوم الحديثة والثقافة الجديدة الجاري والآتي إلينا من الخارج كما هو الظاهر، ينبغي أن يكون أحد مجاريه قسما من أهل الشريعة كي يتصفا من شوائب الحيل ورواسب الغش والخداع، لأن الأفكار التي نمت في مستنقع العطالة، وتنفست سموم الاستبداد. وانسحقت تحت وطأة الظلم، يحدث فيها هذا الماء الآسن العفن خلال المقصود، فلابد إذن من تصفيته بمصفاة الشريعة، وهذا الأمر تقع مسؤوليته على عاتق أهل المدرسة الشرعية.[4]فكأنه رحمه الله يشير إلى حتمية التواصل بين الحضارة الغربية والعالم الإسلامي، ولكن إذا كان هذا التواصل

---

[1]- **سورة الرعد** :الآية رقم 14.
[2]- النورسي ،**اللمعات** ،ص 176-180 بتصرف
[3]-محمد الغزالي ،**الاستعمار أحقاد وأطماع** ،ط4، نهضة مصر للنشر،القاهرة ،2005م ،ص 81.
[4]- صيقل الإسلام ،**الخطبة الشامية** ، ص 531.

حاصلا ولا شك، فإنه ينبغي على أهل الشريعة من علماء المسلمين، أن يقتفوا أثر الإمام النورسي رحمه الله لتصفية هذه المدينة، ويضعوا توجيهاته موضع التدبير، ذلك أن النافع من هذه الحضارة، وهو ما يفرض تصفيته ولن يكون ذلك ممكنا إلا بالتسلح بالعلم الشرعي الراسخ، لتصفية هذه الحضارة من كدراتها وسفاهتها، والاقتصار على ما ينفع الأمة الإسلامية في دينها ودنياها، وهذا ما أكد عليه رحمه الله في موطن آخر بقوله «إن جامع الأزهر مدرسة عامة في قارة إفريقيا فمن الضروري إنشاء جامعة في آسيا على غراره، بل أوسع منه بنسبة سعة آسيا على إفريقيا وذلك لئلا تفسد العنصرية الأقوام في البلدان العربية والهند وإيران وكردستان وتركستان لأجل السمو بالروح الإسلامية التي هي القومية الحقيقية السامية الصائبة الشاملة، فتحظى بشرف الاقتداء بالدستور القرآني «إِنَّما المُؤْمِنُونَ إِخْوَة» " سورة الحجرات الآية 10" وكذلك لتمتزج العلوم النابغة من الفلسفة مع الدين، وتتصالح الحضارة الأوروبية مع حقائق الإسلام مصالحة تامة، وواضح أن الإمام النورسي رحمه الله، كان صاحب مشروع متكامل يروم استرجاع المسلمين لدورهم الحضاري بالاستفادة من آخر من صح من معارف وتدبير في الحضارة الغربية، حتى يتمكن العالم الإسلامي من ولوج أبواب الحضارة عن قوة، وليس عن عف وتبعية، لأن في ذلك مسخا لأمد حضاري إسلامي عريق يستحيل على علماء الأمة أن يفرطوا فيه مهما كانت الصعاب والتضحيات، لأنهم هم الذين ينيرون السراديب المظلمة في هذه الحضارة أمام السالكين، سواء كانوا من الأمة الإسلامية، أو من الهالكين في الغرب نفسه، بل هم أحوج الناس إلى الدواء من غيرهم، كما سبقت الإشارة إلى ذلك؛ يضيف الإمام رحمه الله قائلا» :فالأخوان الاثنان: أحدهما روح المؤمن وقلب الصالح، والأخر روح الكافر وقلب الفاسق.... أما اليمين من تلكما الطريقين فهو طريق القرآن وطريق الإيمان وأما الشمال فطريق العصيان والكفران... وأما ذلك البستان في الطريق فهو الحياة الاجتماعية المؤقتة للمجتمع البشري والحضارة الإنسانية التي يوجد فيها الخير والشر والطيب والخبيث والطاهر والقذر معا، فالعاقل هو من يعمل على قاعدة: "خذ ما صفا... دع ما كدر" فيسير مع سلامة القلب واطمئنان الوجدان.[1] وهذا يعني أن الإمام النورسي رحمه الله يدعو إلى ضرورة الالتفات إلى عنصر الإيمان في التعامل مع الحضارة الغربية، وهو الغائب الأكبر عن هذه الحضارة، وكفى بهذا الغياب الخطير عيبا مميتا، لأن بغياب الإيمان عن هذه المدينة،اندفعت نحو الأهواء الجامحة التي مسخت الوعي الإنسانيّ فيها، فتاه حائرا بين البحث عن الذات وعن اللَّذَّات التي لا تعرف الشبع، فكانت النتيجة أن فتحت هذه الحضارة أبواب جهنم أمام النفوس المريضة التي تشتهي تحقيق المتعة واللَّذة ولو على أجساد الملايين من الأبرياء، وهذا في حد ذاته مسخ للإنسانية، وانحدار بها إلى مدارك

[1]- النورسي ،**الكلمات** ،الكلمة الثامنة ،ص32، وراجع **صيقل الإسلام** /السانحات ،ص358.

الوحشية التي طالما تحدث عنها الإمام رحمه الله في النصوص التي استشهدنا بها سابقا؛ وأختم عنصر التصفية هذا بنص مميز ينطق بالغيرة على الدين الإسلامي الحنيف، أملا في إيقاظ همم المسلمين، قال فيه:«وبناءا على ما سبق، ما ينبغي أن ننخدع، بل نجعل القاعدة الآتية دستور عمل لنا وهي:«خذ ما صفا دع ما كدر» وفي ضوئها سنأخذ من الأجانب كل ما يعين الرقي المدني من علوم وصناعات، أما العادات والأخلاق السيئة، فهي ذنوب المدينة ومساوئها التي لا يتبين قبحها كثيرا لكونها محاطة بمحاسن المدينة الكثيرة، فنحن لو أخدنا متهم المدنية ـ لسوء حظنا وسوء اختيارنا لما يوافق الهوا والشهوات كالأطفال ـ تاركين محاسنها التي تحتاج إلى بذل الجهد للحصول عليها، نكون موضع سخرية كالمترجلات، إذا كيف إذا لبست المرأة ثياب الرجل ولبس الرجل ثياب المرأة؟ يكون كل منهما موضع سخرية واستهزاء، ألا لا ينبغي أن نتجمل بمساحيق التجميل، حاصل الكلام: سنمنع بسيف الشريعة مساوئ المدينة وذنوبها من الدخول إلى حدود حريتنا ومدينتنا، حفاظا على فتوة مدينتنا وشبابها بزلال عين حياة الشريعة؛ ينبغي لنا الإقتداء باليابانيين في المدينة، لأنهم حافظوا على تقاليدهم القومية التي هي قوام بقائهم وأخذوا بمحاسن المدينة من أوروبا؛ وحيث إن عاداتنا القومية ناشئة من الإسلام وتزدهر به، فالضرورة تقتضي الاعتصام بالإسلام[1].

1.1.2.3.2الدعوة إلى حضارة مؤمنة :أولى أستاذ النورسي رحمه الله الدعوة إلى حضارة مؤمنة عناية فائقة، وهذا ليس مستغربا من علم جعل من النهضة الحضارية للأمة مقصدا مهما في مساعيه التجديدية، قصد به إخراج المسلمين من التخلف دون الانقياد لا للشرق ولا للغرب، وذلك بالخضوع التام لله جل وعلا، والأخذ بكتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكفى بهذا قوة وتمكنا[2] لأنه رحمه الله يؤمن إيماننا قاطعا بأن حضارة الإسلام الغابرة، إنما تأسست على الدين الإسلامي، لذلك نراه في أكثر من موضع في رسائله يقارن ويوازن بين أسس الحضارة الغربية،، وأسس القرآن الكريم، ثم يخرج بنتيجة واحدة، هي: إن الخلاص الوحيد للبشرية منكل أمراضها وأزماتها، إنما يكمن في الإيمان، والانقياد بالله عز وجلا، من ذلك مثلا والأمثلة كثيرة جدا، قوله رحمه الله:«نعم! إن هذا الإلحاد ومجافاة الدين قد سبب فوضى في المدينة الأوروبية، وقلبها رأسا على عقب، بحيث ولد كثيراً من المنضمات الفوضوية وهيئات الإفساد والإضلال، فلو لم يلجأ إلى حقيقة الشريعة الغراء، ولم يتحصل بذلك الحبل المتين ولم يوضع سد تجاه هذه المنضمات الفوضوية كسد للقرنين، فستدمر تلك

---

[1]- النورسي ،**صيقل الإسلام** / المحكمة العسكرية العرفية ،ص468.انظر الصفحات التالية 442-457-466-471.

[2]- تحدث النورسي عن علاقة التدين بالمسلمين وغيرهم من أهل الملل في نظرات ثاقبة للغاية في **المكتوبات** /المكتوب 29،ص566، **وصيقل الإسلام** /السانحات ص351،**والمثنوي العربي النوري** ص181-ص 202-ص 270-271.و**الكلمات** /الكلمة 27/رسالة الاجتهاد ص928.

المنضمات عالم مدينتهم وتقضي عليها، كما يهددونها حاليا[1] فوضع رحمه الله أصابعه وبدقة على مكامن الداء في الحضارة الغربية، ويصف لها الدواء من جوهر الشريعة الغراء، ولأنه يتحدث من واقع هذه المدينة بخبرته بها، وبعمق تفكيره في خباياها وخفاياها التي تحاول خداع الناس بها، وينتهي بعد طول مباحثه إلى أنه لا مناص من سلوك سبيل الشريعة، ومتابعة النداء الرباني الذي يهدي بنوره من يشاء في دياجير الحياة الإنسانية عامة، وفي الحضارة المظلمة الزائفة بخاصة، قال رحمه الله:«إن الإسلام وشريعته الغراء هو: المالك الحقيقي وصاحب العنوان المعظم... والمؤثر الحق والمتضمن للعدالة المحضة... ويحقق نقطة استنادنا... ويرسم المشروطية على أساس متين... وينقذ ذوي الأوهام والشكوك من ورطة الحيرة... ويتكفل بمستقبلنا وآخرتنا... وينقذكم من التصرف في حقوق الله بدون إذن منه، تلك الحقوق التي تضمن مصالح الناس كافة... ويحافظ على حياة أمتنا... ويظهر ثباتنا وكمالنا ويحقق وجودنا أمام الأجانب... وسحر العقول والأذهان... وينقذكم من تابعات الدنيا والآخرة... ويؤسس الإتحاد العام الشامل نهاية المطاف... ويولد الأفكار العامة (الرأي العام) التي هي روح ذلك الإتحاد... ويحول دون دخول مفاسد المدينة إلى حدود حريتنا ومدينتنا... وينجينا من ذل التسول من أوروبا... ويطوي لنا المسافة الشاسعة التي تخلفنا فيها عن الرقي في زمان قصير بناءا على سر الإعجاز... ويرفع من شأننا في زمن قصير بتوحيد العرب والطوران وإيران والساميين... ويظهر الشخصية المعنوية للدولة لمظهر الإسلام.."[2]

وبناء على هذه المقارنات التي عقدها الإمام رحمه الله بين المدينة الغربية والقران الكريم بخاصة، يخلص إلى أن هذه المدينة قد عجزت عجزا تاما عن إسعاد البشر والرقي بهم بالرغم من جهدها الجبار في الترويج لما تزعم انه رفاهية إنسانية وسعادة بشريّة، شاهد هذه المعاني قوله رحمه الله:«المدينة حاضرة تؤمن بفلسفتها: إن ركيزة الحياة الاجتماعية البشرية هي'القوة' وهي تستهدف'المنفعة' في كل شيء،وتتخذ'الصراع' دستورا للحياة، وتلتزم بالعنصرية والقومية السلبية رابطة للجماعات، غايتها هي'لهوا عابث' لإشباع رغبات الأهواء وميول النفس التي من شأنها تزيد جموح النفس وإثارة الهوى، ومن المعلوم أن شأن'القوة' 'التجاوز'، وشأن'المنفعة' هو'التزاحم 'إذ هي لا تفي بحاجات الجميع وتلبية رغباتهم، وشأن 'الصراع 'هو التصادم وشأن'العنصرية' هو'التجاوز' حيث تكبر بابتلاع غيرها؛ فهذه الدساتير والأسس التي تستمد إليها هذه المدينة الحاضرة هي التي جعلتها عاجزة ـ مع محاسنها ـ عن أن تمنح سوى عشرين بالمائة من البشر سعادة ظاهرية بينما ألقت البقية إلى شقاء

---

[1]-النورسي ، **صيقل الإسلام** /المحاكمات – ص56 انظر أيضا ص 504-505.والمصدر :**إشارات الإعجاز**، ص 172.

[2]-النورسي ،**صيقل الإسلام** /الخطبة الشامية ،ص 525-526 انظر أيضا **الكلمات** ،الكلمة 27/رسالة الاجتهاد، ص 922

وتعاسة وقلق... وهكذا غلبت المدينة الحاضرة أمام القرآن الحكيم مع ما أخذت من محاسن من الأديان السابقة ولا سيما من القرآن الكريم."[1]ولعل أغلب ما يصفه النورسي في رسائله للإنسان والحضارة الغربية كعلاج ودواء هو الرجوع إلى الفطرة والالتجاء إلى الدين ،حيث يجد الإنسان ظلال الرحمة الإلهية الوارفة ليستظل بها كل الحيارى والضالين وتداوي جروح التائهين عن ربهم وتمسح مصائبهم وتبعث فيهم الحياة الهادئة المطمئنة، وهو يقرر هذه الحقيقة بعد أن يستعرض آثار المدنية الأوروبية في الإنسان الذي مسخته ،بعد أن أحدثت شرخا عميقا في ذاته بتضخيم الجانب المادي فيه وقتل الجانب الروحي :« إن ضلال البشرية وعنادها النمرودي وغرورها الفرعوني،تضخم وانتفش حتى بلغ السماء،ومسح حكمة الخلق وأنزل من السماوات العلا ما يشبه الطوفان والطاعون والمصائب والبلايا»[2] .فبعد أن سارت هذه المدنية شوطا بعيدا في تطبيق المنهج العلمي التجريبي على الحياة الإنسانية ،اتضح في نهاية المطاف أن منهجها كان قاصرا لأنها أغفلت تماما الخصائص الإنسانية الأصلية التي تفرق الإنسان عن الحيوان ،كما تفعل المختبرات العلمية في تعاملها مع الفئران – باعتبارها مماثلة لتكوين الإنسان في خصائصه وطبيعته – وأسقطت ن حسابها أنها تتعامل مع كائن حي ذي شقين متكاملين هما الجسد والروح،ولا يمكنه أن يحس بالتوازن والانسجام،إلا إذا كان تقدمه المادي مساو وموازي لترقيه الروحي ، يقول النورسي :«إن المدنية الحاضرة استولت على الأفكار بقولها أن السعادة هي في الحياة نفسها ،إلا أن الزمان أظهر الآن أن نظام المدنية فاسد ومضر،والتجارب القاطعة أظهرت لنا أن الدين حياة للحياة ونورها وأساسها»[3].والمأساة الروحية التي يعيشها الإنسان الغربي المعاصر ،دفعت الكثير من المفكرين الغربيين ،الذين تنبهوا إلى خطورة هذه الفجوة في حياتهم للاهتمام بالإنسان وأشواقه الروحية ،وميوله الدينية،وتغذية هذا الجانب فيه، وأن الحضارة الغربية على الرغم من تقدمها المادي الهائل في جميع المجالات ،إلا أنها عجزت عجزا فاضحا عن تحقيق رغبات الإنسان الفطرية ،واعتباره مركز الوجود وغاية الحضارة .ومن أشهر هؤلاء الدكتور الأمريكي: «ألكسيس كاريل» الذي عرف الكثير عن الحضارة الغربية ، ودرس عناصرها ومقوماتها ،دراسة تمكنه من نقدها ومحاكمتها حيث يقول في كتابه :«الإنسان ذلك المجهول »، «إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلاءمنا، لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية،إذ أنها تولدتمن خيالات استكشافات علمية وشهوات الناس وأهوائهم ونظرياتهم ورغباتهم وعلى الرغم من أنها

---

[1]-النورسي ،**اللمعات** ، اللمعة 5 ، ص511، 555، انظر **المكتوبات** ،المكتوبة 33،ص617.

[2]-النورسي :**الكلمات** ،ص859.

[3]- النورسي :**المصدر نفسه** ،861.

أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة لحجمنا وشكلنا»[1] ويقول في موضع آخر :«إن الحضارة التي ولغ فيها الإنسان في الدماء حتى غدا شيطانا، له وجه إنسان، ولكنه ليس إنسان، انه آلة، انه الشيطان، انه يشبه الإنسان بكليته، باستثناء الروح، لقد ولغ الآخرون جميعا في الدم، وهم ألان عفاريت، بعد أن غضوا بصرهم عن التطلع إلى قيم علوية، وسجدوا للآلة، لم يبق بين كل هؤلاء رجلا واحدا يمكن أن يكون إنسانا»[2]

والمتتبع لتطور الأحداث العالمية في العقود الأخيرة، تتأكد لديه هذه الحقيقة التي قررها النورسي، من خلال ما تطرحه المطابع من الدراسات الكثيرة والمتنوعة، التي تنذر بمستقبل مظلم للبشرية، التي جنحت أكثر فأكثر نحو الصدمات الدموية، وتصاعدت فيها نسب الحروب، وارتفعت معدلات الجريمة ، وتطور استغلال الأقوياء للضعفاء، والأغنياء للفقراء تطورا فظيعا، وتؤكد أن الإنسان المعاصر يعيش أزمة حضارية خانقة على جميع المستويات، وهو يبحث عن نفسه وسط هذا العالم الذي بناه بجهوده العلمية وقوته العقلية، فلا يجد نفسه فيه إلا من خلال الدين الصحيح، يقول النورسي:« إن البشرية التي أخذت تعي وتتفتح وتسمو بنتائج العلوم والفنون الحديثة، أدركت جوهر الإنسانية وكنهها، وتأكدت انه لا يمكنها أن تحيا بهيمة بغير دين، وحتى أكثر الناس تنكرا للدين وأشدهم إلحادا، مضطر إلى أن يلجأ إلى الدين في نهاية المطاف، لان:« نقطة استناد» البشر عند مهاجمة المصائب والأعداء من الخارج والداخل، مع عجزه وقلة حيلته، وكذا« نقطة استمداده» لآماله غير المحدودة، الممتدة إلى الأبد مع فقره وفاقته ليس إلا« معرفة الصانع» والإيمان به والتصديق بالآخرة، فلا سبيل للبشرية المتيقظة إلى الخلاص من غفوتها سوى الإقرار بكل ذلك، و مالم يوجد في صدفة القلب جوهر الدين الحق، فسوف تقوم قيامة مادية ومعنوية على رأس البشر، وسيكون أشقى الحيوانات وأذلها»[3]

ولكن على الرغم مما ذكرناه من نصوص النورسي وغيره من المفكرين الإسلاميين واستشهاده بما ذكره الغربيون أنفسهم عن الحضارة الغربية وتهميش الدين وارتكازها على الفكر الإلحادي، فإنني أرى أن الاستشهاد بما صرح به شاب غربي عن الحضارة الغربية هو مؤشر إحصائي ميداني واقعي،رصده أحد المفكرين المسلمين المعاصرين، وهو المرحوم الدكتور« مصطفى السباعي» وسجله في كتابه الرائع« روائع حضارتنا»، حيث قال:« كنت في فرنسا، وقد أتيح لي أن أتحدث إلى شبابها المسلم، وقد رأيت يوما رجلا مسلما يتحدث إلى لفيف من الشباب المسلم عن عظمة الإسلام ومسايرته للتطور العلمي والتقدم الصناعي واسترسل في ذلك وكأنه يتحدث في

[1]- ألكسيس كاريل: **الإنسان ذلك المجهول**،ط2، مؤسسة المعارف ،بيروت ،1977،م ص 38.
[2]-المرجع نفسه ، ص 384-385.
[3]النورسي: **صيقل الاسلام**، ص494

بلد عربي يتوق إلى القوة والمجد، فأخذ يؤكد أن الإسلام يدعو إلى القوة وصنع الدبابات والطائرات ...الخ ؟ فقال له احد هؤلاء الشباب: يا أخي نحن هربنا من الحضارة الغربية إلى الإسلام لأنها أتلفت أعصابنا بالحروب وأسلحتها وأفقدتنا إنسانيتنا حين أماتت أرواحنا وأحيت شهواتنا بماديتها، فحدثنا عن روحانية الإسلام الذي وجدنا فيه كرامتنا الإنسانية ،واطمئناننا الروحي والإيماني فيه»[1]

هكذا نطالع في كلمة الشاب الفرنسي كيف أن الفطرة بطبيعتها تندفع إلى الإيمان وتكشف عن سوءات الحضارة الغربية المادية، التي فجرت في نفوسهم كل ينابيع الألم والحيرة والاضطراب والضياع، وأنهم قد سئموها، وليس لهم مخرج إلا الإيمان بالله والعمل على توثيق الصلة والارتباط به، وذلك يتحقق من خلال الإسلام، ومن هنا يتحقق التقدم الحقيقي.

وما يؤكد أن الإنسان بفطرته النقية يندفع دفعا للإيمان الصحيح، عبر سعيه لتشيد نهضته الحضارية، والحضارة ذاتها لن تحقق التقدم المنشود، ولن تحقق لتقدمه الاستمرارية والديمومة المنشودة إلا بالارتكاز على الإيمان الشامل والكامل، المستمد من منهج صحيح وقد بات واضحا أن الفلسفة المادية الإلحادية التي قامت عليها الحضارة الغربية قد أفلست وأسلمت الإنسان في آخر المطاف للتحلل الأخلاقي والإباحية ،والإدمان ، والتفكك الأسري، ولنزعات العنف والتدمير والاستغلال ،التي مشاعر الاطمئنان والسعادة والأمن والاستقرار ،وحرضت فيه نوازع العداء والعنصرية فاكتوت البشرية بناره ،وغرقت بسبب نزواته الطائشة بحار الدماء، ومآسي المجاعات والأوبئة والحرمان ،وعبرت هذه الأزمة عن نفسها تعبيرا جليا في هروب الإنسان المعاصر من ضوضاء الحياة المادية ،وعزوفه عن مظاهر الرفاهية وأساليب الترف والبذخ وإقباله بشغف على بساطة الروح ونظافة الأخلاق لم تغب عن الدارسين والملاحظين هذه الظاهرة ،فسجلوا نزوع أعداد كبيرة من الناس –وبخاصة في العالم الغربي إلى الأديان- وخاصة الإسلام – بحثا عن الأمان والسعادة النفسية ، بعد أن انتهى المطاف بكثير من المفكرين والعلماء والفلاسفة إلى التأكيد على أن الدين هو الوحيد القادر على حل معضلة الإنسان المعاصر وفك خيوط أزمته .

يقول أنشتاين :«إن الشعور الديني الذي يجده الباحث في الكون ،هو أقوى حافز على البحث العلمي وصنع الحضارة ، وإن هذا الإيمان عندي يؤلف معنى الله »[2].

وهذا ما يؤكد أن الانطلاق الحضاري هو ثمرة من ثمرات الإيمان ،باعتبار أن الإنسان والكون وما فيه هو من خلق الله ،ولعه من أسخف السخف أن يطير الإنسان في فضائه

[1]- توفيق سبع: **قيم حضارية** ج 1، ص115

[2]- توفيق سبع ،**المرجع السابق** ،ج1،ص94.

ويعيش في ملكه ويتنعم بنعمه ويتنفس هوائه ،ثم ينكر وجوده ورسله وشرائعه وقد عبر النورسي عن هذه الظاهرة تعبيرا رائعا فقال :«لقد تيقظ الإنسان في عصرنا هذا بفضل العلوم والفنون ونذر الحروب والأحداث المذهلة ،وشعر بقيمة جوهر الإنسانية واستعدادها الجامع،وأدرك أن الإنسان باستعداده الاجتماعي العجيب،لم يخلق لقضاء هذه الحياة المتقلبة القصيرة ،بل خلق للأبد والخلود بدليل آماله الممتدة إلى الأبد ،وأن كل إنسان بدأ يشعر أن هذه الدنيا الفانية ،لاتسع لتلك الآمال والرغبات غير المحدودة...وهذا هو السر في ظهور ميل شديد إلى التحري عن الدين الحق في أعماق كل إنسان ،فهو يبحث قبل كل شيء عن حقيقة الدين الحق لتنقذه من الموت الأبدي ،ووضع العالم الحاضر خير شاهد على هذه الحقيقة »[1]ويؤكد النورسي على أن هذه الحضارة العرجاء ،التي افتقدت نور الوحي وأصبحت تتخبط في ظلمات الهوىلن يطول بها الزمان حتى تهوي وتذهب ريحها ،والسبب الوحيد والأساسي الذي سيوردها حتفها ،هو عجزها عن إسعاد الإنسان وتحقيق الأمن والطمأنينة له،بما سببت له من الآلام المادية والمعنوية ،التي أوصلت الأرض إلى حافة الفناء ،وستخلفها حضارة القرآن التي تحمل بذور الرحمة الإلهية وسحائب الرأفة الربانية ودفء الحرارة الإيمانية والدواء الشافي الذي يعالج جروح البشرية ويذهب بآلامها، ويذهب النورسي إلى أن نهاية هذه الحضارة ستكون على يد الإنسان الذي بناها وأقامها ،لأن فطرته ترفضها ومصلحته تتناقض مع توجهاتها ،فيقول :«فهذه المدنية الخبيثة التي لم نرى منها غير الضرر ،وهي المرفوضة في نظر الشريعة قد طغت سيئاتها على حسناتها،تحكم عليها مصلحة الإنسان بالنسخ ،وتقضي عليها يقظة الإنسان وصحوته بالانقراض»[2]

يتبين مما سلف بيانه أن الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله قد رصد مظاهر الحضارة الغربية رصدا شاملا وعميقا للغاية، فوضع أصابعه على مكامن الداء فيها، بما تضمنته من إعلاء للغرائز والشهوات وبما أعلنته مز حرب على القيم والأخلاق الإنسانية النبيلة التي كرم بها الله جل وعلا الإنسان منذ أن خلقه أول مرة، لأنها حضارة رفعت شعار الإلحاد، فتاهت بين الهوا والانغماس في الشهوات، حتى أصبح الإنسان عندها أقرب إلى الحيوان منه إلى أي كائن آخر، كما عبر رحمه الله عن ذلك مرارا في الشواهد التي سقناها أعلاه، لذا ألح رحمه الله أيما إلحاح على ضرورة تنبه أبناء الأمة الإسلامية إلى مكامن الزيغ في هذه الحضارة، كما دعا رحمه الله، العلماء إلى ضرورة تصفية الحضارة الغربية الراهنة بمصفاة الشريعة الإسلامية الغراء، حتى لا نمنع انتقال سمومها إلى عامة المسلمين وخاصتهم .كما أنه رحمه الله تعالى، أثبت بما لا يدع مجالا للشك، بأن الدواء الناجع، والترياق الشافي لكل أدواء الحضارة

[1]- النورسي ،**صيقل الإسلام** ،ص 494.
[2]- النورسي ،**المصدر نفسه** ،ص 357.

الغربية، إنا يكمن في الإيمان بالله جل وعلا، وبالعودة على الفطرة الإنسانية التي فطر الله تعالى عليها الإنسان أول مرة، فإذا كانت هذه المدينة تبحث عن لذة الإنسان ومتعته وسعادته، فإن السعادة كل السعادة بما فيها من متعة ولذة، إنما تكمل في الانقياد برب العالمين جل وعلا والخضوع لكتابه الكريم وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

4.2الرؤية الحضارية لبديع الزمان من خلال الأخلاق والسياسة والاقتصاد.

1.4.2الأخلاق:هي نظام القرآن الذي يطبع صورة الروح الإنسانية بماهيتها، ويسلك بها مدارج التربية والمجاهدة ، لاكتساب معناها الكوني.

ولتبيين التصور الشمولي لهذا التعريف، الذي ركبناه من استقراء نصوص رسائل النور،كما وضعها بديع الزمان النورسي رحمه الله، فانه يجدر بنا أن ندرس عناصره فقرة فقرة، حتى يتسنى لنا تبين جوهر المفهوم الذي استنبطه بمنهجه التفكيري من القرآن العظيم، وبيان ذلك هو ما يلي:

1.1.4.2الأخلاق نظام القرآن :

إن الهم الرسالي الذي كان يحمله بديع الزمان رحمه الله،والقصد الاصطلاحي الذي كان يسكن وجدانه وهو يكتب رسائل النور؛ جعله يمضي في تدبره للقرآن وتفكره في أحوال النفس والمجتمع ؛فقاده ذلك إلى اكتشاف حقيقة الأخلاق في القرآن .حيث عرضها بعد ذلك في رسائله على أنها هي كل نظام القرآن، أي النسق الكلي للقرآن.

فرسالة القرآن إنما جاءت لتصنع مجتمعا قائما على أساس الأخلاق، بمعنى كلي، فكل التصرفات البشرية في العلاقات النفسية، والاجتماعية، والوجودية، مع سائر الكائنات؛ إنما هي أخلاق، وهذا مفهوم خاص لمعنى (أخلاق)،الذي يقتصره بعضهم فقط في مجال (الفضائل)،بمفهومها الاجتماعي الخالص و(الفضائل)—في المعنى السائر المتأثر بالدلالة الفقهية –مفهوم موح بنوع من النقل الزائد، الذي يفعله الإنسان تطوعا، وهذا معنى فرعي،بينما تصور النورسي للأخلاق قائم على أنها (أصول) لا (فروع)،كما سيأتي بنصه وتعبيره، وعلى أنها (قانون) بمعنى نظام مطرد،ونسق كلي، وليست أحوالا تقبل الحدوث كما تقبل التخلف؛ وعلى أنها (قواعد) بمعنى ضوابط، سيقت لتكييف السلوك الإنساني، والتصرف البشري تكييفا تربويا،وفق ميزان معين، ثابت، لا يلحقه العبث ولا تثلمه الفوضى، إن تصور الأخلاق على أنها (فضيلة نافلة) هو مفهوم جزئي. والاقتصار عليه يؤدي إلى تحريف الدلالة القرآنية، ذات البعد الشمولي العميق لمصطلح (أخلاق)، وأحسب أن تحقيق مفهوم الأخلاق نوع من التجديد، الذي رامه بديع الزمان النورسي، في عرض حقائق القرآن،، من خلال رسائل النور،وهو يتحدى الغزو والفكر والحلقي الغربي. ان تصور النورسي لهذا المعنى المستنبط من القرآن قائم على دلالة أخرى تماما، انه دال عنده على كل الحركة الإنسانية في النفس والمجتمع ،فلا يبقى بعد ذلك شيء من تصرف الإنسان إلا وهو

مشمول بمصطلح (الأخلاق). ومن هنا صح أن يكون القرآن –إنما جاء لبناء الأخلاق وبهذا معنى الشمولي الواسع، وذلك هو منطوق حديث عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم فقالت قولتها المشهورة : (كان خلق القرآن) "رواه مسلم "هكذا على سبيل الشامل لكل القرآن ، وهو أيضا قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المشهور (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[1]هكذا بهذا الحصر الشامل المستغرق لكل مقاصد البعثة المحمدية، فكان القرآن الكريم كله - من حيث هو نظام رباني، أنزله الله لتنظيم حياة الإنسان التعبدية والنفسية والاجتماعية -إنما هو نظام للأخلاق. ولذلك بين بديع الزمان النورسي أن أخلاق القرآن وسعت - بهذا المعنى- كل ما جاءت به الكتب السماوية السابقة وزيادة قال رحمه الله : (إن أصول الأخلاق في القرآن عالية علو ما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها. وان أخلاق الأمم التي دانت له تحولت بتحول الأزمان والعروق (...) إن أهم نتيجة يمكن استنباطها هي تأثير القرآن العظيم في الأمم التي أذعنت لأحكامه، فالديانات التي لها ما للإسلام من السلطان على النفوس قليلة جدا، وقد لا نجد دينا اتفق للإسلام من الأثر الدائم، وهو قطب الحياة في الشرق وهو مانرى أثره في أدق شؤون الحياة).[2]

يمكننا القول أن الأخلاق تعني في أقرب ما تعنيه:هندسة الجمال في السلوك البشري والميزان الذي توزن فيه أفعال المرء في مختلف أحواله، وبه تقوم أفكار الضمير وخواطر النفس فأي فعل ينبعث من قاعدة سلوكية ثابتة لدى المرء هو فعل أخلاقي وهو فعل خلاق في الوقت نفسه ،لأنه يسهم مع الأخلاقيات الأخرى ،في إنشاء صرح السلوك الجمالي للحضارة الإنسانية في العالم ،الذي هو مطمح نظر الأنبياء والرسل والحكماء والفلاسفة وعموم الأخلاقيين في كل زمان ومكان ،وحتى الموجودات المحيطة بالإنسان من كل جانب هي في الحقيقة كيانات "خـــلقية "و "خُلقية " في آن واحد .[3]

فالأولى :لأنها صنيع الإرادة والقدرة الإلهية ،أي مخلوقاته .

والثانية :لأنها محكومة بهندسة جمالية منضبطة لا عشوائية فيها ولا فوضوية متسيبة ،ومابين الأولى والثانية،ليس بتماثل في البناء الحرفي فحسب ،بل وتماثل في الدلالات المعنوية إلى درجة يكاد يبلغ فيها حد التطابق .فمفهوم الأخلاق لدى بديع الزمان كما تقطر من تفكرا ته القرآنية يرجع إلى معنى تربوي خصوصي،إذ هو تنقيه لماهية الإنسان من شوائب الأنانية الوجودية وخزف الصنمية الكاذبة وذلك بتجليه صورة الروح الإنسانية وتصفيتها حتى تبدو مرآتها على أجلى حقائقها .من حيث كونها أكمل رمز للعبودية وفي ذلك تتميز الأخلاق القرآنية عن أخلاق الفلسفة ، التي تكثف الحجب الكاذبة على حقيقة الإنسان وماهيته ،فتوهمه أنه إله من دون الله الواحد القهار فذلك

---

[1]- **رواه ابن سعد والحاكم** عن أبي هريرة ،وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ،ص 2349.

[2]- النورسي ،**إشارات الإعجاز** ،ص 285.

[3]- محمد عبد الله دراز :**دستور الأخلاق في القرآن** ،مؤسسة الرسالة ،2005،ص 245،23،ص875 فلقد سرد فيه الأخلاق العلمية المنصوص عليها في القرآن الكريم ،والتي يعدها الإسلام من أمهات الفضائل فهذا الكتاب يعد من أهم ما كتب في تاريخ الفكر الأخلاقي واثبت شمولية الإسلام في تصوره ومبادئه الأخلاقية وسبقه في تقنين الثواب والجزاء للفعل الأخلاقي .

فرق النورسي بين "التخلق بأخلاق الله " الذي يسبق بيانه وبين مفهوم "التشبه بالله " الذي هو غاية الفكر الفلسفي في نظريته الأخلاقية فإذا كان الأول نفيا للأنا فإن الثاني ترسيخ لها ومن هنا كانت الأخلاق عند النورسي "تطبع صورة الروح الإنسانية بماهيتها "بفعل السلوك التربوي اليومي الذي يربي النفس بصغار العلم قبل كباره ،على أساس قوله تعالى :«ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ».ماذا يمكنك أن تقول (إنما الخلق بالتخلق) قال صلى الله عليه وسلم :(إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم ومن يتحر الخير يعطه ،ومن يتق الشر يوقه) [1]والتخلق إنما هو التربية والمجاهدة ومن هنا قال بديع الزمان في كلمة جامعة مانعة:(أما مسلكنا :فهو التخلق بالأخلاق المحمدية وإحياء السنة النبوية)[2] قال النورسي: (إن نشوء الحسيات العالية ونمو الأخلاق إنما هو بالمجاهدة وتكمل الأشياء إنما هو بقابلة الأضداد ومزاحمتها) [3]وفي هذا التعبير يقصد بالمجاهدة التدافع النفسي الحاصلة لدى المسلم الذي عزم على مواجهة عدوى فساد الأخلاق ،فينخرط بذلك في صراع مع الشهوات الحيوانية التي تثور في نفسه ،وتريد أن تنحرف به عن فلكها السيار مستقيما على نظام القرآن الدائر على محورها النموذجي في كمال الأخلاق محمد عليه الصلاة والسلام.

2.1.4.2-القيمة الحضارية للنسق الأخلاقي النوري:

إن سؤال الأخلاق في نسق رسائل النور وجهتها العامة هو المدخل الأساسي لمعالجة أدواء وأسقام الإنسان المعاصر، ولكن حين نتحدث عن المسألة الأخلاقية عند النورسي فإننا لا نتحدث عنها وفق منطق الفلسفة الوضعية أو المادية أو الطبيعية ولكن نتحدث عن الأخلاق وفق ما أسماه النورسي بالمعنى الحرفي .وحين ننظر إلى المسألة الأخلاقية على وفق المعنى الحرفي فإننا نجدها وبدون منازع هي المدخل الصحيح لمعالجة المشكلات الإنسانية فلا شك بأن الذي يطلع على رسائل النور بقلب مخلص وعقل منفتح ،وبصيرة نافذة سيصل إلى حقيقة أساسية وجوهرية هي أن رسائل النور في مجملها وكليتها وشموليتها وجامعيتها درس أخلاقي إيماني كوني استخلافي إنساني عميق . وعندما نلج إلى مسالك رسائل النور، ومداخيلها النورانية القرآنية المعنوية سيتأكد تماما أن المسألة الأخلاقية تمثل المحور المركزي ،والمركز المحوري للدرس النوري وخطابه بصورة عامة .يقول النورسي: «فكيف إذا يعد جرما أو ذنبا قراءة رسائل النور وهي مؤلفات تعد في الذروة من ناحية تدريسها وتلقينها للأخلاق الفاضلة والحقائق الإيمانية »[4]

وليس من قبيل المصادفة أو الرجم بالغيب أو الارتجال الفوضوي أن تتوقع المسألة الأخلاقية في هذا الخطير المتميز ضمن اهتمامات الخطاب النوري، ولكن طبيعة الدرس النوري ، وصلته الوثيقة بالقرآن الكريم، والنموذج النبوي الأخلاقي العظيم قد فرض على رسائل النور أن تتجه هذه الوجهة الأخلاقية، وأن ترفع بقوة ثقل المسألة

---

[1]-رواه **الدار قطني** بإسناد حسن ،كما جاء في صحيح الجامع الصغير :2328.
[2]- النورسي :**صيقل الإسلام** /الخطبة الشامية :532
[3]- النورسي :**إشارات الإعجاز** :208.
[4]- النورسي، **الشعاعات** ،ص600

الأخلاقية مبينة دورها في البناء الحضاري للبشرية، وفي الصيرورة العامة في الحضارة الإنسانية، فقد أكدت لنا الخبرة الإنسانية، والمعارف الحضارية البشرية أن المسألة الأخلاقية هي أسس أساسات الأفعال الحضارية، والتاريخية المتوازنة في المسيرة الإنسانية، التي قادتها الأنبياء والمرسلون من أدم عليه الصلاة والسلام إلى آخر الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان خلقه أعظم معجزاته المشهودة على المستوى التاريخي والحضاري والاجتماعي فأخلاقه جاءت رحمة للعالمين. يقول الإمام النوري :(أما طريق أهل الهداية والمسلم السامي الأنبياء عليهم السلام وفي المقدمة حبيب رب العالمين، الرسول الأمر عليه الصلاة والسلام فهي :وجودية وإيجابية وتعمير ،كما أنها حركة واستقامة على الطريق والحدود، وهي تفكر بالعقبة ، وعبودية خالصة لله.) والذين يسيرون في مسار النبوة وأخلاقها، ويتبنون المعنى الحرفي في حياتهم إنما يرون أن للحياة غايات أخلاقية عظيمة، وأن الأخلاق هي أساس الحياة الصالحة، أو كما يقول النورسي :" بينما الذين هم في مسار النبوة:فقد حكموا حكما ملؤه العبودية لله وحده، وقضوا :أن الغاية القصوى للإنسانية والوظيفة الأساسية للبشرية هي التخلق بالأخلاق الإلهية ،أي التحلي بالسجايا السامية والحصول الحميدة _التي يأمر بها الله سبحانه[1]".

فإذن ليس من العبث أن تشغل المسألة الأخلاقية هذا الحيز والموقع في الدرس النورسي . فالقيمة الخلقية، والبناء الأخلاقي، والتوجيه الأخلاقي أصبح مع رسائل النور لأزمة جوهرية من لوازم الإنقاذ الحضاري لإيمان البشرية، ولخدمة الإيمان والدين والحقيقة القرآنية.[2]ومن هذا المنطلق نجد أن رسائل النور ترسم لنا صورة أخاذة وعميقة وصادقة عن الحقيقة الأخلاقية للعالم الإسلامي، وعن العمق الأخلاقي للأمة الإسلامية. حيث تشير رسائل النور إلى تلك الفضائل ، والقيم، والأخلاق العالية للفرد والأسرة، والجماعة، والمجتمع، والأمة الإسلامية في ذاتها وفي صلاتها مع الآخرين، ومع الآفاق الكونية المحيطة بنا، ومع كل المخلوقات الأخرى فتبرز لنا رسائل النور البعد الإيماني الإنساني للأخلاق الإسلامية ليس باعتبارها أخلاقا نظرية فلسفية مادية وضعية، ولكنها أخلاق إيمانية شرعية عملية اجتماعية مؤثرة في الصلة بين العبد وربه، وبين العبد وأخيه، وبين العبد والكون المحيط به. ومصدر الأخلاق الإسلامية هي الحقائق القرآنية ذاتها مجسدة في الواقع ، ولهذا السبب نجد النورسي يقول :"وكذا فإن أيسر الطرق في الأخلاق الإنسانية وأنفعها وأقصرها وأقسامها هي في الصراط المستقيم."[3] ورسائل النور حين ترسم لنا الصورة الآخذة للجانب الأخلاقي في حياة الأمة والعالم الإسلامي لا تنزع منزعا فلسفيا نظريا، ولكنها تتوجه نحو القلب، والبصيرة، والوعي ، والسلوك، والنفسي لتحرك الوجدان كله، والوعي كله لتلقى الحقيقة القرآنية الإيمانية النورانية كما هاهي في الخطاب القرآني المهيمن والمعجز. فأمة الإسلامية الحقيقية أمة أخلاقية خالصة وذلك بتبنيها الحرفية في الحياة والفكر

---

[1]- النورسي ،**الكلمات** ،ص 624.

[2]- لايكاد المطلع على رسائل النور يفتقد إشارة أو معنى أو توجيه أخلاقي في كل صفحة من رسائله ،فنرى أن المسألة الأخلاقية حاضرة بقوة ومشهودة بكثافة غير معتادة انظر مثلا كتاب "**الشعاعات** ".

[3]-النورسي ،**الشعاعات** ، ص 694.

والاعتقاد والسلوك والنشاطات كافة ، وانطلاقا من هذا الأساس فإن الحضارة والمدنية التي شكلتها الشريعة الإسلامية الحرفية هي مدنية متوازنة ومتجانسة مع الفطرة ومتناغمة عبر التاريخ.

والعالم الإسلامي والأمة الإسلامية في عمقهم الأخلاقي ينبغي أن يكونوا التجسيد العملي لهذا الأساس الأخلاقي الذي لضمته رسائل النور بصورة عميقة مستنبطا من الدرس الأخلاقي القرآني والتطبيقي النبوي.ونظرا لأهمية المنهج النوري في النظر إلى المسألة الأخلاقية فإنه من الأهمية أن نبين الأسس التي استندت إليها رسائل النور في تصور المسألة الأخلاقية، ويمكن تلخيص هذه الأسس في:الأساس الإيماني والتوحيدي للمسألة الأخلاقية،فلا يمكن عزل المسألة الأخلاقية عن موضوع الإيمان وحقائقه والتوحيد وقيمه، فالأخلاق في المنظور الإسلامي تنبع من الإيمان ومن التوحيد الخالص الذي يربط الصلة الأخلاقية المتوازنة بين العبد وربه. فالإيمان الصحيح هو الذي ينظم ويوجه نظام الأخلاق ويرشده بصورة متوازنة وفعالة،الأساس الشرعي والتكليفي للمسألة الأخلاقية،فلا يمكن عزل الأخلاق عن الشريعة الإسلامية ومقاصدها التكليفية العملية.

حيث تعتبر الشريعة ومقاصدها أعظم نظام أخلاقي تنزل على البشرية، ولا يمكن فهم الأخلاق الإسلامية العالية إلا ضمن إطار الشريعة ومقاصدها،حيث تتحول الأخلاق إلى قيم عملية،والى معاني إنسانية مضبوطة وموزونة بميزان الشريعة. الأساس الإستخلافي التسخيري للمسألة الأخلاقية،فلا يمكن فهم الأخلاق وممارستها إلا في إطار ممارسة الاستخلاف في الأرض،وربطها بالعمل الصالح،وبالنفع والعمران البشري والإنساني. فالأخلاق في الإسلام تدور حول مسألة الاستخلاف والخلافة في الأرض،ولا تدور حول التأمل والتجريد والتفلسف والظلم والاستعباد والتعصب،والابتعاد عن الممارسة العملية الفعلية للخليفة في الأرض. ولهذا نجد النورسي ينصح المسلمين بالتحلي العملي بأخلاق الإسلامي بدل الترديد الكلامي لها. فيقول:"ولو أن أفعالنا وسلوكنا أظهر مكارم أخلاق الإسلام وحقائق الإيمان، لدخل أتباع الأديان الأخرى في الإسلام فرادى وأفواجا. و لربما خضعت دول العالم وقاراته للإسلام[1] .الأساس الكوني للمسألة الأخلاقية،فرسائل النور تربط بين القيم الأخلاقية،والمعاني الأخلاقية وبين تجليات أسماء الله الحسنى وآياته الكبرى في الوجود الكوني عامة. ففي رسائل النور نرى أن الكون كله بما فيه من المخلوقات تحمل معاني أخلاقية،وتدل على جواهر أخلاقية تزخر بالحكمة. ومن هنا فان الأستاذ النورسي يقترح علينا أن ننظر إلى المسالة الأخلاقية في إطارها الكوني حين يصبح كل شيء في الكون دليلا ومعلما هاديا إلى الحقائق الأخلاقية الإلهية المودعة في الكون لتكون دالة على الإتقان،والحكمة،والإبداع،والتناسق،والانسجام في النسيج الكوني العام،وبهذا يتحول الكون إلى كتاب معجز ينبغي قراءته و الاهتداء بدلائله وآياته إلى خالقه سبحانه وتعالى،وإدراك المغازي الأخلاقية والتوجيهات القيمة المتفجرة من هذه المعرفة الكونية.

[1]- النورسي ،**صيقل الإسلام** ،ص 494.

الأساس الإنساني للمسألة الأخلاقية،فلا يمكن إدراك وتشوف،وشهود المعاني والآثار والوظائف والأدوار الأساسية للأخلاق في الحياة إلا بارتقاء الإنسان إلى المستوى الذي يجعله إنسانا حقا يكتشف عمقه الإنساني،ويدرك غاياته الإنسانية،ويحلق بوعيه وقلبه ونفسه وروحه إلى عالم الأخلاق والقيم لا ليتأملها أو يجردها،ولكن ليفهمها،ويعيها،ويعمل بها،ويعيشها،ويبلغها،وينفذ بها الإنسانية. فهنا تصبح المسألة الأخلاقية متصلة تماما بالإنسان وجوهره ورسالته التاريخية. فلا يمكن أن تعرف المسألة الأخلاقية وتقدر حق قدرها في الوجود البشري إلا إذا تجسدت في حياة الإنسان. ولهذا نجد الأستاذ النورسي يرى أن أعظم معجزة من معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم بعد القرآن هو تحقيقه لمعنى قوله تعالى:«وإنك لعلى خلق عظيم»[1]فبهذا التوجه تبين لنا رسائل النور أن المسألة الأخلاقية لا تأخذ حيزها، وموقعها، وموضعها ضمن الحياة الإنسانية إلا إذا عشناها، وطبقناها، وتذوقنا آثارها وثمراتها، حين تتحول الأخلاق إلى الطاقة والقوة التي تبني الإنسان والمجتمع والأمة والإنسانية التي تتصف بصفتي: الإحسان والاستقامة باعتبارهما من أهم معايير الصلاح الإنساني فنحن إذن لا نستطيع أن نفهم ونعالج المسألة الأخلاقية ضمن نسق رسائل النور إلا إذا خلصنا مناهج دراسة الأخلاق من الأطروحات الفلسفية، والوضعية، والمادية وربطناها بما يسميه الأستاذ النورسي بالمنظور الحرفي التوحيدي. إذ بهذا المنظور تصبح المسألة الأخلاقية جوهرية لارتباطها بالإيمان، والتوحيد، والشريعة، والاستخلاف، والكون، والإنسان من جهة، وتجسدها في شخص النبي عليه الصلاة والسلام وظهورها في عمق معانيها في حياته، وأعماله، وأفعاله، وأقواله، ومنهجه، وسنته، وسائر أحواله، وبهذا ينجح المنهج النوري في إنقاذ قضية دراسة الأخلاق من الفوضى المعرفية و التجريد إلى العمل الصالح والسمو بالوعي والعقل إلى إدراك حقائق الإيمان وتجلياتها النفسية والكوني، وهكذا يظهر لنا النورسي الأخلاق كحل سليم وعميق لما تعانيه الإنسانية من مشكلات.

2.4.2-السياسة :

-النورسي والسياسة: توجد لدى العديد من الأفراد ـ وخاصة في الأوساط الفكريّة والعلمية ـ مفهوم مغلوط عن مركزية النورسي في دائرة الحياة السياسية والفكر السياسي، وأحيانا يطرح هذا المفهوم في قالب أسئلة أو إشكالية، بدءا بـ: كيف نتحدث عن النورسي في الجانب السياسي وقد استعاذ بالله من الشيطان والسياسة؟ هل يمكننا أن نجد رؤية سياسية عند الرجل عاش معظم حياته في السجن والمنفى والعزلة؟ ألم يؤكد النورسي على طلابه مرارا بعدم الخوض أو الاقتراب من دائرة السياسة؟ إن سعيد الجديد أكد مرارا أنه عالم ديني ورجل شريعة، وهذا التأكيد لا يتلاقى مع الحكومة العلمانية التي عايشها وعانى من عداوتها له وللإسلام، ولا مع المرحلة السياسية التي أُعلنت فيها: أنه لا سياسة في الدين، ولا دين مع السياسة؟[2] فهل بعد هذا يمكننا أن نقر بأن النورسي سياسي، أو لديه رؤية وفكر سياسي؟ ولعل هذه

---

[1] -سورة القلم –الأية 4

[2]-ممدوح علي العربي :**الأخلاق والسياسة في الفكر الإسلامي والليبرالي والماركسي** ،ص 139-159 بتصرف .

الأطروحات من الأسئلة يمكن الإجابة عليها باختصار[1] من خلال المعايشة الفكرية مع الرسائل، والتي تضمنت أن النورسي كان في غمار المعترك السياسي طوال حياته، حتى بدأنفيه في «بارلا» 1926م والتي كانت بداية عزلته للسياسة القائمة على التزلف والنفاق والمصالح الذاتية وتنحية الدين، والتي يقول القائمون عليها غير ما يفعلون، لهذا استعاذ بالله من هذه السياسة، التي يقودها الشيطان ولقطاء أوروبا، ولا تتحرك بذاتية الهوية الإسلامية، ولكن بذاتية الهوية الأوروبية وحضارتها الاستعمارية التي تضحي بالأكثرية في سبيل الأقلية المنتفعة، كما يمكننا أن نبيين ما يلي:

1-أن النورسي سلك في حياته أطوارا شتى ـ سعيد القديم، سعيد الجديد، سعيد الثالث ـ اقتضت منه أن يتحلى لكل طور منها بما يناسب طبيعة كل مرحلة، وما يتوافق مع واقع الحال، وهذا التحلي سلكه. غالبية المصلحين، ومنهم الإمام محمد عبده، حيث إنهم توافقا على عدم الخوض في الإصلاح السياسي الفوقي، أو الإصلاح الرأسي عموما واتجهوا للإصلاح الإستراتيجي، أو ما يمكن أن نطلق عليه: سياسة الالتفاف الحكيمة، وذلك من خلال تطبيق فلسفة الإسلام التربوية الفعالة، التي تساهم في خدمة الدين والدنيا، الحياة والآخرة، والمضي نحو الاتجاه البناء .

2-أن النورسي رفض أي مسلك يؤدي للتصادم أو الاشتباك مع السياسة والخصوم المعادين للدين، بل ورأى أن مجرد التظاهر غير السوي بالشعار والنحلة الإسلاميين في مجتمع يضم أوساطا تبعدها ثقافتها وتربيتها عن روح الدين، هو إثارة لا محالة سترتد بالأثر السلبي على الدين، وستبيت لمناهضته، من حيث كونها ترى فيه شأنا لا يعنيها، وبعيدا عن أهوائها، ومتعارض مع رؤيتها ومصالحها ومطامعها، فاتجه النورسي للتصريح بالاستعاذة من السياسة ـ كإدعاء وقائي[2] وهذا يؤكد أن النورسي تحول من حلبة السياسة المؤطرة، التي تحكمها نزوات النخب المتصارعة على السلطة، وتحركها تعليمات القيادات، والتي لا يتورع أصحابها من التضحية بالقيم والمقدسات من أجل بلوغ الغاية المستهدفة، إلى أرض الواقع اللامحدود، ولكن بسياسة الإسلام المستمدة من تعاليم القرآن والسنة، المؤسسة على الصدق والعدل والحق والمساواة والحرية والشورى.

فاستعاذة النورسي كانت منصبة في الأساس، على عدم رغبته في المشاركة السياسية للسلطة، وأن السياسة الحاضرة، شيطان في تعالم الأفكار، ينبغي الاستعاذة منها[3] وهذا لا يعني اعتزاله الحياة السياسية، ولولا ضرباته السياسية الحكيمة الموجعة، ما قاموا بتعذيبه ونفيه ودس السم له مرارا، ولو سلمنا أنه اعتزل الحياة السياسية ـ فرضا ـ فإن له فكرا سياسيا مؤسس على التصور السياسي الإسلامي، ويضعه في مصاف المصلحين الشموليين،« فدفاعه عن توأمه السياسة والدين، وأنهما لا

---

[1]- النورسي :**الكلمات** ،ص850-862. المكتوبات .ص 61-346، **الشعاعات** ص 438-542. **صيقل الإسلام** 361-399 ،الملاحق ص 152-259-334 سليمان عشراتي ،**النورسي في رحاب القرآن** ، سوزلر ،القاهرة ،1999،ص12-19-270،265.

[2]- راجع الإجابة عن أسئلة بديع الزمان حول ابتعاده عن دائرة السلطة السياسية والإجابة في **الشعاعات** ص 428- وفي **الملاحق** :ص 212- 259.

[3]- هذه المعاني موجودة في **الكلمات** ص848- 862،850. **المكتوبات** :ص 76، 605،77 **الملاحق** :ص 247.

ينفصلان».[1]«وبيانه للفروق بين السياسة البشرية الحاضرة والسياسة القرآنية»[2]«ودفاعه عن التهم المتوجهة للفكر الإسلامي بالرجعية»[3]« وطرحه الخطوط العريضة لمنهاج السياسة الحقيقية من منطلق الشريعة الإسلامية »[4]

كل هذا يؤكد أن للنورسي تصورا وفكرا سياسيا متميزا، وأن غايته من هذا التصور، هو استرجاع السياسة الراشدة لعصر النبوة والصحابة ولتحقيق هذه الغاية «رفض مسألة استيراد الأفكار والأحكام والقوانين الغربية، المعادية للدين، ورأى أن ذلك جناية على الإسلام، الذي يمتلك شريعة غراء تأسست قبل ثلاثة عشر قرنا"[5]

1.2.4.2أهم دعائم الفكر السياسي في فكر النورسي:لعل تكاملية الفكر السياسي عند النورسي وجوانبها متعددة بدأ بكيفية نظام الحكم[6]واختيار الحاكم ودوره ومواصفاته[7]ومكانة ودور الرعية منهم ـ مسلمين وغير مسلمين ـ وحقهم في الحرية ـ بجميع صورها وأشكالها والمشاركة السياسية وكيفيتها[8]وعلاقة الجيش بالسياسة[9]والأحزاب والسلطة السياسية[10] والإرهاب بواعثه وكيفية احتوائه[11]ودور الشيوخ والعلماء في تكوين الرأي العام، والمواصفات التي يجب أن يتحلوا بها[12] وأهمية الوحدة الإسلامية في مواجهة التكتلات الدولية[13] وأهم الدعائم التي تقوم عليها الدولة الراشدة، وتكون سببا في تقدمها ورقيها، لهذا أثرت الحديث عن أهم دعائم الفكر السياسي عند النورسي، والتي تضم بين طياتها الحديث عن جميع ما ذكرناه، ويظهر فيها التصور السياسي الأكمل والأشمل للرؤية النورسية كما سجلها في رسائل النور، وهي كما يلي :١ـ العدل ٢ـ الحرية ٣ـالشورى ٤ـ المساواة ١ـ العدل: العدل نقيض الجور، وهو قصد واستواء واستقامة في الأمور، وهو قيام بالقسط، وهو حكم بالحق والإنصاف، وإعطاء كل ذي حق حقه، وتوسط بين الإفراط والتفريط، وهو إصدار الفعل على وجه الحكمة والعدالة هي إحدى الفضائل الأربعة، التي تُرجع إليها جميع الفضائل عند الفلاسفة، وهي: الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة[14].

العلاقة بين العدالة والعبودية :

---

[1]- النورسي :**صيقل الإسلام** ،ص 521- 523.
[2]النورسي ،**الملاحق** :ص 376-377.**الكلمات** : ص862
[3]- النورسي ،**الملاحق** ،ص 372- 375.
[4]-النورسي :**المثنوي العربي النوري** ، ص 204،200.
[5]- النورسي :**صيقل الإسلام** ، 527.
[6]- النورسي ،**صيقل الإسلام** ، ص 527، 528، 444،442، 378، **الشعاعات** : ص 425، 426، 482.
[7]- النورسي :**المكتوبات** ، ص 611.
[8]- أشرف عبد الرافع الدرفيلي ، **الحرية والمعرفة** ،ص 269-395.
[9]- النورسي :**صيقل الإسلام** ، ص 447-451، 541، 542.
[10]- النورسي:**الشعاعات** ، ص 449، 463، الملاحق : ص 391 – 396.
[11]- النورسي :الملاحق ،ص 239-240. 304-305 ،**الشعاعات** : ص 563، 572-573.
[12]-النورسي ،**صيقل الإسلام** ، ص422-425.
[13]- النورسي ،**صيقل الإسلام**، ص 420-427 ، 445-446 ، 529-530، الكلمات : ص 863-864. **الشعاعات**: 445-449.
[14]- اشرف عبد الله برعي : **مضمون اسم الله العدل ومغزاه** ،أعمال مؤتمر العدالة لأجل عالم أفضل للإنسانية ،نسل ،استانبول ،2008،ص193.

تكتسي العلاقة بين «العدالة والعبودية» أهمية قصوى في فكر النورسي، فقد جعل العلاقة بينهما من المقاصد الأربعة الأساسية، والعناصر الأصلية في القرآن الكريم، من ذلك - مثلا- قوله:«اعلم أن مقاصد القرآن الأساسية وعناصره الأصلية أربعة: التوحيد والرسالة والحشر والعدالة مع العبودية»[1] وأحيانا يورد العدالة دون ذكر العبودية، كما في قوله:«تدور تلك المقاصد والغايات على الأقطاب الأربعة: وهي التوحيد والنبوة والحشر والعدالة»[2] والمتأمل في جميع أجزاء رسائل النور، يجد أن النورسي يعرج كثيراً على الربط بين العدالة والعبودية ربطا وثيقا، حتى أنه لا يذكر أحد الطرفين إلا بتلازم الآخر تصريحا أو تلميحا، حيث إن العبودية ضامنة لضبط النفس الإنسانية وتزكيتها والسمو بها لتحقيق العدالة وبعدها عن الجور والأنانية والاستبداد«والعدالة الإلهيّة تقابل العبادة بالإحسان والطاعة بالإعانة، وتمنح الجوارح العابدة نعمة التلذذ والسعادة».[3]

الارتباط الوثيق بين العدالة والإيمان: إن المتصفح لرسائل النور، يلحظ الارتباط الوثيق بين العدالة والإيمان، وذلك من أجل إقامة مجتمع بشري متماسك على أسس الحق والعدل، وعلاقات دولية يسودها السلم والتعاون، لهذا نجد النورسي يشترط جعل الإيمان قاعدة لا بديل عنها لبلوغ الإنسانية هدفها في العدل، فلا عدل بدون إيمان ، لذلك فإننا لا نستغرب أن يعتبر الكفر الذي هو نقيض الإيمان أم الجرائم «وجناية عظيمة وظلم شنيع»[4]«فالعدل لا يستقيم مع جريمة لا تغتفر كالإلحاد وعدم الإيمان، لأنهما يشكلان مصدرا للاستبداد والطغيان والخروج عن سكة العدالة »[5]وفي المنحنى ذاته يطرح النورسي كبديل لعدالة الدساتير الوضعية الزائفة، ضرورة إيمان المجتمع الدولي بالعدالة الإلهيّة، التي تتميز بعدم زمنيتها، إذ ليس لها بداية ولا نهاية، لأنها سرمدية لا يحدها عمر الأرض[6] لذلك في لا تنتهي بنهاية الحياة، بل تستمر لتسوي بين الظلم والمظلوم في الآخرة، حيث ينال الظالم جزاءه الذي لم ينلهفي دنياه، والتي يعبر عنها النورسي «بالمحكمة الكبرى التي تحقق العدالة المطلقة من قبل الملك العادل[7]»

2.2.4.2-أهمية العدل في التشريع الإسلامي وحضارتها: والعدل جامع لجميع الفضائل، ولقد تكررت نداءات القرآن الكريم والسنة النبوية بضرورة إقامة العدل بجميع صوره وألوانه، قال تعالى «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » "سورة النساء الآية:رقم 58 "وقال تعالى :« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ

---

[1]- النورسي :**الشعاعات** ،ص310-**المثنوي العربي النوري** ،ص 75،**إشارات الإعجاز** :ص 40،24.

[2]- النورسي :**المثوي العربي النوري** ،ص230.

[3]- النورسي :**الشعاعات** ، ص221،168،125،26، 224،**المثنوي العربي النوري** ، ص 179،إشارات الإعجاز ،ص31.

[4]-النورسي :**الشعاعات** ،ص 289.

[5]-النورسي ،**الملاحق** ،ص 165ـد ابراهيم القادري :أعمال **مؤتمر العدالة** ،ص 283-284.

[6]-النورسي ،**الشعاعات** ـص 288،287،236-299.

[7]- النورسي ،**إشارات الإعجاز** ،ص 66،**المثنوي العربي النوري** ،ص91-99،المكتوبات :ص 573-574.

تَذَكَّرُونَ» "سورة النحل الآية رقم90" ﴿وضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ "سورة النحل الآية 76"وقال تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى» "سورة المائدة الآية رقم 8﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ» "سورة الأنعام الآية رقم 152" .

وقال تعالى «وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحق وَبِهِ يَعْدِلُونَ»«سورة الأعراف الآية :181»وفي الحديث القدسي:«يا عبادي إن حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا» [1]وقال صلى الله عليه وسلّم:«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل»[2]«...فالإسلام يقرر أن العدالة حق للأعداء كما هي حق للأولياء، وحق للمسلم وغير المسلم.

وإذا كان للعدالة مكانة في المجتمع، فسوف يقوده إلى وحدة المعايير والموازين المنظمة لهذا المجتمع فتتحقق مساواة الجميع أما القانون والتشريع، وتنتفي الاستثناءات المخلة بمضمون العدالة واعتباراتها، وقد تأسس المشروع الحضاري الإسلامي في أول انطلاقاته على ذلك حين نادى رسول الله في أفراد الأمة قائلا:«أيها الناس إنما هلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[3]«وقد أشار النورسي إلى هذه الحقيقة، بأن العدالة في المشروع الحضاري الإسلامي لا تعرف التمييز العنصري، وذلك بقوله:«إن العدالة التي لا مساواة فيها ليست عدلا» [4]فتحقيق العدالة المحضة، يتطلب الفصل التام بين المشاعر النفسية العاطفية وقوانين الشريعة وأحكامها، حتى أثناء تطبيق العدالة وتنفيذها، وليس أدل على ذلك من قصة الحاكم المسلم الذي عزل قاضيه لما رأى منه شيئا من الحدة والغضب أثناء قطعة يد السارق[5] . ويدعوا الإمام النورسي الحكام إلى تحقيق العدالة، ليس مع ذوات أنفسهم فقط، بل ومن خلال تحقيق العدالة مع الجميع، وذلك بالإطلاع على دقائق مما يجري في بلادهم[6].

3.4.2الجانب الاقتصادي:

إن البنيان الاقتصادي هو دعامة الأمة، وقوام حياتها، و محور تقدمها أو تخلفها، و مؤشر لتحقيق الرفاهية أو شظف العيش، وعليه تدور عجلة الحياة، و به تحتل الأمة

[1]- حديث شريف: **أخرجه مسلم** 2588،والترميذي ،2495،والإمام أحمد في سننه 154/5،160.
[2]- حديث شريف : **أخرجه البخاري** في صحيحه 234/1،ومسلم 715/2.
[3]- حديث شريف متفق عليه
[4]- النورسي :**الكلمات** ،ص873.
[5]- النورسي ،**المكتوبات** ،المكتوب الثاني والعشرون ، ص 348.
[6]- النورسي **الكلمات** ، ص 283- 284 بتصرف .

مكانتها وتملك حريتها وسيادتها في قراراتها [1] ورحم الله الإمام محمد متولي الشعراوي الذي قال: إن لم تكن لقمتنا من الفأس، فلن تكون كلمتنا من الرأس.

و النورسي كان على وعي كبير بأهمية الجانب الاقتصادي في مشروعه الإصلاحي، وتأثير هذا الجانب في عملية النهوض، لذا خصص له رسالة مستقلة سماها برسالة «الاقتصاد »[2] وفيها يتحدث عن الاقتصاد والقناعة وأثرهم في التوازن الاقتصادي من ناحية العرض والطلب والترشيد الاستهلاكي، وضوابط الاعتدال، ثم تناوله القضية الإسراف والتبذير ومساوئهم الوخيمة في تبديد الثروة والموارد، وعلى الرغم من أنه لم يفصل كلامه بالمفهوم الاصطلاحي لعلم الاقتصاد الحديث، إلا أنه خاطب وجدان المسلم وعقله بأسلوب سلس يفهمه العامة والخاصة، وبنظرة أوسع وأعمق من نظرة الاقتصاديين، حيث إنه ركز أثناء حديثه في الجانب الاقتصادي على الربط بين الاقتصاد والقناعة والمرتكزات الإيرانية والأخلاقية، فالاقتصاد والقناعة هما أداء شكر معنوي، وتوقير للرحمة الإلهية، وحمد لآلاء الله، ودليل انسجام تام مع الحكمة الإلهية، وسبب جازم لإنزال البركة، وأساس متين للعيش الكريم والعزة والكمال، الذي يصرف صاحبه عن مواطن الفقر والذلة والاستجداء والهوان، أما التبذير والإسراف، فهما نقيض الاقتصاد والقناعة، ومنافيان لجميع المرتكزات الأخلاقية.

1.3.4.1-الاقتصاد في التشريع الإسلامي: إن الاقتصاد بمفهومه الشامل، هو من أثرى الجوانب في التشريع الإسلامي، بل إن الإسلام هو أول تشريع ساوي للبشرية يضع أول نظرية اقتصادية متكاملة، لم يستطع - ولن يستطيع - أن يحيط بشمولها أي نظام اقتصادي آخر، مراعيا في شموليته مطالب الإنسان الدنيوية والأخروية، المادية والمعنوية.

قال تعالى :﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾ [3].

كما أنه يدعوا الفرد إلى التوازن في سلوكه الاقتصادي والاعتدال قال تعالى :﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[4]

وعندما يقرر الإسلام منذ أربعة عشر قرنا أن العمل هو أساس النظام الاقتصادي، أو بلغة العصر والاقتصاد الحديث: «القيمة هي نتاج الجهد البشري، أو هي ثمرة العمل »، لا يعتبر العمل حرصا على جمع المال في الحياة فحسب، بل هو أولا أساس التقرب

---

[1]- خديجه النبراوي ، **دور كليات رسائل النور في يقظة الأمة** ، ص 336.
[2] -النورسي ،**اللمعات** ،211
[3]- **سورة القصص** ، أية رقم 77.
[4]-**سورة الإسراء** أية رقم 29.

إلى الله، وتنفيذ العملية الاستخلاف والتعمير المأمور بها في الأرض، لذلك قرنه القرآن دائما بالإيمان، ونظم وقنن حقوق العامل وصاحب العمل، بل وحدد منهاج العمل والأعمال المباحة وغيرها، وجعل السعي هو الوسيلة إلى الكسب قال تعالى:﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1]﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾[2] وبسط بشمولية كاملة حقوق الملكية الفردية والعامة ومصادرها، ومنهاج الإسلام في المعاملات التجارية والاحتكار والتسعير، والعقود بأوضاعها المختلفة: الآجلة والتقسيط والمضاربة والرهن، والزكاة بأنواعها وعدالة توزيع الثروات.

التوازن في الكون، وأثر هذا في التوازن الاقتصادي العام للبشرية: يتحدث الإمام النورسي عن التوازن الدقيق في الكون والكائنات، من خلال التأسيس والربط بالأسماء الحسنى، ثم يتدرج بهذا الحديث ويربطه بالتوازن الاقتصادي المطلوب للإنسان في حياته ومعاشه، فيقول: «إن ما يحدث ضمن هذه الموجودات التي لا يحصرها العد من تحولات، وما يلج فيها وما يخرج منها، لا يمكن أن يكون إلا بعملية وزن وكيل، وميزان من يرى أنحاء الوجود كلها في آن واحد، ومن تجري الموجودات جميعها أمام نظر مراقبته في كل حين، ذلكم الواحد الأحد سبحانه، وإلا فلو كانت الأسباب الساعية إلى اختلال التوازن سائبة، أو مفوضة إلى المصادفة العشواء، أو القوة العمياء، أو الطبيعة المظلمة البلهاء، لكانت بويضات سمكة واحدة، التي تزيد على الألوف تخل بتلك الموازنة، بل بذيرات زهرة واحدة - كالخشخاش - التي تزيد على العشرين ألف، تخل بها، ناهيك عن تدفق العناصر[3]الجارية كالسيل، والانقلابات الهائلة، والتحولات الضخمة التي تحدث في أرجاء الكون، كل منها لو كان سائبا لكان قميئا أن يخل بتلك الموازنة الدقيقة المنصوبة بين الموجودات، ويفسد التوازن الكامل بين أجزاء الكائنات خلال سنة واحدة، بل خلال يوم واحد، ولكنت ترى العالم وقد حل فيه الهرج والمرج وتعرض للاضطرابات و الفساد.

فالبحار تمتلئ بالأنقاض والجثث وتتعفن، والهواء يتسمم بالغازات المضرة الخانقة، ويفسد، والأرض تصبح مزبلة و مسلخة، وتغدو مستنقعا آستا لا تطاق فيه الحياة، فان شئت فأنعم النظر، في الموجودات كلها، ابتداء من حجيرات الجسم إلى الكريات الحمراء والبيضاء في الدم، ومن تحولات الذرات إلى التناسب والانسجام بين أجهزة الجسم، ومن واردات البحار ومصاريفها، إلى موارد المياه الجوفية وصرفياتها، و من

[1]-**سورة الجمعة** ،الآية رقم 10.
[2]-**سورة الملك** ،الآية رقم 15.
[3]-**سورة البقرة** – آية275 .

تولدات الحيوانات والنباتات ووفياتها إلى تخريبات الخريف و تعميرات الربيع، و من وظائف العناصر وحركات النجوم، إلى تبدل الموت والحياة، ومن تصادم النور و الظلام، إلى تعارض الحرارة والبرودة، وما شابهها من أمور، كي ترى أن الكل:

يون ويقدر بميزان خارق الحساسية، وأن الجميع كتال بمكيال غاية في الدقة ، بحيث يعجز عقل الإنسان أن يرى إسرافا حقيقيا في مكان، وعبئا في جزء، بل يلمس علم الإنسان ويشاهد أكمل نظام وأتقنه في كل شيء، فيحاول أن يريه، ويرى أروع توازني وأبدعه في كل موجود فيسعى لإبرازه، فما العلوم التي تول إليها الإنسان إلا ترجمة لذلك النظام البديع و تعبير عن ذلك التوازن الرائع.

فتأمل في الموازنة الرائعة بين الشمس والكواكب السيارة الاثنتي عشرة التي كل منها مختلفة عن الأخرى، إلا تدل هذه الموازنة دلالة واضحة وضوح الشمس نفسها على الله سبحانه الذي هو « العدل القدير » ؟ ثم تأمل في حجيرات جسم كائن حي، وفي أوعية الدم، وفي الكريات السابحة في الدم، وفي ذرات تلك الكريات، تجد من الموازنة الخارقة البديعة ما يثبت لك إثباتا قاطعا، أنه لا تحصل هذه الموازنة الرائعة، ولا إدارتها الشاملة، ولا تربيتها الحكيمة إلا بميزان حساس، وبقانون نافذ وبنظام صارم للخالق الواحد الأحد « العدل الحكيم » الذي بيده ناصية كل شيء، أيها الإنسان المسرف الظالم الوسخ، اعلم: أن الاقتصاد والطهر والعدالة سنن إلهية جارية في الكون، ودساتير إلهية شاملة تدور رحى الموجودات عليها، لا يفلت منها شيء إلا أنت أيها الشقي، وأنت بمخالفتك الموجودات كلها في سيرها وفق هذه السنن الشاملة تلقي النفرة منها والغضب عليك، وأنت تستحقها، علام تستند و تثير غضب الموجودات كلها عليك، فتقترف لظلم والإسراف ولا تكترث للموازنة والنظافة ؟ نعم، إن الحكمة العامة المهيمنة في الكون، والتي هي تجل أعظم لاسم « الحكيم» إنها تدور حول محور الاقتصاد وعدم الإسراف، بل تأمر بالاقتصاد، وأن العدالة العامة الجارية في الكون، النابعة من التجلي الأعظم لاسم « العدل » إنها تدير موازنة عموم الأشياء، وتأمر البشرية بإقامة العدل.

وان ذكر الميزان أربع مرات في سورة الرحمن إشارة إلى أربعة أنواع من الموازين في أربع مراتب، وبيان لأهمية الميزان البالغة، ولقيمته العظمى في الكون، وذلك في قوله تعالى:﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان * ألا تطغوا في الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾الأية7-8-9 نعم، فكما لا إسراف في شيء، فلا ظلم كذلك ظلا حقيقيا في شيء، ولا بس في الميزان قط، بل إن التطهير والطهر الصادر من التجلي الأعظم لاسيما « القدوس » يعرض الموجودات بأبهى صورتها، وأبدع زينتها،

فلا ترى ثمة قذارة في موجود، ولا تجد قبا أصيلا في شيء، ما لم تمسه يد البشر الوسخة.

فاعلم من هذا: أن « العدالة والاقتصاد والطهر » التي هي من حقائق القرآن ودساتير الإسلام، ما أشدها إيغالا في أعاق الحياة الاجتماعية، وما أشدها عراقة وأصالة، وأدرك من هذا مدى قوة ارتباط أحكام القرآن بالكون، وكيف أنها مدت جذورا عميقة في أغوار الكون، فأحاطته بعرى وثيقة لا انفصام لها، ثم افهم منها أن إفساد تلك الحقائق ممتنع كامتناع إفساد نظام الكون والإخلال به، وتشويه صورته »[1].

التوازن الاقتصادي من ناحية العرض والطلب: تناول الإمام النورسي في رسالة الاقتصاد التوازن الاقتصادي العام من ناحية جانبيه الهامين [2]:

جانب العرض: ويتمثل في استغلال مصادر الثروة الاقتصادية، بإثارة الهمم والسعي والعمل والكد، تحقيقا لقوله تعالى﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾[3] . جانب الطلب: ويتمثل في ترشيد الاستهلاك، أي الإقلال من الطلب الاستهلاكي الترفي وعدم الإسراف، امتثالا لقوله تعالى: ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يجب المسرفين ﴾.[4]

الرشد الاستهلاكي يحقق الربح المادي والمعنوي: يتحدث النورسي عن الأثر الإيجابي الكبير الذي يحققه الرشد الاستهلاكي والقناعة على الفرد والمجتمع، فيقول:

إن الخالق الرحيم سبحانه يطلب من البشرية شكرا وحمدا إزاء ما أغدق عليها من النعم والآلاء، إلا أن الإسراف منافي للشكر، واستخفاف خاسر وخيم تجاه النعمة ، بين الاقتصاد توقي مربح إزاء النعمة، أجل إن الاقتصاد كما هو شكر معنوي، فهو توقير للرحمة الإلهية الكامنة في النعم والإحسان، وهو سبب حاسم للبركة والاستكثار، وهو مدار صحة الجسد كالحمية، وهو مسلك إلى الكرامة بالاجتناب ذل الاستجداء المعنوي، وهو أداة قوية للشعور بما في النعم والآلاء من لذات ، وهو سبب وثيق لتذوق المتع المخفية في ثنايا نعم تبدو غير لذيذة، ولان الإسراف يخالف الحكم المذكورة آنفا، باتت عواقبه وخيمة... [5]

الاقتصاد والقناعة كفيلان لعدم الاحتياج للمعونات والقروض: « إن المقتصد لا يعاني فاقة العائلة وعوزها، كما هو مفهوم الحديث الشريف «لا يعول من اقتصد » أجل هناك

---

[1] - النورسي: **اللمعات،ص 523-526 بتصرف**

[2] - خديجة النبرواوي ،**دور رسائل النور في يقظة الامة** ،ص336-371

[3] -سورة النجم –الأية 39

[4] - سورة الأعراف ،الأية رقم 31.

[5] _النورسي: **اللمعات ،ص211-212.**

من الدلائل القاطعة التي لا يحصرها العد، بأن الاقتصاد سبب جازم لإنزال البركة، وأساس متين للعيش الأفضل أذكر منها ما رأيته في نفسي، وبشهادة الذين عاونوني في خدمتي وصادقوني بإخلاص فأقول: لقد حصل أحيانا، وحصل أصدقائي على عشرة أضعاف من البركة بسبب الاقتصاد، حتى أنه قبل تسع سنوات، عندما أصر علي قسم من رؤساء العشائر المنفيين معي إلى « بوردور » على قبول زكاتهم، كي يحولوا بيني وبين وقوعي في الذلة والحاجة، لقلة ما كانت عندي من النقود، فقلت لأولئك الرؤساء الأثرياء: برغم أن نقودي قليلة جدا، إلا أنني أملك الاقتصاد، وقد تعودت على القناعة، فأنا أغنى منكم بكثير، فرفض تكليفهم المتكرر الملح، ومن الجدير بالملاحظة : أن قسا من أولئك الذين عرضوا علي زكاتهم، قد غلبهم الدين بعد سنتين، لعدم التزامهم بالاقتصاد، إلا أن تلك النقود الضئيلة قد كفتني - ولله الحمد - ببركة الاقتصاد إلى ما بعد سبع سنوات، فلم برق مني ماء الوجه، ولم يدفعني لعرض حاجتي إلى الناس، ولم يفسد علي ما اتخذته دستورا لحياتي وهو « الاستغناء عن الناس » نعم إن من لا يقتصد، مدعو للسقوط في مهاوي الذلة، ومعرض للانزلاق إلى الاستجداء والهوان معنى »[1]

الاقتصار على الحاجات الضرورية: «إن المال الذي يستعمل في الإسراف في زماننا هذا، لهو مال غالي وباهظ جدا، حيث تدفع أحيانا الكرامة والشرف ثمنا ورشوة له، بل قد سلب المقدسات الدينية، ثم يعطى نقودا منحوسة مشؤومة، أي يقبض بضعة قروش من نقود مادية، على حساب مئات الليرات من النقود المعنوية، بينما لو اقتصر الإنسان على الحاجات الضرورية واختصرها، وحصر همه فيها، فسيجد رزقا يكفل عيشه من حيث لا يحتسب، وذلك بمضمون الآية الكريمة:"و إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين "[2] وأن صراحة الآية الكريمة:" وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها" [3] تتعهد بذلك تعهدا قاطعا، نعم، إن الرزق قسمان:

القسم الأول: وهو الرزق الحقيقي الذي تعتمد عليه بل توقف حياة الإنسان، وهو تحت التعهد الرباني بحكم هذه الآية الكريمة، فيحصل المرء على هذا الرزق الضروري مهما كانت الأحوال، إن لم يتدخل سوء اختياره، دون أن يضطر إلى فداء دينه، ولا التضحية بشرفه وعزته.

القسم الثاني: هو الرزق المجازي، فالذي لا يحسن استعماله لا يقدر أن يترك الحاجات غير الضرورية، التي أضحت لازمة عنده، نتيجة الابتلاء بالتقليد، وللحصول على هذا الرزق يلزمه ثمن باهظ جدا، ولاسيما في هذا الزمان، حيث لا يدخل ضمن التعهد

[1]-المصدر نفسه ،ص215.
[2] - سورة الذاريات ،الآية 58
[3]-سورة هود،الاية 6

الرباني، إذ قد يتقاضى ذلك المال لقاء تضحيته بعزته سلفا، راضيا بالذل، بل قد يصل به حد السقوط في هاوية الاستجداء المعنوي، والتنازل إلى تقبيل أقدام أناس منحطين وضيعين، لا بل قد يحصل على ذلك المال المنحوس الممحوق بالتضحية

بمقدساته الدينية، التي هي نور حياته الخالدة، ثم إن الألم الذي ينتاب ذوي الوجدان من حيث العاطفة الإنسانية - فيرونه من آلام يقاسيها المحتاجون البائسون في هذا الزمان الذي خيم عليه الفقر والحاجة - يشوب لذتهم التي يحصلونها بأموال غير مشروعة، وتزداد مرارتها إن كانت لهم ضمائر، إنه ينبغي في هذا الزمان العجيب، الاكتفاء بحد الضرورة في الأموال المريبة، لأنه حسب قاعدة «الضرورة تقدر بقدرها » يمكن أن يلجأ اضطرارا إلى المال الحرام ما اقتضته الضرورة، لا أكثر من ذلك، وليس للمضطر أن يأكل من الميتة حد الشبع، لكن له إن يأكل مقدار ما يحول بينه وبين الموت وكذا لا يؤكل الطعام بشراهة أمام مجموع الجائعين.

نورد هنا حادثة واقعية، للدلالة على كون الاقتصاد سبب العزة والكرامة: أقام حاتم الطائي» المشهور بكرمه وسخائه، ضيافة عظيمة ذات يوم، وأغدق هدايا ثمينة على ضيوفه، ثم خرج للتجوال في الصحراء، فرأى شخصا فقيرا يحمل على ظهره حملا ثقيلا من الحطب والكلأ والشوك، والدم يسيل من بعض جسمه، فخاطبه قائلا: أيها الشيخ، إن حاتم الطائي يقيم اليوم ضيافة كريمة، ويوزع هدايا ثمينة، بادر إليه لعلك تنال منه أموالا أضعاف أضعاف ما تناله من هذا الحمل، قال له ذلك الشيخ المقتصد: سأحمل حملي هذا بعزة نفسي وعرق جبيني، ولا أرضى أن أقع تحت طائل منة حاتم الطائي.

ولما سئل حاتم الطائي يوما: من من الناس وجدتهم اعز منك وأكرم؟

قال: ذلك الشيخ المقتصد الذي لقيته في المفازة ذات يوم، لقد رأيته حقا اعز مني وأكرم »[1].ضوابط الاعتدال وحد الإشباع: «إن من كرم الله سبحانه وتعالى، أنه يذيق لذة يعمه لأفقر الناس، كما يذيقها أغناهم، فالفقير يستشعر اللذة ويتذوقها كالسلطان،نعم إن اللذة التي بناها فقير من كسرة خبز أسود يابس بسبب الجوع والاقتصاد، تفوق ما يناله السلطان أو الثري من أكله الحلوى الفاخرة بالملل وعدم الشهية التابعين من الإسراف.

وبناءا على ذلك: فإننا نفترض الآن أمامنا لقمتان، لقمة منها من مادة مغذية - كالجبن والبيض مثلا- يقدر ثمنها بقرش واحد، واللقمة الأخرى حلوى من نوع فاخر، يقدر ثمنها بعشرة قروش، فهاتان اللقمتان متساويتان قبل دخولها الفم، ولا فرق بينهما، وهما متساويتان كذلك من حيث إنهاء الجسم وتغذيته بعد دخولها الفم ونزولها عبر البلعوم،

[1] - النورسي: **اللمعات ،ص215-220بتصرف .**

بل قد يغذي الجبن الذي هو بقرش واحد تغذية أفضل، وتنمية أقوى من اللقمة الأخرى، إذ ليس هناك من فرق، إلا ملاطفة القوة الذائقة في الفم، التي لا تستغرق سوى نصف دقيقة، فليقدر إذن مدى الإسراف، ويوازن مدى التفاهة في صرف عشرة قروش بدلا من قرش واحد في سبيل الحصول على لذة تستغرق نصف دقيقة ».[1]

يوضح النورسي من خلال ما عبر به - بطريقة غير مباشرة - عن المنفعة الحدية الناتجة من استهلاك السلعة، والألم الحدي الناتج عن الإنفاق، وعلى الرغم من عدم بلورته في صورة مصطلحات اقتصادية صرفه، إلا أنه يوازي ما يدور في فلك النظريات الاقتصادية الحديثة، وإن اختلف الأسلوب والتعبير ولعل سردنا البعض المأثورات التي سجلها النورسي بعيدا عن الرسالة المخصصة للاقتصاد سوف يؤكد صدق توضيحنا[2].

- لقمة بفلس واحد، وأخرى بعشرة فلوس - مثلا - كلتاهما متساوية قبل دخولها الفم، وبعد مرورهما من الحلقوم، مع فارق واحد هو تلذذ الفم بها لعدة.

ثواني، لذا فإن صرف عشرة فلوس بدلا من فلس وأحد إرضاء لحاسة الذوق الموظفة بالتفتيش والحراسة أسفه أنواع الإسراف.

- كلما نادت اللذائذ، ينبغي الإجابة ب (كأني أكلت » فالذي جعل هذا دستورا له، كان بوسعه أن يأكل مسجدا مسمى ب (كأنني أكلت [3] فلم يأكل.)

فإذا كان بوسع واحد أن يبني مسجدا من ضبط شهواته، ومن التزامه بحد الكناف، فإنه بوسع الأمة الإسلامية بأسرها أن تبني مجدها ورفعتها بترشيد استهلاكها، وتوجيه مدخراتها إلى ما فيه منفعتها، ويحقق لها رقيها وتقدمها.

- لم يكن أكثر المسلمين في السابق جائعين، فكان الترقه جائز الاختيار، أما الآن فهم جائعون فلا اختيار في التلذذ، إذ أن معيشة السواد الأعظم، وغالبية المسلمين بسيطة، فينبغي الاقتداء بهم في الطعام الكفاف البسيط، وهذا هو الأفضل ألف مرة من الانسياق وراء أقلية مسرفة، أو ثلة من السفهاء في ترفهم في الطعام.

لعل هذه الكلمات تعبر عما تعانيه الكثير من بلاد العالم الإسلامي من فقر ومجاعات وتبعية اقتصادية، في حين نجد بعض البلاد لديها تخمة من الترف والتبذير والإسراف.

---

[1] -النورسي ،**اللمعات** ،ص213- 217بتصرف.

[2] -خديجة النبراوي ،المرجع السابق ص347.

[3] - يقع هذا المسجد في حي السلطان محمد الفاتح باستانبول، ويقال أن باني هذا المسجد ادخر الأموال اللازمة لبنائه من خلال ضبط نفقاته الاستهلاكية بقوله: « كأنني أكلت » كلما رأى ما شتهاه مترجم من رسائل النور

2.3.4.1الإسراف والاقتصاد في الميزان الأخلاقي[1] : ومن العجب حقا أن يجرؤ بعض المسرفين والمبذرين على اتهام المقتصدين بالخسة، حاش لله، بل الاقتصاد هو العزة والكرم بعينه، بينما الخسة والذلة هما حقيقة ما يقوم به المسرفون والمبذرون من سخاء ظاهري، هناك بون شاسع، وفرق هائل بين الاقتصاد والخسة، إذ كما أن التواضع، الذي هو من الأخلاق المحمودة، يخالف معنى التذلل، الذي هو من الأخلاق المذمومة، مع أنه يشابهه صورة، وكما أن الوقار الذي هو من الخصال الحميدة، يخالف معنى التكبر، الذي هو من الأخلاق السيئة، مع أنه يشابهه صورة، فكذا الحال في الاقتصاد، الذي هو من الأخلاق النبوية السامية بل هو من المحاور التي يدور عليها نظام الحكمة الإلهية المهيمن على الكون، لا علاقة له أبدا بالخسة، التي هي مزيج من السفالة والبخل والجشع والحرص، بل ليست هناك من رابطة بينهما قطعا، إلا ذلك التشابه الظاهري، وإليكم هذا الحدث المؤيد لهذه الحقيقة: دخل عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وهو اكبر أبناء الفاروق الأعظم، خليفة رسول الله و أحد العبادلة السبعة المشهورين، ومن البارزين بين علماء الصحابة الأجلاء، دخل هذا الصحابي الجليل يوما في مناقشة حادة لدي تعامله في السوق، على شيء لا يساوي قرشا واحدا، حفاظا على الاقتصاد وصونا للأمانة والاستقامة، اللتين تدور عليها التجارة، في هذه الأثناء رآه صحابي آخر، فظن فيه شيئا من خسة فاستعظمها منه، إذ كيف يصدر هذا الأمر من ابن أمير المؤمنين وخليفة الأرض، فتبعه إلى بيته ليفهم شيئا من أحواله، فوجد أنه قضى بعض الوقت مع فقير عند الباب، وتبادلا حديثا في لطف ومودة، ثم خرج من الباب الثاني وتجاذب أطراف الحديث مع فقير آخر هناك، أثار هذا الأمر لهفة ذلك الصحابي، فأسرع إلى الفقيرين للاستفسار منها: هلا تفهماني ماذا فعل ابن عمر حينها وقف معك ؟ لقد أعطى كلا منا قطعة ذهب، فراعه الأمر، وقال شدها: يا سبحان الله، ما أعجب هذا الأمر، أنه يخوض في السوق في نقاش شديد لأجل قرش واحد، ثم ها هو ذا يغدق في بيته بمئات أضعافه على محتاجين اثنين عن رضا دون أن يشعر به أحد، فسار نحو ابن عمر رضي الله عنهما ليسأله: أيها الإمام: ألا تحل لي معضلتي هذه ؟ لقد فعلت في السوق كذا وكذا، وفي البيت كذا وكذا ؟ فرد عليه قائلا: إن ما حدث في السوق، هو نتيجة الاقتصاد والحصافة، فعله صوتنا للأمانة وحفظا للصدق، اللذين هما أساس المبايعة وروحها، وهو ليس بخسة ولا ببخل، وان ما بدر مني في البيت نابع من رأفة القلب ورقته، ومن سمو الروح واكتمالها، فلا ذاك خة، ولا هذا إسراف »..
وإشارة إلى هذا السر قال الإمام الأعظم « أبو حنيفة النعمان » :«لا إسراف في الخير، كما لا خير في الإسراف » أي كالإسراف في الخير والإحسان لمن يستحقه كذلك لا خير في الإسراف قط.

[1] -النورسي ،**اللمعات** ،ص 217-219 بتصرف.

3.3.4.1نتائج الإسراف الوخيمة على اقتصاد الأمة الإسلامية وحضارتها: «إن الإسراف ينتج الحرص، والحرص يولد ثلاث نتائج

أولاها: عدم القناعة: وعدم القناعة هذا يثنى الشوق عن السعي وعن العمل، يبث في نفس الحريص من الشكوى بدلا من الشكر، قاذفا به إلى أحضان الكسل، فيترك المال الزهيد النابع من الكسب الحلال[1] (ويبادر بالبحث عما لا مشقة ولا تكليف فيه من مال غير مشروع، فيهدر في هذه السبيل عزته بل كرامته.

النتيجة الثانية للحرص: الخيبة والخسران: إذ يفوت مقصود الحريص ويتعرض للاستثقال ويحرم من التيسير والمعاونة، حتى يكون مصداق القول المشهور: « الحري خائب خاسر»

إن تأثير القناعة والحرص، يسري في عالم الأحياء ضمن دستور شامل، فنلاحظ أن حصول اليهود على أرزاقهم كفافا بطرق غير مشروعة، ممزوجا بالذل والمسكنة، سببه حرصهم على التعامل بالربا، وإتباعهم أساليب المكر والخداع، وحصول البدويين المتحلين بالقناعة على رزقهم الكافي وعيشهم العيش الكريم العزيز، يؤيد دعوانا أيضا تأييدا كاملا.

كما أن تردي كثير من العلماء والأدباء[2] يمنحهم ذكاؤهم ودهاؤهم من الحرص في فقر مدقع وعيش كفاف، وغناء أكثر الأغبياء العاجزين وإثرائهم، لما لهم منحالة فطرية قنوعة، ليثبت إثباتا قاطعا: أن الرزق الحلال يأتي حسب العجز والافتقار، إلا بالاقتدار والاختيار، بل هو يتناسب تناسبا عكسيا مع الاقتدار والاختيار،ذلك أن أرزاق الأطفال تتضاءل وتبتعد، ويصعب الوصول إليها كلما ازدادوا اختيارا وإرادة واقتدارا، نعم، إن القناعة كنز للعيش الهنيء الرغيد ومبعث الراحة في الحياة، بينما الحرص معدن الخسران والسفالة، كما يتبين ذلك من الحديث الشريف: « القناعة كنز لا يفنى ».[3]

---

[1] -يؤكد النورسي أنه بسبب الابتعاد عن الاقتصاد والقناعة يكثر المستهلكون، ويقل المستحصلون، ويبدأ الجميع يشدون نظرهم إلى باب الحكومة، وحينها تنتكس وتتناقص الصناعة والتجارة والزراعة، التي هي محور الحياة الاجتماعية و مدارها، وينهار المجتمع ويتدني بدوره، ويغدوا فقيرا معدما ،**اللمعات** ،220.

[2] - سأل أنوشيروان حاكم إيران العادل، الحكيم بزر جمهر «لماذا يشاهد العلماء بأبواب الأمراء ولا يشاهد الأمراء بأبواب العلماء، والعلم يفوق الأمارة ؟ فأجاب: ذلك من علم العلماء وجهل الأمراء، أي أن الأمراء لا يعلون قدر العلم فلا يأتون أبواب العلماء لطلبه، بينما العلماء يعلمون قدره فيطلبون قيمته بأواب الأمراء"

[3] -حديث شريف ،رواه الطبراني ،ترجمته في اللمعات ،ص 222.

النتيجة الثالثة: أن الحرص يتلف الإخلاص، ويفسد العمل الأخروي ، لأنه لو وجد حرص في مؤمن تقي، ترغب في توجه الناس وإقبالهم إليه، ومن يرقب توجه الناس وينتظره لا يبلغ الإخلاص الحق قطعا، ولا يحصل عليه أبدا ، فهذه نتيجة عظمى وذات أهمية تستحق الدقة والملاحظة.

محصل الكلام: أن الإسراف ينتج عدم القناعة، أي الطمع، أما الطمع فيخبت وهج الشوق والتطلع إلى العمل، ويقذف بالإنسان إلى التقاعس والكسل، ويفتح أمامه أبواب الشكوى والحسرة في حياته، حتى ليجعله يئن دوما تحت مضض الشكوى والسأم، كما أنه يفسد إخلاصه، ويفتح دونه بابا للرياء والتصنع، فيحطم عزته، ويبين له مسلك الاستجداء والاستخذاء.

أما الاقتصاد: فإنه يثمر القناعة، والقناعة تنتج العزة، استنادا إلى الحديث الشريف: «عزمن قنع، وذل من طمع » كأنه يشحذ الشوق بالسعي والعمل ويحث عليها، ويسوق سوقا إلى الكد وبذل الجهد فيها ؛ لأنه إذا ما سعى المرء في يوم ما وتقاضى أجره مساء، فسيسعى في اليوم التالي له بسر القناعة التي توافرت لديه، أما المسرف: فانه لا يسعى في يومه الثاني لعدم قناعته، وحتى إذا سعى، فإنه يسعى دون شوق، وهكذا فان القناعة المستفيضة من الاقتصاد، تفتح باب الشكر وتوصد باب الشكوى، فيظل الإنسان في شكر وحمير مدى حياته وبالقناعة لا يتلفت إلى توجه الناس إليه لاستغنائه عنهم، فينفتح أمامه باب الإخلاص، وينغلق باب الرياء".[1]

الآثار السلبية التي يتسبب فيها الإسراف بتبديد الموارد والثروات: يتحدث النورسي كيف أن الإسراف في الموارد والثروات، وعدم استغلالها الاستغلال الأمثل، يسبب كارثة اقتصادية فادحة، وخسائر جسيمة، مما ينتج عنه تأزم اقتصادي لدى الدولة والأفراد، فيقول: ولقد شاهدت الأضرار الجسيمة والخسائر الفادحة التي تسفر عن الإسراف وعدم الاقتصاد، شاهدتها متجسدة في نطاق واسع ممتد، وهي كما يأتي: جئت إلى مدينة مباركة - قبل تسع سنوات - كان الموسم شتاء، فلم أتمكن من رؤية منابع الثروة وجوانب الإنتاج في تلك المدينة، قال لي شفتيها رحمه الله: إن أهالينا فقراء مساكين، أعاد قوله هذا مرارا، أثر في هذا القول تأثيرا بالا، مما أجاش عطفي، فبت استرحم وأتألم لأهالي تلك المدينة فيما يقرب من ست سنوات وبعد ثماني سنوات عد إليها، وهي في أجواء الصيف، وأجلت نظري في بساتينها، فتذكرت قول المفتي رحمه الله، فقلت متعجبا: سبحان الله، إن محاصيل هذه البساتين وغلاتها تفوق حاجة المدينة بأسرها كثيرا، وكان حريا بأهاليها أن يكونوا أثرياء جدا، بقيت في حيرة من هذا الأمر، ولكن أدركت بحقيقة لم تخدعني عنها المظاهر، فهي حقيقة استرشد بها في إدراك

[1] - النورسي ،**اللمعات** ،ص220-222 بتصرف الملاحق :ص 380-371.

الحقائق، وهي: أن البركة قد رفعت من هذه المدينة بسبب الإسراف وعدم الاقتصاد، مما حدا بالمفتي رحمه الله إلى القول: إن أهالينا فقراء و مساكين، برغم هذا القدر الواسع من منابع الثروة وكنوز الموارد، نعم، إنه ثابت بالتجربة، وبالرجوع إلى وقائع لا تحد، بأن دفع الزكاة، والأخذ بالاقتصاد، سببان للبركة والاستزادة، بينها الإسراف ومنع الزكاة، يرفعان البركة.

ولقد فسر « ابن سينا » وهو أفلاطون فلاسفة المسلمين، وشيخ الأطباء وأستاذ الفلاسفة، فسر هذه الآية الكريمة « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » الأعراف 31 من زاوية نظر الطب.

4.3.4.1كيفية النهوض الاقتصادي: يوضح الإمام النورسي أن إعلاء كلمة الله في الوقت الحاضر تتمركز في الرقي المادي، وأن وسائل وأدوات النهوض الحضاري تتطلب السعي والعمل، وتحصيل المال بالكسب الحلال، مع الاقتصاد والقناعة، أما عكس ذلك فهي وسائل للتخلف والفقر، ونستطيع أن نقف على أهم الأسباب التي أدت للتدهور الاقتصادي من خلال ما ذكره النورسي في إجابته على أحد الأسئلة، وبزوالها يتحقق النهوض والتقدم، حيث سئل: « كان المسلمون هم الأغنياء، وكان أولئك - أي غير المسلمين - هم الفقراء، إلا أن الآية انعكست الآن، فما الحكمة ؟ الجواب: هناك سببان هذا حسب علمي: .

الأول: الفتور في السعي وعدم الرغبة، خلافا لما هو مستفاد من الأمر الرباني :قال تعالى :" وأن ليس للإنسان إلا ما سعى" [1] وانطفاء جذوة شوق الكسب المستفاد من الأمر النبوي بأن « الكاسب حبيب الله » وذلك نتيجة إيحاءات بعض الرجال، وتلقينات قسم من الوعاظ الجاهلين، أولئك الذين لم يدركوا أن إعلاء كلمة الله في الوقت الحاضر يتوقف على الرقي المادي، ولم يتفهموا قيمة الدنيا من حيث هي مزرعة الآخرة، ولم يميزوا بين متطلبات القرون الوسطى والقرون الأخرى، ولم يفرقوا بين قناعتين بعيدتين عن بعضها القناعة في التحصيل والكسب » وهي المذمومة، والقناعة في المحصول والأجرة، وهي الممدوحة، ولم يتبينوا البون الشاسع بين « التواكل » الذي هو عنوان الكسل، و «التوكل » الذي هو صدفة الإخلاص الحقيقي، فالأول: هو تكاسل في ترتيب المقدمات، وهو في حكم التمرد على النظام القائم بين الأسباب، التي هي مقتضي مشيئة الله تعالى.

والآخر: هو توكل إيماني في ترتب النتائج، وهو من مقتضيات الإسلام، والذي يقود صاحبه إلى التوفيق، حتى في النتائج، شريطة عدم التدخل في التقديرات الإلهية.

[1]- سورة النجم ،الآية 39.

فالتبس عليهم كلا الأمرين، ولم يتفرسوا سر « أمتي.. أمتي » ولا يفهمون حكمة لا خير الناس أنفعهم للناس » فهؤلاء هم الذين حطموا ذلك الميل، وأطفئوا ذلك الشوق.

والسبب الثاني : هو سلوكنا في المعيشة مسلكا غير طبيعي، مسلكا يوافق الكسل و يلائمه، ويداعب الغرور ويربت عليه، وهو المعيشة على الوظيفة الحكومية، لذا لقينا جزاء ما كسبت أيدينا.

سؤال : كيف ؟ الجواب: إن الطريق المشروع للمعيشة والسبيل الطبيعي والحيوي إليها هو « الصناعة، الزراعة، التجارة » أما الطريق غير الطبيعي، فهو الوظيفة الحكومية والأمارة بأنواعها، وعندي أن الذين جعلوا مدار معيشتهم «الأمارة » – وان تسمت بأي اسم كان - فهم في زمرة الشحاذين العاجزين المتسولين، ومن زمرة المخادعين الحيالين، وفي نظري أن الذي ينخرط في سلك الوظيفة أو الأمارة، فليدخل إليها لأجل الحمية والخدمة للأمة، وإلا لو دخلها للمعيشة والمنفعة فحسب، فلا يقوم إلا بضرب من التسول »[1].

أهمية تقسيم العمل في زيادة الإنتاج والعرض الكلي:يتحدث النورسي عن أهمية التكتل الاقتصادي والوحدة بين الدول الإسلامية، من خلال تبادل الخبرات واستغلال الثروات، لما في ذلك من فائدة كبرى يعود نفعها على أبناء الحضارة الإسلامية والإنسانية، حيث ترتفع الدخول لدى الأفراد تبعا لارتفاع النسبة الإنتاجية، التي أثمرتها توحيد المساعي وتوزيع الأعمال، فيقول في هذا الصدد: «اشترك خمسة أشخاص في إشعال مصباح زيتي، فوقع على احدهم إحضار النفط، وعلى الآخر الفتيلة، وعلى الثالث زجاجة المصباح، وعلى الرابع المصباح نفسه، وعلى الأخير علبة الكبريت، فعندما أشعلوا المصباح، أصبح كل منهم مالكا لمصباح كامل، فلو كان لكل من أولئك المشتركين مرآة كبيرة معلقة بحائط، إذن لأصبح منعكسا في مرآته مصباح كامل - مع ما في الغرفة – من دون تجزؤ أو نقص.

وقام عشرة من صناعي ابر الخياطة بعملهم، كل على انفراد، فكانت النتيجة ثلاث ابر فقط لكل منهم في اليوم الواحد، ثم اتفق هؤلاء الأشخاص حسب قاعدة توحيد المساعي وتوزيع الأعمال » فأتي احدهم بالحديد، والأخر بالنار، وقام الثالث بثقب الإبرة، والأخر إدخالها النار والأخر بدأ يحدها، وهكذا، فلم يذهب وقت أحد سدى، حيث انصرف كل منهم إلى عمل معين وأنجزه بسرعة، لأنه عمل جزئي بسيط أولا، ولاكتسابه الخبرة والمهارة فيه ثانيا، وحينها وزعوا حصيلة جهودهم، رأوا إن نصيب

[1] - النورسي ،**صيقل الإسلام** ،ص 402-404 لأهمية العمل في **اللمعات** :ص193،188.

كل منهم في يوم واحد ثلاثمائة إبرة، مكان من ثلاث إبر، فذهبت هذه الحادثة أنشودة يترنم بها أهل الصناعة والحرف، الذين يرغبون بتوحيد المساعي وتقسيم الأعمال »[1]

الزكاة والربا وأثرهم في الجانب الاقتصادي: لقد أسهب النورسي في حديثه عن الزكاة والربا ليس فقط من الناحية الاقتصادية، بل وأفاض في حديثه عنهم وعن أثرهم في جميع مناحي الجوانب الحضارية، وخاصة الاجتماعية منها، باعتبار أن الزكاة هو الأداة الأولى للمصالحة بين جميع الطبقات الاجتماعية .[2]ومن خلالها يتم معالجة العديد من الأمراض الاجتماعية للحيلولة دون فتح السبيل أمام التسول والسرقة والفوضى، وذلك بسد حاجات الفقراء الجائعين الذين لا يرأف بحالهم قسم من الأغنياء[3]

أما أثر الزكاة في الناحية العلمية: فإنه يحث على دفع الزكاة من أجل استئصال اهل و محو الأمية والتقليد، وذلك بإنشاء المدارس والجامعات التي تدرس فيها العلوم الدينية والعلوم الحديثة من أجل نهضة الأمة علميا ومعرفيا .[4]

أما أثر الزكاة في الجانب السياسي: فإن النورسي تنبه إلى أهم الأسلحة الاستعمارية التي يسلطها أهل الضلالة على الشعوب لفرض سياساتهم، وهو سلاح التجويع هدم المرتكزات العقدية، ولإغراق أهل الإيمان الضعفاء الجائعين في متطلبات هموم العيش، حتى ينسوهم مشاعرهم الدينية [5].وكثيرا ما يستخدمون المال لتنصيرهم، لذا يرى النورسي أن دفع الزكاة عامل مهم لقطع الطريق أمام تلك المخططات الاستعمارية والتنصيرية.

أما أثر الزكاة في الجانب الاقتصادي: فإن النورسي يرى أن الزكاة هي قطب الأعمال المالية، وهي قنطرة الإسلام، وبها التعاون والتساند بين أهله، وهي سبب للبركة والاستزادة [6]وأن الصدقات والنذور هم أبناء عمومة الزكاة .[7]

أما أثر الربا في جميع الجوانب الحضارية: فالنورسي يرى أن أثره عكس ما تم ذكره تماما.ويرى النورسي « أن المدنية بكل جمعياتها الخيرية، وأنظمتها الصارمة، ونظمها الجبارة، ومؤسساتها التربوية الأخلاقية، لم تستطع أن تعارض مسألتين من القرآن الكريم، بل انهارت أمامها وهي في قوله تعالى "وآتوا الزكاة" [8] "وأحل الله البيع وحرم

---

[1] - النورسي ،**اللمعات** ، ص248-249 بتصرف

[2] النورسي ،**المثنوي العربي النوري** ،ص 158، **الملاحق** : ص 378 ،**إشارات الإعجاز** :ص 50-55.

[3] - النورسي ،**إشارات الإعجاز** ،ص 50-53 بتصرف .

[4] -النورسي ، **سيرة ذاتية** ،ص 504 بتصرف ،الكلمات : ص 473،448.

[5] - النورسي ،**الملاحق** ،ص 161-162.

[6] - النورسي ،**اللمعات** ،ص 223-227،**إشارات الإعجاز** ،ص 53،50 بتصرف .**سيرة ذاتية** :ص212.

[7] - النورسي ،**صيقل الإسلام** ،ص 416.

[8] -**سورة البقرة** ،الآية 43

الربا "[1]و إن أس أساس جميع الاضطرابات والثورات في المجتمع الإنساني، ومعدن جميع القلاقل والفساد وأصلها، ومحرك ومنبع جميع أنواع السيئات والأخلاق الدنيئة والرذيلة، إنها كلمتان اثنتان، أو جملتان فقط :

الكلمة الأولى: « إن شبع، فلا علي أن يموت غيري من الجوع».

الكلمة الثانية: « اكتسب أنت، لآكل أنا، واتعب أنت لأستريح أنا » .

نعم، إنه لا يمكن العيش بسلام ووئام في مجتمع، إلا بالمحافظة على التوازن القائم بين الخواص والعوام، أي بين الأغنياء والفقراء، و أساس هذا التوازن هو رحمة الخواص وشفقتهم على العوام، وإطاعة العوام واحترامهم للخواص، فالآن: إن الكلمة الأولى قد ساقت الخواص إلى الظلم والفساد، ودفعت الكلمة الثانية العوام إلى الحقد والحسد والصراع، فلبت البشرية الراحة والأمان لعصور خلت، كما في عصرنا هذا، حيث بدأت حوادث أوروبا الجسام في الظهور بشكل الصراع القائم بين الطبقة العاملة وأصحاب رأس المال ، والقرآن الكريم وهو العلاج الشافي، يستأصل جدور السم القاتل في الكلمة الأولى ب: الزكاة، التي هي ركن من أركان الإسلام، ويجتث عرق شجرة الزقوم المندرجة في الكلمة الثانية ب: تحريم الربا، فإن كانت البشرية تريد صلاحا وحياة كريمة، فعليها أن تفرض الزكاة، وترفع الربا »[2]

وخلاصة القول: فإن النورسى رسم لنا تصورا موسعا لما يمكن أن تكون عليه الجوانب المتعددة في الحضارة الإسلامية، سواء كانت اجتماعية أو ثقافية أو سياسية أو اقتصادية، وشرح باستفاضة ممنهجة وعلمية - لم يسعها البحث في سردها كلها - من الخطوات الكفيلة بتحقيق النهوض للأمة، وما للبعد الإيماني من حضور ثابت في نجاح تلك الخطوات و تحقيقها واقعا عمليا من خلال الإيمان التحقيقي.

[1] -**سورة البقرة** ،الآية 275.

[2] -النورسي ،**الكلمات** ، ص 473-474-567-851-859-،**سيرة ذاتية** ، ص146.

الفصل الثالث: فلسفة الحضارة عنـــــــد مالـــــــــك بن نبي

0.3 تمهيد :

مهما حاولنا أن نحدد موقع مالك بن نبي على صعيد الفكر العربي وتداعياته مشرقا ومغربا فإننا لا نفي الرجل حق قدره، كان يترجم إسلامه في سلوكه وأعماله وأقواله فهو من المفكرين القلائل الذين عرفتهم البشرية فلقد أوجد فضاءات حضارية وإجابات لأسئلة الراهن الحضارية التي تشترك فيها الإنسانية جمعاء فلا يكاد أي باحث يتأمل ويتفحص في مؤلفاته إلا ولاحظ بأن هاجسه هو موضوع الحضارة. فكيف صاغ مالك بن نبي نظريته الحضارية ؟ وما هي الأسس المنهجية التي بنى عليها مشروعه الحضاري ؟

1.3عوامل نشأة الحضارة عند مالك بن نبي ومفهومه لفلسفة التاريخ والحضارة.

1.1.3مفهومه للتاريخ:

إن التاريخ عند مالك بن يأخذ بعدا ديناميكا ،فهو في النطاق الخاص يمثل العمل المشترك لأمة من الأمم أو مجتمع من المجتمعات وفي النطاق العام هو العمل المشترك للإنسانية،وهذا العمل المشترك يسهم في صنعة كل من القلب والعقل واليد ،ولكي يسير المجتمع لابد من وجود العلاقة الاجتماعية ،وكل علاقة اجتماعية تصدر حتما من دوافع القلب ومن مبررات وتوجيهات العقل وحركات الأعضاء وهكذا يصنع التاريخ. [1] وحركة التاريخ ترتبط بحركة الإنسان ،فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ ،وإذا سكن سكن المجتمع والتاريخ ،وهذه العلاقة تؤكد العلاقة العضوية بين التاريخ بوصفه مجالا لفاعلية الإنسان وديناميكيته وبين الإنسان الفاعل الذي صاغته الثقافة الدينية فتفاعل مع الزمن والتراب وفق معادلة إنتاج الحضارة من خلال دورة التاريخ[2].

ولكن يا ترى من الذي يصنع التاريخ ويؤثر في مساره: هل الأفراد أم الجماعات ؟ الحكام أم الشعوب ؟هل الأحداث التي تصل إلى درجة من التأثير والفاعلية من خلق ساسة وقواد بلغوا مرتبة البطولة أم أن هذه الأحداث حصيلة حضارة أسهم فيها شعب يجمع أوجه نشاطات اقتصادية واجتماعية وفكرية وفنية وأدبية ؟ فلمن يؤرخ المؤرخ لشخصيات أم للحضارات ؟ وما هو محور التاريخ ؟ فيبدو أن وجهة النظر الأكثر شيوعا أن التاريخ وتحديد مساره ، قد يكون الدين أو الفكر أو العلم أو التكنولوجية .[3]وفي هذه الحالة فإن المؤرخين يؤرخون لهذه المظاهر الممثلة في رجالها ،إن التاريخ في الإسلام لم يتخذ السياسة محورا له ،وإنما اتخذ الدين ،ولم يسجل أعمال الملوك بقدر ما سجل فكر العلماء والفقهاء والمحدثين والصوفية والشعراء .[4]ولكن إذا كان التاريخ يتجه إلى عمل العلماء والمثقفين

---

[1]- نورة خالد السعد ،**التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي** ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ،ط1 ،سنة1997،ص 113.

[2]- **المرجع نفسه** ، ص113.

[3]- أحمد محمود صبحي ،**في فلسفة التاريخ** ،مرجع سابق ،ص :76.

[4]- أحمد محمود صبحي ،**في فلسفة التاريخ** ،مرجع سابق،ص 82.

باعتبارهم صانعي التاريخ من خلال إبداعاتهم وتفسيرهم للوجود المادي والإنساني فكيف هو تصور مالك بن نبي للمجتمع الإنساني وللحركة البشرية ضمن هذا العالم المعقد والمتشابك؟

يرى مالك بن نبي أن تحديد مفهوم المجتمع يجب أن يربط بالزمن ،ذلك أن مفهوم المجتمع بمعناه البسيط هو تجمع أفراد ذوي عادات متحدة ،في ظل قوانين واحدة ،ولهم فيما بينهم مصالح مشتركة ،هذا التحديد في رأيه يتجه إلى الوصف الخارجي ولا يعطي أدنى تفسير للوظيفة ،التاريخية التي تناط بتجمع هذا القبيل كما أنه لا يفسر تنظيمه الداخلي ولذلك يرى أنه يجب أن يقرن التحديد في نطاق الزمن الذي يصف المجتمع إما في حالة الحركة أو السكون.[1]فالمجتمعات التي لا تتغير صورة حياتها عبر الزمن هي برأييه شبيهة بمستعمرات النمل خلال آلاف السنين ،ولذلك فهذه الجماعات هي خارجة عن نطاق التحديد ،وهي حياة تصور لنا حتى الآن مرحلة مرت بها الإنسانية في عصور ما قبل التاريخ .[2]

إن هذه المرحلة برأيه تتحجر فيها الصفات الاجتماعية،ويندر تنوعها من عصر لآخر بل لو أننا أخذنا "عينة " لقطاعين من حياتها الاجتماعية يفصل بينهما آلاف السنين لوجدناهما متطابقين بناء على ما لاحظه المختصون في علم الأجناس.[3] فالتاريخ بهذا المعنى يحمل طابع الحركة والصيرورة ،انه حركة الفعل البشري من حالة السذاجة إلى حالة التطور ،ومن السكون والجمود إلى حالة الحركة والتغير ،ذلك "أن كل تغيير يطرأ على الخصائص التشكيلية أو يحدث في التوجيه الثقافي لجماعة إنسانية معينة هو نتيجة مباشرة لوظيفتها التاريخية .فك جماعة لا تتطور ،ولا يعتريها تغيير في حدوث الزمن تخرج بذلك من التحديد الجدلي لكلمة "مجتمع" [4]

إن المجتمعات الحقيقية في منظور "مالك " هي التي تحمل طابع الحركة والتطور ضمن الحركة الزمانية ،ثم إن الحركة البشرية وصيرورتها هي المعنى الحقيقي للحركة التاريخية الفعلية ،إذ التاريخ هنا يصبح تاريخ الحركة البشرية .

ولهذا فالمجتمع هو :الجماعة التي تغير دائما خصائصها الاجتماعية بإنتاج وسائل التغيير مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء هذا التغيير .

وضرب لنا مالك بن نبي مثلا علميا يشخص فعلى التماثل بين عالم الإنسان وعالم الجماد من خلال قانون الوظيفة التي يؤديها الموجود ضمن عالم الطبيعة فيقول :«من الحقائق المقررة في علم الكيمياء منذ درس العلماء المركبات المتشابهة الجوهر أن الأجسام قد تتماثل في علم التركيب الكيميائي دون أن تتشابه

[1]- مالك بن نبي ،ميلاد مجتمع ،ج1،**شبكة العلاقات الاجتماعية** ،تر/ عبد الصبور شاهين ،تر /عمر كامل مسقاوي لبنان ،ص 13.
[2]- مالك بن نبي ،**ميلاد مجتمع** ،ص 13.
[3]- **المصدر نفسه** ،ص14.
[4]- **المصدر نفسه** ،ص 14

خصائصها ،واستنبط العلماء من هذا أن مجموعة الذرات ليست مجرد كمية من المادة ،بل تنظيم هذه المادة طبقا لنظام معين،فاختلاف الخصائص في الكيمياء إنما يرجع في الحقيقة إلى اختلاف التنظيم الداخلي،أو بتعبير أوضح اختلاف الهندسة الداخلية ».[1]يعني هذا أن المجتمعات الإنسانية تتحرك في الزمن وفق غايات وأهداف تجعلها تعطي لواقعها طابع الصيرورة والديمومة ،وإذا لم يحدث ذلك معنى أن هذه الجماعات تعيش حالة من السكون والجمود ولهذا "فإن أمام كل مجتمع غاية ،فهو يندفع في تقدمه إما إلى الحضارة أو الانهيار "[2].

فالحركة البشرية التي تقوم بها المجتمعات هي التي تولد لديها الحضارة ،ولا يمكن أن يتحقق لها ذلك إلا إذا تحققت الحركة الإيجابية ،فيقول مالك :"تكتسب الجماعة الإنسانية صفة "المجتمع " عندما تشرع في الحركة ،أي عندا تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها ،وهذا يتفق من الجهة التاريخية مع لحظة انبثاق حضارة معينة " لكن الجماعات الساكنة فهي تعيش في مرحلة ما قبل الحضارة ،ومن هنا يصل مالك بن نبي"إلى نتيجة "أن الطبعة توجد النوع ولكن التاريخ يصنع المجتمع ،وهدف الطبيعة هي مجرد المحافظة على البقاء،بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية ،هو ما نطلق عليه الحضارة .[3] فيفهم من قول مالك بن نبي أن كل الكائنات توجدها الطبيعة وتصنع فيها ما يعمل على بقائها واستمراريتها ،لكن المجتمعات البشرية لها طابع خاص إنها لا تعبر عن كينونتها الحقيقية إلا بما تقوم به من فعل حضاري يتمثل في المنجزات الثقافية والعلمية التي تدفع بها إلى الأمام فالوجود البشري يتطلب فعلا هادفا هو ترقية النوع البشري ،وليس العيش في مجال جامد ،لأن الفعل الحقيقي ليس العمل على بقاء الجانب البيولوجي واستمراره ،بل في تطويره وتغييره نحو شكل أعلى .فنجد مالك بن نبي يحلل الآراء المختلفة في تفسيره للحركة التاريخية ،انطلاقا من أن فكرة المجتمع ترتبط والمتحرك بعناصر ثلاثة :أ) حركة مستمرة ب)إنتاج دائم لأسبابها ج) غايتها أو أهدافها .[4]

ولذلك يجب علينا تحديد أي من هذه العناصر أسبق وإلا سوف يبقينا هذا في حلقة مفرغة فإذا حاولنا أن نقول إن الحركة هيا التي تؤدي إلى أسبابها ،فإننا نقع في تناقض ، إذ أننا نبين المجتمع في حركية مستمرة ،دون أن نحدد الأسباب الأولى لهذه الحركة ،يقول بن نبي :"إن كل وسط إنساني يندمج في حركاته منتجا لأسباب هذه الحركة ،ينطوي على عامل أساسي يقهر الخمود الفطري طبقا لمبدأ الميكانيكا الكلاسيكية حين يحيل عناصر الخمود في وسط معين إلى قيم حركية [5]وهو يعني من كلامه هذا أن الحركة التاريخية لمجتمع ،عليها ألا تتكئ إلى شجرة

---

[1]- مالك بن نبي،**ميلاد مجتمع** ،ص15.

[2]- **المصدر نفسه** ،ص16.

[3]- **المصدر نفسه** ،الصفحة نفسها

[4]- الأخضر شريط ،**في الحركة التاريخية وتفسير التطور الحضاري عند مالك بن نبي** ، منشورات عالم التربية ،ط2008،1، ص72.

[5] - مالك بن نبي ،**ميلاد مجتمع** ،ص 17.

الجمود من جهة ،ومن جهة أخرى عليها أن تغذي نفسها بنفسها عندما تقهر الخمود الفطري ،وتنتج لنفسها قيما تساهم في تحريكها .وبمعنى آخر فإن الحركة،وإن كانت لا تخلو من الجانب الميكانيكي فيها ،فإن الجانب النفسي هو المنتج للقيم التي تساهم في سير حركته بالتمام ،فكما أنه في علم الكهرباء الميكانيكية ،ينتج المولد الكهربائي شحنات كهربائية في الوقت الذي يزوده بها العمل الميكانيكي للمحرك ،فإن الأمر تماما كأن نقول بأن المحرك هو المنتج للشحنات الكهربائية ،في حين أنه يقيم عمل ميكانيكي يصرف فيه كهرباء تستهلك من طرف المولد الذي ينتج بدوره شروط بقاء الدورة الكهربائية .[1]إذن فما هو السند الذي اعتمد عليه مالك في تفسير هذه الحركة ؟فلقد التمس ذلك من أعلام الفكر العالمي والمفسرين للحركة التاريخية **فهيجل** برأيه يرجع الأسباب التي تحكم كل حركة تاريخية إلى مبدأ التعارض الذي يتكون من القضية ونقيضها ،فحينما تنشأ الحركة طبقا لهذه الأسباب المتعارضة ،فان غايتها تتمثل في صورة اندماج وتركيب محتوم ،وهذه الأحوال الثلاثة التي تسيطر على كل حركة تاريخية يتخلص فيها كل تغيير اجتماعي .وفكرة التعارض هي التي تكون في نظر"**هيجل**" حسب "**مالك** "القوة المحركة التي تخلق الحركة التاريخية والتي من شأنها أن تخلق أسبابها ،ثم أن الاندماج أو التركيب هو الغاية المنشودة في هذا الكيان كله.[2] والماركسية برأيه ترى أن الأسباب المتعارضة التي تؤدي إلى حدوث التغييرات الاجتماعية ذات طابع اقتصادي ،حيث ميلاد المجتمع وشكل الحضارة ناشئان عن التعارض الاقتصادي .[3] لكن التفسير الماركسي على حد قوله محدود داخل الحدود الاقتصادية المطابقة الحدود جغرافية معينة،و بالتالي فهو لا يستطيع أن يقدم لنا تفسيرا معقولا للمجالات التي لم ينتشر فيها الخريطة .[4]

هذا وتطرق مالك بن نبي أيضا إلى نظرية التحدي عند "توينبي "في تفسيره لحركة التاريخ فيرى أنها هي نفسها مأخوذة عن فكرة التعارض التي أتى بها هيجل .إلا أنه قدم تفسيرا غير تفسير ماركس أو هيجل للحركة التاريخية عندما يجعل النشاط موجها بين طرفي نقيض :الحد الأول يمثل الطبيعة عنده ،والحد الثاني يمثل الجانب النفسي للإنسان ،وفي رأيه أنه كلما كان هناك تحي ،كلما كانت استجابة وكلما حدث العكس ،كلما كان هناك إخفاق .

ومن خلال سرده لهذه الآراء يخلص إلى القول بأن الآلية الحركية التاريخية إنما ترجع في حقيقتها إلى مجموع العوامل النفسية التي تعتبر ناتجا عن بعض القوى الروحية ،وهذه القوى الروحية هي التي تجعل من النفس المحرك الجوهري للتاريخ الإنساني فإن التاريخ برأيه ليس سوى هذا التغيير الذي تتعرض له "الذات"والمجال الذي يحوطها على السواء.[5] ويعني هذا التاريخ هو تاريخ الفعالية

---

[1]-الأخضر شريط ،**مرجع سبق ذكره** ،ص72.

[2]- مالك بن نبي ، **ميلاد مجتمع** ،المصدر السابق ،ص 18.

[3]- مالك بن نبي ، **ميلاد مجتمع** ،ص18.

[4]-**المصدر نفسه** ،ص19.

[5]- **المصدر نفسه** ،ص 23.

البشرية وتغييرها من الحسن إلى الأحسن،إنها الإبداع الذي حول حياة الكائن من الحالة البدائية المتوحشة إلى الحالة الإنسانية في مستواها الأعلى و"**مالك بن نبي**" من هذه الوجهة يلتقي بهيجل الذي يرى أن التاريخ هو تاريخ الوعي ،ومن هنا فإن الحادث التاريخي ليس في حركة الفلك ،وإنما في ما قام به الإنسان من انجازات حضارية دفعته إلى تغيير الوسط الذي يعيش فيه ،وبالتالي جعلته في مستوى يختلف فيه عن بقية الكائنات الأخرى . ومن هنا "فالتاريخ هو النشاط المشترك المستمر الذي تقوم به الكائنات والأفكار والأشياء مطبوعا على صفحة الزمان.[1]

فإذا هذا هو الوجه الصحيح للتاريخ هو أنه تاريخ حضاري فما هي الحضارة عند مالك بن نبي و ما هي مقوماتها وعناصرها ؟وإلى أي مدى وفق بن نبي في تلك المفاهيم وتلك الأسس التي وضعها من أجل أن تقوم الحضارة ؟

- نظرية الحضارة عند مالك بن نبي وأهم عناصرها :

لقد أشرنا سابقا إلى أن مالك بن نبي قد التفت إلى التاريخ يستفسره عن الأسباب والعوامل التي أدت إلى توقف العالم الإسلامي عن العطاء الحضاري وعن قيادة البشرية إلى معالم الحياة البشرية المكرمة ،إن هذه العودة إلى التاريخ كانت بناءا على افتراض أساس عنده هو أن ثمة قوانين ثابتة هي التي تتحكم في حركة التاريخ وأن التطور التاريخي للبشرية كله وفقا لهذه القوانين. فقوانين إعادة بناء الحضارة هي ذاتها نفس قوانين البناء أول مرة فقال أن :"نهضة مجتمع ما تتم في نفس الظروف العامة التي تم فيها ميلاده كذلك يخضع بناؤه وإعادة هذا البناء للقانون نفسه فهي بتعبير مالك ذاته "ثوابت التاريخ التي لا يغيرها الزمن "[2]فمن هنا يؤكد بن نبي أن "المنهج الذي يتناول التاريخ والحضارة لا على أنها سلسلة من الأحداث يعطينا التاريخ قصتها ،بل ظاهرة يرشدنا التحليل إلى جوهرها ،وربما يهدينا إلى قانونها أي ،سنة الله فيها "[3] ،هو أقرب المناهج التي تفسر وبشكل أوضح كيف تتدخل الفكرة الدينية في تركيب الفعل الحضاري المتكون من عناصرها أو كيف تكيف الفكرة الدينية سلوك الفرد وكيف توجه طاقته الحيوية لتحولها إلى طاقة اجتماعية تساهم بشكل ايجابي وفعال في بناء الحضارة .

فيرى بن نبي أن الوعي بقوانين التاريخ مطلب منهجي في غاية الأهمية لمن أراد التحكم في حركة المجتمع في التاريخ وفي مختلف مراحلها ،وكذا العوامل التي تبنى أو تهدم الحضارة .

فيبدو واضحا من هذا أن مشكلة الحضارة قد غذت المشكل المركزية التي استحوذت على اهتماماته واستغرقت كل جهوده ،بل وطبعت كل أعماله الفكرية التي امتدت منذ تخرجه مهندسا كهربائيا إلى أن حضر أجله فبعد توصله لصياغة رؤية علمية يمكن الانطلاق منها لبناء مشروعه الإصلاحي شرع بن نبي بعد التفاته للتاريخ في تحليل جهود مختلف حركات النهوض وإعادة البناء التي عرفها العالم الإسلامي الحديث. فكان لابد من دراسة

[1]- مالك بن نبي ، **ميلاد مجتمع** ، ص 23 .
[2]-مالك بن نبي ،**المصدر نفسه** ،ص76 .
[3]-مالك بن نبي ،**شروط النهضة** ،ص68

نقدية تحليلية لهذه الحركات ومحاولة التوصل إلى تحديد الأسباب الحقيقية للقصور والتقصير والتعثر في هذه الجهود الإصلاحية من جهة ،وصياغة منظوره المنهجي لتناول مشكلات الإنسان والمجتمع والحضارة في العالم الإسلامي وهذا ما سنتطرق إليه من خلال تحليلنا لمفهوم الحضارة عنده

2.1.3مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي :

تمثل الحضارة عند مالك بن نبي الأصل الأعظم الذي قامت عليه وانطلقت منه كل أعماله الفكرية وبعبارة أخرى كما تؤكد بعض الدراسات أن الحضارة هي وحدة التحليل الأساسية في منظوره لتناول مشكلات الإنسان والمجتمع والحضارة في بلاد العرب والمسلمين بل وفي التاريخ البشري برمته والمتأمل في هذه الفكرة وكيف عرضها بن نبي وتناولها بالدراسة والتحليل يفيدنا لأنه تناولها في سياقات متعددة ومختلفة ومن هنا فإن تحليلنا لفكرة الحضارة ينبغي أن يتم انطلاقا من السياق الذي يعثر عليها فيه ليتم لنا فهم المعنى المراد في السياق الذي عثرنا فيه على الفكرة .

فالحضارة طموح مشروع لكل البشرية وان اختلفت الروافد والمرجعيات إلا أن الغاية واحدة والمطلب واحد لذا وجب علينا قراءة هذا المفكر واستخلاص ما هو قيم حقا في فكره باستقراء طريقته واستنطاق رؤيته لمشكله الحضارة وتحليلها والغوص في عمق هذه القضية انطلاقا من قول مالك بن نبي: «إن مشكلة كل شعب في جوهرها مشكلة حضارته ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبنى الحضارات أو تهدمها »[1]

ومن هنا عمد مالك بن نبي إلى دراسة عوامل قيام الحضارة وعوامل انهيارها متأثرا في هذا بأشهر من كتب في الموضوع من مفكري الشرق والغرب أمثال عبد الرحمان ابن خلدون وكيسرلينغ وارلوند توينبي وشبنجلر وقبل تحليل أهم العوامل الفاعلة في نظر مالك بن نبي في سير الحضارات وتوقفها لابد من تحديد أهم المصطلحات التي تناولها والتي لها صلة بموضوعنا وأبرزها **الحضارة ،الثقافة المجتمع** .

إذا كان مصطلح الحضارة قد تصدر جل عناوين مؤلفات بن نبي تحت ما أسماه بمشكلات الحضارة فإن مصطلحي المجتمع والثقافة تردد استخدامهما بكثرة في معظم صفحات كتبه وخصص للثقافة كتابا بعنوان "مشكلة الثقافة "وآخر بعنوان "ميلاد مجتمع " ومن الطبيعي أن تكون الصلات وثيقة بينهم ذلك أن المجتمع هو صانع الثقافة والحضارة وهذه بدورها تصبغه بطابعها الخاص ،ومنه نجد أن مالك بن نبي يقدم لنا تعريفين للحضارة :وفيه يقول :«يمكن تعريف الحضارة من جانبين أحدهما وظيفي والآخر بنيوي (تركيبي) يستند الأول منهما إلى الوظيفة الموكلة للحضارة وهو أن الحضارة في الواقع هي جملة من الشروط المادية والمعنوية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل فرد من أعضائه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتقدمه ».[2] أما التعريف الآخر فيرتبط ببنية الحضارة

---

[1] -مالك بن نبي **'شروط النهضة** 'تر عبد الصبور شاهين 'دمشق 'دار الفكر '1968'ص19.

[2]-مالك بن نبي **'مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي** 'تر محمد عبد العظيم علي. دار الفكر 1979 ،ص42.

الداخلية على أساس أنها مركب يحوي ثلاثة عناصر أساسية يعرضها بن نبي بأسلوب رياضي على الشكل التالي: «حضارة =إنسان +تراب +وقت» وهذان التعريفان يكمل أحدهما الآخر وهذا ما سنوضحه لاحقا [1] .

كما نجده يربط بين الحضارة والثقافة في تشكيل الفرد وتكوينه يقول « نربط ربطا وثيقا بين الثقافة والحضارة وفي ضوء هذا الربط تصبح الثقافة نظرية في السلوك فهي بذلك المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعة وشخصيته ، المحيط الذي يعكس حضارة معينة والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر »[2]

وعليه فالثقافة في وظيفتها التاريخية تقوم بالنسبة للحضارة بعملية ضخ الدم في الجسم بالنسبة للكائن الحي ...[3] كما "لا يمكن إغفال العلاقة المتشابكة القائمة بين مفهومي الحضارة والمجتمع فلقد وقف عند مفهوم المجتمع مطولا فلا نجده يكتفي بتحديده تحديدا وصفيا وإنما عمد إلى تحديده تحديدا جدليا أو كما يقول "ينبغي أن نحدد المجتمع في نطاق الزمن "[4] ومن هنا "فإن المجتمع هو الجماعة التي تغير دائما خصائصها الاجتماعية بإنتاج وسائل التغيير مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء هذا التغيير. « وهذا التعريف في نظره ينطبق على ما يسميه بالمجتمع التاريخي في مقابل المجتمع الطبيعي أو البدائي ...وهو الذي لم يعدل بطريقة محسوسة المعالم التي تجدد شخصيته منذ كان.فإن المجتمع التاريخي هو الذي ولد في ظروف أولية لكنه عدل من بعد صفاته الجذرية إبتداءا من الحالة الأولية طبقا لقانون التطور وكمثال على المجتمع الطبيعي نجد في وضعية بعض القبائل نموذجا لهذا النوع من المجتمعات مثل القبائل العربية في العصر الجاهلي "[5] فمثل هذه الجماعة الإنسانية لم تسع لتغيير ذاتها بل ظلت ساكنة والجماعات الساكنة كما ير بن نبي "لها حياة اجتماعية دون غاية فهي تعيش في مرحلة ما قبل الحضارة "[6] أما المجتمع التاريخي هو" تنظيم معين يتم طبقا لنظام معين وهذا النظام في خطوطه العريضة يقوم على عناصر ثلاثة وهي حركة يتسم بها المجموع الإنساني وإنتاج لأسباب هذه الحركة وثالثا تحديدا لاتجاهها فهذه العناصر فينظر مالك هي المقياس الأساسي لإطلاق صفة مجتمع على جماعة إنسانية معينة لأنها العوامل الأساسية التي تجعلها تسير نحو شكل من لأشكال الحياة الراقية وهو ما نطلق عليه اسم حضارة"[7] ومن هنا تتضح لنا الروابط الوثيقة بين مفاهيم الحضارة والثقافة والمجتمع وحالة التأثير والتأثر المتبادلة بينهم .

فالاهتمام الكبير الذي شغل مالك بن نبي هو الإنسان في صورته الفردية والاجتماعية'ولاشك في أن نزعة الإنسان نحو المجتمع 'إنما تكمن في تلبية الحاجات

---

[1] -مالك نبي ،**شروط النهضة** ،ص 45.
[2] -مالك نبي ،**شروط النهضة** ، ص 83.
[3] -مالك بن نبي ، **مشكلة الثقافة** ،'تر عبد الصبور شاهين 'دار الفكر 'دمشق '1979،ص104.
[4]-مالك بن نبي **'ميلاد مجتمع** 'تر عبد الصبور شاهين 'دار الفكر 'دمشق '1974' ،ص15.
[5]-مالك بن نبي **'المصدر نفسه** ،ص9.
[6]- مالك بن نبي ،**المصدر نفسه** ،ص18.
[7]- **المصدر نفسه** ،ص 17-18.

المتعددة التي يصعب على الفرد الواحـــــــد اقتناؤها بمفرده' وهذا القصور يـــــــــدفع الناس إلى الاجتماع والتعاون وبمـجرد

الاجتماع تحدث اللغة 'وتتحدد القيم والقواعد التي تضبط العلاقات الاجتماعية وقد انتهى مالك بن نبي بعد تأملات في التاريخ الإسلامي والإنساني إلى أفكار وآراء في الحضارة في التاريخ و في السلوك الاجتماعي.

والحضارة باعتبارها نتاج إنساني هي من الشروط اللازمة لأي تجمع بشري يحلم بالحركة والتطور' بعيدا عن التجمعات البدائية التي سادها شريعة الغاب والتي كانت تتنافى مع ما يحقق إنسانية الإنسان ولهذا يقول بن نبي:«إنني أؤمن بالحضارة على أنها حماية للإنسان لأنها تضع حاجزا بينه وبين الهمجية »[1]

وعليه ففي مجتمع الحضارة يتوفر الإبداع ويتذوق الأفراد طعم الحرية ' "فالحضارة هي في مجمل الشروط الأخلاقية والمادية التي تمنح لمجتمعات معينة أن تقدم لكل شخص من أشخاصه في كل مرحلة من مراحل وجوده ' منذ الطفولة إلى الشيخوخة 'المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذلك من أطوار نموه"[2]

إن الفرد البشري في ظل الحضارة يجد حضانته 'ويؤمن مصيره ويحفظ شخصيته والحضارة بهذا المعنى هي التعبير عن حركة مجتمع شاملة تمس الفكر والاقتصاد وتعمل على التوازن الروحي والمادي الذي يرقي الأفراد نحو الأفضل 'ولهذا فإن أي جماعة بشرية تكتسب صفة المجتمع عندما تشرع في الحركة أي عندما تنطلق من تعديل نفسها من أجل الوصول إلى هدفها 'وينطلق هذا من الوجهة التاريخية مع لحظة انبثاق حضارة معينة 'أما الجماعات الساكنة فلها حياة دون غاية فهي في مرحلة ما قبل الحضارة. و خلاصة القول" أن الطبيعة توجد النوع 'ولكن التاريخ يصنع المجتمع 'وهدف الطبيعة هو مجرد المحافظة على البقاء بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية هو ما نطلق عليه اسم الحضارة "[3]

وعليه فإن «الحضارة في مفهوم مالك بن نبي يصنعها تاريخ الإنسان 'أي تاريخ الفكر على جانب ما تزوده الطبيعة بالطاقات 'التي تعمل على تكييفها نحو أهداف محددة 'لأن المادة في رأيه لا تعطي شيئا إلا إذا استثمرت وفق مخطط عقلاني ومنهجية دقيقة'ثم أن الحضارة رقي وحركة ونمو نحو الأفضل 'ولكن هذه الحركة والسيرورة لن تتحقق إلا وفق الانسجـــــام بين الفكر وبين الطاقات المتوفرة .

هذا وإذا كان التاريخ هو الذي يصنع المجتمع 'فإن صناعة التاريخ تتم طبقا لتأثير طوائف اجتماعية ثلاثة :

a) تأثير عالم الأشخاص

---

[1] _ مالك بن نبي ' **النجدة** 'المطبعة العالمية 'القاهرة '1997'ص5.

[2]- مالك بن نبي **'أفاق جزائرية** 'تر الطيب الشريف 'مكتبة النهضة الجزائرية '(د.ت)الجزائر 'ص5 .

[3] - مالك بن نبي **'ميلاد مجتمع** ،1974،ص16.

b) تأثير عالم الأفكار
c) تأثير عالم الأشياء

لكن هذه العوالم الثلاثة لا تعمل متفرقة ’بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقا لنماذج إيديولوجية من عالم الأفكار ’يتم تنفيذها بوسائل من عالم الأشياء’ من أجل غاية يحددها عالم الأشخاص...وكما أن وحدة هذا العمل التاريخي ضرورة فإن توافق هذه الوحدة مع الغاية منها ’وهي التي تنسجم في صورة "حضارة "يعد ضرورة أيضا»[1]

وهذا البند يستلزم كنهاية منطقية وجود عالم رابعا هو مجموع العلاقات الاجتماعية الضرورية أو ما يطلــق عليه" شبكة العلاقات الاجتماعية "وبذلك فإن المجتمع ليس مجرد كمية من الأفراد وإنما هو اشتراك هؤلاء الأفراد في اتجاه واحد للقيام بوظيفة معينة ذات غاية وبمعنى آخر فإن عمل المجتمع ليس مجرد اتفاق عفوي بين الأشخاص و الأفكار و الأشياء بل هو تركيب وثمرة الانسجام بين هذه العوالم الاجتماعية الثلاثة :بحيث يحقق ناتج هذا التركيب في اتجاهه ومداه تغيير وجوه الحياة أي تطور هذا المجتمع .[2]ومنه فالنسيج الاجتماعي الذي يشير إليه مالك بن نبي إنما يقوم على التوازن بين الحياة المادية والمعنوية وفي هذا الالتزام بالإسلام الذي ترفض أحكامه اعتزال المجتمع والتخلي عن المادة كما يرفض الإسلام أن يكون الإنسان عبدا للأشياء. وبذلك فإن التوجيه الحضاري الجديد يتطلب التوازن الروحي والمادي ’إنه التوازن الذي يجمع ذات الفرد المشتتة نتيجة للفلسفات المثالية والمادية. وعليه إذا توحدت ذات الفرد يكون قد فسح المجال نحو توحد المجتمع ’لأنه بذلك تتم صناعة شبكة علاقات اجتماعية تعمل على توازن بين علاقات الإنسان بأشياء مجتمعه وبين علاقاته مع العقيدة والأفكار التي تنبع منها ضوابط السلوك في المجتمع ’وبقدر ما تنجح هذه العلاقة تبرز حضارة جديدة لأنه **"في الحضارة جانبين : الجانب الذي يتضمن شروطها المعنوية في صورة إرادة تحرك المجتمع نحو مهماته الاجتماعية والاضطلاع بها والجانب الذي يتضمن شروطها المادية للقيام بمهماتها ’أي بالوظيفة الحضارية "**[3]

ولهذا لابد من توفر شرطين ضروريين لكل جماعة بشرية تطمح إلى تشييد حضارة:مهما الإرادة الحضارية وتوفر الشروط المادية التي تمثل الميدان العملي للارتقاء الحضاري وهاذين الشرطين في نظر مالك بن نبي ليسا متساويين في الأهمية وبالتالي" **فالعلاقة النسبية بين الإمكان الحضاري والإرادة الحضارية :علاقة سببية تضع الإرادة في رتبة السبب بالنسبة للإمكان"**[4]هكذا فالأمة حين تصاب بالانحطاط والإنحذار’فإنه مهما توفرت الشروط المادية ستكون هذه الأخيرة من نصيب الشعوب الأخرى ’حيث ستظل الأمة المغلوبة على أمرها تتخبط في مشاكلها ’لأنها لا تملك إرادة التغيير وبناء الحضارة.

---

[1]- **المصدر نفسه** ، ص23-24.
[2]- مالك بن نبي ،**ميلاد مجتمع** ، ص24.
[3]-مالك بن نبي ’**المسلم في عالم الاقتصاد** ’ دار الفكر ’دمشق ’1979’ص63.
[4]-**المصدر نفسه** ’ص 63.

وبالتالي فالأمة التي لا تملك الإرادة الحضارية هي أمة ساكنة إذ أن " لها حياة دون غاية ’فهي تعيش في مرحلة ما قبل الحضارة "[1]

وعليه يمكن أن ننتهي إلى مفهوم الحضارة الذي ينبثق عنه هذا التصور« **الحضارة هي نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي تجعله يدخل التاريخ فيبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقا للنموذج المثالي الذي اختاره لحضارته وعلى هذا النحو تتأصل جذوره في محيط ثقافي أصيل يتحكم بدوره في جميع خصائصه التي تميزه عن الثقافات والحضارات الأخرى** »[2]

نلاحظ من خلال هذا التعريف أن أساس الحضارة هو الأفكار في نظر مالك بن نبي فهو يرى مثلا أن للفكرة المسيحية الفضل في دخول أوربا التاريخ ولكن من الواجب أن يكون للأفكار دورا وظيفيا لي يدخل مجتمعا ما في التاريخ لأن الحضارة في رأيه هي القدرة على القيام بوظيفة أو بمهمة معينة يقول " **ويمكن تعريف الحضارة في الواقع بأنها جملة العوامل المادية والمعنوية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل فرد من أعضائه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتقدمه**"[3]ونلاحظ بأن هذا المفهوم يخالف مفهوم علماء الأنتروبولوجيا الذين يعتبرون أن كل شكل من أشكال التنظيم للحياة البشرية حضارة .فإذا أخذنا بعين الاعتبار هذا المفهوم كيف يمكننا أن نفرق بين ما هو حضاري وغيره[4]

ونستنتج أن مالك بن نبي درس مفهوم الحضارة من ثلاثة نواحي :

أولا :من حيث تركيبها أي من حيث العناصر الأساسية التي تتكون منها الحضارة **وثانيا** : من الجانب الوظيفي باعتبار وظيفة الحضارة في المجتمع "نظرة وظيفية ".**وثالثا:** من الناحية التاريخية والاجتماعية أي كيف تنشأ الحضارة وترتقي ثم تنحط بمعنى آخر كيفية تتطور الحضارة . ومن حيث تركيبها فتتكون الحضارة في بنيتها الداخلية على أساس أنها مركب يحوي ثلاثة عناصر أساسية يعرضها مالك بن نبي بأسلوب رياضي ورأى بأنها هي التي تشكل باجتماعها أولا وبتفاعلها ثانيا ظاهرة الحضارة وهي على الشكل الآتي : كل ناتج حضاري تنطبق عليه الصيغة التالية :

ناتج حضاري =إنسان+تراب+وقت فلكي نقيم بناء حضارة لايون ذلك بتكديس منتجاتها وإنما بحل المشكلات الثلاثة من أساسها.[5]

الإنسان :(وهو الفاعل الأساسي في البناء الحضاري لما له من ثقافة تجعله يؤثر بها في المجتمع فهو الوحدة الأساس التي يتشكل منها المجتمع ،إذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ وإذا سكن ،سكن المجتمع والتاريخ ، إذ اعتبره مالك بن نبي الأمل المركزي في الفعل الحضاري لذا وجب توجيهه فالتوجيه هو قوة في الأساس وتوافق في السير ووحدة في الهدف فيتجنب بذلك الشخص الإسراف في الجهد والوقت ويشمل بدوره على النواحي

---

[1]- مالك بن نبي’ **ميلاد مجتمع** ’ص16.
[2]- مالك بن نبي ’**مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي** ’تر محمد عبد العظيم علي. دار الفكر 1979 ’ص49
[3]- مالك بن نبي **المصدر نفسه** ’ص49 .
[4] _عمارطالبي ’**محاضرة جامعية** ’1412’ .1978
[5]-مالك بن نبي ، شروط النهضة ،45.

الآتية :الأخلاق لتكوين الصلات الاجتماعية والجمال لتكوين الذوق والمنطق العملي لتحديد أشكال النشاط العام وأخيرا الفن التطبيقي أو الصناعة بتعبير ابن خلدون) [1]

التراب :(أي كل ما يحيط بالإنسان من أشياء مادية وغير مادية وغير مادية ويرتبط بقيمة مالكيه فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة وحضارتها متقدمة يكون التراب غالي القيمة وحين تكون الأمة متخلفة يكون التراب على قدرها من الانحطاط).

الوقت:وهو أن العامل الزمني مهم جدا فإذا استغليناه ارتفعت كمية حصادنا العقلي والروحي واليدوي وهذه هي الحضارة).فهذا فعل لا تعيه سوى الأمم المتحضرة .

فاعتبر مالك بن نبي أن هذه العوامل أساسية وفيها "ينحصر رأس مال الأمة الاجتماعي الذي يمده في خطواتها الأولى في التاريخ "[2]وما ينبغي إضافته إلى هذا هو أن فاعلية هذه العناصر الثلاثة لا تبدأ إلا بوجود ما يسميه مالك بن نبي "بمركب الحضارة "«أي العامل الذي يؤثر في مزج هذه العناصر بعضها ببعض وهذا المركب ليس شيئا آخر سوى "الفكرة الدينية "التي رافقت دائما تركيب الحضارة من خلال التاريخ فهذه الأخيرة هي العامل الذي يمزج هذه العناصر الثلاثة فيكون منها حضارة»[3].فلقد ركز مالك بن نبي على الفكرة الدينية وربط بينها وبين جميع أوجه النشاط الحضاري فهو يجسد لنا حقيقة العلاقة بين الدين والنشاط الحضاري ويبرهن على الرابطة الموجودة بين نوازع الفرد من جهة وبين الوسط المجتمعي من جهة أخرى ساعيا إلى صياغة جديدة لمشكلات المسلك المعاصر بوصفها قضية حضارة أولا وقبل كل شيء فيمكن القول أن جذور أزمة الانحطاط الذي يعاني منه العالم الإسلامي تكمن في تخليه عن الفكرة الدينية فأصبحت غير مؤثرة فيه وعودة الروح إلى هذا العالم لن تتم إلا بعودته إلى دينه.فهذا التفاعل يخلق ديناميكية للمجتمع تجعله يحافظ على استمرار يته ومسايرته للتطورات الحادثة. وبذلك فإن :"الدين يجعل من الإنسان العضوي وحدة اجتماعية ويجعل من الوقت الذي ليس سوى مدة زمنية مقدرة بساعات تمر ،وقتا اجتماعيا مقدرا بساعات عمل ومن التراب الذي يقدم بصورة فردية مطلقة غذاء الإنسان في صورة استهلاك بسيط مجالا مجهزا مكيفا تكييفا فنيا يسد حاجات الحياة الاجتماعية الكثيرة "[4] فإن هذه الصورة النظرية التي تعكس أثر الفكرية الدينية في بناء الحضارة تجسدت بكل معطياتها في حالة الحضارة العربية الإسلامية قبل أن تدخل هذه الأخيرة في حالة الانحطاط الذي تفككت فيه شبكة العلاقات الاجتماعية بعد أن، كف المسلم عن التزود بالفكرة الدينية فكفت هذه الأخيرة عن منحه تلك الشرارة الروحية التي زودته بها في لحظة الميلاد وهذا يعني أن مسيرة الحضارة لا تستمر على وثيرة واحدة وبالفعل فإن مالك بن نبي يعتبر ظاهرة تخلف العالم الإسلامي ظاهرة حتمية وهذا بناءا على نظريته في دورة الحضارة .

---

[1] -**المصدر نفسه** ،ص87.

[2]-**المصدر نفسه**،ص50.

[3]-**مالك بن نبي** ،**شروط النهضة** ،ص45-46-50

[4]-مالك بن نبي ،**وجهة الأفكار في العالم الإسلامي** ،ص 32.

2.3الدورة الحضارية ومراحلها :

1.2.3دورة الحضارة:

لقد أدرك مالك بن نبي من خلال إطلاعه الواسع لتاريخ الكثير من الحضارات الأمم أن كثيرا من الحضارات قد تداولت، و هي إذ تنتقل من مكان إلى آخر بحثا عن شروطها، فهي لا تكاد تزول عن أمة من الأمم حتى تكون قد انتقلت في أرض أمة أخرى إن الحضارة في تصور **مالك بن نبي** تتابع في وحدات متشابه، و لكن غير متماثلة، و عليه ما يتجلى في تاريخ البشرية هو وجود **(دورة الحضارة)**، "و كل دورة محددة بشروط نفسية زمنية خاصة بمجتمع معين... ثم أنها تهاجر و تنتقل إلى بقعة أخرى، بحيث تعد كل استحالة (تحول) تركيبا خاصا للإنسان و التراب و الوقت"[1].

هذا، و لما كانت أبحاث **"مالك بن نبي"** تركز على الحضارتين الإسلامية و الغربية، فإنه انطلاقا من هاتين الحضارتين يقرر أن المدنيات الإنسانية حلقات متصلة تتشابه أطوارها مع "أطوار المدنية الإسلامية و المسيحية، إذ تبدأ الحلقة الأولى بظهور فكرة دينية، ثم يبدأ أفولها بتغلب جاذبية الأرض عليها، بعد أن تفقد الروح ثم العقل"[2].

إن مرحلة ميلاد الحضارة في نظره هي فترة الصعود نحو الأعلى، و فيه يتم وضع الأسس اللازمة لتكوين حضارة ما، أما مرحلة الأفول فهي فترة نزول تدريجي نحو حالة هي اللاحضارة، و بين هذين الحدّين تقع مرحلة الأوج.

معالم الحضارة عند مالك بن نبي:

لقد حاول الفلاسفة و المفكرون مع اختلاف اتجاهاتهم دراسة أسباب نمو و اندثار الحضارات الإنسانية، و تحليل هذه الأسباب في تفسير حركة التاريخ الحضاري الذي ينطوي على ثلاث نظريات هي:

1-حركة التقدم الصاعد.
2-حركة النكوص المتدهور.
3-حركة التعاقب الدوري.

1-حركة التقدم الصاعد للتاريخ الحضاري:

يبدو أن فكرة التقدم الصاعد لحركة التاريخ الحضاري قد نشأت منذ وقت طويل تمثلت في صورة الصراع الذي دار بين القديم و الجديد عند القدماء، و محاولة

[1]- مالك بن نبي، **وجه العالم الإسلامي**، ص:59.
[2]- مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص:53.

تفضيل بعضهم القديم لقدمه، في حين يرى الآخرون أن الجديد ليس أقل قيمة من القديم، بل هو أفضل منه، حيث اكتمل ما كان ناقصا في القديم.

و يتجلى من هذا أن أصحاب النظرية الأخيرة، يرون أن التقدم ما هو إلا عملية تراكمية، إذ المعاصر يفوق أسلافه بما يضيفه في جميع الميادين.

و على الرغم من بساطة هذه الحركة التي كانت في بدايتها محصورة في المجال النفسي، فإنها توسعت على يد بعض الفلاسفة و المؤرخين كـ: (باسكال)، الذي انطلق من الموازنة بين حياة الفرد و حياة المجتمع لينعي على معاصريه الذين حاولوا تفضيل القديم على الحاضر، موضحا كيف أن الأجيال البشرية شبيهة بحياة فرد معين قدّر له أن يظل حيا منذ بداية أول جيل بشري حتى الآن، و المجتمعات البشرية -ما هي في نظره- سوى سلسلة من الأفراد ورثوا كل ما سبقهم من المفاهيم[1].

هذا، و إذا كانت فكرة (باسكال) تشير إلى التقدم العلمي، فإن محتوى الفكرة نلتمسها في التطور الاقتصادي عند (ماركس) و كذلك التطور البيولوجي و الطبيعي عند (داروين).

و من أنصار هذه الكرة الفيلسوف الفرنسي (أوجيست كونت) الذي توصل من خلال تفسيره لحركة تاريخ الوعي البشري، حيث بيّن أن المجتمعات تمرّ في تطورها بثلاث مراحل هي المرحلة اللاهوتية و المرحلة الميتافيزيفية و المرحلة الوضعية، و هذه المراحل التي يمر بها أي مجتمع خلال تطوره تكتمل عندما يصل إلى المرحلة الوضعية التي تمثل تقدم المجتمع في المجالات الفكرية و المادية و الأخلاقية[2]

رسم تمثيل نمو الحضارات نموا تصاعديا

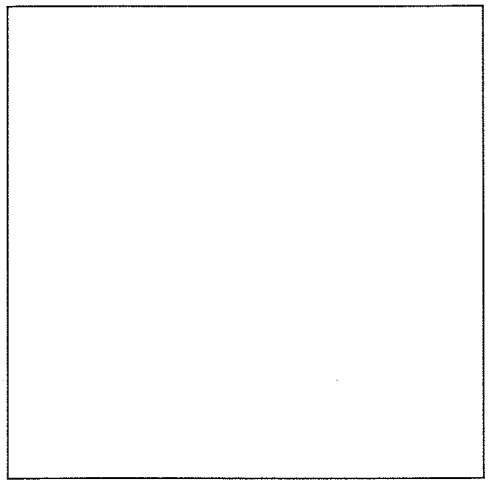

2-حركة النكوص المتدهور للتاريخ:

[1]- عكاشة شايف، **الصراع الحضاري في العالم الإسلامي**، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، سنة 1988، ص:101-102

[2]- أنظر، عفت الشرقاوي، **أدب التاريخ عند العرب**، مكتبة الشباب، القاهرة، ص:60.
و أنظر أيضا: **عكاشة شايف**،مرجع سابق، ص:102.

إن نظرية التقدم التصاعدي للتاريخ الحضاري السالفة الذكر تمثل وجهة نظر فلسفية تفاؤلية بما يؤكده من قابلية الإنسان للارتقاء نحو الكمال، غير أننا إلى جانب هذه النظرية نرى آراء أخرى تفسر حركة التاريخ الحضاري بأنها موجة نحو النكوصية، و أن فكرة التقدم نظره ما هي إلا وهم.

و هذه النزعة التشاؤمية نجدها عند مجموعة من الفلاسفة أمثال (**جيته**) الذي عبّر عنها بقوله: <<لقد صار الإنسان أكثر ذكاء و وعيا، و لكنه لم يصبح أكثر سعادة أو أنبل خلقا>>، و (**إدوارد كربنتز**) في قوله: <<إنها -يقصد المدينة- مرض مكتوب على جميع الأجناس البشرية>>[1].

هذا، و نلتمس نزعة التشاؤم اتجاه ما يسمى بالتطور الحضاري عند "**ألبرت شفيتسر**" الذي يرى في الحضارة الحديثة عالما صناعيا خاليا من القيم الأخلاقية و في هذا القول: <<...و ماذا عسى أن يبقى من انجازات فلسفتنا إذا انتزع منها ما فيه من بريق علمي؟ ... و هكذا قدر لي أن أبذل طاقتي من أجل الوصول إلى فهم الفكر الغربي. لقد تبيّن لي أنه سعى للوصول إلى نظرة في الحياة يمكن أن تنشأ عنها وحدها حضارة شاملة عميقة، و أراد أن يبلغ مكانة يؤكد فيها العالم و الحياة بقيمها على أساس أن واجبنا أن نكون فعالين و أن نناضل في سبيل التقدم بكل أنواعه و أن نخلق القيم، و رام له أن يصل إلى مذهب أخلاقي على أساسه يقدر أنه لكي يكون العمل مفيدا علينا أن نضع حياتنا في خدمة الأفكار و في خدمة الحياة المحيطة بنا. لكنه لم يفلح في تأسيس نظريته الكونية المؤكدة للعالم و الحياة على أساس من الفكر طريقة ثابتة مقنعة>>[2].

إن أصحاب نظرية النكوص المتدهور ينطلقون من مستوى المجتمع المتحضر الذي في نظرهم أخذ يختلف في مسيرته نظرا لما افتقده من قواعد تمكنه من المحافظة على مسيرته الحضارية، و هم في هذا يختلفون عن أصحاب نظرية التقدم التصاعدي الذين ينظرون إلى التقدم من زاوية التطوّر بغض النظر عن قيمة هذا التطور و طبيعته، إذ التقدّم عندهم أشبه بالتغيّر منه بالتطور[3].

هذا، و إذا كنا نستعمل اليوم مصطلحات التقدم و التأخر، و السير في طريق التقدم، أو السير في ركب الحضارة هل هذه المفاهيم كانت موجودة قبل العصور الحديثة؟

إن الجواب عن هذا السؤال نجده عند القدامى و من يونان و فرس و هنود و رومان، لم تكن لديهم أي فكرة عما نسميه نحن اليوم بالتقدم و التأخر، إنما كانت هناك فكرة الحركة فحسب، أي أنّ الزمان و الأشياء في تغيّر و تحول دائمين، و لهم في ذلك مذاهب شتى.

([1])- نقلا عن: عكاشة شايف، **الصراع الحضاري في العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص: 103.

([2])- ألبرت شفيتسر، **فلسفة الحضارة**، تر/عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس، ط2، 1980م، ص:89-90.

([3])- عكاشة شايف، **الصراع الحضاري في العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص:103-104.

فلقد قال **هيراقليط** بالحركة الدائمة، أي كل ما في الكون في حركة دائمة، و أنّ سبب هذه الحركة هو الصراع و هو في رأيه أبو الأشياء، و لو لا الصراع و الخلاف ما ظهر شيء، و الصراع في رأيه يؤدي إلى تحوّل الأشياء بعضها إلى بعض، و أن حياة أي شيء تقتضي موت شيء آخر. و من أقواله المأثورة "أليست النار تحمي موت الهواء، و الهواء يحمي موت النار، و الماء يحمي موت التراب، و التراب يحمي موت الماء، و الحيوان يحمي موت النبات، و الإنسان يحمي موت الاثنين، أي العيش بموتهما معا،و الوجود عنده موت يتلاشى، و الموت وجود يزول، كذلك الشرّ خير يتلاشى، و الشرّ خير يزول. فالخير و الشرّ و الكون و الفساد أمور تتلازم في النظام العام[1].

و قال **أرسطو** بالكون و الفساد، و الفساد عنده ليس بالمعنى الذي نريده نحن بالفساد، بل بالتحوّل، فالأرض تفسد إذ تتحول إلى شجرة، و الشجرة تفسد إذ تتحول إلى ثمرة[2].

إن هذا الكلام لا يدخل في نطاق ما تفهمه بحركة التاريخ، و لكنه يدل على أن حركة الزمان و انتقال الأشياء من حال إلى الحال استوقفا نظر اليونان، فراحوا يفسرونها إلى مذاهب الفلاسفة هذا، و قد كانت نظرة العرب الجاهليين إلى تلك الحركة الدائمة أقرب إلى الواقع و أدخل في مفهوم التاريخ، فقال بعض شعرائهم إن حركة الكون و تعاقب الليل و النهار هو سبب الحياة و الموت:

منع البقاء تصرف الشمس * و طلوعها من حيث لا تمسي**

لقد كانت حياتهم المتشابهة الراتبة في الصحراء توحي إليهم فكرة تعاقب الحياة و الموت إلى ما لا نهاية. إلى إلا أننا نلمح عندهم لمحات تدل على الإحساس بالتاريخ و حركته، أي بعد الزمان و حركته، لأن فكرة الزمان و الإحساس به أقدم عند الإنسان من فكرة التاريخ و الإحساس به، و هذا قول **"عدي بن زيد العبادي"** على لسان شجرة:

من رآنا فليوطن نفسه *** أنه موف على قرب زوال

ربّ ركب قد أناخوا حولنا *** يشربون الخمر بالماء الزلال

عصف الدهر بهم فانقرضوا *** و كذلك الدهر حالا بعد حال

إن هذا الفكر الجاهلي في الزمان يقوم على حركة في اتجاه واحد، أي حياة فتموت ثم حياة فموت، و لكنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه المصريون القدماء الذين أكملوا دورة الحياة بحياة أخرى تكون بعد الموت، فيحاسب الإنسان على أعمال و يحيا مرة

(1)- د/حسين مؤنس، **مرجع سابق"** المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، ط2، الكويت، 1988م، ص:151.
(2)-المرجع نفسه، ص: 152.

أخرى حياة سعيدة أو شقية. و لم يصلوا أيضا إلى ما وصل إليه اليونان من ربط الحياة بالموت و تولّد الأشياء بعضها من بعض، و من هذا أيضا -أي فكرة اليونان- حركة اتجاه واحد[1].

قد التمس الفكر العربي من الإسلام عمقا بالغا، حيث ازداد إحساس العربي بالوجود الموت ثم البعث بعد الموت للحساب، و من القرآن الكريم تعلم العرب كيف يفكروا في أمور الدنيا تفكيرا منطقيا و أخلاقا فهان في حسابهم أمر هذه الحياة المادية التي نحياها، و عرفوا القيمة الحقيقية للحياة المعنوية التي يحياها الإنسان.

ثم رأوا أن الدول تقوم و تتداعى و تتلاشى لتعقبها غيرها، و اتسع اطلاعهم فعرفوا من أخبار الماضيين شيئا كثيرا جعلهم يشعرون، بصورة أعمق، بأن للجماعات حياة شبيهة بحياة الكائن الحي، فهي تولد كما يولد، و تنمو كما ينمو، و تمر بمراحل العمل حتى تصل تمام النضج (و هي الكهولة في حياة الإنسان) ثم تنحدر إلى الشيخوخة مثله، و شيئا فشيئا بدأت فكرة دائرة الحياة و الموت بالنسبة للفرد و القيام ثم الانهيار فالتلاشي بالنسبة للجماعات تزداد وضوحا في أذهانهم حتى أصبحت هي كل فلسفة الزمان و التاريخ عندهم، و قد عبّر عن ذلك **"أبو البقاء الشريف الرندي"** في مرثيته المشهور بالأندلس:

لكل شيء إذا ما تمّ نقصان *** فلا يفر بطيب العيش إنسان

هي الأمور -كما شاهدتها- دول *** من سرّه زمن ساءته أزمان

إن هذا التصور يرجع إلى كونهم كانوا يشبهون الجماعة البشرية ببدن الكائن الحي. و كما أن الكائن الحي يولد و يعيش و يبلغ أشدّه، ثم يشيخ و يضعف ثم يموت، و لا سبيل له إلى الفرار من هذه السلسلة إلا إذا مات قبل أن يكملها، فكذلك الدول: تولد ثم تمر بنفس مراحل العمر إلى أن تشيخ و تموت، إلا أنّ يفاجئها عدو أو تبتاعها جائحة تقضي عليها قبل أن تكتمل دورة العمر[2].

بل و قد بلغ هم الأمر في التشبيه إلى الدقة في الكلام في أعمار الدول، فهذا ابن خلدون يرى أ، عمر الدولة أربعة أجيال، و كما أنّ الناس يتشابهون فيما يجري عليهم أثناء رجلة العمر، كذلك الدول تتشابه في ميلادها و ما يجري على مسارها.

2.2.3مراحل الحضارة:

-الحضارة و مرحلة الروح:

قد لاحظنا في فصل سابق كيف أن الفلاسفة اختلفوا في تحديد العامل الحاسم في بعض الحضارات الإنسانية، فهو عند "توينبي" «يتمثل في عنصر التحدي و الاستجابة ... فالظروف الصعبة، لا السهلة هي التي تستثير في الأمم قيام

([1])- د/حسن مؤنس، **الحضارة**، مرجع سابق، ص: 152-153.

([2])- د/حسين مؤنس، **الحضارة**، مرجع سابق، ص:153.

الحضارات...» [1]، لكن عنصر التحدي، لا يبعث الحضارة في كل الحالات "فقد يكون ضعيفا عاجزا تماما عن خلق استجابة ناجحة في الطرف الأخر، و قد يكون على عكس ذلك قويا... بالغ القوة بحيث الاستجابة المبدعة لديه..." [2].

و لكن إن كان المؤرخ البريطاني "توينبي" يفسر نشوء الحضارات بناء على عامل الوسط الطبيعي و قساوته كيف يفسر لنا الحالة التي عاشها العرب مئات السنين في صحرائهم دون أن تتغير حياتهم، إنهم عاشوا ممزقين، متحاربين، مرتحلين، و لم يستطيعوا تأسيس حضارة. إلا أنهم بفضل عامل آخر غير الذي ذكره توينبي، برزوا على مسرح التاريخ، و قادوا العالم.

و العالم الأساسي في بحث الحضارة عند ماركس هو العامل الاقتصادي إذ "أن الدين و العائلة و الدولة و القانون و الأخلاق و العلم و الفن، ليست كلها سوى أدوات خاصة من الإنتاج، و هي تخضع لقانونه العام. و من هنا فإن الإلغاء الإيجابي للملكية الخاصة، بوصفه تأكيد للحياة الإنسانية هو إلغاء إيجابي لكل اغتراب، أي عودة الإنسان من الدين و الدولة و العائلة... إلى وجوده الإنساني، أي إلى وجوده الاجتماعي"[3].

إن المادة عند ماركس هي العامل المسيطر على حركة المجتمعات و صيرورتها التاريخية، غير أن تاريخ الحضارات يعتبره عاملا بسيطا.

لهذا فإن العامل الجوهري في بعث الحضارات، هو العامل الأخلاقي، كما أن زوال هذا العنصر يؤدي إلى اندثارها و زوالها. إننا "نرى في النهاية أن آلية الحركة التاريخية تكمن في حقيقتها إلى مجموع من المؤثرات النفسية التي تعتبر ناتجا عن بعض القوى الروحية و هي التي تجعل النفس المحرك الجوهري للتاريخ الإنساني"[4].

إن حركة المجتمعات و تغييرها في ظل الصيرورة التاريخية ينبع من المحتوى الداخلي للإنسان الذي يعد الشرط الجوهري في تقوية إرادته و توجيهها نحو الحضارة.

و على هذا الأساس يرجع **مالك بن النبي** إلى التاريخ ليهتدي بهديه حيث يقول: "أن الجزيرة العربية لم يكن فيها قبل نزول القرآن إلا شعب بدوي يعيش في صحراء مجدبة، يذهب وقته هباء لا ينتفع به، لذلك فقد كانت العوامل الثلاثة الإنسان و التراب و الوقت... مكدسة لا تؤدي دورا ما في التاريخ ... حتى إذا ما تجلت الروح بغار حراء ... فمن تلك اللحظة وثبت القبائل العربية على مسرح التاريخ..."[5].

([1])- أرنولد توينبي، **مرجع سابق**، 1931م، ص:233.
([2])- **المرجع نفسه**، ص:233 و ما بعدها.
([3])- د/ فيصل عباس، **الفلسفة و الإنسان**، دار الفكر العربي، ط1، بيروت، سنة 1996، ص:260.
([4])- مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**، ص:23.
([5])- مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص:51.

إن هذه الروح التي تجلت للرّسول (عليه الصلاة و السلام) هي التي كانت السبب في بعث الحضارات الإسلامية، و هي على حد رأي **مالك بن نبي** "منحة من السماء إلى الأرض يأتيها مع نزول الأديان عندما تولد الحضارات"[1].

فالأديان باعثة للحضارات، و هذه الأديان لا تكون سماوية فقط بل أنه "كلما أوغل المرء في الماضي التاريخي للإنسان، في الأحقاب الزاهرة لحضارته، أو في المراحل البدائية لتطوره الاجتماعي وجد سطورا من الفكرة الدينية"[2].

فالعقيدة مهما كانت، سماوية أو وضعية تلعب دورا أساسيا في حياة الأفراد، إنهم يلجئون إليها عند إحساسهم بالضياع. و لهذا يرى **مالك بن نبي** أن الحضارة لا تظهر في أمة إلا بوحي، إننا تنطلق من "معبود غيبي بالمغنى العام، فكأنها قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية"[3].

لكن هناك فرق بين الإيمان بالدين السماوي المنزل و بين الإيمان الفطري بوجود قوة خفية تسيطر على الإنسان و الكون، إن الأول ينبع من دين جامع مانع، بينما الثاني من اختراع الإنسان تشوبه الخرافة و الأسطورة.

إن أثر الدين في تكوين الحضارة يتجلى في تحفيزه للطاقة النفسية و دفعها للنشاط و الإبداع، إنه انطلاقا من احترام الفرد للدين و تقديسه له يسارع في التنفيذ دون تلكؤ أو تكاسل أو تحايل على الهرب من تكاليف النظام و التزاماته[4].

و في نظر مالك بن نبي "أن الدين يتدخل في تكوين القدرة النفسية الضرورية لدى الإنسان، و في تنظيم الطاقة الحيوية الواقعة في تصرف "ذات" الفرد، ثم إرشاد هذه الطاقة الحيوية الواقعة في تصرف ذات" الفرد، ثم في توجيه الطاقة تبعا لمقتضيات النشاط الخاص بهذه "الذات" داخل المجتمع و تبعا للنشاط الذي يؤديه المجتمع في التاريخ"[5]

إن نوازع الفرد المشتتة تأخذ في انتظامها و انضباطها بفعل الفكرة الدينية فتوجهها نحو المجتمع ذلك أن "العلاقة بين الله و بين الإنسان هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، و هذه تربط الإنسان و أخيه الإنسان[6]، ثم أن ما يحدث من تغيير بنفس الفرد، فإنه يؤدي إلى تغيير المجتمع، ذلك لوجود علاقات اجتماعية قوية نسجتها الدعوة الدينية، و لهذا فإن "أبرز التغييرات و أشدها عمقا وقعت في النفس في أهم مراحل التاريخ مع ازدهار فكرة دينية[7].

([1])- مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**، ص: 79.
([2])- مالك بن نبي، **الظاهرة القرآنية**، ص:69.
([3])- مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص:51.
([4])- د/يوسف القرضاوي، **الخصائص العام للإسلام**، ط3، مكتبة وهبة، القاهرة، سنة 1986م- ص:47.
([5])- مالك بن النبي، **ميلاد مجتمع**، ص:68.
([6])- مالك بن نبي ،**ميلاد مجتمع** ، ص:52-53.
([7])- **المصدر نفسه** ، ص:73.

إن النسيج الاجتماعي الذي كونته الفكرة الدينية في نظر مالك بن نبي يتجلى في "أول عمل قام به المجتمع الإسلامي هو الميثاق الذي يربط بين المهاجرين و الأنصار"[1].

و من هنا فإن الفكرة الدينية هي التي تهيئ التربية لقيام الحضارة عبر التاريخ.

و من هذه الحضارات الحديثة التي قامت على أساس الإيمان يضرب لنا **"مالك بن نبي"** "مثلا على ذلك بالحضارة الشيوعية، فهي و إن كانت فكرة **"ماركس"** فإن هناك كما يقول: "الواقعية الشيوعية "، هي في جوهرها نشاط المؤمنين المحملين بنفس القوى الداخلية التي دفعت غيرهم من المؤمنين على مر العصور، أولئك الذين عاصروا منشأ الحضارات... فلا يمكننا أن نفكر في المثال الذي ضربه **(استخانوف)** للطبقة العامة في روسيا حين رفع مستوى الإنتاج اليومي إلى الضعف في مناجم الفحم، دون أن نفكر في المثل الذي ضربه سلمان الفارسي الذي كان يقوم بأضعاف العمل الذي يؤديه الصحابي الواحد في حفر الخندق... أو الذي ضربه عمار بن ياسر حين كان يحمل حجرين على كاهله في بناء مسجد المدينة، حيث كان الفرد يحمل حجرا واحدا. ففي كلا الموضعين نحد أن العقيدة الإيمانية هي التي مهدت الطريق للحضارة"[2].

إن فكرة الوازع الديني في بعث الحضارة لا يقتصر على ماذكره **"مالك بن نبي"**، بل نجد أن ابن خلدون سبقه إلى ذلك، إذ يرى أن أقوى عامل جمع القلوب و تأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه ... و سرقه أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل و الميل إلى الدنيا حصل التنافس و فش الخلاف، و إذا انصرفت إلى الحق و رفضت الدنيا و الباطل و أقبلت على الله اتحدت وجهتها فذهب التنافس و قلّ الخلاف و حسن التعاون ... و هذا ما وقع للعرب صدر الإسلام في الفتوحات..." [3].

إن هذا التصور الخلدوني لدور الدعوة الدينية في تكوين الدولة، يفسره مالك بن نبي بالتركيز على المحتوى الداخلي للإنسان، و ما يحدث للنفس المؤمنة بعد أن تتلقى الدعوة الدينية فالإنسان يكون قبلها "في الحالة التي يعرفها بعض المؤرخين المسلمين في الفطرة "مع جميع غرائزه كما وهبتها إياه الطبيعة، فالفرد في هذه الحالة ليس أساسه إلا (الإنسان الطبيعي) ... غير أن الفكرة الدينية سوف تتولى إخضاع غرائزه .... و هذه العملية الشرطية ليست من شأنها القضاء على الغرائز و لكنها تتولى تنظيمها في علاقة وظيفية مع مقتضيان الفكرة الدينية"[4].

إن دور الفكرة الدينية لا يتوقف في بعض الحضارة في نظر مالك بن نبي، بل في حل المعضلات التي تواجه الحضارة بعد انطلاقها و هي بذلك على استمرارها و

([1])- مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص:52.
([2])- **مالك بن نبي ،شروط النهضة** ، ص:54.
([3])- عبد الرحمن ابن خلدون، **المقدمة**، ص:278.
([4])- مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص:27.

ديمومتها، فالمجتمع "لا يمكنه مجابهة "الصعوبات" التي يواجه بها التاريخ كمجتمع ما لم يكن على بصيرة جلية من هدف وجوده"[1].

إن هذا الهدف لا يمكن أن ترقى إليه المجتمعات إلا بمساعدة الدين الذي يعطي المجتمع المناعة من الانحلال و الانحدار.

ب-الحضارة و مرحلة العقل:

لعل مرحلة العقل تأتي مباشرة بعد المرحلة الروحية و دورة الحضارة، و هذا التعاقب يأتي من خلال التطورات التي تحدث داخل المجتمع المتحضرّ، لأن بروز المجتمع على مسرح التاريخ و اكتمال شبكة علاقاته "تنشأ المشاكل المحسوسة لهذا المجتمع الوليد نتيجة توسّعه، كما تتولد ضرورات جديدة نتيجة اكتماله. و حتى تستطيع هذه الحضارة تلبية هذه المقاييس المستجدة تسلك منعطفا جديدا، و من هنا تبدوا المرحلة العقلية ضرورة لأي مجتمع بدأ في تأسيس حضارة.

في هذه المرحلة تمتد حضارة شعب ما، إما أفقيا حيث تحتل مراكز جديدة، أو رأسيا فتطور العلوم و الصناعات باعتباره المظهر الأسمى لسيطرة العقل على الحياة و في هذه المرحلة أيضا ينشط العلم الذي يعتبر رمز سيطرة العقل "لما ينطوي عليه من دعوى إلى إعمال الحواس ثم انفتاح تلك الإمكانات على الصعيد الكوني الطبيعي من أجل تسخير كل ذلك فيما يعود على الإنسان بالخير و التقدّم في سبيل الرقيّ الحضاري، و تدعيم الكيانات الحضارية بشكل يوازن بين قيم الإنسان الدينية، و بين تطلعاته على الأصعدة العلمية في عالم الواقع..." [2].

إن نشاط العقل في الحضارة الإسلامية حسب رأي مالك بن نبي انطلق بعد موقعة "صفين"، حيث توسّع المسلمون في الأرض إلى أن أصبحت حدوده كما يقول <آدم ميتز>: "تمتد من الشاطئ الأطلنطي غربا إلى الهند و بحر فارس شرقا، و ضمّت بلاد الروم و ما يتصل بها من الأرض و البلغار و صقلية و الترك و الصين شمالا"[3].

هذا، و إذا كان **مالك بن نبي** يرى أن تطور الحضارة الغربية و وليد الفكرة الدينية المسيحية التي أرضعتها تعاليمها حتى قويت و انتقلت إلى مرحلة العقل التي بدأت منذ قرون قليلة، إلا أننا نرى أ،ن أوربا التي عرفت قفزة نوعية في عصر التنوير إنما يرجع إلى انتقاد فلاسفة هذا العصر، للكنيسة و النظام الإقطاعي.

لقد أكد فلاسفة التنوير على قيمة العقل و حرية الفرد، إذ أوربا عانت حركة التحوّل، و عرفت طريقها نحو التقدم حينما تخلصت من قيم بالية فرضتها هيمنة الكنيسة و

([1])-مالك بن نبي، **شروط النهضة** ، ص:71-72.

([2])- سليمان الخطيب، **أسس مفهوم الحضارة في الإسلام**، مرجع سابق، ص:261.

([3])- آدم ميتز، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، تر/محمد أبو ريدة، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الدار التونسية، تونس، سنة 1986م، ص:32.

نظام الإقطاع فاتجهت محو عقلانية، و قيم جديدة، فأعطت للعقل قيمته و للإنسانية إنسانيتها.

لقد استطاع الدين في العصور الوسطى أن يصبح شكل الايدولوجيا و أن يضمّ تحت لوائه جميع ميادين المعرفة و الأخلاق و السياسة و التشريع، و بفضل هذه القوة أصبحت المسيحية أعظم قوة و التعبير الأمثل للعصر الإقطاعي بتركيبه الاقتصادي و السياسي، خاصة و أن العهد الإقطاعي اتسم بالتحالف بين الكنيسة و الدولة، و الذي يرجع السلطة في العالم و المجتمع إلى الله و الملك ... لقد كانت الكنيسة توحد مجمل أوربا الغربية الخاضعة للنظام الإقطاعي في منظومة سياسية كبرى تتصدى لأتباع الكنيسة الشرقية المنشقة و كانت تحيط المؤسسات الإقطاعية بهالة التكريس الإلهي[1].

إن ما يمكن معرفته للطابع العام لهذه الفترة قبل أن يحتل العقل مكانته هو أنّ "نظريات الكنيسة كانت تحيط بها هالة التكريس الإلهي، لأنها مستمدة مباشرة منت وحي الله، الكلي العام و القدرة و أن الوصول إلى طريق الحقائق الإلهية لا تتم من خلال العقل، بل عن طريق الإيمان، لأن العقل البشري ناقص ... و بناء على ذلك فقد جرى إلحاق العقل بفكر الدين اللاهوتي الذي يصور على أنه علم الله، خالد أبدي"[2].

و على هذا، و للتخلص من هذا الواقع المزري، عمل فلاسفة النهضة من تحرير الناس من جمود الكنيسة و تحجّر معتقداتها، و من القيود التي تضافرت التقاليد و الخرافة على فرضها عليهم طوال العصور الوسطى.

لقد استطاعت الاكتشافات العلمية على تشكل الوعي العلمي، و تطوّر الاتجاه المادي في الفلسفة الحديثة، و كذلك عمقت الإيمان بقدرة العقل الإنساني على إدراك الحقيقة، و بذلك عملت حركة التحرّر على تأكيد أولوية العقل في المعرفة، و باسم العقل، حامل مبدأ الانسجام و النظام ردّت العقلانية تطور العالم إلى تطور العقل واعتبرت التقدم وفقا على الإنسان وحده، و ردت التطور الإنساني إلى التقدم العقلي.

إن تنوير العقل و تحريره من العوامل الذاتية العام للتخلف هي الثورة الحقيقية الإنسانية التي عرفتها أوربا في القرن الثامن عشر، فانهارت الكنيسة و نظمها المؤسسة مع الحق الإلهي في السلطة، و انهار بعدها النظام الإقطاعي الذي غمر الفرد في مراتب دونية من التبعية[3].

هذا، و إن نفور العقل الغربي من التعاليم المسيحية و دعوتهم إلى تحكيم العقل بدل الدين إنما يرجع إلى الحقائق المزيفة التي طرأت على هذه الديانة، و كان مالك بن نبي محقا حين قال في كتابه "الظاهرة القرآنية"، بأن المسيحية أن إعجازها ماديا

([1])- ج/فيصل عباس، **الفلسفة و الإنسان**، مرجع سابق، ص:129.. **أنظر أيضا:** ماركس-انجلر، مختارات في أربعة أجزاء، دار التقدم موسكو، **"الاشتراكية الطوباوية و الاشتراكية العلمية"**، الجزء 3، سنة 1970م، ص:56.

([2])- د/فيصل عباس، **مرجع سابق**، ص:130.

([3])- بربوتي حقي إسماعيل، **الإنساني و اللاإنساني في قيم الحضارة الغربية**، مجلة الوحدة، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، سنة 1991م، العدد86، ص:55.

حسيّا انتهى مع انتهاء رسالة نبيها، فما أرسل "عيسى عليه السلام" ألا ليكفكف من الغلو المادي لبني إسرائيل، فهي أساسا دعوى لليهود قصد التوازن و الاعتدال.

و هذا الدكتور <**أحمد شبلي**> يرى أن عيسى عليه قد أرس لليهود لا لغيرهم من الشعوب و الأمم، و ذلك ليحمل لهم النقاء الروحي الذي افتقدوه في معترك تهافتهم على جمع الأموال و تكنيزها، و إضرارهم بتعليمات موسى **عليه السلام** و عصيانهم لوصياه[1].

إن مالك بن نبي و هو يتحدث عن المسيحية لا يعتبرها دينا عالميا كما هو الشأن في الإسلام، بل كثافة انتقلت من موضعها الأصلي إلى أوربا، إضافة إلى ذلك فهو تعرض للمرحلة الروحية في الحضارة الغربية، لم يكن يسير إلى المسيحية الأولى، و إنما لحركة الإصلاح الديني التي قام بها <**مارتن لوثر**> في الأراضي الجرمانية محاولا إرجاع المسيحية إلى صفائها و نقائها الأول.

و على أية حال، فإن ما أشار إليه مالك بن نبي تجاه انبعاث الحضارة الغربية فيه كثير من الصحة، إذ لا يعقل أن تولد حضارة دون أن تقوم على أسس دفعت الإنسان إلى العمل و التفاني.

فالحضارة الغربية شأن الحضارات في العالم مرّت بمرحلتها الروحية، و إذا حدث من الحاد و تمجيد للعلم و نتائجه، فإن ذلك يرجع إلى الفراغ الذي عاشته الحياة الأوروبية بعد زوال العمل الذي قامت به حركة الإصلاح الديني.

هذا، و يصف مالك بن نبي حالة المجتمع الذي دخل مرحلة الإشباع الروحي كيف يواصل تقدمه على كافة المستويات، إلا أنه يرى رغم هذا التقدم تنشأ مشكلات تواجه المجتمع نتيجة توسعه و انتشاره كما تتولد ضرورات جديدة نتيجة هذا الاكتمال، و حتى يكون بمقدور حضارة تلبية الضرورات، عليها أن تسلك منعطفا جديدا يتمثل في العقل، و حينذاك تبدأ الغرائز التي كانت مشروطة بالروح الدينية في التحرّر من قيودها، حيث الروح بدأت تفقد نفوذها من الغرائز المكبوتة تدريجيا، و العقل لا يملك سيطرة الروح على الغرائز و لا القدرة على تهذيبها. و يرى مالك أنه لو أنه استطعنا في هذه المرحلة أن نراقب الظروف النفسية بوسيلة دقيقة قصد تتبع هذه العلاقة الطردية بين ضعف سلطة الروح و تحرّر الغرائز، فإننا سوف نلاحظ انخفاضا في مستوى أخلاق المجتمع، و نقضا في الفعالية الاجتماعية للفكرة الدينية، و تستمرّ الفكرة الدينية في مواصلة ..... فعاليتها منذ أن دخلت الحضارة منعطف العقل[2]، و في هذه المرحلة يبدأ المجتمع بالاستعانة بمناهج تساعده على الانتشار و التوسّع، و تزدهر العلوم في هذه المرحلة و تكتمل شبكة الروابط الاجتماعية، و يصبح المجتمع لديه من القدرة على تقديم كل الضمانات الاجتماعية للفرد، كي يصل إلى الحضارة، ما دام هناك فائض في الواجب الاجتماعي يسمح لكل الأفراد بتقديم ما لديهم من طاقات و قدرات، و يتحصّلون نتيجة لذلك على كل الشروط الضرورية لممارسة

(1)- د/أحمد شلبي، **المسيحية**، الطبعة الثامنة، مكتبة النهضة المصرية، سنة 1984م، ص: 82-83.
(2)- مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص: 71.

عملهم، فالحضارة عنده "جملة العوامل المعنوية و المادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفرّ لكل فرد من أعضائه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتقدّمه"[1].

و يؤكد **مالك بن نبي** أن أثر الفكرة الدينية عند دخول الحضارة منعطف العقل يستمر في مواصلة نقصانه مما يؤثر على البناء النفسي للفرد و المجتمع، و بذلك تستعيد الغرائز غلبتها عليها شيئا فشيئا و عندما يبلغ التحرر اكتماله تبدأ مرحلة الغريزة و هي المرحلة التالية في القانون الدوري[2]، و وفق المخطط البياني السابق يرى **"مالك بن نبي"** أن مرحلة العقل في المجتمع الإسلامي بدأت في 38هـ، حيث تحطم ذلك التوازن الهادي و الروحي الذي يحقق الطمأنينة في النفس و الاستقرار و الأمن الاجتماعي، و لكن من ناحية أخرى تحقق اكتشاف النظام المؤوي، و تطبيق المنهج التجريبي في الطب و استخدام فكرة الزمن الرياضية، يقول: <<فلقد عرف هذا العالم أول انفصال في تاريخه في معركة صفين عام 38 للهجرة، إذ كان يحمل بين جنبيه بعد قليل من سنوات ميلاده تعارضا داخليا ... و مع ذلك فنحن ندين لتلك (الحضارة) المنحرفة التي ازدهرت في دمشق في ظلّ الأمويين باكتشاف النظام المؤوي، و تطبيق المنهج التجريبي في الطب و استخدام فكرة الزمن الرياضية>>[3].

أما فيما يخص هذه المرحلة بالنسبة للمجتمع المسيحي فإنها تتمثل في عصر النهضة و ازدهار الفلسفة في أوروبا على يد **"ديكارت"** انتعاش الثورة الصناعية و ازدهار العلوم الإنسانية، كما بيّن مالك بن نبي أنّ حضارة أوروبا خرجت من مرحلة السمو الروحي إلى مرحلة التوسع العقلي عندما بدأت هذه النهضة[4].

إن هذه المرحلة في نظر مالك بن نبي تفرز أمراضا اجتماعية لم ينتبه إليها علماء الاجتماع و المؤرخين لأنّ آثارها المحسوسة لا تزال بعيدة، و برأيه أن مشكلة الحضارة في الحضر الحاضر لا تخصّ الشعوب الإسلامية فقط بل إنها تخصّ أيضا الشعوب المتقدمة نفسها، التي تتهدد فيها مدنيتها بالفناء[5].

جـ-الحضارة و مرحلة الغريزة:

إذا كان اليونان انطلقوا في بناء الحضارة عندما أعطيت القيادة للعقل، و إذا كان الرجل الغربي هو الآخر في عصر الأنوار قد بلغ إلى مجده عند تخليه عن الأفكار الكنسية التي كبلّت العقل قرونا من الزمن، و لكن استمرارا لعقل في السيطرة على الحياة بفعل الاختراع و التطوير يجعل الروح تستمر في الانزواء، إذ يلاحظ على المجتمع على حد رأي **"مالك بن نبي"**: <<انخفاض في مستوى الأخلاق ... أو نقصا في الفعالية الاجتماعية للفكرة الدينية، و أنّ هذه الفكرة تظلّ مواصلة لنقصانها منذ أن دخلت منعطف العقل -لأن العقل لا يملك السيطرة على الغرائز و عند ما يبلغ هذا

([1])- مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، ص:42.
([2])- مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص:71.
([3])- مالك بن نبي، **وجهه العالم الإسلامي**، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان، 200م، ص:29.
([4])- مالك بن نبي، **شروط النهضة**، مصدر ساسبق، ص: 76.
([5])- **نفس المصدر**، ص:78.

التحرّر تمامه، يبدأ الطور الثالث من أطوار الحضارة. طور الغريزة التي تكشف عن وجهها تماما. و هنا تنتهي الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدينية التي تصبح عاجزة عن القيام بمهمتها تماما في مجتمع منحل يكون قد دخل نهائيا في ليل التاريخ و بذلك تتم دورة التاريخ..>> [1].

إنّ انهيار العقل و فقدانه لقوة السيطرة على الحياة يفتح الطريق للمفاسد الأخلاقية التي تعمل بالقضاء على القيم الأخلاقية للمجتمع، و هذه النقطة الحساسة في حياة الأمة أشار إليها العلامة **ابن خلدون بقوله:** <<من مفاسد الحضارة أيضا الانهماك في الشهوات و الاسترتال فيها لكثرة الترف، فيقع التفنن في شهوات البطن من المآكل و الملاذ و المشارب و طيبها، و يتبع ذلك التفنن في شهوات الفرج بأنواع المناكح، من الزنا و اللواط..>> [2].

و هكذا عندما يضعف الإيمان الذي ينجرّ عنه أيضا ضعف في العقل تجد الغريزة مرتعها و يتحوّل الإيمان الحقيقي إلى إيمان رهبان فيقطع الناس صلاتهم بالحياة، يتخلون عن واجباتهم، و مسؤوليتهم، كأولئك الذين لجأوا إلى صوامع المرابطين منذ عهد ابن خلدون>>[3].

إن ضعف العقل إلى جانب ضعف الإيمان يدفع المجتمع إلى السقوط في حالة اللاواعي، هذه الحالة التي تؤذن بانهيار الحضارة رغم أن الأمة تملك من الثروات الطائلة و التعداد البشري الهائل، و ربما كما يقول مالك بن نبي: <<هذه الثروات هي الحالة التي أشار إليها **رسول الله صلى الله عليه و سلم** حين قال: يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟، قال: بل أنتم كثير، و لكنكم كغثاء السيل و لينزعنّ الله من قلوب أعدائكم المهابة، و ليقذفنّ في قلوبكم الوهن، و ما الوهن يا رسول الله؟ قال حبّ الدنيا و كراهية الموت>>[4].

3.3الدين كمركب للحضارة: لقد لاحظنا سابقا أن مالك **بن نبي** عند تعرضه لمرحلة الروح كيف وضّح عامل الدين في بعث الحضارة و استمرارها، إلا أنه يرى أيضا أن أي حضارة إنسانية لا يمكن أ، تبعث إلا إذا توفرت فيها ثلاث عناصر جوهرية و هي:

1. الإنسان.
2. التراب الذي يمثل الشروط المادية.
3. الوقت الذي يجب أن يستغله الإنسان في الإنتاج.

([1])- مالك بن النبي، **شروط النهضة**، ص:69-70.
([2])- ابن خلدون، **المقدمة**، ص:665.
([3])- مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ص:144.
([4])- مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**، ص:39.

و هذه العناصر الثلاثة حسب منظور "مالك بن نبي" تشكل فيما يسمى بالإرادة الحضارية و الإمكان الحضاري. فالإرادة الحضارية تتعلق بالإنسان كذات مريدة، و الإمكان الحضاري يتمثل في الشروط المادية التي هي التراب، ثم الوقت الضروري للإنتاج باعتباره ساعات العمل.

و باعتبار"مالك بن نبي" ينزع النزعة العلمية في تفسير الظواهر، فقد صاغ مكونات الحضارة في المعادلة التالية:

إنسان + تراب + وقت = حضارة[1].

و هكذا،فمشكلة الحضارة تتشكل في ثلاث مشكلات أولية، هي: مشكلة الإنسان و مشكلة التراب و مشكلة الوقت.

1-مشكلة الإنسان:

إنّ مشاكل الإنسان في هذه المعمورة تختلف باختلاف البيئات التي يعيش فيها و لذلك فوزنه في الحياة يظهر من خلال تأثيره في البيئة و الطبيعة و المجتمع في آن واحد، هذا التأثير الذي يخضع من خلال ثلاث مؤثرات رئيسية هي: (الفكر، العمل، المال).

أ-توجيه الفكر:

إنّ الثقافة تعتبر الجوهر الأساسي في بناء الحضارة، و التوجيه الثقافي السليم هو الذي يراعي عناصر الثقافة المتمثلة في:

1. التوجيه الخلقي.
2. التوجيه الجمالي.
3. المنطق العلمي.
4. الصناعة.

و المجتمع إن عمل بهذه التوجيهات فإن العنصر الأول (الإنسان) من عناصر تركيب الحضارة، يكون إيجابيا في بناء الحضارة بالاعتماد على العنصرين: (التراب و الوقت).

ب-توجيه العمل:

و يقصد به سير الجهود الجماعية لكافة أفراد المجتمع في اتجاه واحد، و يجب أن يكون التوجيه المنهجي للعمل شرطا عاما أولا، ثم وسيلة لكسب العيش بعد ذلك[2].

وة يعني هذا إن المجتمع الذي يرغب في إنشاء الحضارة يجب أن يهتم في المقام الأول بالتوجيه العملي، ثم يكون بعد ذلك التوجيهفي العمل من أجل كسب العيش، و

([1])-مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص: 45.

([2])- مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص:163-166.

معنى هذا أن العمل شرط أساسي ليس فقط لكسب العيش بل عملية ضرورة تقدم المجتمع.

ج-توجيه رأس المال:

يرى مالك بن نبي أن الوضع في العالم المتخلف قد أصبح تحديد رأس المال فيه يتمثل في كونه آلة اجتماعية تنهض بالتقدم المادي، و ليس آلة سياسية في يد فئة رأسمالية[1].

و لهذا فتوجيه رأس المال في هذه الدول لا يتصل بالكم فحسب، بل بالكيف، فالأفضل أ، يكون المال منتقلا حتى يخلق العمل و النشاط، أما الكيف فيأتي في المرحلة الثانية بعدما يأخذ المجتمع مستوى معينا من النمو الحضاري[2].

إنّ توجيه رأس المال قصد بناء الحضارة، لا يتطلب في كل الأحوال كمية عظمى من المال، بل يتطلب قبل كل شيء كيفية تسيير ما توافر للمجتمع من المال، و لذلك فإن رأس المال الحقيقي هو (الإنسان)، ثم أنّ رأس المال و العمل منوطان بالإنسان الذي يعمل على مضاعفة الإنتاج بفضل توجيهاته الثقافية.

إن ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية لم تكن لديها من الثورة إلا قدرا ضئيلا مقارنة بالدول الأخرى، إلا أنها استطاعت بفضل الإنسان الذي توافرت فيه شروط العمل أن تصعد في سلم الحضارة بعد زمن قليل[3].

2-مشكلة التراب:

إن البحث في مشكلة التراب ليس في خصائصه، و إنما من حيث كونه قيمة اجتماعية، و كونه عاملا مهما في بعض الحضارة.

إن التراب مادة جامدة لا تأخذ في الحركة إلا إذا حركتها سواعد بشرية موجهة توجيه علميا، إن الواقع يبيّن كيف أن الإنسان الياباني طوع الطبيعة لصالحه، في حين أن أندونيسيا تملك من العوامل الطبيعية ما يجعلها أرقى الدول إلا أنها بقيت دولة متخلفة، إن السبب هنا يرجع إلى موقع الإنسان تجاه عنصر التراب، و ليس إلى تركيب التراب.

3-مشكلة الوقت:

إن ما يقصد بالوقت هنا قيمته الإنسانية، و ليس الزمن المطلق، لقد استطاعت "ألمانيا" أن تسترجع قوّتها و عظمتها بعد الحرب العالمية الثانية في وقت قصير، السبب في ذلك يرجع إلى كون الإنسان الألماني عمل على التحدي من خلال مضاعفة الإنتاج و تقديس العمل و ابتعاده عن التقاعس و الإهمال.

([1])-مالك بن نبي، **شروط النهضة** ، ص:167.
([2])- **المصدر نفسه**، ص: 170-171.
([3])- عكاشة شايف، **الصراع الحضاري في العالم الإسلامي**، ص:122.

إذا، و النهضة الإسلامية قبل كل شيء انطلقت منذ مبدأ تقديس الوقت، و قد لاحظنا .... كيف أنّ أحد المسلمين كان يحمل صخرتين أثناء بناء المسجد، عوض أن يحمل صخرة واحدة، و هذا شيء يدل على مدى إدراك المسلم لقيمة الوقت.

و إذا كانت الأمم في شتى أنحاء المعمورة تتكون من أفراد و كلها تملك ترابا بنسب متفاوتة و أن الوقت ملك للجميع فكيف للحضارة أن لا تتركب تلقائيا بنسب متفاوتة، و أن الوقت ملك للجميع فكيف للحضارة أن لا تتركب تلقائيا عفويا؟

للإجابة على هذا السؤال لابد من التعرض إلى عامل آخر ألا و هو:

4-العمل الأخلاقي:

إنّ ما يقصد بالعامل الأخلاقي هو ذلك المبدأ الذي يتشبث به أفراد المجتمع و يعتصمون به، و هذا المبدأ قد يكون فكرة دينية مقدسة تؤلف بين أفراد المجتمع، و قد تكون مشروعا معينا يستحوذ على عقول أفراد المجتمع، كالفكرة الماركسية في المجتمع الشيوعي.

و قد أرجع "مالك بن نبي" هذا المركب إلى الفكرة الدينية التي تعد مركب جميع أنواع الحضارات الإنسانية على اختلاف الأجناس، فالماء يتكون من ذرتين من الهدروجين و ذرة من الأكسجين، و لكن عند محاولة تركيبه لا يكفي أن نجمع هذه المكونات إذ لا بد شيء مركب للماء[1].

و هذا الأمر ينطبق على ظاهرة الحضارة، إذ أنه لا يكفي أن نضع ثروات و أموال طائلة بين شعب و نطلب منه بعث حضارة، لأنه يفتقر إلى ما يطلق عليه (مركب حضارة) أي العامل المؤثر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض[2]، العناصر الثلاثة التي توصل إليها مالك بن نبي و هو يحلل مكونات الحضارة لا يمكن أن تتركب في تشكيل الحضارة، بل لابد أن تتحول هذه المكونات إلى شيء جديد بفعل "**مركب** " ألا و هو "الدين".

قد انطلقت الحضارة الإسلامية من **الفكرة الدينية** التي طبعت الفرد بطباعها الخاص، و عملت على توجيهه نحو غايات سامية و نبيلة، غير أن تأخير مولد الحضارة المسيحية عن الحضارة الإسلامية، و رغم أن الفكرة المسيحية سبقت الفكرة الإسلامية إلى الوجود، فإن السبب برأي مالك بن نبي يرجع إلى أن الفكرة الدينية في المجتمع المسيحي في مرحلة ما قبل التحضّر، كانت فكرة صورية لم تنزل إلى الأرض إلا بعد الحضارة الإسلامية بوقت طويل، بينما نجد أن الفكرة الدينية في الحضارة الإسلامية قد نزلت إلى الواقع و لم يصل بها الوقت في برجها الروحي، و يرجع ذلك إلى أسباب عديدة منها: أن الفكرة المسيحية وجدت في مناخ تسيطر عليه مجموعة من الأفكار الأخرى، في حين وجدت الفكرة الإسلامية فراغا في المجال

(1)- مالك بن النبي، **ميلاد مجتمع**، ص: 96.
(2)- مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص45-46.

الديني مما يسهل لها أن تنفذ بسرعة في قلوب المسلمين و عقولهم[1]، و الفكرة الدينية هي مجرد دافع أولي لنهضة المجتمع، فالحضارة الإسلامية قد خرجت من عمق النفوس قوة دافعة إلى سطح الأرض، و أخذت تتغلب على جاذبيتها بما تبقى لديها من مخزون روحي، حتى وصلت إلى الأرض حيث يظهر دور العقل مكان الروح[2].

هذا، و يستمر الإنسان في بناء حضارته، و هو متمسك بالعقل الذي استمده من المركب الأساسي للحضارة، إلى أ، يضعف المركب الديني فيبدأ العقل يتعرّض شيئا فشيئا للغرائز ثم يخضع لها في النهاية[3].

إنّ المركب الديني يعد العنصر الأساسي لتكوين شبكة العلاقات الاجتماعية إذ أن "جميع القوانين التي أملها السماء، و وضعتها محاولات البشر هي في حقيقة الأم إجراءات دفاعية لحماية شبكة العلاقات الاجتماعية و بدونها لا تستطيع الحياة الإنسانية أن تستمر أخلاقيا و ماديا"[4].

4.3 منهج مالك بن نبي في فلسفة الحضارة وأهم مراحل فكره.

1.4.3منهج البناء الحضاري.

1.1.4.3تشخيص واقع التاريخ الإسلامي:

اهتم **مالك بن نبي** بالإصلاح و التغيير عندما لاحظ ما أصاب العالم الإسلامي من تخلف و انحطاط و ما تعرضت له بلاده من احتلال و تمزق و ركود و استغلال و انهيار، و من تفنن في مسخ الشخصية الوطنية الإسلامية، و تشويه للقيم الحضارية في غفلة من أبنائها الذين تخلوا عن دورهم في الدفاع عن وجودهم و كيانهم.

لقد كان هناك من الثائرين الذين هبّوا لاسترجاع الدور المسلوب، و عملوا ما استطاعوا في مجال النهضة و صنع الثورة، و لكن مالك بن نبي أراد أن يسلك طريقة آخر لاستكمال هذه الجهود، و عرف منذ البداية أين يضع خطاه، فلم يغتر لزيف المادية الغربية رغم أنه درس في فرنسا و قبلها في الجزائر قبل أن تبدأ ثورة التعريب مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

لقد كانت الأصالة و المعاصرة الحلقة الأساسية، و التجديد و الثورة منطلقهما، و أن أي مشروع ثوري لا يكتب له النجاح في نظره ما لم يمر من خلال الثوابت التي حددها الإسلام.

و تأسيسا على هذا المنحى استعاد مالك بن نبي الأحداث الكبرى، و القضايا الرئيسية في تاريخ الإسلام، محللا و مستخلصا العبر و الدروس، لأن في تاريخ الشعوب من العبر ما يساعد على تفادي الثغرات في المستقبل.

([1])- مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص:81-82.
([2])- **المصدر نفسه**، ص: 78.
([3])- عكاش شايف، **الصراع الحضاري في العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص:126.
([4])- مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**، ص:88.

إن الواقع الديني قبل رسالة الإسلام في الجزيرة العربية كان يطلق عليه العصر الجاهلي، و في هذه الفترة لم يعرف العرب بدقة اليهودية و المسيحية، إذ أن "سلوك الحنفاء الصوفي لم يمتد نحو الأخلاق المسيحية أو الشريحة الموسوية، بل كان نظاما فرديا فطريا بسيطا"[1].

إن ما يشير إليه مالك بن نبي في قوله هذا، هو تأثير اليهودية و المسيحية بحكم اعتناقهما أن بعض سكان الجزيرة العربية، و معرفة الكثير من أحكامها عند الاختلاط الناجم عن مرور القوافل التجارية، غير أن التأثير لم يكن سهلا، بحيث يغيّر نظام حياة العرب و سلوكهم بنفس فاعلية الحنفية، و لذلك يعود **مالك بن نبي** فيقول: "و كان الطابع الإبراهيمي[2]. -فيما يبدو- ظاهرا بقدر في البيئة الجاهلية و في ذلك العصر، إذ كان ينبع هنا و هناك حنيفي، و لكن هذا الطابع كان تقليديا عربيا محضا، لا يمت بصلة إلى التفكير اليهودي المسيحي الذي كان تياره الروحي قد نشأ قبل ذلك بزمن طويل مع الحركة النبوية الإسرائيلية الأولى، أي مع موسى عليه السلام"[3].

نشأ الرسول صلى الله عليه و سلم في هذا الجو الذي كان يسود الجزيرة، و في تلك الحقبة كان البيزنطيون و الفرس و الأحباش يسيطرون على باقي الأرض العربية، ففي هذه الحقبة المتصفة بعبادة الأوثان شاء الله أن يبعث نبيا داعيا و منذرا، فكانت إعادة الاعتبار للكعبة، ليذكر في مكة من جديد اسم الله تعالى، بعد أن تحولت الكعبة إلى مكان تبعدفيه الأصنام.

لقد بدأت الدعوى مع وعد الله **لمحمد صلى الله عليه و سلم**و من معه بالنصر، و واجه المسلمون مع نبيهم ما واجهوا، حتى أتى الإذن بالهجرة التي تعد تطورا جديدا و منعطفا هاما في تاريخ الإسلام.

يقول مالك بن نبي "الهجرة في الفجوة التي تفصل زمن تبليغ الدعوى فحسب،- عن زمن الانتصارات الحربية و السياسية التي فتحت للإمبراطورية الإسلامية الفتية باب التاريخ"[4].

يمكن أن يطرح من تساؤل حول قول مفكرنا هو كيف يصف الدولة الإسلامية بالإمبراطورية الفتية مع أنه ينتقد هذا المصطلح في أكثر من موقع، إذ يعتبر هذه الفكرة غريبة النشء و لذلك كيف يلصقها بالإسلام؟ ثم لماذا يعد ما قبل الهجرة زمنا للدعوة و ما بعدها انتصارات سياسية حربية؟ مع أن الدعوى انفتحت أمامها آفاق جديدة بعد هذه الانتصارات و في مناطق كثيرة دخل الإسلام مع دعاة كانوا تجارا، أو رحالة بقصد العلم، دون أن تدخل هذه البلدان تحت حكم الدولة الإسلامية.

([1])- مالك بن نبي، **الظاهرة القرآنية**، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق، دار الفكر، الطبعة 4، سنة 1978م، ص:11.

([2])- نسبة إلى إبراهيم الخليل عليه السلام، لقب خليل الله، و يعدّونه جد العرب عن طريق ابنه إسماعيل، فهو أحد الأنبياء الذي أذعن لأمر ربه عندما طلب منه تقديم ابنه ضحية. و هو الجد الأعلى **لمحمد صلى الله عليه و سلم** ذكرت قصته في القرآن غير مرة، و أن قومه عبدوا الأوثان التي كان أبوه ينحتها فحاجبهم في أمرها، و لما لم يمتثلوا قام بكسرها، فأوقدوا نارا لإحراقه فنجاه الله منها.

([3])- مالك بن نبي، **الظاهرة القرآنية**، ص:115

([4])-مالك بن نبي، **المصدر نفسه** ، ص:109.

إن الإسلام كان من أجل الإنسان، **و النبي صلى الله عليه و سلم** أرسل رحمة للعالمين، لتنظيم المجتمع الذي يحفظ حقوق الإنسان، كان العمل الأول في جماعة دانت بالإسلام، مع الهجرة حدثت النقلة النوعية الأولى في اختيار صلاحية الإسلام للتطبيق في مجال الثورة الاجتماعية التي تمس جميع مناحي الحياة. و كذلك فإن "شبكة العلاقات هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع الإسلامي. هو الميثاق الذي يربط بين الأنصار و المهاجرين، و كانت الهجرة نقطة البداية في التاريخ الإسلامي، لا لأنها تنفق مع عمل شخصي قام به **النبي صلى الله عليه و سلم** و لكن لأنها تتفق مع أول عمل قام به المجتمع الإسلامي، أي مع تكوين شبكة علاقات الاجتماعية"[1].

إن ما كان يحكم العلاقات الاجتماعية و يربط بعضها ببعض بالمدينة و هو الروح القرآنية التي عملت على تنظيم و ضبط نمط لسلوك المسلمين، و فرض نظام التآخي الذي يكون دافعا ذاتيا للسلطة. و هذه الروح القرآنية هي التي استمرت فاعلة في ذلت المسلمين، فكانت إنجازات الإسلام بعد الهجرة و حتى نهاية الخلافة الراشدة عظيمة.

.... أن قرب الفترة من الجاهلية، و وراثة بعض مفاهيم البيزنطيين و الفرس كان حدثا سياسيا جديدا تمثل في نقض البيعة التي انتقلت فيها خلافة المسلمين إلى الإمام علي **(رضي الله عنه)**، بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان **(رضي الله عنه)** و المحطة الفصل في ذلك .... كانت وقعة صفين (*) [2].

مالك بن نبي يرد الانهيارات الحضارية التي مهدت الطريق للمستعمرين على امتداد التاريخ الإسلامي حتى اليوم إلى ما حصل في تلك الواقعة، و ما نتج عنه. و في تحليله لواقع هذه الفترة المؤلمة يقول: "لم يكن الانقلاب فجائيا، إذ هو النهاية البعيدة للانفصال الذي حدث في صفين، فأحل السلطة العصبية محل الحكومية الديمقراطية **الخليفية**(*)، فخلق بذلك هو بين الدولة و بين الضمير الشعبي، و كان ذلك الانفصال يحتوي في داخله جميع أنواع التمزق و المناقضات السياسية المقبلة في قلب العالم الإسلامي"[3].

لقد كانت النتيجة بعد **صفين** محزنة، حيث فتحت أبواب الصراعات الداخلية، و بدل أن تصرف الجهود إلى استكمال الدعوى و إيصالها إلى بلاد جديدة، كانت أول ثغرة نفذ منها الأعداء، فوجهت طعنة إلى تلك الروح القرآنية التي بنيت على أساسها شبكة العلاقات الاجتماعية في أول دولة أسسها الرسول صلى الله عليه و سلم في المدينة[4].

([1])- مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**، تر/عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سنة 1974، ص:25.

(*) مكان بالقرب من شاطئ الفرات، دارت فيه معركة بين الخليفة المسلم الإمام علي و من وقف معه في البيعة، و بين والي الشام معاوية و أتباعه الذين خالفوا الإجماع و ذلك سنة 36 للهجرة (657م) أنظر: د/أسعد السحمراني، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، ص:74.

([2])-د/أسعد السمحراني، **مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا**، دار النفائس، ط1، سنة 1984، ص: 74.

(*) **الخليفية** يبدو أنه يقصد بهذا المصطلح نظام الشورى الإسلامي.

([3])- مالك بن النبي، **وجه العالم الإسلامي**، تر/ عبد الصبور شاهين، دار الفكر بيروت، دار الفكر دمشق، سنة 1986، ص:36.

([4])- د/أسعد السمحراني، **مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا**، مرجع سابق، ص:75.

و بعد انتقال الحكم إلى الأمويين بدأ أول انفصال بين الدولة و القائمين عليها، و بذلك "عرف هذا العالم أول انفصال في تاريخه في معركة صفين عام 38 للهجرة، و إذا كان يحمل بين جنبيه بعد قليل من سنوات ميلاده تعارضا داخليا، كانت "حمية الجاهلية" تصطرع مع "الروح القرآنية" فجاء معاوية رضي الله عنه فحطم ذلك البناء الذي قام، لكي يعيش ربدا إلى الأبد، بفضل ما ضمّنه من توازن بين عنصر الروح و الزمن.

و منذ ذلك الانفصال الأول فقد العالم الإسلامي توازنه الأولى، على الرغم من بقاء الفرد المسلم متمسكا في قرارة نفسه بعقيدته التي نبض بها قبله المؤمن"[1].

إن ما ذكره **مالك بن نبي** ليس جديدا، فهو الصورة المعبرة عن مجريات الأحداث التاريخية قبل صفين و أثنائها حيث استعان معاوية بن العاص و حيلته بعد أن أوفد إليه الإمام علي جرير يعلمه بضرورة الالتزام بالإجماع الإسلامي الحاصل لخلافة الإمام، فرفض معاوية، و كان ذلك نذير انفصال تبعته إراقة لدماء المسلمين في معركة صفين. و ازداد الأمر سوءا باستغلال قيمة كتاب الله و أثره في نفوس المسلمين من قبل معاوية و ابن العاص، حين دارت الدائرة عليهم فرفعوا المصحف الشريف على رؤوس رماحهم طالبين التحكيم، و ازداد التعبير عن الانفصال في حيلة ابن العاص مع الأشعري الذي افترضه صادقا فيما يقول، و كانت النتيجة اغتيال الإمام علي، الستار الذي أسدل على تلك الواقعة الانفصالية في التاريخ الإسلامي، و لكن منهج معاوية و ابن العاص لم يتحول إلى منهج مؤثر في نفوس معاصريهم، ما عدا بعض المستفيدين من تلك القفزة نحو الماديات دون أي اهتمام بالتوازن مع الأخرويات، إذ أن الإسلام شدد على مسألة التوازن بين الروح و المادة و الجانبين الأخروي و الدنيوي[2].

و لهذا يمكن القول "أن العالم الإسلامي لم يغو على البقاء خلال تلك الأزمنة الأولى و بعدها إلا بفضل ما تبقى فيه من دفعة قرآنية حيّة قوية، و يرجع سر تماسكه إلى أمثال عقبة بن نافع و عمر بن عبد العزيز، و الإمام مالك رضي الله عنهم أجمعين... تلكم هي الفضائل: احتقار مجد حان موعده و رفض سلطة لا تقوم على حق، و تحد يجاب به ظالم باغ، و هي التي حفظت في العالم الإسلامي سر الحياة الذي أودعه فيه القرآن"[3].

بعد هذه المحطة التي تجلت في الوقفة الشجاعة للمسلمين بفضل ما تبقى من يقظة ضمير، و من دفعة إيمانية ساعدتهم على إعطاء نتاج حضاري في مختلف دروب المعرفة، جاء الحديث التاريخي الأهم الذي يؤرخ له مالك بن نبي بعد ذلك و هو سقوط دولة الموحدين التي ظهرت بعد عام 1147م.

([1])- مالك بن نبي، **وجهه العالم الإسلامي**، مصدر سابق، ص:29.
([2])- د/أسحدالسمحراني، **مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا**، مرجع سابق، ص:75-76.
([3])- مالك بن نبي، **وجهه العالم الإسلامي**، مصدر سابق، ص:30.

لقد رأى (**محمد بن تومرت المهدي**) (1087-1130) الزعيم الروحي لهذه الدولة فساد الوضع الاجتماعي و الديني، فحز في نفسه ذلك و قرّر أن يقوم بحركة إصلاح تهدف إلى إحياء الدين و تغيير الواقع السياسي و الاجتماعي، و القضاء على البدع و الضلالات.

و إذ كانت دولة الموحدين قد أعادت للمغرب اعتباره، و أعطته دفعة إصلاحية قرآنية جديدة، إلا أن ذلك لم يدم طويلا. و لهذا فإن إشارة **مالك بن نبي** إلى ما حدث مع سقوط دولة الموحدين يعد ضروريا، ذلك أن الدفعة الروحية التي حاولت هذه الدولة بعضها، لم يكتب لها الاستمرار، إذ يعد ما حصل "في حقيقته سقوط حضارة لفظت آخر أنفاسها، ثم يبدأ تاريخ الانحطاط بإنسان ما بعد الموحدين... ذلك أن النقائص التي تعانيها النهضة الآن، يعود وزرها إلى ذلك الرجل الذي لم يكن طليعة في التاريخ"[1].

إن إنسان ما بعد الموحدين الذي لم يأخذ دوره الطلائعي التاريخي، فتحت أبوابا لأطماع قوى كثيرة كانت تتربص بالعالم الإسلامي، كي تعبث و تدخل إلى عمق الواقع الحضاري العربي و الإسلامي، انطلاقا من المغرب العربي، لتبدأ عملية الغزو و الهيمنة بكل أبعادها؟

غير أن هذا لم يكن ليحدث، لو قام العرب و المسلمون بدورهم الريادي، و تفادوا ظاهرة الانشقاق و التناحر مع بعضهم.

و لذلك يرى **مالك بن نبي**: "أنه إذا وهنت الدفعة القرآنية توقف العالم الإسلامي كما يتوقف المحرك عندما يستنفذ آخر قطرة من الوقود، و ما كان لأي معوض زمني أن يقوم خلال التاريخ مقام المنبع الوحيد للطاقة الإنسانية، ألا و هو: الإيمان و لذا لم تستطع "النهضة التيمورية" الذي ازدهرت في القرن الرابع عشر حول مغاني سمرقند، أو الإمبراطورية العثمانية، أن تعطي كلاهما العالم الإسلامي "حركة" فهو لم يعد في ذاته يملك مصدرها"[2].

و هكذا، يرى مالك بن نبي من خلال هذا التوجه الواضح أن فقدان الطاقة الإيمانية، و قلة التفاعل مع روحانية الإسلام أضعف عامل التطور، فضعفت النفوس و تبددت طاقاتها، حيث النهوض يتطلب انبعاثا داخليا، و لكن ضعف الإيمان داخل الذات هو أحدث ذلك الخلل، إن الركود في المجتمع الإسلامي.

يقول "**مالك بن نبي**": "و منذ ذلك العصر كان المسلم ينزلق على سطح الأشياء دون أن يغور من خلالها، و يمر بجانب الأفكار دون أن يتعمقها، لأنه لم تعد له علاقة بهذه أو تلك، فلم يعد ينتج عن لقائه بالحياة الاجتماعية تلك الصدمة القوية التي تغير أسلوبها كما تغير سلوكه"[3].

([1])-مالك بن نبي، **وجهه العالم الإسلامي** ، ص:36-37.

([2])- مالك بن نبي، **وجهه العالم الإسلامي**، مصدر سابق، ص:31.

([3])- مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**، تر/عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط الرابعة، سنة 1974، ص:48.

لقد أصاب العجز نفس الإنسان العربي المسلم، فأصبحت غير قادرة على أن تتفاعل مع الإسلام الذي يمنح الطاقات الخلاقة و المبدعة، و هذا العجز الذي أصاب الأمة الإسلامية وضحه مالك من خلال عقده لمقارنة بين حديث النبي صلى الله عليه و سلم و الواقع الذي تعيشه الأمة من ضعف و انحدار، يقول رسول الله صلى الله عليه و سلم "مثل ما بعثني الله عز و جل به من الهدى و العلم كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضا فكانت منها بقعة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ و العشب الكثير، و كانت منها بقعة أمسكت الماء فنفع الله عز و جل بها الناس، فشربوا منها و سقوا و زرعوا: و كانت منها طائفة قيعان لا تمسك الماء و لا تنبت كلأ"[1].

و يرى **مالك بن نبي** أن هذا النص يتضمن تدرجا من الأعلى إلى الأدنى في تصوير علاقة الفرد و المجتمع بالعلم، و لذلك فهو ينطبق تماما على ما تعيشه الأمة الإسلامية، إذ "أن المجتمع الإسلامي في عصر الفارابي كان يخلق أفكارا، و أنه كان على عهد ابن رشد ..... إلى أوروبا، و أنه بعد ابن خلدون لم يعد قادرا على الخلف و على التبليغ"[2].

إن التحليل الذي قدمه **مالك بن نبي** للحديث النبوي الشريف، في معالجة الواقع الفكري للمجتمعات عبر التاريخ، يشبه ما قام به المفكرون من نقد لتاريخ الصيرورة الفكرية من حيث الحركة و الجمود.فبعض المفكرين يرون أنه يجب أن تبدأ بداية تأريخ الفكر البشري انطلاقا من القرن السادس قبل الميلاد، و ذلك في رأيهم أن العقل بدأ يسترجع قوته و يجمع شتاته مع اليونان، أما ما قبله فكان الفكر جامدا متحجرا لم يقو على الحركة.

و لهذا فإشارة **مالك بن نبي** إلى انطلاقة الفكر مع الفارابي حيث عاش هذا الفيلسوف المسلم فترة التأثر بالحضارة الإغريقية و ما جادت به قرائحها، و أن الحضارة الغربية إنما استفادت من أعمال ابن رشد، لكن هذا الإنتاج الفكري، و هذا الإبداع الحضاري إنما توقف، بل أصابه الشلل بمجيء عصر **ابن خلدون**. فرغم علانية و ريادة هذا العالم المسلم، إلا أن أفكاره الاجتماعية و العمرانية لم تجد صدى بسبب جدب المناخ الذي كان يعيش فيه.

و ما يمكن الإشارة إليه هنا، هو أن الإسلام الذي وفر مناخا لمعتنقيه أو للذين عاشوا في ظلال حكمه عامة لم يعرف الإكراه، و هذه السمة أعطت ثمارا في الفكر الإسلامي، و لكن بنسب متفاوتة و في هذا يقول **مالك** "أن المناخ العقلي الجديد، الذي تمتع به المجتمع الإسلامي عندما كان القدوة و النموذج في العالم ما كان يعرف الإكراه كوسيلة قمع للفكر و لحرية الرأي"[3].

من هذا التحليل الذي يقوم به **مالك بن نبي** يهدف من ورائه إلى توضيح الرؤية للأسلوب الإسلامي، و ما يتميز به من منهجية تقوم على الفاعلية و التفاعل مع

([1])- مالك بن نبي، **المصدر نفسه** ، ص:49.

([2])-مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة** ،ص49.

([3])- مالك بن النبي، **إنتاج المستشرقين**، القاهرة، مكتبة عمار للطباعة و النشر و التوزيع، سنة 1970، ص:42.

الإنسان قصد الوصول إلى الحقائق الكونية، بما فيها وضع الإنسان في هذا الوجود، و ذلك مقابل الأسلوب الغربي الذي يقمع الحريات و يكبل إرادات الشعوب، و المثال على ذلك ما حدث في الجزائر و غيرها من الدول التي كانت تحت نير الاستعمار.

فإن التخلف الذي حصل في رأي **مالك بن نبي** سببه روح الفردية، حيث أن "الأمم التي لها تجربة في ميدان الكفاح السياسي تعلم أن أكبر مواقفها في التاريخ، هي المواقف التي ..... ما يسميه العرف (الوحدة المقدسة)" [1].

و لهذا فالشمول و الجماعة هما طريق الانتصار، بينما الجزئية و التفتت هما سبب الهزيمة، و هذا قانون عام لأي معركة "تصاب بالتدهور و الانحطاط الإيديولوجي" إننا نجد في تاريخ الإسلام ملامح هذا التدهور الروحي الذي يقود حتما إلى التدهور السياسي... إن واقعة صفين فصمت الوحدة الشاملة التي بناها الرسول صلى الله عليه و سلم بأمر من ربه فحطت بذلك من مستوى المعرفة التي بدأت يوم بدر، و هذا الأفول الإيديولوجي لم يلبث أن أتى بنتائجه المشؤومة في الميدان السياسي"[2].

و هكذا، فإن **مالك بن نبي** كان محقا في قوله، لأن الله تعالى نهانا عن التفرقة و التفرد و أمرنا بإتباع الجماعة، لأن في الوحدة قوة و مناعة، و في التفكك و التنابذ قضاء على الروح القرآنية قال تعالى: **"وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبْ رِيحُكُمْ"**[3].

إن **مالك بن نبي** و بعد أن مرت سنوات طويلة تفصلنا عن الواقع العربي الإسلامي عن صفين و عن دولة الموحدين، يدعونا إلى ضرورة تشريح الواقع بكل موضوعية و أن نعرف بدقة العثرات و الأسباب التي أدت إليها، كي نعرف الأفكار السائدة بدقة، و بذلك نميّز بين الصالح و الطالح، و الأصيل من الدخيل، و الحقيقي من الزائف، لأن الأفكار في العالم العربي الإسلامي بحاجة إلى تنقيتها و غربلتها بفعل ما تعيشه من تناقضات عبر التاريخ، و لذلك لابد من وقفة شجاعة لصوغ نظرية جديدة لأن "العالم الإسلامي اليومي خليك من بقايا موروثة عن عصر ما بعد الموحدين، و إجلاب ثقافة حديثة جاء بها تيار الإصلاح، و تيار الحركة الحديثة، و هو خليط لم يصدر عن توجيه واع أو تخطيط علمي، و إنما هو مجموعة من رواسب قديمة لم تصف من طابع القدم، و من مستحدثات لم يتم تنقيتها... عالم متضارب منطو على ألوان التناقض و التنافر التي تجمعت و تراكم في هيئة فوضى"[4].

هذا التناقض برأيه ولد الضياع و الفوضى و العشوائية، و تحول العطاء إلى صراخ باللجوء إلى الآخرين، دون أي وازع أخلاقي.

إن الفرد من خلال هذا الوضع تحولت القوة إلى ضعف! فسارعت الأمم الطامعة اتجاه العالم العربي و الإسلامي لاستنزاف خيراتها و القضاء على مقوماتها.

([1])- مالك بن نبي، **الصراع الفكري في البلاد المستعمرة**، دار الفكر المعاصرة، لبنان، الطبعة الثالثة، 1988، ص:41.
([2])- **المصدر نفسه**، ص42.
([3])- **سورة الأنفال**، الآية:46.
([4])- مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، مصدر سابق، ص:77.

إن الذي ساهم في عامل الركود هو انعدام "الفاعلية التي وصمت بها نزعة المديح، فحين اتجهت الثقافة إلى امتداح للماضي، أصبحت ثقافة أثرية، لا يتجه العمل الفكري فيها إلى الأمام، بل ينتكس إلى الوراء، و كان هذا الاتجاه الناكص المسرف سببا في انطباع التعليم كله بطابع تقليدي، لا يتفق و مقتضيات الحاضر و المستقبل، و بذلك أصبحت الأفكار بظاهرة الانغلاق في الماضي، كأنما قد أصبحت متنفسا له"[1].

2.1.4.3كيف نفهم الإسلام؟

أ) إشكالية فهم الإسلام:

لا شك في أن أصحاب الحركات الإصلاحية و دعاة التجديد الإصلاحي مطالبون بالتوقف أمام هذه الإشكالية، لأن سوء فهم الإسلام و نقله من الجانب العقيدي الروحي إلى الجانب التطبيقي الاجتماعي لا يزال في حاجة إلى دراسة و تعمق.

إن "علاقة المسلم بالإسلام علاقة مزدوجة، هي روحية اجتماعية، فالعلاقة الروحية قوية و سليمة لا يمكن مسها باعتبارها يقينا مطلقا، لكن العلاقة الاجتماعية على العكس من ذلك أفسدتها الانشغالات المادية، التي تفرضها الحياة على كل مسلم، كما تمس غيره، و لذلك فهو مشغول بهموم العالم الإسلامي الذي يبدو له أن قدره مطبوع بالإسلام و تكوّن لدى المسلم تصور وجود علاقة سببية بين قدره الخاص و دينه، و ينتج هن هذا أنواع من النفاق في العلاقة الزمنية بين المسلم و الإسلام"[2].

هذا النفاق لا يسوغه الشرع، لأن الإسلام لا يغلب الجانب الروحي على المادي، و لا يغلب حل التكيف الروحي على حساب الجانب المادي، إذ لا يترك المسلم يواجه مصيرا منفردا، بل أن الإسلام أقام التوازن بين جانبي الروح و المادة، و شرع مسؤولية الفرد اتجاه الجماعة و العكس.

و بذلك فقد أرسى أساس النظام التكافلي، و لم تعرف الشرائع أو النظريات الفلسفية هذا النظام، و لما كانت العلاقة الروحية عند المسلم محلولة، وجب الاتجاه إلى حيث تكمن المشكلة باستثمار الطاقة الروحية و الاستفادة منها في منطق العمل و الحركة المنتجة، لأن منطق الفكرة موجودة في ذلت المسلم، و يبقى فقط القيام بعملية انعكاس لهذا المنطق في الميدان العملي الاجتماعي[3].

في هذه الحالة ينشط أفراد المجتمع الإسلامي، فيوفرون الإمكانيات المادية للفرد و في هذه الحالة ينتج نوع من التوافق الروحي و التأمين الاجتماعي في المجتمع، فيحصل التوازن المطلوب إسلاميا، و يلغى النفاق في العلاقة بين المسلم و الإسلام.

([1])- **المصدر نفسه**، ص:60.

([2])- مالك بن نبي، **فكرة الأفريقية الأسيوية**، في ضوء مؤتمر باندوغ، دار الفكر، ط1، القاهرة سنة 1957، ص:337.

([3])- د/أسعد السمحراني، **مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا**، مرجع سابق، ص:85.

و يوضح **مالك بن نبي** فكرة هامة هي أنه قد يقال: "أن المجتمع الإسلامي يعيش طبقا لمبادئ القرآن، و مع ذلك فمن الأصوب أن نقول أنه يتكلم تبعا لمبادئ القرآن، لعدم وجود المنطق العملي في سلوكه الإسلامي... إن الذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة، و لكن منطق العمل و الحركة، و هو لا يفكر ليعمل، بل ليقول كلاما مجردا، بل أكثر من ذلك يبغض أولئك الذين يفكرون تفكيرا مؤثرا، و يقولون كلاما منطقيا من شأنه أن يتحول في الحال إلى عمل و نشاط"[1]، مثل هذه الظواهر السلوكية التي ينتقدها **مالك بن نبي** إنما تبين فعلا عوامل جمود و تأخر المجتمعات العربية الإسلامية، غير أن أسباب وجود هذا النوع من السلوك لا يرجع إلى الإسلام، و لكن يرجع إلى جملة من المؤثرات التي خضع لها المسلمون في ظل حركة التاريخ التي فصلوا أنفسهم فيها عن الإسلام. لأن صورة المسلم القوّال غير الفعّال صورة مشوهة مذمومة في الشرع، و المسلم محاسب عن فعله هذا. قال تعالى: **"يَا أَيُهَا الَذِينَ أَمَنُوا لِمَا تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونْ"**[2].

إن الفهم الخاطئ للإسلام جرّ المسلمين تحويله إلى طقوس، مع أن الإسلام جاء بأصول ثابتة و حلول تعد ضوءا يستنير به الإنسان في وضع أطر نظرية منطقية، و هي الثوابت التي تضمن للإنسان حقه، و تدفع المجتمع إلى التقدم و تشيّ الحضارة.

و لهذا كان الاجتهاد ضروريا لاستنباط الأحكام من أجل الربط المتواصل بين مبادئ الإسلام و إيجاد الحلول لمشاكل الإنسان في كل العصور. غير أن إساءة فهم الاجتهاد أو محاربته ربما ضمانا للمصالح الشخصية أدى إلى تعميق المشكلة، و من هنا يمكن القول: "أن أزمة العالم الإسلامي منذ زمن طويل لم تكن في الوسائل، و إنما في الأفكار، و طالما لم يدرك هذا العالم تلك الحقيقة إدراكا واضحا، فسيظل داء الشبيبة العربية الإسلامية عضالا بسبب تخلفها عن ركب العالم المتقدم"[3].

1-تطهير الدين الإسلامي من البدع و الخرافات، و العمل على إحيائه، و الدفاع عند ضد أعدائه، و العمل على تحريره من الاستعمار في معالمه الثلاثة:

أ-المساجد.

ب-الأوقاف الإسلامي.

ج-القضاء الإسلامي.

2-التعليم العربي الإسلامي.

([1])- مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**، مصدر سابق، ص:87-88، و أنظر أيضا شروط النهضة، ص:132.
([2])- **سورة الصف**، الآية: 2-3.
([3])- مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**،مصدر سابق، ص:117.

3-الوطن الجزائري بكل تراثه الثقافي و الحضاري و التاريخي[1].

-إشكالية فهم الإسلام السوسيولوجي:

لقد قام دعاة الإصلاح بدور ريادي في معالجة قضية حساسة، تتمثل في مسألة تشويه فهم الإسلام، التي انعكست سلبا في العلاقة بين الإسلام و الواقع الاجتماعي العملي.

إن إشكالية الفهم الخاطئ هذه وقفت بتطبيق الإسلام كنظام حياة عند حدود معينة، ففي الوقت الذي صرفت فيه الجهود الفكرية لمناقشة المسائل الفقهية، و كذا موضوعات علم الكلام، و فلسفات العالم في عهد الفارابي و ابن سينا و غيرهم من العلماء المسلمين، لم تعط للثقافة الإسلامية الأهمية التي تستحقها لتطوير الفرد من الناحية الاجتماعية. و لهذا فإن الصور ليس في الإسلام و ثوابته التشريعية الصالحة لكل زمان و مكان، و إنما هو سوء فهم الإسلام و إهمال دوره في تطوير المجتمع[2]. لهذا يرى **مالك بن نبي**: "أننا اليوم لو تحدثنا عن قدر من السلبية في المجتمع الإسلامي فلا مجال إطلاقا بأن نرجعها إلى الإسلام -كما اعتاد بعض المستشرقين- و لكن إلى تطبيقه التاريخي"[3].

و هكذا ينطلق **مالك بن نبي** في هذه المسألة ليعطي فهمه الصحيح للإسلام الفاعل المحرّك لسلوك الفرد و الجماعة.

و أنه الدين الذي تجدد في القيم الروحية التي تعمل على حركة المجتمع نحو الغايات النبيلة، و هو الدين الكفيل بإعادة الدفع الحضاري للمؤمنين، و وقايتهم من شرور الانحراف الثقافي، و بذلك يمتلكون الطاقة لصنع التقدم. و لهذا فإن "الرابطة القوية للتماسك في المجتمع الإسلامي ضرورية ولابد أن توجد بكل وضوح في الإسلام، و لكن أي إسلام؟ الإسلام المتحرك في ذواتنا، و أخلاقنا و المنبثق في صورة إسلام بالمعنى الاجتماعي، و قوة التلاحم والتعاضد هذه، جديرة بأن تؤلف لنا حضارتنا المنشودة"[4].

إن **مالك بن نبي** من خلال نصه هذا، يدعوا المجتمعات الإسلامية إلى ضرورة الالتزام بالإسلام المتحرك منهجا و توجها و سلوكا، إن هم أرادوا تغيير واقعهم المتأزم، و بناء حضارة شامخة، و قد نبه المسلمين في الوقت الراهن إلى ما كان

([1])- نورة خالد السعد، **التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي**، الدار السعودية للنشر و التوزيع، سنة 1418هـ، ص:21، أنظر أيضا: رابح تركي، **الحركات الوطنية في الجزائر**، مجلة المستقبل العربي، عدد 47 يناير سنة 1983، ص:53-54.

([2])- د/أسعد السمحراني، **مالك بن بني مفكرا إصلاحيا**، مرجع سابق، ص:306.

([3])- مالك بن نبي، **فكرة الأفريقية الأسيوية في ضوء مؤتمر باندوغ**، دمشق، دار الفكر، سنة 1981، ص:224.

([4])-مالك بن نبي، **شروط النهضة**، تر/عمر كامل مسقاوي، و عبد الصبور شاهين، مكتبة دار العروبة، القاهرة، الطبعة الثانية، سنة 1961، ص:125.

يجري بالجزيرة العربية قبل الرسالة، موضحا طبيعة ساكنيها، ثم ماذا حدث في واقعهم بعد أن جاء الإسلام كيف انطلقوا انطلاقة شاملة فتفاعلوا مع من كان حولهم دون تزمت، و بذلك أنشئوا حضارة لم تشهدها البشرية من قبل.

و على هذا الأساس فإن الانطلاقة اليوم ممكن، خاصة و أن هناك إرثا حضاريا فيه من التجربة ما يمكن من الاستفادة منه في عملية النهوض، إن هذا التراث هو الزاد الذي يشجع على استكمال المسيرة.

و إذا كانت المجتمعات الغربية و الشرقية تعاني من مشكلة التوفيق بين الحرية السياسية و الحرية الاجتماعية، فإن الإسلام باعتباره تشريعا سماويا لا يظلم أحدا، بل يربط ما يمكن تسميته بالديمقراطية السياسية و الاجتماعية أو الاقتصادية[1].

حرياته الذاتية. و عليه فإن الإسلام يبدوا و كأنه جمع موفق بين مزايا الديمقراطية السياسة و الديمقراطية الاجتماعية"[2].

و لكن هل توجد ديمقراطية في الإسلام؟ لا يتعلق في نظر **مالك بن نبي** ضرورة نص فقهي مستنبط من القرآن و السنة، بل يتعلق بجوهر الإسلام و روحه بصفة عامة، و لهذا لا ينبغي أن نعتبر الإسلام كدستور يعلن سيادة الشعب و يصرح بحقوقه، و حرياته، بل ينبغي أن نعتبره كمشروع ديمقراطي تفرزه الممارسة للمبادئ العامة التي أقرها الإسلام و غرسها في الوعي الإسلام[3].

و من هنا يظهر الفارق جليا إذ "أن البلدان التي يحدث فيها هذا الاختلاف بين القيم السياسة، و القيم الاجتماعية تعاني صراع الطبقات الذي ينتهي إلى تأسيس نوع من الديمقراطية يعطي المواطن الضمانات الاجتماعية اللازمة، ولكن على حساب حرياته السياسية، غير أن الإسلام تلافى هذا العائق لأنه وضع لمشكلات الحياة المادية المتصلة بالنظام الاقتصادي الحلول المناسبة دون أن يمس الفرد و أن الإسلام يختلف عن النظريات الشرقية و الغبية التي تجعل صراعا بين الفرد و الجماعة، بل هو دين يقيم توازنا بين الجانبين، لذلك فإن أي حكم إسلامي يتضمن كل السمات الديمقراطية التي توفر العدالة و الطمأنينة لكل الناس دون تمييز أو تفرقة، و بناء على ذلك "يصح القول أن الحكم الإسلامي ديمقراطي في مصدره و عمله ... و

([1])- د/أسعد السمحراني، **مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا**، مرجع سابق، ص:92.
([2])- مالك بن نبي، **تأملات**، دار الفكر، دمشق، سنة 1981، ص:83-84.
([3])- د/يوسف حسين، **نقد مالك بن نبي للفكر السياسي الغربي الحديث**، دار التنوير للنشر و التوزيع، الجزائر الطبقة الأولى، سنة 2004، ص:100.

الإسلام يتضمن كل السمات التي تطبع الديمقراطية السياسية التي تمنح الفرد مسؤولية في تأسيس الحكم و الضمانات اللازمة التي تحميه من جور هذا الحكم"[1].

و هذا يعني أن **مالك بن نبي** يقرر بن سلطة الأمة في الإسلام، و في النظام السياسي الإسلامي، ليست سلطة مطلقة، و إنما هي مقيدة بالشريعة: بدين الله، الدين الذي اعتنقه و التزم به كل فرد من الأمة المسلمة، فالأمة لا تستطيع أن تتصرف إلا في حدود هذا القانون. و هذا القانون هو الذي يحتويه الكتاب و السنة. فالأمة في الإسلام ملتزمة بالقانون الأخلاقي، و مقيدة بمبادئه، و قد فرض الدين عليها واجبات و كلفها بمسؤوليات[2]، و من هنا "كان التجانس بين عمل الدولة و عمل الفرد في نطاق التعاون يتحقق في ضمير الفرد، و يجعل هذا الضمير موضوعا من ناحية و حكما من ناحية أخرى"[3]، بل أن التعاون بين الدولة و الفرد في رأي مالك بن نبي له جذور في عقيدة تستطيع وحدها أن تجعل ثمرة الجهد محتملا مهما كانت قيمته لدى صاحبه، فيضحي هكذا بمصلحته حتى بحياته "في سبيل قضية مقدسة في نظره"[4].

إن العقيدة حسب **مالك بن نبي** تدعم التعاون بين الفرد و الدولة، و تمكن من إنجاز مهمات عظيمة ترتكز على الثقة و التضحية و البطولة[5]، إن المسؤولية في هذه الحياة تقع على الفرد في توجيه سلوكه إما اتجاه النصر أو الخسران، و هو بحكم استخلافه في الأرض كان عليه أن يحسن الفهم و التطبيق، لأن تأسيس الحكم الصالح إنما يكون النتيجة الضرورية لسلامة الأفراد[6].

إن **مالك بن نبي** هنا يضع يده على الخلل في علاقة الأفراد ببعضهم ضمن إطار الأسرة و المجتمع ككل، و يبين العلاقات الاجتماعية الأخرى كعلاقة السلطة الحاكمة بالمحكومين، و بذلك يتضح الفارق بين قواعد التجربة الديمقراطية في الفكر السياسي الإسلامي، و بين "التجربة التي تجري للديمقراطية السياسية في العالم ... و التي تدل على ضعف حرّيات الفرد في الواقع، عندما لا تحميه في نفس الوقت الضمانات الاجتماعية التي تكفل حريته المادية"[7].

فإن المسلم الذي فهم أسس العقيدة و الشريعة الإسلامية فهما صحيحا، هو ذلك الذي أشبعته هذه الأسس روح التناغم مع العدالة و الحرية و التكافل الاجتماعي، و هو

([1])- مالك بن نبي، **تأملات**، دار الفكر دمشق، سنة 1978م، ص:83.
([2])- د/يوسف حسين، **نقد مالك بن نبي للفكر السياسي الغربي الحديث**، مرجع سابق، ص:90.
([3])- مالك بن نبي، **بين الرشاد و التيه**، دار الفكر المعاصر، دار الفكر،دمشق، ط2، سنة 2001، ص:83.
([4])- **المصدر نفسه**، ص:85.
([5])-د/يوسف حسين، **نقد مالك بن نبي للفكر السياسي الغربي الحديث**، مرجع سابق، ص:91.
([6])-د/أسعد السمحراني، **مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا**، مرجع سابق، ص:94.
([7])- مالك بن نبي، **تأملات**، مصدر سابق، ص:83.

بذلك عرف موقعه في الحياة بأن لا يظلم و لا يظلم، و بالتالي فهو في مجتمع متساو، و متكامل الأدوار لا صراع فيه من أجل أن يحقق الخير العام للناس جميعا.

فالمسلم الذي يقرن الفكرة بالعمل، مفطور على الديمقراطية متشبع بمبادئها، لأن الإسلام يوجب على الفرد معرفة حقوقه و حقوق الآخرين، و من هنا فإن "الديمقراطية مغروسة أولا في ضمير المسلم مع التقويم الجدد الذي حدد في نظره قيمته و قيمة الآخرين"[1].

إن من يتأمل مسار الرسالة النبوية يجد أن أول ما قام به الرسول **صلى الله عليه و سلم** هو تحرير الإنسان من العبودية لغير الله بدء تحطيم أصنام الجاهلية كخطوة أولى لتتبعها خطوة تحطيم ظاهرة الطبقية و أصبح مقياس التفرقة بين الناس هو التقوى و العمل الصالح، و الله عز و جل لا يرضى الذل لعباده؟، و يأمرهم بالنفور من العبودية و التبعية، و التخلص منهما عن طريق الهجرة من الأرض التي استضعفوا فيها إلى أرض أخرى آمنة تكفل لهم العزة و الكرامة[2]، ثم إن الإسلام يحفظ الإنسان من النزاعات المنافية للشعور الديمقراطي بما وضع في نفسه من تكريم مقدس، و ما جعل له من معالم ترشد طريقه حتى لا يقع في وحد العبودية أو وحل الاستبعاد.

كما عمد الإسلام إلى تدعيم مشروعه الديمقراطي بمقدمات تساهم في تحقيقه و إنجاحه منها[3].

هذا، و بعد أن حطمت الأصنام، و أزيلت كل الحواجز المصطنعة، حلّ في ...سلام نظام آخر، يتمثل في التعاون و التآزر "المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا" هذا النظام الذي أرسى قواعده الرسول **صلى الله عليه و سلم** و الذي يعطينا الصورة الدقيقة التي كان عليها المجتمع الإسلامي. و يرى **مالك** أن "هذا التحديد الذي نضعه للمجتمع الإسلامي لا علاقة له بالحركة المذهبية التي قسمته خلال التاريخ إلى مدارس أو طوائف، فهو تحديد مجتمع ديمقراطي يحتفظ في اتجاهاته بجوهر الديمقراطية أعني أنه كان مجتمعا بلا طبقات"[4].

و إذا كان الصراع الناجم عن الفهم السيئ للإسلام قد أساء فكرة التآخي و التعاون في المجتمعات الإسلامية، فإن إعادة تطبيق ما كان نموذجا في عهد الرسول صلى الله عليه و سلم يمكن أن يبعث روح الإصلاح التي تعيد المؤمن إلى جادة الصواب، لأن

([1])-مالك بن نبي، **تأملات**، مصدر سابق ،ص:75.
([2])- د/يوسف حسين، **نقد مالك بن نبي للفكر السياسي الغربي الحديث**، مرجع سابق، ص:102.
([3])-د/يوسف حسين، **المرجع نفسه** ، ص:103.
([4])- مالك بن النبي، **ميلاد مجتمع**، مصدر سابق، ص:10.

إعادة تطبيقها إنما يمثل البعث العالمي لخلاص الناس من عوامل حمى التسلط و الهينة و الاضطهاد.

إن ما يشهده واقعنا الإسلامي اليوم يبعث على الأسى، حيث انتشرت شريعة الغاب، و أصبح العالم مهددا بالزوال، و عليه فإن "المنقذ هو الإسلام حيث وضع ما يؤمن به الإنسانية من كل أشكال الاضطهاد الديني و الزمني"[1].

إن الإنسان في الإسلام مطالب في هذه الحياة بتعمير الأرض و استثمارها بالخيرات التي تستفيد منها البشرية، دون نشر الفساد، و لذلك وعد الله المسلم بحسن الثواب في الآخرة إن هو أحسن التصرف. قال تعالى: "تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَة نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَيُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ و لاَ فَسَادًا و العَاقِبَةُ لِلْمُتَقِينْ"[2].

و إذا كان المنهج الغربي قائما على الهيمنة و استلاب خيرات الشعوب و استباح قدراتها، فإن الإسلام على العكس من ذلك قد رفض هذا الأسلوب و منع أشكال الاعتداء تحت أي ستار أو شعار تتخذه الشعوب، و لهذا نلاحظ الفرق بين الإنسان تحت حكم الإسلام، و غيره في المجتمعات الغربية.

"فإذا لم يكن للضمير الغربي سبب معين سامي لكي يحترم كرامة الإنسان، و إذا لم يكن لديه في هذا النطاق بعض الضوء السماوي، فإن أي (إعلان دولي لحقوق الإنسان) يكون من قبل الأدب المجرد. إن الإسلام يأتينا بهذا النور الذي يغمر الإنسان و يجعله محترما في عيني أخيه الإنسان، و هو السبب السامي الذي يرفض احترامه مهما كان لونه و جنسه، و قوميته، و اعتقاده"[3].

إن الإنسان في الإسلام مفضل على سائر المخلوقات، أعطاه الله تعالى الرزق الطيّب، و رفعه بالتكريم إلى مرتبة الخليفة في الأرض، يقول تعالى: "و لَقَدْ كَرَّمْنَا اِبْنَ آدَمَ و حَمَلْنَاهُمْ فِي البَرِ و البَحْرِ و رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَيِبَاتِ و فَضَلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً"[4]

إن التكريم القرآني للإنسان يختلف عن الفلسفات الغربية و الشعارات التي أعلنتها الدول التي وضعت ما يسمى بحقوق الإنسان، و هي تمارس التمييز العنصري بين مواطنيها.

([1])- مالك بن نبي، **فكرة الأفريقية الأسيوية**، مصدر سابق، ص:309-310.
([2])- **سورة القصص**، الآية:83.
([3])- مالك بن نبي ،**فكرة الإفريقية الأسيوية** ، ص:313.
([4])- **سورة الإسراء**، الآية: 70.

هذا، و إذا كان تضارب المصالح الدنيوية لدى هذا الدول و الحكومات كرس ألوان الغزو و الهيمنة، و تسابق إلى التسلح، فإن الإسلام منذ البعثة النبوية دعا إلى الإسلام.

و عليه "يستطيع (الجنين) الإسلامي أن ينشط في ظروف تاريخية فريدة. و هذه الشروط إنما تصدر عن الضمير المسلم، و عن موقعه في الظروف التي يمر بها الآن العالم المسلم بجرثومة "القوة"، و يمكن أن ندرك ما قد تحدثه البذرة الأخلاقية الإسلامية من تأثير في حل المأساة العالمية"[1].

إن المتأمل لواقع الإنسان اليوم، و منذ ظهور ما يعرف بالثروة الصناعية في أوروبا، يلاحظ حالة من الجري السريع المذهل نحو إنتاج المكننة التي أصبحت الغاية المنشودة عند الإنسان الغربي، هذه الظاهرة ولدت فوضى اجتماعية غشيت بصره للخروج إلى شاطئ الأمان، حيث ضاع توازنه الداخلي مع المحيط الذي يعيش فيه، و بذلك فقد استقراره بفعل عامل انحدار الأخلاق، و لم تستطع الفلسفات بجميع أنواعها أن تجد حلا، سواء الوجودية أو الماركسية، بل إن هذا التفوق فتح له شهية البحث عن الأسواق لتسويق منتجاته الاقتصادية و بسط نفوذه الامبريالي. هذه الإشارة إلا مكانة الإنسان و موقعه في ظل الظلم و العدوان و الاضطهاد الأعمى، لعلها ينسجم مع ما يتطلبه من سياق فهم مالك بن نبيي للإسلام الذي يُمَكن الإنسان من تخطي العقبات، و ذلك بما يوفر من مناعة للضمير الإنساني.

إن الإسلام دين عالمي، و رسالة موجهة إلى البشرية جمعاء على مر العصور، و انطلاقا من هذا البعد العالمي يمكن القول أن "الإسلام في مركز العالم الحديث حيث محت الحضارة التكوينات و الأوضاع الأخلاقية التقليدية، حين فرضت تكويناتها و أوضاعها الصناعية، فأحدثت ،بذلك فراغا روحيا هائلا، بدأ الناس يستشعرونه في العالم المتحضر. و سبب روابطه العديدة يمكن تكوين مركب حضارة أسيوية، و غدا تكوين حضارة عالمية"[2].

إن عالمية الإسلام تكمن في الخصائص الثابتة التي يحتويها إعجاز القرآن، لكن ما حدث من تعثر للمسلمين عبر التاريخ الإسلامي، إنما يعود إلى التراجع الذي أصاب ذات المسلم تجاه التطبيق الاجتماعي لمضامين الإسلام.

و لهذا يرى **مالك بن نبي** أن "الفساد في الجانب الاجتماعي له ما يفسره، و لقد وجد العالم الإسلامي نفسه و قد بدأ يخرج من انحطاطه، مأخوذا بمشاكله العاجلة، مشاكل

([1])- مالك بن نبي، **فكرة الأفريقية و الأسيوية**، مصدر سابق، ص:311.

(*)- قمت بتصحيح كلمة "خلق" بـ "أحدثت" لأن الخلق لا يحدث إلا من عند الله عز و جل.

([2])- مالك بن نبي، **فكرة الأفريقية الأسيوية**، مصدر سابق، ص:302.

تحرره السياسي حتى أن مشكل حضارات الأساسية قد أصبحت في المقام الثاني في ضميره"[1].

و لهذا فالارتجال و عدم التهيؤ لبناء الحضارة على عاتق قادة الأمة حيث "للتاريخ رواد و معبدي طريقه، فإذا اكتشف الأولون مجاهله و طرائق مستقبله، فإن مهمة الآخرين أن يحافظوا عليها، و العالم الإسلامي ينتج **"صفوة"** صالحة لأن يصبح **"رواده"** القادرين على أن يستهلوا سيره في التاريخ و يعينوا له المرحلة التي يقطعها يوميا نحو توقعاته البعيدة"[2].

إن الدور الفاعل للإسلام في نظر **مالك بن نبي** يتمثل في الطاقات التي يمنحه للإنسان، و دور الدين هو توجيه الفرد نحو القيم السامية حيث "العنصر الديني يتدخل في تكوين الطاقة النفسية الأساسية لدى الفرد، و في تنظيم الطاقة الحيوية الواقع في تصرف "أنا" الفرد، ثم توجيه الطاقة تبعا لمقتضيات النشاط الخاص بهذه "الأنا" داخل المجتمع، و تبعا للنشاط المشترك الذي يؤديه المجتمع في التاريخ"[3].

إن **مالك بن نبي** من خلال فكرته هذه ينتقد بطريقة غير مباشرة نظرية الرجل الوحيد التي تتبناها بعض العقليات دون فهم عميق للإسلام، فطاقات الفرد تفقد جدواها إن لم تنظم و توجه توجيها سليما من خلال الجماعة.

و عالمية الإسلام تستدعي من المسلم أن يدفع بمجتمعه نحو التقدم، و إنقاذ العالم، و هذا لا يتم إلا بتضافر الجهود.

إن الاعتماد على الطاقة الفردية لن يدفع المجتمع نحو الحركة، حيث الطاقة بلا نظام أمر غير جيد. و إذا كان على المسلم أن يوظف طاقته تجاه ما هو منوط بمسؤوليته، فإن طاقته "الحيوية قد تهدم المجتمع ما لم يسبق تكييفها، أعني ما لم تكن خاضعة لنظام دقيق تمليه فكرة عليا، تعيد تنظيم هذه الطاقة، و تعيد توجيهها فتحولها من طاقة ذات وظائف بيولوجية خالصة ... إلى طاقة ذات وظائف اجتماعية يؤديها الإنسان"[4].

إن **مالك بن نبي** يعتقد وفقا لرؤيته الاجتماعية أن العالم العربي الإسلامي يمتلك الطاقات البشرية و المادية التي تؤهله لأن يلعب دور الريادة في الإبداع و التجديد، و في رأيه أنه يجب استثمار هذه الطاقات وفقا لقيم الإسلام و مثله العليا، و بشكل منظم يجعل هذه الطاقات فاعلة تزيل عوامل الانحدار و التخلف. إنه بفعل الفكرة و الإطار

([1])-مالك بن نبي، **فكرة الأفريقية الأسيوية** ص:322.
([2])-مالك **المصدر نفسه** ، ص:323.
([3])- مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**، مصدر سابق، ص:66-67.
([4])- مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**، مصدر سابق، ص:100.

الروحي تتحول هذه الطاقات و القدرات إلى قوى اجتماعية فاعلة يؤدي فيها الإنسان الدور اللائق به.

و المرض الذي أصاب المسلم هو إحساسه بازدواجية الشخصية، حيث أصبح يعاني من عدم الاستقرار النفسي و عدم الشعور بدوره الاجتماعي لدفع عجلة التقدم إلى الأمام، و هذه المشكلة لا تحل إلا بالفكرة الحاملة للإشاعات التي تصل ما بين قطبي الرحى، قال **ابن نبي:** "فالمشكلة التي نواجهها إذن ذات جانبين: جانب اجتماعي و جانب نفسي، و قد أرتنا أوجه التعارض السالفة أنه لكي نعالجها من كلا جانبيها يجب أن تكون لدينا فكرة عليها تصل ما بين الروح و الاجتماعي، و تجري من جديد تركيب الشخص المسلم بحيث يتماثل مع ذاته في المسجد و في الشارع"[1].

إن الفكرة التي يشير إليها **مالك بن نبي** هنا، هي الفكرة الإسلامية التي أثبتت التجربة التاريخية فعاليتها، إنها ظاهرة التآخي بين المهاجرين و الأنصار، و أن التآلف الذي حدث كان أساسه التوحيد. فالإنسان ظلم نفسه فحولها إلى عبادة الأشياء بالتوحيد أنشأ حضارة و قادها.

إن الإنسان في نظر **مالك بن نبي** يرتقي روحيا بفضل الاعتصام بالله، و من خلال العلاقة بين الخالق و المخلوق يتحقق الإيمان، و بالإيمان تحصل الوحدة "فالعلاقة الروحية بين الله و بين الإنسان، هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، و هذه العلاقة بدورها تربط بين الإنسان و أخيه الإنسان ... و على هذا يمكننا أن ننظر إلى العلاقة الاجتماعية و العلاقة الدينية معا من الوجهة التاريخية على أنها حدث، و من الوجهة الكونية على أنهما عنوان على حركة تطور اجتماعي واحد ... ذلكم و لا ريب هو الدرس الذي أراد القرآن أن يعلمه النبي صلى الله عليه و سلم حين قال له[2]: "لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلِفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، و لَكِنْ الله أَلِفَ بَيْنَهُمْ، إِنَهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"[3].

لقد انتقد **مالك بن نبي** الذين أساؤوا فهم المعنى التوحيدي للإيمان، حيث تحولت ممارساتهم للعبادة من غرضها التوحيدي و الوجودي الاجتماعي، إلى إطار ذاتي خالص، فانطووا على ذواتهم يتعبدون في عزلة و انفراد، بعيدا عن شؤون الجماعة، و هم بذلك في رأيه عطلوا فاعلية الإيمان في المجتمع و دوره التحضيري في حياة الإنسان.

([1])-مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**، مصدر سابق ، ص:100.
([2])- **المصدر نفسه** ، ص:52-53.
([3])- **سورة الأنفال**، الآية: 63.

إن هذه الطائفة حوّلت الإيمان من طائفة متحركة مبدعة إلى طقوس بعيدة عن روح الإسلام. و يبدو من خلال إشارة **مالك بن نبي** هذه أنه يقصد الصوفية. هذه الطائفة و إن كان غرضها رفع درجة التقوى و ترقية العلاقة الروحية بين الله و الإنسان، إلا أنها في رأيه لا تعني أن يعيش الإنسان عالة على غيره، فالدين "هو مركب القيم الاجتماعية، و هو يقوم بهذا الدور في حالته الناشئة حالة انتشاره و حركته، عندما يعبّر عن فكرة جماعة. أما حين يصبح الإيمان إيمانا جذبيا دون إشعاع، أعني نزعة فردية، فإن رسالته التاريخية تنتهي على الأرض، فإذ يصبح عاجزا عن دفع الحضارة و تحريكها، إنه يصبح إيمان رهبان، يقطعون صلاتهم بالحياة و يتخلون عن واجبهم و مسؤولياتهم"[1].

لقد أوضح **مالك بن نبي** و هو يقدم نقدا لطائفة الصوفية أن الابتعاد عن واقع الحياة إنما يترتب عليه عدم القيام بالمسؤولية التي هي أمانة في عنقه، ذلك أن دور المسلم إنما يكمن في الدعوة و التبليغ، و نشر الحضارة. إن المسلم الفعّال يمكن أن يتخلص من كل أنواع المضايقات و العوائق لكي يؤدي دوره، و ليحقق الانتصار، و هو بذلك يمثل الشخص المتزن و المتوازن الذي يعرف كيف يحول المثل و القيم إلى سلوك معاش يطبقه على نفسه و غيره، إنه بذلك يكون القدوة في صنع التاريخ، لأن "التاريخ يبدأ بالإنسان المتكامل الذي يطابق دائما جهده و بين مثله الأعلى و حاجاته الأساسية، و الذي يؤدي في المجتمع رسالته المزدوجة كممثل و شاهد"[2].

إن دور المسلم فريد باعتباره يحمل شريعة فريدة تؤهله لأن يكون قادرا على الدعوة إلى الخير و إسعاد الإنسان في هذه المعمورة.

إن التاريخ يصنعه القادة و أصحاب الريادة الذين يعملون على التخلص من كل شرائع التطرف المادية الصرفة، أو المثالية البحتة. لقد اختار الله عز و جل المسلم للقيام بهذا الدور الإنساني الخيّر، لكن الفجوة التي حصلت إنما ترجع إلى قصور في فهم القرآن، و استيعاب روحانيته، الأمر الذي أدى إلى الانفصال في الشخصية بين ما تعلن من انتماء و ما تمارس من عمل، و بذلك أدى تخلف الضمير البشري في فهم محتوى القرآن، فكان التعثر الذي أضاع فرصة الاستفادة من المناخ العقلي الذي هيأ القرآن[3]، و لذلك تخلف عن مواكبة التطور العلمي.

و بين **مالك بن نبي** دواعي التخلف مستلهما في تلك العبرة حيث يقول: "ما كان لحضارة أن تقوم على أساس من التفاعل بين الكم و الكيف، بين الروح و المادة، بين

([1])- مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، مصدر سابق، ص:32.
([2])-**المصدر نفسه** ، ص:32-33.
([3])- أسعد السمحراني، **مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا**، مرجع سابق، ص:105.

الغاية و السبب فأينما اختل هذا التعادل في جانب أو في آخر كانت السقطة رهيبة "و يضيف قائلا: "الحضارة الإسلامية قد فقدت تعادلها يوم فاتها أن ترعى سلامة هذه العلاقة بين العلم و الضمير، بين العناصر المادية و الوجود الروحي"[1].

هكذا فالنهضة في نظر **مالك بن نبي** تتحقق بالتزام الفكر القرآني بعد فهمه و استيعابه و تحويله إلى حياة، ثم الاستفادة من الثقافات العلمية قصد تكييف الطاقات التي توصلنا بالركب الحضاري، و بهذا يكون التجديد مطلبا أساسيا في فهم مضامين القرآن الكريم، و ذلك لا يحصل إلا بتطوير مناهج التفسير لأن "مشكلة التفسير القرآني على آية حال هي مشكلة الأفكار الدارجة لدى رجل الشارع. و من هاتين الوجهتين ينبغي أن يعدل منهج التفسير في ضوء التجربة التاريخية التي مر بها العالم الإسلامي"[2].

إن **مالك بن نبيي** يلح على ضرورة تعديل منهاج التفسير، و الاستفادة من تجارب التاريخ، إذ بذلك يتم فصل الحاضر عن سلبيات ما حدث عبر التاريخ، و الاستفادة من إيجابياته.

فالفهم الصحيح للمنهج القرآني يؤدي إلى جعله يتحول إلى سلوك وراحة ضمير عند الإنسان، و أن عدم تعديل التفسير على ضوء التاريخ و العصر يمنع الفهم و يعطل السلوك الملتزم بالإسلام.

إن تحديث و تطوير مناهج التفسير يعيد الصلة بين الإنسان و الإسلام، و بذلك يتاح توفر المناخ العقلي في ظل الفهم القرآني لتحصيل العلم، فترقى الحياة بجانبيها الاجتماعي و المادي.

و هكذا يتخلص الفرد المسلم من ذلك التغني الأجوف بإعلاء شأن القرآن، الذي هو ليس في حاجة إلى تعزيم، ذلك لأن الله عز و جل حفظه من تحريف و تزييف، فكلما حدث جديد في العلم و في مجال الابتكار تشدّق البعض بأن ذلك تحدث عنه القرآن في سورة كذا، علما "أن القرآن لم يأت قطعا، و بصورة مباشرة لا بالحساب العشري و لا بالجبر، و لكنه يأتي بالمناخ العقلي الجديد الذي يتيح للعلم أن يتطور ... و الأمر الجدير بالملاحظة، الذي هو تطور العلم لا يناط بالمعطيات العلمية فحسب، بل بكل الظروف النفسية و الاجتماعية التي تتكون في مناخ معين"[3].

([1])- مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، مصدر سابق، ص:169.
([2])- مالك بن نبي، **الظاهرة القرآنية**، دار الفكر، دمشق، ط:4 سنة 1987، ص:59.
([3])- مالك بن نبي، **إنتاج المستشرقين**، القاهرة، مكتبة عمار للطباعة و النشر و التوزيع، سنة 1970، ص:36-37.

هذا و تعرض **مالك بن نبي** إلى ضعف المسلمين حين لجأوا إلى مدح الإسلام دون التعامل بمضامين محتواه فقال: "**فالمديح هو تعويض بالكلام عن الواقع المحس، تعويض عن الحقيقة الموضوعية في هذا الوسط بالحقيقة الشخصية الذاتية، و هذه محاولة تبرير انحطاط النفوس الأخلاقية و الاجتماعية**"[1].

و هذا التبرير يتم بطريقتين: فهو إما تعويض بالذاتي عن الموضوعي، و إما تعويض بماض مشرق مهيب عن حاضر مفلس[2].

و في كلتا الحالتين يجعل من باب المستحيل إحداث علاج اجتماعي مع أن الإسلام في نظر **مالك بن نبي** لا يحتاج إلى مدح كونه "من معدن روحي لا يحتاج مطلقا إلى أن يغمس في المديح أو في "ماء الورد"[3].

و القرآن الكريم في فهم **ملك بن نبي** ليس موسوعة يلجأ إليها القارئ، بل هو قواعد للمنهج الروحان الرباني الذي يربط الإنسان بخالقه، و هو أيضا إلحاح على علاقة الإنسان بالإنسان، إنه دين حث على العلم و الإبداع قصد إعمار الأرض بما يعود على البشرية بالخير العام.

و إذا ما وردت فيه بعض حقائق العلم، فإن ذلك على سبيل التوجيه إلى فتح الآفاق أمام العلم، لا لإقفال الأبواب في وجهه بحجة أن كل علم هو في القرآن، و أنه يجب أن نهجر ما سواه.

من خلال ما تقدم ذكره، يتضح أن **مالك بن نبي** اهتم بالقرآن الكريم لأنه سلفي العقيدة، إصلاحي في فكرة النهضة، و كل سلفي لا يمكن أن ينطلق إلا من القرآن و من السنة النبوية الشريفة، و من سير و أعمال السلف الصالح، و لذلك كان أول كتاب ألفه هو كتاب "الظاهرة القرآنية"

لقد كان الغرض من تأليف ذا الكتاب هو تقديم رؤية منهجية في تفسير القرآن الكريم و تزويد المثقف المسلم المحنك بالثقافة الغربية الحديثة بأسس راسخة تسمح له بتأمل ناضج و واع للدين الإسلامي[4].

إن هذا التغيير المنهجي ضروري بالنظر إلى النقائض التي يتصف بها التفسير الكلاسيكي، الذي كان يعتمد على توضيح الإعجاز البياني من أجل ألوهية مصدر

([1])- مالك بن نبي، **فكرة الأفريقية الأسيوية**، مصدر سابق، ص:308.
([2])-المصدر نفسه، ص:308.
([3])-**المصدر نفسه** ، ص:309.
([4])- د/عبد اللطيف عبادة، **صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي**، ط1، دار الشهاب للطباعة و النشر، باتنة-الجزائر، سنة 1984، ص:75.

القرآن الكريم، و ذلك لأن هذا النوع من الأدلة ذاتي بالنسبة إلى النخبة المثقفة التي نهلت من مناهل النزعة الديكارتية في التفكير[1]، ثم أن الضعف اللغوي الموجود في البلاد العربية -نتيجة الأمية- جعل من المتعذر على الناس إدراك هذا الإبداع البياني والتشبث به[2].

لهذه الأسباب، عمد **مالك بن نبي** إلى تقديم و تقييم مناهج المفسرين التي لم ترضه في معظمها لأنها لم تنفذ إلى القرآن الكريم الذي يحرك الحياة، و الذي يمس الطبيعة و الضمير الإنساني مباشرة، كما يمس أيضا مجال حياة الإنسان و جوانب فكره و مناحي سلوكه[3].

إن الآية القرآنية لم تكن تستخدم لديهم -و حتى المحدثين منهم- في منهجها إلا كوسيلة منطقية تساق لغرض تعليمي. فالقرآن في منطقتهم معلم يقدم لهم مقاييس من كل نوع، و براهين تفحم الخصوم، و أدلة تدين بعض التقاليد، و البدع التي لا تتفق و ما جرى عليه السلف، و هو أيضا نموذج جمالي، بل مجموعة من المقاييس الأدبية تستعملها بعض العلوم الاستنباطية[4].

هذا و لم يقتنع مالك بن نبي بتفسير **"طنطاوي جوهري"** الذي هو في نظره عبارة عن دائرة معارف ضخمة خالية من كل الاهتمامات المنهجية.

ثم إن طريقة كل من **"رشيد رضا"** و أستاذه **"محمد عبده"** و إن كانت قد أدخلت تغييرات على التفسير الكلاسيكي، و لبت بما جاءت به من تجديد اهتمامات النخبة المثقفة،فهي تبقى قاصرة و متمركزة حول الجدل الديني[5].

غير أن المشكلة الأساسية بالنسبة للتفسير تبقى هامة بالنسبة لاعتقاد الفرد المكون في المدارس ذات النزعة الديكارتية، بما فيها من معارف حديثة و عقلانية، و بالنسبة لمجموع الأفكار السائدة التي تشكل أرضية الثقافة الشعبية، بما فيها من خلافات و أساطير.ولهذا يقترح مالك بن نبي ضرورة إيجاد مذهب اجتماعي في التفسير لا يعزل الإسلام، و بالتالي التفسير عن حركة الأفكار في العالم عامة و عن الحياة الاجتماعية خاصة[6].

([1])-**المرجع نفسه** ، ص:75.
([2])-**المرجع نفسه** ، نفس الصفحة.
([3])-**المرجع نفسه** ، ص: 76.
([4])- د/عبد اللطيف عبادة، **صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي**، مرجع سابق، ص: 76.
([5])-**المرجع نفسه**،،ص76
([6])-**المرجع نفسه** ، ص:76-77.

لقد قدم لنا **مالك بن نبي** نمج تفسير تستند إلى علم الاجتماع أكثر مما تستند إلى علم أصول الفقه أو أصول التفسير، كما يسميه "**ابن تيمية**" أنه لم يهتم بتفسير آيات الأحكام التي يرى أنها من اختصاص الفقهاء، بقدر ما اهتم بتفسير الآيات المتعلقة بالتنظيم الاجتماعي السياسي[1].

إن **مالك بن نبي** في نظر "**عبد اللطيف عبادة**" ليس مفسرا بالمعنى الحقيقي للكلمة، لأنه يعتمد على الأصول، بل يرجع دائما إلى أقوال المفسرين في هذه الآية أو تلك خصوصا في الآيات المتعلقة بالأحكام، لكن الجديد في الذي جاء به في مجال التفسير هو أنه وسّع معاني القرآن لتشمل مجالات الحياة الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية و غيرها[2].

لقد عرض هذا الباحث المذكور نماذج من تفسير القرآن التي وردت في مؤلفات **مالك بن نبي** موضحا كيف أن **مالك بن نبي** شدد على ضرورة فهم الإسلام على أنه دين عبادة و عمل، و ليس مجرد طقوس أو دروشة.

من هذه الآيات ما ورد في كتاب "شروط النهضة" و يتعلق بقوله تعالى "**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**"[3].

هذه الآية تعتبر في نظر **مالك بن نبي** محور كل تحول حضاري و تاريخي في حياة الأمم و الشعوب، فهو يقول: "**إننا نحد في القرآن الكريم النص المبدئي للتاريخ التكويني**". إن هذا المبدأ لا يجب أن نقرره حسب إيماننا به فقط، بل يكون تقريره في ضوء التاريخ و التساؤل، هل المبدأ القرآني سليم في تأثيره التاريخي؟ و هل يمكن للشعوب الإسلامية تطبيق هذا المبدأ في حياتنا الراهنة؟.

لقد أجاب **مالك بن نبي** عن السؤال الأول، حيث بيّن أنه في بداية الحضارة الإسلامية كانت "روح المؤمن هي العامل النفسي الرئيسي، من ليلة حراء إلى أن وصلت إلى القمة الروحية و هو ما يوافق واقعة صفين عام 38ه"[4].

و المهم ها هنا "أن الحضارة الإسلامية قد خرجت من عمق النفوس، كقوة دافعة سطح الأرض "تنتشر أفقيا من شاطئ الأطلنطي إلى حدود الصين"[5]، و كان هذا التوسع و هذا الاستمرار بفضل "ما تبقى لديها من مخزون روحي، حتى إذا وهنت

([1])-**المرجع نفسه**، ص:77.
([2])-د/عبد اللطيف عبادة، **صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي**، مرجع سابق ،ص:78.
([3])- **سورة الرعد**، الآية: 13.
([4])- مالك بن نبي، **شروط النهضة**، مصدر سابق، ص:70.
([5])- **مالك بن نبي ،شروط النهضة**، ص:71.

فيها قوى الروح وجدناها تخلد إلى الأرض شيئا فشيئا"[1]،، و أجاب و ليست ميّزة خاصة وقت ظهوره "و هو وحده الذي يمنح الإنسان هذه القوة، فقد وهبها لأسلافنا، الحفاة العراة، رعاة الشاه من بدو الصحراء، بهذه القوة وحدها يشعر المسلم رغم فاقته و عريته الآن بثروته الخالدة التي لا يدري من أمر استخدامها شيئا"[2]، و النموذج الآخر نجده في كتاب **"دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين"**، ذهب المفسرون إلى كون الوسطية تعني العدالة، و قد تعني الخيرية أو التوسط بين الإفراط و التفريط في الغلو و التقصير. و أما الشهادة فقد تكون في الدنيا و الآخرة.

أما **مالك بن نبي** فهو يصور لنا الوضع المتأزم في أوروبا المشرفة على الهاوية و الهلاك، ذلك أ، شعوبها بدأت تفقد مبررات تحمل أعباء الحياة، إنها بدأت تشعر بنفاذ رصيدها الثقافي و رصيد مبرراتها الروحية و الاجتماعية" و إذا أردنا أن نعرف المبررات الموضوعية، نذكر على سبيل المثال ما كان من ثقة بكلمتي العلم و الحضارة، فقد كانت هذه الثقة هي منطق الأفكار الأوروبية في القرن التاسع عشر، و بداية القرن العشرين، خصوصا قبل الحرب العالمية الأولى.

و عندما يفقد مجتمع مبرراته لابد أن يقوم بعمليات تعويض في شتى المجالات، فإذا فشلت عملية التعويض و هذا هو ما حدث بالفعل في العالم الأوروبي تحت الأزمة، و يقع في حيرة و تيه و قلق، بحيث تشمل تلك الحيرة النفوس و العقول و الأرواح.

و تتجلى ظاهريا في حالات الانتحار و الإدمان على الخمر و المخدرات و الشذوذ الجنسي[3]. يضاف إلية هذا فشل الديانات الوضعية و بعض الديانات السماوية التي حرفت تحريفا كاملا عن إشباع هذه الأرواح المتعطشة الملتهبة و الحائرة.

و لعل هذا التلهف و التعطش سيجد ما يروي غلته في الإسلام، إذا أراد أن يقوم بدور الزي، أي "يقدم بالمبررات الجديدة التي تنتظرها الأرواح التي تألمك لفراغها و حيرتها و تيهتها"[4].

و لا يستطيع ذلك إلا إذا ارتفع إلى قمم الحقيقة الإسلامية و إذا تمكن من اكتشاف قيم الفضيلة الإسلامية "و من ثم ينزل إلى هضاب الحضارة المتعطشة فيرويها بالحقيقة الإسلامية و بالهدى، و بذلك يضيف إليها بعدا جديدا، يضيف إلى حضارة التكنولوجيا و عن الكيفية التي يصبح بها معاصرا للناس شاهدا عليهم، بالتقوى و الورع بنزاهة

([1])- **نفس المصدر**، نفس الصفحة.
([2])- مالك بن نبي، **شروط النهضة**، مصدر سابق، ص:70.
([3])- د/عبد اللطيف عبادة، **صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي**، ص:81.
([4])-د/عبد اللطيف عبادة، **صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي** ، ص:81.

الشاهد الصادق الخبير الواعي لقيمة شهاداته، واهبا لهم بعد السماء كي ترتفع الحضارة كلها إلى مستوى القداسة من حضيض الإباحية و المادية و الإلحاد[1].

2.4.3دور الأفكار في البناء الحضاري وتصوره لمستقبل الإسلام

1.2.4.3دور الأفكار في البناء الحضاري:

أ-موقفه من الأفكار و مظاهر الأزمة:

لاشك في أن حياة الشعوب تقاس بما حققته من أفكار، و ما أنتجته من إبداعات ثقافية عملت على تهذيب السلوك و تنقية الوعي البشري من الخرافات و البدع، و لذلك كانت الأفكار دليل تقدم الشعوب أو تخلفها، من خلال الصراع الحضاري الذي يعيشه الموجود البشري ضمن عالم معقد لا يمكن فهمه و تغييره إلا بالفكر و الفكر وحده.

إن تاريخ الإسلام يبين لنا كيف أن الأفكار القرآنية غيّرت مجرى حياة الناس، بعد أن كان يعيش في عالم الظلامية، و التاريخ يبين لنا أيضا كيف أدرك الأوروبيون واقعهم المظلم في ظل حكم الكنيسة، فعملوا على التخلص منه و الاحتكام إلى العقل كمصدر أساسي لتغير الواقع الإنساني. إن التغيير في نظرهم يكون بتعقل الوقع و ورفض الأوهام و المعتقدات الدينية، و لذلك عملوا على دحض اللاهوت، و القضاء على هالة القداسة التي كانت الكنيسة قد أحاطت بها المؤسسات الإقطاعية.

إن احتكام فلاسفة التنوير إلى الفكر جعلهم لا يكتفون بفضح الطابع اللاإنساني للنظام الإقطاعي، بل شنوا نضالا ضد التعصب و اللامساواة، و ناضلوا من أجل إشاعة روح التسامح، و حرية الفكر، و البحث العلمي، و إعلان شأن العقل، و مساواة البشر جميعا بالعقل[2].

([1])-**المرجع نفسه** ، ص:81.

([2])- د/فيصل عباس، **الفلسفة و الإنسان، "جدلية العلاقة بين الإنسان و الحضارة"**، مرجع سابق، ص:169.

و السؤال الذي يطرح نفسه علينا، هو هل المجتمع الإسلامي بحاجة إلى تكنولوجيا أم إلى أفكار.

يجيب **مالك بن نبي** بأن المجتمع الإسلامي بحاجة إلى فكر لا إلى تكنولوجيا لأن ما يعانيه العالم الإسلامي ليس في الوسائل حيث بإمكانه اختراعها، لو كان عالم الأفكار عنده حيا، لكن أفكاره كلها قاتلة أو ميتة، و من ثم وجب دراستها و البحث عن أسباب ضعفها.

يرى مالك بن نبي أ، الشعوب الإسلامية التي تعرّضت إلى الزحف الاستعماري خلال القرن الماضي، لم تنتبه إلى العوامل التي ساعدت الاستعمار على دخول بلاده، و لذلك لا يمكن لأمة أن تقضي على الأخطار التي تهددها إلا إذا ارتفعت بأفكارها.

"إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضاراته، و لا يمكن أن يفهم أو يحل مشكلته، ما لم يرتفع بفكره إلى الأحداث الإنسانية، و ما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها"[1].

إن الحضارة ظاهرة اجتماعية تنشأ متى توفرت شروطها الموضوعية أنها تبنى بسواعد أبنائها، لا عن طريق تكديس منتجات الحضارة الغربية، و لذلك على المسلم أ، يتخلص من القابلية للاستعمار التي هي أولى من التفكير من طرد الاستعمار من أرضه.

و لقد ظل العالم الإسلامي زمنا طويلا يعيش التخلف و الانحطاط، و عند احتكاكه بالحضارة الغربية اعتقد أن مشكلة التخلف يمكن القضاء عليها، ما دامت الحلول متوفرة عند الإنسان الغربي، لكن هذا الاعتقاد الخاطئ لن يمكنه من إنشاء حضارة[2].

لأن العالم الإسلامي لم يعتمد على قدراته الذاتية و الانطلاق من واقع خصوصية شخصيته المتميزة، و من هنا يرى مالك أنه لن تستطيع قوة في العالم نقلروح حضارة من شعب آخر لأن ذلك لن يساهم بشيء في تقدم الأمة[3].

إن الوسيلة لتحقيق الحضارة متوفرة، ما دامت هناك و الفكرة الدينية التي تبعث النشاط في الفرد المسلم، و العالم الإسلامي غني بالثروات البشرية و المادية، و لا

([1])- مالك بن نبي، **شروط النهضة**، تر/عبد الصبور شاهين، مكتبة دار العروبة، القاهرة، الطبعة 2، سنة 1961، ص:19-20.

([2])-**مالك ،شروط النهضة** ، ص:42.

([3])- **المصدر نفسه**، ص:43.

ينقص الأمة إلى التحلي بروح الإيمان في تحريك السواعد و دفعها نحو الإبداع، إن المجتمع الإسلامي في حاجة إلى ثقافة حية تطبع واقع حياته العملية.

إن المعضلة التي تعانيها المجتمعات الإسلامية، هي المطالبة بالحقوق و نسيان الواجبات، لقد أصبحنا لا نتلكم عن حقوقنا المهضومة و نسينا الواجبات، و نسينا أن مشكلتها ليست فيما نستحق من رغائب، بل فيما يسودنا من عادات و ما يراودنا من أفكار، و في تصوراتنا الاجتماعية بما فيها من قيم الجمال و الأخلاق و ما فيها من نقائض تعتري كل شعب نائم"[1].

و إلى جانب المبالغة في المطالبة بالحقوق يشير **مالك بن نبي** إلى داء آخر عطل سير عجلة التقدم و هو سوء توجيه الأفكار. و التوجيه هوة الأساس و توافق في السير و وحدة في الهدف، و برأيه أن هناك طاقات و قوى لم تستخدم لأننا لا نعرف كيف نكتلها، فكفم من طاقات شاعت حين زحمتها طاقات أخرى متجهة إلى الهدف نفسه[2].

و التوجيه في نظر مالك يجنبنا الإسراف في الجهد و الوقت، و في نظره أن ملاين السواعد التي يملكها العالم الإسلام، بإمكانها أن تصنع التاريخ إذا عرفت كيف تلتمس من الفكرة الدينية سبيل تحركها[3]، و توجه الأفكار طبقا لمهمتها الاجتماعية التي تريد تحقيقها.

و يرى مالك أن أهمية الأفكار في حياة مجتمع معين تتجلى في صورتين:

فهي إما أن تؤثر بوصفها عوامل نهوض بالحياة الاجتماعية، و إما أ، تؤثر على عكس ذلك بوصفها عوامل ممرضة، تجعل النمو الاجتماعي صعبا أو مستحيلا[4].

و يبين مالك خطأ الذين يعتقدون أن قوة الأمة فيما تملكه من مصانع و مدافع و طائرات، مثلما كانت عليه الأمة الغربية في القرن التاسع عشر، لكن الحقيقة أبعد من ذلك حيث قوة الأمة فيما تحمله من أفكار، و لذلك يرى **ملك بن نبي** أن المسلم بسبب عقدة تخلفه يرد المسافة بين الأمم إلى نطاق (الأشياء).

و بتعبير أدق يرى أنه تخلفه متمثل في نقص ما لديه من طائرات و مدافع، و بذلك يفقد مركب النقص لديه من الفاعلية الاجتماعية[5].

([1])-المصدر نفسه ص:42.
([2])- مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**، تر/عبد الصبور شاهين، دار الفكر، الطبعة الرابعة، سنة1984، ص:67.
([3])- **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.
([4])-**المصدر نفسة** ، ص:14.
([5])-**المصدر نفسه**، ،ص:14-15.

هذا و يرى مالك بن نبي أ، الفكر و المجتمع يمثلان اليوم الإطارين اللذين توضع فيها المشكلات الاجتماعية في عمومها[1].

فمفهوم الثقافة عند الأمريكيين يتجه نحو المجتمع الأمريكي و ما يحمله من خصوصيات في نموه الطبيعي، و ما له علاقة بعالم أشيائه، و نفس الشيء عند الشيوعيين حيث مفهوم الثقافة عندهم ينحصر في روح الوسط الإيديولوجي الذي يسيطر على أفكارهم.

و لكن رغم الاختلاف بين المفكرين الغربيين و الماركسيين، إلا أن، هناك نوعا من الاتفاق و هو أنهم جميعا يرون عوالمهم ماثلة أمام ناظريهم بالفعل أو بالقوة[2].

لكن الفكرة في العالم العربي و الإسلامي تأخذ معي آخر مختلف تمام الاختلاف، إذ هو يتصل بخلق واقعي اجتماعي معين لم يوجد بعد.

و من هنا لا يمكننا الأخذ بتعريفات هؤلاء في وضع أسس ثقافتنا الإسلامية، لأن ذلك لا يمكننا من بعث حضارتنا، إن معنى الثقافة عندنا يجب أ، يكون مختلفا، ذلك أن حلا يجعل من عالم الأشياء هيكل البناء الثقافي لا يمكن تطبيقه في البلاد العربية و الإسلامية، حيث لم نلك بعد عالم الأشياء[3].

ثم أن المجتمع عندما يولد أن ينهض لا يكون لديه (عالم الأشياء) بل سوى عالم الأفكار، و من أجل هذه النوعية التاريخية في المشكلة لا يمكن أن تستورد الحلول، كما تستورد من الخارج قضبان الحديد أو المواد الخام[4].

و إذا كان **مالك بن نبي** رفض استيراد المفاهيم الثقافية الغربية فلأنها لا تتماشى مع ظروف العالم الإسلامي الذي يتطلب تركيبا أصيلا ينبع من خصوصيات مجتمعة.

و الثقافة عنده ليست علما يتعلمه الإنسان في المدرسة أو الكلية، ذلك أن الطبيب الإنجليزي و الطبيب المسلم تخرجا من كلية واحدة، و مع ذلك نجد الفعالية عند الإنجليزي ما لم نجدها عند المسلم، و السبب راجع إلى الثقافة التي تنتشر في المجتمع، و من هنا فالثقافة هي "العلامة التي تحدد السلوك الاجتماعي لدى الفرد بأسلوب الحياة في المجتمع، كما تحدد أسلوب الحياة أسلوب الحياة بسلوك الفرد..." [5].

([1])- **مالك بن نبي،مشكلة الثقافة** ، ص:30.
([2])- **مالك بن نبي، المصدر نفسه**:38.
([3])- **المصدر نفسه** ، الصفحة نفسها.
([4])-**المصدر نفسه** ، ص:39.
([5])-**مالك بن نبي، مشكلة الثقافة** ، ص:43.

ثم أن مشكلة الثقافة لا تكمن في الفرد، و لا ترجع إلى المجتمع بل هي في العلاقة التي تربطهما يبعضهما البعض. و قد لاحظ **مالك بن نبي** أن هذه الصلة مقطوعة في عالمنا الإسلامي، و من أمثلة ذلك أن عبقرية **ابن خلدون** لم يجن العالم الإسلامي ثمارها بسبب ضعف العصر الذي وجد فيه[1].

إن ديننا الإسلامي الحنيف فيه من الحلول للقضاء على مشكلاتنا الحضارية، كيف لا و أن القرآن الكريم قام بعملية تغيير شاملة للثقافة التي كانت سائدة عند العرب الجاهلين، و لذلك كان "المجتمع الإسلامي يعيش طبقا لمبادئ القرآن، فإن الأصوب أن يتكلم تبعا لمبادئ القرآن، لعدم وجود المنطق العلمي في سلوكه"[2].

عليه أن يوجه طاقته نحو العمل المثمر، و يتجنب الإسراف في استعمال الوقت، و لا يضيع في متاهات الثقافة الغربية أو الشرقية، حيث التأثير المشوه يؤدي بالمسلمين إلى التمزق، و لذلك لابد من وجود تربية اجتماعية متناسقة، تعتمد على الثقافة الأصلية "فليست التربية مجموعة من القواعد و المفاهيم النظرية، التي لا سلطان لها على الواقع... فكل حقيقة لا تؤثر على الثالوث الاجتماعي: الأشخاص و الأفكار، و الأشياء هي حقيقة ميتة"[3]. إن غنى المجتمعات لا يقاس بما تملك من "الأشياء" بل بمقدار ما فيها من أفكار، و هي إذا فقدت أشيائها بفعل الكوارث، فإن بإمكانها أن تسترجع ذلك، إن لم تفقد أفكارها، و قد أعطانا **مالك بن نبي** شاهدا على ذلك بألمانيا التي فقدت كل أشيائها إبان الحرب العالمية الثانية، إلا أنها أعادت كل ما دمرته الحرب، في وقت وجيز بفضل رصيدها من الأفكار[4].

و إذا كان كل نشاط إنساني يخضع لمجال الأفكار سواء في دوافعه أو في وسائله العملية "فإن كل نشاط اجتماعي تكمن في أساسه الفكرة لا في حالتها الخالصة، و إنما في الحالة التي تندمج فيها مع السلوك... و الفكرة التي من هذا القبيل هي دائما فكرة خذلت نموذجها المثالي، و ينعكس المرض على المجتمع الذي يصاب بنتائج أي انحراف يمس عامله الثقافي[5].

إن الأفكار من حيث فعاليتها تتحدد بالشروط النفسية و الاجتماعية، و تتنوع بتنوع الزمان و المكان، و الفكرة و الشيء لا يكسبان قيمة ثقافية إلا في ظل بعض الشروط" و هما لا يخلقان الثقافة إلا من خلال اهتمام أسمى، بدونه يتجدر **عالم**

([1])-**المصدر نفسه**، ص:47.
([2])-**المصدر نفسه** ، ص:87.
([3])- مالك بن نبي، **شبكة العلاقات الاجتماعية**، الجزء الأول، تر/ عبد الصبور شاهين، لبنان، سنة1974، ص:93.
([4])-**مالك بن نبي، مشكلة الثقافة** ، ص:34.
([5])- مالك بن نبي،**مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، تر: عبد العظيم علي، القاهرة، مكتبة عمار، سنة 1971، ص:215.

الأفكار" و "عالم الأشياء" فيفقد كل فعالية اجتماعية حقه، و يمكننا أن نفسر هذا الاهتمام الأسمى بالنسبة للفرد على أهم علاقة عضوية تربطه بـ **"عالم الأفكار"** و **"عالم الأشياء"** فإذا انعدمت هذه العلاقة لم تعد للفرد سيطرة لا على الأفكار و لا على الأشياء"[1].

و لا يتوقف الأمر على الارتباط بين عالمي الأفكار و الأشياء، بل لابد من ارتباط الأفكار التي تعمل على صياغة الحدث الحضاري فيما بينهما، حيث "كل تلف يطرأ على روابط الأفكار فيما بينها، يتولد عنه اضطراب في الحياة الاجتماعية و زيغ سلوك الأفراد، و لا سيما يصل انفصام هذه الروابط عن نماذجها المثالية إلى منتهاه، و عندما تفقد قوالب أفكارنا المطبوعة شكلها الأصلي في نفوسنا و تصبح أفكارنا الموضوعية بدون شكل و بدون تناسق و بدون أهمية، و عندئذ تموت الأفكار ... و يعود المجتمع إلى الطفولة من جديد"[2].

هذا، و يرى مالك أن، الشروط النفسية الزمنية التي تنمو في محيطها الأفكار تؤتي ثمارها، و كذلك ارتباط الأفكار التي تعمل على بعض النهضة الفكرية تصبح عديمة الجدوى إذا لم تخاطب سياجا من العلاقات الاجتماعية التي تنمي عالم الأفكار و تغذيه بالحيوية و تمده بالفعالية "و هذا يحدث بوجه عام عندما يكون المجتمع في حالة النشوء -كالمجتمع الإسلامي في العهد المدني- إذ في هذه الحالة يحقق أرفع درجات الاندماج و الانسجام، حيث يكون التوتر الأخلاقي قد بلغ ذروة درجاته. و يبلغ المجتمع الحد النهائي في تطوره عندما يفقد بالتدريج خاصة الانسجام، فيتفرق أفراده و يصبح عاجزا عن أداء نشاطه المشترك"[3].

و هكذا، فإن النشاط الحضاري يجب أ، يتميز بالديناميكية و الفعالية الاجتماعية، أي وجود تناغم و تلاحم بين سلوك الفرد و أعضاء المجتمع الذي يعيش بينهم، و إذا وقع انفصام بين هذه الهيئات، أي بين الأفكار و محيطها الاجتماعي فلا شك أن البناء الاجتماعي يكون مآله التحلل و الفساد.

و من مظاهر الأزمة التي وقع فيها العالم الإسلامي، هي أن وقع العديد من المفكرين في دائرة التبعية الثقافية و الفكرية لمفاهيم و تصورات غربية، يقول **مالك بن نبي:** "سنظل نكر و نلح في تكرارنا أن أزمة العالم الإسلامي منذ زمن طويل لم تكن أزمة في الوسائل، و إنما في الأفكار، و ما لم يدرك هذا العالم تلك الحقيقة إدراكا واضحا

([1])- مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**، مصدر سابق، ص:47-48.
([2])- مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، مصدر سابق، ص:78.
([3])- مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**، مصدر سابق، ص:35.

فسيضل داء الشبيبة العربية الإسلامية عضالا، بسبب تخلفها عن ركب العالم المتقدم"[1].

إن أزمة الأفكار في نظر **مالك بن نبي** تؤدي إلى التمزق في الشخصية الإنسانية، و لذلك فإن أعظم ما يتسلح به المرء في مسيرته التاريخية هو الفكرة الدينية، إذ "كلما اختفت الفكرة في المجتمع يسود الوثن من جديد"[2].

و إذا كانت الأفكار التي تسهم في بناء الكيان الحضاري من حيث الإيجاب و السلب قد تظل ذات تأثير على بنية المسار الحضاري، فإن "نظرة على الأفكار التي فعلت فعلتها في التاريخ فقتلت المجتمع الإسلامي. إن هذه الأفكار التي لا زالت باعتبارها أصبحت ميتة تكوّن الجانب السلبي في نهضتها، قد كانت تكوّن الجانب الإيجابي في عهد التقهقر و الأفول الذي مر على الحضارة الإسلامية، هذه الأفكار كانت قتاله في مجتمع حي قبل أن تصبح ميتة في مجتمع يريد الحياة، غير أنها لم تولد بباريس ولندن، بل ولدت بفاس و الجزائر و تونس و القاهرة"[3].

و لكن يا ترى كيف يمكن التخلص من هذه الأفكار الميتة و بناء نهضة إسلامية؟ يرى **مالك بن نبي** أنه يجب تصفية عاداتنا و تقاليدنا مما فيها من عوامل قتالة لا فائدة منها حتى يَصْفُوَ المناخ الاجتماعي للعوامل التي تدفع به إلى تجديد الحياة. و هذه التصفية لا تكون إلا بفكر جديد يحطم ما هو موروث هش، مع الالتزام بالهوية الفكرية للحضارة الإسلامية، و هذا التجديد يحصل بطريقتين:

الأولى: سلبية تفصلنا عن رواسب الماضي.

الثانية: إيجابية تصلنا بالحياة الكريمة.

و إذا كان العجز الفكري يترك أثارا سلبية على مسيرة النشاط الاجتماعي، فإن "الواجب يفرض علينا أن نراعي واقعا جوهريا، و هو أن ميزانية التاريخ ليست رصيدا من الكلام بالكتل من النشاط المادي، و من الأفكار التي لها كثافة الواقع و وزنه، و هذه الميزانية المكون من صفوف النشاط الإيجابي، هي في الحقيقة ميزانيات من القيم الثقافية تقوم على فصول الثقافة الأربعة: منهجها الأخلاقي، و فلسفتها الجمالية، و فنها الصناعي، و منطقه العملي"[4].

([1])- مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**، مصدر سابق، ص:117.
([2])- مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، مصدر سابق، ص:131.
([3])- مالك بن نبي، **في مهب المعركة**، دار الفكر، دمشق، سنة 1981، ص:130.
([4])- مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**، مصدر سابق، ص:111-112.

و المجتمع الإسلامي في نظر **مالك بن نبي** أحوج ما يكون إلى المنطق العملي في حياته أن العقل المجرد متوفر في بلادنا، غير أن العقل التطبيقي يكاد يكون معدوما"[1].

و بكل أسف أن ما ينقص المسلم ليس منطق الفكرة، بل منطق العمل و الحركة، فهو لا يفكر ليعمل بل ليقول كلاما مجردا.

و من هنا يجب أن يتضح لجميع العاملين في حقل المشروع الإصلاحي، المتأصلة جذوره في الإسلام أنهم في سباق مع الاستعمار يستفيد من كطل ثغرة يتركونها. أفكار تتربص شرا بنا لتنسف من الأساس وجودنا الحضاري، و تستبدله بما عندها من أطر ثقافية و سياسية و اقتصادية و تربوية و حضارية، ليتأصل بذلك الوجود الاستعماري في سيطرته على مصير و رزق و موارد الشعوب المغلوبة. و إذا ما تمت الخطوة الفكرية التي تمنع على أفكار الاستعمار طريقها، فإن الأفكار يجب أن تقترب بالتطبيق، و عندها يمكن توجيه الإنذار الأخير للأجنبي بأن يحمل عصاه المسلحة على الناس، ويرحل و في ذلك إعلان يؤكد أ، الشعوب المغلوبة ليست ضعيفة بل مستضعفة، و ليس قاصرة بل هي في سن الرشد[2].

إن اقتران الأفكار بالتطبيق و تحويل الأقوال إلى أعمال هي مفاهيم أساسية صريحة في نصوص الإسلام، كما قال تعالى: "**يَا أَيُهَا الَذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونْ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونْ**"[3].

ب-نقده للمنهج الإصلاحي:

نقده لحركة الإخوان المسلمين:

لقد اتضح لنا فيما سبق كيف أ، النهضة لا يمكن أ، تتحقق إلا إذا أحدث تغييري في الأفكار، و أن الانتقال من واقع عقيم إلى واقع تسوده الحركة و التغيّر يتطلب تغييرا في الأفكار و الذهنيات الفاسدة، و هذه الظاهرة تنبّه إليها الغربيون و هم يعاون من الجمود الفكري و التسلط الكنسي في العصور الوسطى، لذلك أعلنوا ثورة فكرية تجاه الموروث الهش، و لجئوا في ذلك إلى العقل باعتباره المحك الوحيد الذي يعنيهم للخروج من هذا الواقع المتأزم. و إذا كان **مالك بن نبي** هو الآخر أحس بهذا القلق تجاه الركود الذي عرفته المجتمعات الإسلامية، فإنه عمل على توجيه النقد للمنهج الذي تبنته الحركات الإصلاحية، لعله في ذلك تتنبه إلى الخلل الذي أوقف مسيرة

([1])- مالك بن نبي، **شروط النهضة**، تر/عبد الصبور شاهين، مكتبة عمار، دار العروبة، القاهرة، الطبعة 2، سنة 1961م، ص:131.

([2])- د/ أسعد السمحراني، **مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا**، مرجع سابق، 1980، ص:186-187.

([3])- **سورة الصف**، الآية: 2-3.

النهضة، خاصة و أن المجتمعات الإسلامية تملك من العباقرة الذين بإمكانهم توجيه أفراد مجتمعاتهم نحو التقدم و الرقى، و ليس ذلك بعزيز عليهم ما داموا يملكون أعظم منهاج رباني يتمثل في القرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة.

و بخصوص موقف **مالك بن نبي** من الحركة الإسلامية الجديدة يصرح بأنه لا يملك كل المصادر حولها، و لذلك لم يقدم نقدا تفصيليا لها. إن دراسة لحركة الإخوان المسلمين.

جاءت ضمن السياق العام لتجربة الإصلاح في العالم الإسلامي، فهو يقول بصريح العبارة: "إننا لم نهتم هنا بالتسلسل الخارجي للحديث عن هذه التجربة، و على العموم فإ، محاولة هذه الحركة هي تخليص العالم الإسلامي من فوضاه الراهنة، و من هنا كان عمل الحركة في التاريخ الإسلامي المعاصر أول محاولة إيجابية لاستحداث تركيب عضو تاريخي"[1].

فقد انطفأ إشعاع الفكرة القرآنية في نفس إنسان ما بعد الموحدين حيث انحصرت العلاقة بين هذه الفكرة و هذا الإنسان في المجال الفكري، ذلك أن الآية القرآنية لم تكن لتستخدم في منهجها إلا بوصفها وسيلة منطقية تساق لغرض تعليمي"[2]، لقد وظفت كمجرد أدلة و براهين، و بلاغة و تفسير، و بيان، و هذه المناهج برأيه عميقة لا تمس الروح و النفس بشكل مباشر يؤثر في ضمير ما بعد إنسان الموحدين"[3].

و ذهب **مالك بن نبي** إلى أن هذه الحركة الجديدة قد أعادت للفكرة القرآنية صفاءها في ضمير الإنسان المسلم إذ "كان من أثر تلك الحركة ... إن جدّدت القيمة القرآنية في ذاتها فأصبحت قيمة ناشطة و وسيلة فنية لتغير الإنسان"[4].

و لاحظ أن زعيم الحركة لم يكن مفسرا أو متكلما أو متكلما و لا فقهيا. فلكي يتم تغيير الفرد لم يستخدم زعيم الحركة سوى الآية القرآنية، و لكنه كان يستخدمها في الظروف النفسية عينها الذي كان يستخدمها النبي **صلى الله عليه و سلم** و صحابته من بعده، هذا هو السر كله: أن تستخدم الآية كأنها فكرة موحاة لا فكرة محررة مكتوبة"[5].

([1])- مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، تر/عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، سنة 1986، ص:160.

([2])- مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ص:157.

([3])- **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([4])- **وجهة العالم الإسلامي** ، ص157

([5])-مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي** ، ص:158.

إن هذا المنهج التجديدي أتاح له تبليغ الفكرة القرآنية و التأثير في سماعه تأثيرا عميقا و فعالا، أو قانونا محررا، بل كان يتفجر كلاما حيا، و ضوءا آخذا يتنزل من السماء، فيضيء و يهدي، و منبعا للطاقة و يكهرب إرادة الجموع"[1].

إن هذا الزعيم (حسن البنا) في نظر **مالك بن نبي** كشف عن عبقرية فذة في توظيفه للفكرة القرآنية، التي لم تكن فكرة مجردة تمس مجال الفكر وحده، بل إنها أيضا مست الضمير و الوجدان، و من خلال هذا التأثير المزدوج تولّدت الفعالية في الإنسان، و كان النجاح حليفه في خلق تفاعل حيوي بين الفكر و العمل[2].

النزعة العلمية الفعالة:

لقد استفادت الحركة الجديدة من أخطاء الحركات الإصلاحية، التي سبقتها فتيقنت أنه لا فائدة من الخطب السياسية، و الألفاظ الحماسية التي لا تجدي نفعها، بل أن العبرة بالكلام الذي يفجر الطاقات و الهمم في النفوس، لا الكلام الذي يخذرها في أحلامها الزائفة"[3].

إن هذه النزعة نلمسها من مقارنة **مالك بن نبي** بين عملية المآخاة التي طبقتها الحركة الجديدة، و بين الأخوة في الدين الذي نادى به "**الأفغاني**" حيث أكد كما أوضحنا سابقا إن العملية الأولى قامت على فعل ديناميكي إذ حاولت "التأليف بين أعضاء المجتمع، تأليفا يحمل معنى المشاركة في الأفكار و الأموال"[4].

و بهذا العمل تغيّرت نظرة المصري إلى الحياة، حيث أدرك أن الطريق الوحيد لنيل مطالبه هو طريق الواجب "إن نتائج هذه الفاعلية أدت إلى تغيير وجوه الحياة في البلاد فأنشأت المصارف و الصحافة القوية لتوجيه الثقافة و الصناعة لخلق العمل و توجيه الأموال قصد استثمارها في حياة الفرد التي هي: قاعدة الروح و قاعدة المادة"[5].

أما مبدأ الأخوة الذي نادى به "**الأفغاني** فهو مجرد مبدأ نظري منفصل عن الواقع الملموس.

هذا، و تتجلى النزعة العملية لهذه الحركة أيضا من خلال أقوال مؤسسها، قوله، "أما إيثار الناحية العلمية على الدعاية و الإعلانات، فقد أثارها في نفس الإخوان و دعا

([1])- **المصدر نفسه**، ص:159.
([2])-**المصدر نفسه**، ص:158-159-160.
([3])-مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي** ، ص:158-159-160.
([4])-**المصدر نفسه** ،ص:156.
([5])- **المصدر نفسه**، ص:160.

إليها في مناهجهم أمور: منا ما جاء في الإسلام خاصا بهذه الناحية بالذات، و مخافة أن تشوب هذه الأعمال شوائب الرياء فيسرع إليها التلف و الفساد و منها نفور الإخوان الطبيعي من اعتماد الناس الدعاية الكاذبة، و التهريج الذي ليس من وراءه عمل و منها ما كان يخشاه الإخوان من معالجة الدعوة بخصومة حادة، أو صداقة ضارة، ينتج عن كليهما تعويق في السير أو تعطيل عن الغاية ... كل هذه أمور وضعها الإخوان في ميزانهم و أثروا أ، يسيروا في دعوتهم بجد، و إسراع و إن لم يشعر بهم إلا من حولهم، و إن لم يؤثر ذلك إلا في محيطهم"[1].

و في النهاية يرى مالك بن نبي أ، هذه الحركة الجديدة "تعد أول محاولة إيجابية في التاريخ الإسلامي المعاصر، بل هي في رأيه تمثل أول جهد يستهدف إعادة بناء المجتمع الإسلامي مسترشدا بالتخطيط الذي وضعه المهندس الأول محمد صلى الله عليه و سلم[2].

2-تقويمه للحركة التغريبية الحديثة:

يعرف **مالك بن نبي** الحركة الحديثة بأنها: اتجاه عام سواء كان فكريا أو أدبيا، أو سياسيا، أو اقتصاديا ينجو من منحى الغرب بغرض بلوغ النهضة.

و قد تركز تقويمه لهذه الحركة على منهج الاقتباس من الغرب مع بيان الأوجه الهشة فيه.

و يتحدد منهج الاقتباس من الغرب في النقاط التالية:

أ-البعثات الطلابية إلى الغرب.

ب-اتجاههم في بناء الحضارة قائم على تكديس منتجاتها.

ج-محاكاة الغرب في منظومته الفكرية الإيديولوجية.

د-محاكاته في نظامه السياسي الاقتصادي.

أ-البعثات الطلابية إلى الغـــــــرب:

يرى **مالك بن نبي** أن إرسال الطلاب على شكل بعثات علمية تجاه الغرب إنما يفقد المنهجية العلمية و التخطيط العقلاني، و كذا الأهداف الإستراتيجية التي تراعي الحاجات الضرورية و الجوهرية للبلدان الإسلامية.

([1])- الإمام حسن البنا، **مجموعة الرسائل**، ص:129.
([2])- مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ص:160-161.

إن هذه البعثات في نظره لم تتصل حقيقة بالثقافة الحية للغرب، و إنما عملها اقتصر على تحصيل معلومات جامعة أو حرفة، دون أن تنفذ إلى روح الثقافة الغربية. فالطالب المسلم في رأيه حين اتجه إلى الغرب لم يتصل حقيقة بالطاقات الحية التي شيّدت فعلا الحضارة الغربية في شتى الميادين، و تجلت في عمل الفلاح و الحرفي و العالم في المصنع و العالم و المفكر.

إن هذه الطاقات هي التي تخلق القيم الأخلاقية و الاجتماعية و تضمن الاستمرارية و التجديد، إنما تمثل "الفاعلية الواقعية التي يتقدم بها المسيحي اليوم على المسلم"[1].

لقد أعرض الطالب المسلم في نظر مالك بن نبي عن هذه الظواهر الحية و الفعالة، وراح يتجه بنظره إلى مظاهر سطحية للحضارة الغربية، التي لا يرى فيها أي تطور للحضارة و إنما يرى منها منتجاتها"[2]. فهو لا يرى المرأة التي تجمع قبضات العشب لأرانبها، و إنما يرى تلك التي تصبغ أظافرها و شعرها و تدخن في المقاهي و الندوات"[3].

إن الطالب المسلم لم يقرأ الغرب قراءة نقدية، بذلك مازال يجهل تاريخ حضارتها، كيف تكونت، و "كيف أنها في طريق التحلل و الزوال، باعتبارها تقوم على التناقضات و تتعارض مع القوانين الإنسانية، و لأن ثقافتها لم تعد ثقافة حضارة. إنها استحالت بتأثير الاستعمار و العنصرية إلى (ثقافة إمبراطورية)" [4].

إن هذا الانحراف النظري في رأي مالك بن نبي يرجع إلى "خضوع الطالب المسلم إلى القيود النفسية التي صنعت بيئة ما بعد الموحدين، تلك التي تؤول في آخر الأمر إلى احتمالين: إما هو طاهر مقدس، أو طاهر حقير، دون أن تعرف بينهما وسيطا"[5]، و هذه النظرة تجاه الحضارة الغربية جعلت الطالب المسلم لا يرى منها إلا جانبيها السطحي.

و الاستعمار في نظر **مالك بن نبي** هو الذي ساهم في خلق هذا الوضع المتردي متعمدا في نشر نفايات تحليل (المستعمر) عبدا للاقتصاد الأوروبي"[6].

([1])- مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، مصدر سابق، ص:68-69.
([2])-**المصدر نفسه**، ص:67.
([3])-**المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.
([4])-مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي** ، ص:68.
([5])-**المصدر نفسه** ،ص:66.
([6])- **المصدر نفسه**، ص:64.

لقد وضح مالك بن نبي أن الطالب المسلم "قد اقتبس من مادية أوروبا اتجاهها البرجوازي أكثر مما اقتبس اتجاهها البر ولتياري أي منطقها الجدلي"[1] و هذا يدل على انعدام الفاعلية في المنهج الاقتباسي للحركة الحديثة.

ب-اتجاهات البعثات إلى تكديس منتجات الغرب:

إن الحضارة في مفهوم مالك بن نبي بناء و هندسة و الحضارة الفعلية هي التي تلد منتجاتها لا العكس، و لهذا يرى أنه "من السخرية أن نعكس هذه القاعدة حين نريد أن نصنع حضارة من منتجاتها"[2]، هذا هو الخطأ الشنيع الذي وقعت فيه الحركة الحديثة عندما اتجهت في بناء الحضارة إلى تكديس عدد هائل من الأشياء، حيث ضمن أنها بهذا العمل تكون قد كونت حضارة، و هي بذلك أغفلت أن الغرب لن يبيعها روحه و أفكاره مع أشيائه، إن هذا القصور برأيه إنما يدل على "ما تتصف به الحركة الحديثة من طابع بدائي، إذ ليست الحضارة تكديسا للمنتجات، بل هي بناء و هندسة"[3].

ج-محاكاة الحركة الحديثة للغرب في منظومته الفكرية:

إن هذا العمل الذي قامت به الحركة خطير لأنه يمس في نظر **مالك بن نبي** بشكل مباشر "المنظومة الفكرية الإسلامية، و السبب الجوهري في رأيه يرجع إلى أ، المسلم سيواجه من خلال هذا الاقتباس مشكلة من طراز تاريخي عضوي ... و هي أن الحياة الاجتماعية محكومة بقوانين خاصة، شأنها في ذلك الحياة العضوية[4].

و يعطي **مالك بن نبي** لقوله هذا شاهدا حسيا تجريبيا يتمثل في عملية نقل الدم من جسم لآخر فكما أن لكل جسم خصائصه العضوية الخاصة به، كذلك لكل مجتمع خصائصه النفسية، و الاجتماعية، حيث ليست كل القيم الاجتماعية و الثقافية قابلة للتداول"[5].

إن خطأ المجتمع المسلم يتمثل في ظل يقتبس من الغرب دون وعي، و نتيجة ذلك أدى التقليد الأعمى إلى خلق الفوضى في الميادين الفكرية و الخلقية و كذا في الميادين السياسية. و هذه الفوضى تعود بالأساس إلى الخليط من الأفكار الميتة دون فرز أو غربلة هذا، و نحن نتكلم عن الاقتباس الأعمى للحركة المستعارة التي انفصلت عن إطارها التاريخي و العقلي في أوروبا من بينها "فكرة التقدم" التي قامت بدور ريادي في تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، و يعود سر نجاحها إلى النظرية الوضعية لـ

([1])- **المصدر نفسه**، ص:69.
([2])- مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص:47.
([3])- مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ص:69.
([4])- مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ص:69.
([5])- **المصدر نفسه**، ص:81.

(**اوجيست كونت**) و نظرية التطور لـ "**داروين**" ... لكن هذه الفكرة بحكم خمودها الإشعاعي، فقد أصيبت بنكسة خلال الحرب العالمية الثانية بحيث لم يعد لها أندى وقع في أوروبا"[1].

و لكن، و رغم فقدان العوامل الفكرية لفاعليتها -عند أهلها- في التأثير على الثقافة الغربية إلا أنه كان لها صدى كبير في العالم الإسلامي المغرم بكل ما هو جديد، حيث أنشأت عدة نواد و رابطات تحمل هذه الفكرة منها، "رابطة الاتحاد و الترقي" في تركيا، كما أنشأت نوادي بهذا الاسم في الجزائر ما بين 1920-1930"[2].

و هذه الأفكار الهشة المميتة قد تصطبغ بالصبغة العلمية كنظرية التطور "لداروين" القائلة أ، "البقاء للأصلح" حيث أن هذه النظرية في رأي **مالك بن نبي** أصبحت نوعا من الحكمة للأخلاقيين المحدثين، دون أن ينتبهوا إلى ما يصدق في عالم الحيوان قد لا يصدق في عالم الإنسان أي في ميدان الاجتماع حيث يعني مصطلح "الأطلح" هنا غالبا "**الأعظم بلاء**"[3].

هذا، و من الأفكار الهشة التي تعرض لها **مالك بن نبي** و هو ينتقد الحركة الحديثة، لجوء هذه الحركة إلى المذهب الماركسي الذي هو في نظره قد تجاوزه الزمن على الصعيد العالمي.

فرغم ما حققه هذا الفكر من نجاح في أوائل القرن العشرين بانبهار النخب الفكرية في الغرب به إلا أنه سرعان ما جمد، ليستعيد المفكرون استقلاليتهم الفكرية تجاهه.

إنه و رغم هذا الفشل الذريع الذي مني به الفكر الماركسي، إلا أنه استحوذ على بعض النخب الفكرية، كما لو كانوا وجدوا ضالتهم في لحظة "أرخميدس"[4].

و واصل مالك بن نبي نقده للحركات الحديثة، فبيّن أننا لا نستطيع، أن نصنع التاريخ بتقليد خطا الآخرين في سائر الدروب التي طرقوها بل أن نفتح دروبا جديدة"[5].

و أن ذلك لن يتحقق إلا بأفكار أصلية تستجيب سائر المشكلات على الصعيد الأخلاقي، أو على صعيد الأفكار الفعّالة، لتجابه مشكلات التطور في مجتمع يعيد بناء نفسه"[6].

([1])- مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**، مصدر سابق، ص:46.
([2])- **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.
([3])-مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ص82.
([4])- مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، تر/باسم بركة، أحمد شعبو، دمشق، دار الفكر، الطبعة الأولى، سنة1992، ص:161-162.
([5])-**المصدر نفسه**، نفس الصفحة.
([6])- مستشرق إنجليزي، ولد عام 1858، نشر معجم الأديان للياقوت و الإنسان للمسعاني.

إن الحداثيين بلغت بهم السذاجة في التأثر بالأفكار الوافدة المميتة، كأخذهم بنظرية **"مرجليوث"** عن الشعر الجاهلي، و على رأس هؤلاء الحداثيين "طه حسين"، حيث يعلق على هذا **مالك بن نبي** بقوله: "و من العجب أن نذكر ما تتمتع به الأفكار الحمقاء من نشر **"طه حسين"** كتابه المشهور "في الشعر الجاهلي" فهذا التسلسل التاريخي يعد تبعية لأفكار بعض قادة الثقافة العربية الحديثة للأساتذة الغربيين"[1].

يرى **مالك بن نبي** أن فرض **"مرجليوث"** لم يكن ليحدث تلك الضجة لو لم يجد ترحيبا حارا من مجلات مستعربة، و من بعض ما قام به دكاترة عرب محدثون مثل الدكتور **"صباغ"** الذي جعل من هذه النظرية حقيقة موضوعية في تاريخ الأدب العربي"[2].

إن هذه الأفكار الغربية قد تستثمرها بعض النخب في غفلة، مثال ذلك أن المجتمع الأوروبي يدين بالحكمة القائلة "كل إنسان لنفسه و الله للجميع" تسمع في أحاديثهم و تلمسه في بعض سلوكهم"[3].

إن هذه الحكم في رأي "مالك بن نبي" لا تصدق على المجتمع الإسلامي الذي يقوم على التآزر و التكافل الاجتماعي.

و كان من الأجدى الأخذ بما يوافق خصوصيات هذا المجتمع حيث تصبح الحكمة: (الفرد للمجموع و المجموع للفرد".

إن هذه النماذج الفكرية في رأي مالك بن نبي تعد خطيرة على المجتمع الإسلامي الذي يحاول تقويم واقعه المتردي و عليه وجب تفاديها إذا تجلى أثرها السيئ و بدأ إفلاسها في الغرب"[4].

د-محاكاة الغرب في النظام السياسي و الاقتصادي:

إن النظام السياسي الغربي يرتبط ارتباطا وثيقا بمنظومته الفكرية، و لذلك يرى **مالك بن نبي** أننا لا يمكن أ، نسقط على العالم الإسلامي، نظرا للاختلاف بين التركيبتين الغربية و الإسلامية.

يظهر هذا الاختلاف عند التعمق في النظام السياسي الغربي الذي يعاني من شرخ عميق، يتجلى في الانفصام بين السياسة و الأخلاق حيث أن الغرب أصبح ينظر إلى

([1])- مالك بن نبي، **الظاهرة القرآنية**، ص:56، أ،ظر: المنجد في الأعلام، ص:626.
([2])- مالك بن نبي، **الظاهرة القرآنية**، نفس المصدر، ص:57.
([3])- مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، مصدر سابق، ص:81-82.
([4])-**المصدر نفسه**، ص:82.

ما حوله بمنطق المصلحة الذاتية، لا بمنطق العدل، و هو الأمر الذي أدى إلى إقصاء الأخلاق في العلاقات السياسية و الاقتصادية و حل مكانه مبدأ الخسارة و الربح.

و الغرب هو الآخر يعاني من صراع بين الرأسمالية و الفكرة الماركسية و انطلاقا من هذه المعطيات فإن مجيء النظام السياسي الغربي مر عبر مخاض عسير، نتيجة تطورات تاريخية متشابكة، و لذلك فاقتباس التجربة بكل ما تحمله من تناقضات، دون تمحيص و غربلة ،يعني الوقوع في الفشل، لأن الواقع الإسلامي تختلف معطياته عن الواقع الغربي.

و لهذا أكدّ **مالك بن نبي** "أن بناء النظام السياسي الإسلامي، لن يخرج الأمن عمق الإرث الحضاري و محيطه الأصيل، و هو ما يعني بصيغة أدق أن صناعة السياسة هي في أخر الأمر صناعة الثقافة"[1].

و يحدد **مالك بن نبي** العلاقة الوظيفية بين الثقافة و السياسة فيقول: "فإذا شيدنا حديقة في مدينة كالجزائر أو القاهرة، أي إذ غيّرنا الإطار الثقافي في أي بلد من بلدان العالم الثالث، نقوم بعمل سياسي لا مزيد عليه[2].

هذه الملاحظات التي تطرح مشكلة في العالم الثالث يمكن لأي منها أ، يلاحظها في التاريخ يوميا، حيث تكشف لنا تجربتنا التأثير المشترك لعوامل من أصناف ثلاثة:

الصنف الأول يتصل بالثقافة التي تريد صنعها.

و الصنف الثاني يتصل بـ (لا ثقافة) موروثة نريد تصفيتها.

و الصنف الثالث يتصل بشيء نسميه (ما ضد الثقافة) و هو يفرض علينا أن نكون في انتباه مستمر تجاهه.

و علاقة السياسة بالثقافة تمر حتما بهذا الثالوث، و هي علاقة تتطلب بخصوص الثقافة في بلد من العالم الثالث أن نفكر في نفس الوقت في القوى غير الواعية التي تمثل (اللاثقافة).و القوى الواعية التي تمثل (ما ضد الثقافة)، و القوتان كلتاهما تبدوان قوة مشتركة في تعمل في المحيط الاجتماعي"[3].

ويعتبر النظام الاقتصادي في نظر **مالك بن نبي** مرآة عاكسة للنظام السياسي ذلك: "أن الاقتصاد ليس سوى البعد السياسي على نشاط إنساني معين"[4].

([1])- مالك بن نبي، **بين الرشاد و التيه**، دار الفكر المعاصر، دمشق، سورية، الطبعة الثانية، سنة 2001، ص:89.
([2])- **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.
([3])-مالك بن نبي، **بين الرشاد و التيه** ، ص89.
([4])-**المصدر نفسه** ، ص:75.

و لهذا فإن العلم إذا تجرّد من الأخلاق فإنه يجر حتما إلى وضع اقتصادي مناقض للأخلاق سواء أكان ذلك في الإطار الوطني أم في الإطار الدولي"[1].

فمالك بن نبي إذن يربك السياسة بالأخلاق، كما أنه لا يستثني من ذلك الجانب الاقتصادي، حيث "بقدر ما تبقى السياسة مرتبطة بمبادئ أخلاقية معينة، يبقى الاقتصاد وفيا للمبادئ ذاتها"[2].

إن هذا الموقف المخزي للعلاقات الاقتصادية بين الدول الغنية و الدول الفقيرة المتخلفة يتبيّن بوضوح من خلال صور الاستغلال المفرط لثروات العالم الثالث. و نظرا إلى هذه العوامل المرعبة، يحذر **مالك بن نبي** من خطورة اقتباس النظام الاقتصادي الغربي، مؤكدا في ذلك الوقت على ضرورة بناء اقتصاد قائم على أساس أخلاقي ينبع من الثقافة الذاتية للأمة، و الانفتاح الإيجابي على التجارب الاقتصادية المعاصرة.

إن التطبيق اللاعقلاني في الجانب الاقتصادي يوضحه **مالك بن نبي** من خلال استشهاده بأنموذج التجربة الاقتصادية الأندونسية التي وظفت في خطة العالم الألماني "**شاخت**"[3] أب الاقتصاد الألماني، و قد كانت إندونيسيا تملك من الإمكانيات المادية و البشرية ما يؤهلها لنجاح التجربة ذلك "أن الله من عليها أخصب تربة صالحة لاستنبات كل أنواع الخيرات في مناخ يجعلها تنتج في ثلاث مواسم، و أسكن فيها مائة مليون من العباد يعجب الإنسان من ذكائهم و من ذوقهم الجمالي المرهق"[4].

و لكن مع كل هذا فشل المخطط[5] الذي أرجع سببه **مالك بن نبي** إلى إهمال العالم الألماني "**شاخت**" للمعادلة الاجتماعية للفرد الاندونيسي، حيث كان مخططه مستمدا من تجربته بألمانيا المنهارة عقب الحرب العالمية الثانية.

يقول **مالك بن نبي** في هذا الصدد: "لا شك أن "**شاخت**" قد وضع مخططه على الشروط التي يقدمها الألماني مباشرة، و بطريقة آلية مرحلة التطبيق، ثم لا شك في أنه طبق هذه الشروط آليا في التجربة الاندونيسية، أي أنه وضع مخططه على معادلته الشخصية، بوصفه فردا من المجتمع الألماني، بينما التجربة الاندونيسية بطبيعة الحال على أساس معادلة الفرد الاندونيسي "فعثرت التجربة الاندونيسية

([1])-**المصدر نفسه** ، نفس الصفحة.
([2])-**المصدر نفسه** ، نفس الصفحة.
([3])- **شاخت**، ولد عام 1877 سياسي، أفلح في استقرار المارك الألماني، و أصبح وزيرا للاقتصاد من سنة 1934 إلى سنة 1937، توفي عام 1970.
([4])- مالك بن نبي،**المسلم في عالم الاقتصاد**، تر/عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سنة 1979 ص:94.
([5])-**المصدر نفسه** ، ص:93.

بسبب خطأ مخططها "**شاخت**" في تقدير المعطيات البشرية في المجال الاقتصادي"[1].

إن الفشل في رأي **مالك بن نبي** يرجع إلى القراءة المتسرعة للمفكر الألماني، تجاه الواقع الإندونيسي الذي يختلف عن الواقع الألماني. فالواقع الإنساني على حد رأيه لا يغير بمعادلة واحدة بل بمعادلتين:

أ-معادلة بيولوجية تسوي بين الإنسان و أخيه الإنسان في شتى أنحاء المعمورة، و هي هبة من الله تعالى للبشر أجمعين[2]، تتمثل في اشتراك الخصائص النفسية و العقلية.

ب-معادلة اجتماعية يختلف الأفراد من مجتمع إلى آخر، بل و في عصر إلى آخر تبعا للاختلاف في درجة النمو أو التخلف. إنها هبة المجتمع لأفراده بصفتها القاسم المشترك الذي يطبع سلوكهم، و يحدد فاعليتهم أمام المشكلات"[3].

و قد أكدت التجارب النهضوية بضرورة قيام اقتصاد قائم على أسس حضارية، فهو "ليس قضية إنشاء بنك و تشييد مصانع فحسب، بل هو قبل ذلك تشييد للإنسان، و إنشاء لسلوكه الجديد أمام كل هذه المشكلات"[4].

و هكذا، فإن الارتباط بين الاقتصاد و القيم الحضارية هو العامل الجوهري لإعطاء دفعة قوية للنهوض بالاقتصاد، و هذا لا يتحقق في ذاته إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار "قيمة الإنسان ذلته في رتبة القيم الاقتصادية الأولى، على شرط أن تكون إرادته شرارة مقتبسة من إرادة حضارية"[5].

لقد استنتج **مالك بن نبي** من خلال تتبعه لعمل الحركة الحديثة أن الحركة الحديثة لا تعدو على هذا المستوى يتخبط فيه مجتمع فقد توازنه التقليدي، إذ هي في مكونة في جوهرها من عناصر خالية من المعنى، مأخوذة عن المدرسة الاستعمارية"[6]، أضف إلى ما قام به طلاب الجامعات في أوروبا الذين لم يبذلوا جهودا مثمرة إلا في نقل نفايات لا تصلح للاستعمال[7].

([1])-مالك بن نبي ،**المسلم في عالم الاقتصاد**، ص:93.
([2])- **المصدر نفسه**، ص:94.
([3])-**المصدر نفسه** ، نفس الصفحة.
([4])-**المصدر نفسه** ،ص:61.
([5])-مالك بن نبي ،**المسلم في عالم الاقتصاد** ، ص:66.
([6])- مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، تر/عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر، دار الفكر دمشق، الطبعة الأولى، سنة 1986، ص:64.
([7])- **المصدر نفسه**، نفس الصفحة.

بعد هذا الذي مرّ علينا ما هي الأسس التي بني عليها مالك بن نبي موقفه تجاه مسالك التغيير؟

من خلال دراستنا لموقف مالك بن نبي يتبيّن لنا أنه يعالج قضايا مسالك التغيير وفق منهج يتركز على أسس متينة تمثل المعالم الجوهرية لتفكيره، و من هذه المعالم:

أ-التزامه بالسنن النفسية الاجتماعية في عملية التغيير، حيث التغيير لا يمكن أن يتخطى مراحل أساسية كالدخول في المعترك السياسي دون إحداث تغيير متدرج.

ب-ضرورة ممارسة النقد الذاتي داخل كل اتجاه إصلاحي لأن النقد يدفع الباحث إلى تجاوز العثرات و عدم الوقوع في حلقة مفرغة.

ج-التحلي بضوابط معرفية في التفاعل الحضاري مع الغرب ذلك أن الأفكار الوافدة إلينا من الخارج ليست كلها صالحة للتطبيق.

د-زرع روح الفاعلية و النشاط الإبداعي الخلاق في النفس الإنسانية، لأن الفاعلية برأيه مفتاح تحقيق النهضة.

ه-الرجوع إلى ما نهل منه سلفنا الصالح، و ذلك بتحقيق الشروط النفسية التي نزلت في الفكرة القرآنية.

2.2.4.3تصوره لمستقبل الإسلام:

لقد ظل العالم الإسلامي في نظر مالك بن نبي متجمدا خلال قرون طويلة، الشيء الذي أدى إلى وجود القابلية للاستعمار، لكن اليوم يتحرك نحو الغد المأمول، حيث استعاد تاريخه و حركته، و دبت فيه الحياة[1].

و مهما الفوضى الراهنة في العالم الإسلامي، إلا أنه يمكن أن نلتمس فيه اتجاهين:

أولهما: فهو ذو طابع تاريخي ناتج عن تأثير القوى الداخلية التي تظهر في صورة فعل و رد فعل للاستعمار و لقابليته، و هذا الاتجاه يتمثل في حركة الإصلاح، و الحركة الحديثة اللتان تخلعان على العالم الإسلامي صورته الحديثة.

و أما ثانيتهما: أن الحضارة تنتقل إلى مستواها العالمي، أي أن مركز الجاذبية لانتقال الإسلام سيتجه من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى آسيا. فالعالم انتهى

([1])- مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، تر/عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر، دار الفكر دمشق، الطبعة الأولى، سنة 1986م، ص:181.

تمركزه على شواطئ البحر الأبيض حيث العالم بفعل الحربين العالميتين اتخذ شكلا مخروطيا ذا قطبين: إحداهما في الشرق و الآخر في الغرب[1].

و من نتائج هذا التغيير العالمي أن أصبح العالم الإسلامي يخضع لجاذبية جاكرتا، كما يخضع لجاذبية القاهرة أو دمشق.

و هذا الانتقال نحو آسيا سيحدث نتائج نفسية و ثقافية و أخلاقية و اجتماعية و سياسية، تتحكم في حركته و مستقبله، بل في تشكيل روح (الإرادة الجماعية) لهذا العالم أولا و قبل كل شيء[2].

و إذا كان العالم الإسلامي في ظل تمركزه بالبحر الأبيض المتوسط، قد سيطرت عليه العادات و الخرافات، و ظل الإسلام إما ملكيا عند الباشاوات و سادتهم أو قبليا بدويا عند الأمير العربي البربري، فإن الاستعمار عرف كيف يجني ثمار ذلك التخلف بتدعيم طبقة النبلاء و تقوية الصفوة المزعومة بالإبقاء الوضع على حاله[3].

و من هنا مستقبل الإسلام في نظر **مالك بن نبي** سيعرف حركة قوية و هو يتنقل من البحر الأبيض المتوسط نحو باكستان و إندونيسيا، و هي بلاد يتفوق فيها جانب الفكر و لعمل على جانب العمل التقليدي المغلق.

إن العالم الإسلامي في هذه المناطق قادر على تجديد نفسه حيث يتحول إلى طاقة ناشطة و يتعلم طرق الحياة[4].

و من العوامل المشجعة على إحداث هذا التجديد في نظر **مالك بن نبي** هو أن الجو الاجتماعي الجديد ليس مؤلفا من طبقات، بل هو شعبي، إضافة إلى عامل الاستعداد الفطري للعمل الذي يتحلى به الرجل الأسيوي، و الذي يمكنه من استغلال ثروات بلاده و بناء حضارة جديدة[5].

هذا، و يبين مالك بن نبي أن وجود الإسلام بجانب الهند المعقدة سيساعد على تكوين جو من العالم الروحي، لأن الحياة بهذه المنطقة تختلف عما هي عليه بالبحر الأبيض، حيث المسيحية في نظره لمل تدفع الإسلام على تغيير نفسه ذلك أن الاتصال بينهما و بين الإسلام لم يكن يعمل على بعض الفكرة الروحية، التي تجعل كل منهما يعمل على

([1])- **المصدر نفسه**، ص:182.
([2])-مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ص182.
([3])- **المصدر نفسه** ص:183.
([4])- **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.
([5])- **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

تغيير المجتمعات، بل احتكاك المسيحية بالإسلام كان بدافع استعماري، و هذا بحكم ما حدث من تزوير للفكرة المسيحية.

و ظاهرة التزوير التي لمسها المسلم في المسيحية جعلته يشعر بنوع من التسامي و العلو على الرجل الغربي، و رغم أن هذا الأخير يملك إمكانيات السيطرة، إن روح التسامي في نظر **مالك بن نبي** دفعت المسلم إلى التخلف و عدم إدراك واقعه و محاولة تغييره يقول **مالك بن نبي**: "إن البلاد الأخلاقية التي اتصفت بها الشعوب الإسلامية على شواطئ البحر الأبيض إنما تعود في جانبها الأكبر إلى ذا النوع من التسامي المتدين"[1].

و لهذا يرى **مالك بن نبي** يرى مالك بن نبي أن روحانية الإسلام ستجد فعاليتها أكثر بالمناطق الأسيوية عكس البحر الأبيض، لأنه سيحتك بمجموعة كبيرة تعيش في عالم صوفي ملتهب، هذا الوجود الديني و المتميز الذي ولد الشعراء و المفكرين أمثال "**إقبال**"، و الذين اتصفت عبقريتهم بالجمع بين العقل و العاطفة (أي بين الفهم و الانفعال) [2].

إنه الحوار بين القلب و الفكر الذي كان ينقص في نظر مالك، إنسان ما بعد الموحدين الذي كان يعيش على شاطئ البحر الأبيض.

هذا، و بيّن مالك مستقبل الإسلام و انتشاره في بروع آسيا، موضحا كيف أن شعوب هذه المناطق رغم إصابتها بداء الاستعمار، إلا أنها تملك من الاستعدادات و القدرات ما يجعلها تتجاوز محنتها، و التكيف في جور الإسلام، نظرا لما تملك من خصائص متمايزة.

فالاحتلال الهولندي الذي امتد قرونا بإندونيسيا لم يترك عددا كافيا من المثقفين، إلا أن هذه القلة المثقفة، استطاعت الوقوف في وجه الأمراض العام التي خلفها المستعمر، هذا العمل الجبار يرجع إلى ما يتميّز به الرجل في "جاوة" من حس عال، و احترام النظام و التنظيم و حب التعمّق في جزئيات الأشياء[3].

و في "باكستان" رغم الاحتلال البريطاني لها، إلا أنه وجد فيها من المفكرين الكبار ما يدافعون عن الإسلام الحديث أمثال "السيد أمير علي" و "محمد إقبال" الذي هو من التلاميذ القدامى في جامعة أكسفورد[4].

([1])-مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي** ، ص:184.
([2])- **المصدر نفسه**، ص:185.
([3])-مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي، ص185**
([4])- **المصدر نفسه**، ص:186.

هذه هي تصورات **مالك بن نبي** لمستقبل الإسلام، و هذه هي معالم الطريق التي يسير الإسلام في اتجاهها إلى تجديد نفسه، مع الأخذ بعين الاعتبار في نظره الظروف و الملابسات الدولية، التي قد تساعد على تحقيق انتشاره أو العكس.

و لكن السؤال الذي يثير فينا الحيرة، هو كيف للمسلم أ، يحتك بالتراث الهندي، الذي يختلف عنه في الكثير من المزايا؟

إن المسلم يعتقد بوجود إله واحد، و يؤمن بالروح و الجسد كونها حقيقة واحدة، و الناس عنده سواسية، بينما التراث الهندوسي يؤمن بأرباب متعددة، و يفضل الروح على الجسد، و يقسم الناس إلى طبقات، كما يدعوا إلى الاستسلام، فكيف يمكن للمسلم إذن أن يستلهم التراث الهندوسي مع وجود هذه الفوارق الأساسية في النظرة إلى بعض مجالات الكون و الحياة الإنسانية؟

يقول الأستاذ **"محمد المبارك"** حول هذه المسألة: "إن النهضة الرائعة في اندونيسيا وبعض البلاد الآسيوية الإسلامية، فوظيفة العالم العربي ومكانته في قلب هذا العالم الإسلامي، فقد أوتي القدرة على التوفيق بين القيم المادية و الروحية و إقامة التوازن بينهما، و إنه يحسن تفهمه للغة القرآن الكريم و لرسالة الحياة الجامعية، بين المقاييس المادية و الروحية، و الجهد المادي الخلقي، لا يزال محط الأمل و موضع الرجاء، دون أن ينقص ذلك من قيمة الشعوب الإسلامية الأخرى، و من خصائص عبقريتها، و لو أن العالم العربي لا يزال وعيه لم يبلغ العمق المطلوب، و لا يزال شعور الاضطلاع يحمل عبء هذه الرسالة الحضارية الكبرى ضعيفا خافتا، و لكن القوى المحركة، و البواعث النفسية و الدفعات الإيمانية، لا تسير بسرعة منتظمة، بل بوثبات تتجاوز حساب الحاسبين.

و إذا كان الإسلام يدعو إلى استعمال العقل و التفكير في شؤون الكون و الحياة، و العمل على رقي العمران و بناء الإنسان، كما أنه ربط فوز الإنسان بالعالم الآخر من خلال ما يقوم به من أعمال صالحة في هذه الحياة، فإن هذه الصور لا نجد لها معنى في التفكير الهندي، حيث الحياة الروحية التي ينشدها حكماء الهند لا تقيم وزنا كبيرا للتصورات العقلية، إنها المقتصد و الغاية و كل ما عداهما، فإنما هو هراء في هراء، إن أكبر همها هو التجرد من الرغبة[1].

([1])- د/عبد الرحمان مرحبا، **من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الطبعة الثالثة، سنة 1983، ص:63.

إن عمل "**النحلة الهندية**"، لا يبالي بحل المشاكل، بل لا يوجد موضوع للتفكير، فالسالك عندما يقبل على التأمل، فإن تأمله يكون بدون محتوى[1].

ثم إن الحقيقة عندهم و هو سراب و خداع، و من العبث أن نبحث عن شيء وراء هذه الظواهر، إذ لا شيء وراءها على الإطلاق[2].

ثم إن النفس خلودها و فناؤها في "النرفانا" فصور لا معنى لها في علم النحلة الهندية إلى حد بعيد، و لا هي تهمها في قليل و لا كثير ففضلا عن أنه لا قيمة لها من حيث الخلاص، بل أن هذا الخلاص لا سبيل إليه إذا ما اعتقد المرء بالوجود الجوهري للأنا، و ديمومته و قيامه بذاته[3].

إن غاية الخلاص عند الهندي هي استئصال شأفة الرغبة و التوقف عن العمل، و في التزام هذين القانونية ينجو المرء من الفناء، و يضمن البقاء في حاضر أبدي لا يلحقه موت[4].

إن التفكير الهندي رغم مزاياه العظيمة، و رغم جاذبيته، و تأثيره في طرق التفكير في القرون الوسطى الإسلامية، و المسيحية إلا أنه لا يصلح أن يكون أساسا لفلسفة عقلية إيجابية معطاء[5].

إنه ينكر الوجود و الواقع و الشخصية الإنسانية، إنه حطم الإنسان و هو يدعي تأليه الإنسان[6]، و إذا كانت كل الحضارات "إنسانية" بمعنى أنها صناعة الإنسان و إبداعه عندما يرتقي في سلم التمدن و الاستقرار، لكن التصور الفلسفي لمكانة الإنسان في الكون يختلف من حضارة إلى أخرى، إلى الحد الذي يصبح فيه التميز في هذا التصور من الخصوصيات التي تتميز بها حضارة عن أخرى، رغم أن جميعها تشترك في كونها من صنع هذا الإنسان.

أ-ففي فلسفة الحضارة الهندية -النرفانا و معها بعض مذاهب التصوف الفلسفي، الغنوصية الباطنية، العرفانية -تهميش للإنسان، يجعله الحقير، المجبر، الذي لا سبيل لخلاصه إلا بالفناء في المطلق أو في ذات الله"[7].

([1])- **المرجع نفسه**، ص:64.
([2])-د/عبد الرحمان مرحبا، **من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية**، ، ص:65.
([3])-**المرجع نفسه**، ص:64.
([4])-**المرجع نفسه**، ص:66.
([5])-د/عبد الرحمان مرحبا، **من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية**، ، ص:68.
([6])- **المرجع نفسه**، ص:69.
([7])- د/محمد عمارة، **عالمنا حضارة؟ ...أم حضارات؟**، دار الوفاء، الطبعة الأولى، سنة 1997، ص:27.

ب-و في الفكر المادي-الذي يطبع الحضارة الغربية منذ جاهليتها اليونانية و حتى نهضتها الأوروبية الحديثة- تأليه للإنسان، يجعل منه سيد الكون الذي يستطيع بالحرية و الاختيار -أن يحل الحرام الديني، و يحرم الحلال الديني، في شؤون العمران الدنيوي.

ج-أما في الإسلام فإن مكانة الإنسان في هذا الكون، هي مكانة الخليفة لله، سبحانه و تعالى، و في عمارة هذه الأرض، و الإنسان سيد في الكون، وليس سيد الكون، لأنه خليفة لسيد الكون[1].

و هكذا، إذا كان مالك بن نبي يرى أن الإسلام سيجد ضالته بآسيا، عكس ما حدث له بالبحر الأبيض المتوسط، بحكم العوائق الاستعمارية، فإنه يبدوا أ،ه سيصطدم أيضا في آسيا ببعض الخصوصيات، التي تتميز بها هذه الحضارة، و التي قد تمنع من التفاعل معها، إذ هناك من التمايز ذات الموضوعات المتغايرة بتغاير مواريث و فلسفات و عقائد أمم هذه الحضارة.

إن المسلمين حقيقة انفتحوا على الحضارة الهندية القديمة، و أخذوا فلكها و حسابها، إلا أنهم لم يأخذوا فلسفتها، و هم كذلك انفتحوا على الحضارة الفارسية القديمة، و أخذوا منها التراتيب الإدارية، لكنهم وجهوا النقد و النقض لمذاهبها، و فلسفتها و ديانتها[2].

و إلى جانب هذا فحضارات الشرق الأقصى و من بينها الحضارة الهندية هي حضارة محلية لم تمتلك -عبر تاريخها- إمكانات المنافسة العالمية، و العطاء و التأثير و القبول خارج الحدود، و من ثم فهي لا تمثل خصما حضاريا لغيرها[3]، إذ أن فلسفتها للحياة تقوم على الاستسلام، و رفض التعمق في البحث عن أسرار الكون، و مثل هذا التفكير لا تنسجم مع التصور الإسلامي.

5.3مشكلات النهضة: معاييرها و شروطها.

لقد تناول المفكرون المسلمون أبعادا مختلفة في تشخيص مشكلة المجتمع المسلم في العصر الحديث، إلا أنه اقتصر بعضهم على بعد معين، اعتبره ينحصر في العقيدة أو السياسة، لكن **مالك بن نبي**، نظر إلى المشكلة على أنها في جوهرها مشكلة حضارة. و قد ضمّن هذه الرؤية أبعادا متعددة بتعدد الحضارة، و لذلك اختار لكل كتبه عنوانا هو "مشكلات الحضارة". و إذا كنا قد تعرضنا في فصل سابق إلى نقاط جوهرية في

([1])-**المرجع نفسه** ،ص:6-27-28.
([2])-د/محمد عمارة، **عالمنا حضارة؟ ...أم حضارات؟ المرجع السابق** ،ص: 41.
([3])- **المرجع نفسه**، ص:6-7.

تأسيس الحضارة، فإننا في هذا الفصل الخاص بشروط النهضة، سنتعرض إلى نقاط أخرى، لها أهمية في بعض النهضة، و تكوين الحضارة، و من هذه النقاط:

أ-شبكة العلاقات الاجتماعية:

يقول مالك بن نبي أن أول عمل يؤديه المجتمع عند ولادته، هو بناء شبكة العلاقات الاجتماعية، و قد ضرب مثلا على ذلك بميلاد المجتمع الإسلامي في المدينة حيث آخى (النبي صلى الله عليه و سلم) بين المهاجرين و الأنصار[1]. و قد وضح أن المجتمع عند أفوله تتمزق شبكة علاقاته الاجتماعية، كما كانت حالة المجتمع الإسلام ..... الذي غزاه الاستعمار.

إن مالك بن نبي يذكر الحديث الشريف: "يوشك أن تتداعى عليكم الأمم" و فيه يصف النبي صلى الله عليه و سلم كثرة المسلمين آنذاك بأنها "غثاء كغثاء السيل" فيقول: "لقد كان هذا الحديث ضربا من التنبؤ و الاستحضار، استحضار صور العالم الإسلامي، بعد أن تتمزق شبكة علاقاته الاجتماعية، أي لا يعود مجتمعنا، بل مجرد تجمعات لا هدف لها كغثاء السيل"[2]، و يضيف قائلا: "و لا ريب أن جيلنا الحاضر يدرك الحديث أكثر مما يدركه أصحاب النبي. لأنه يصف في مضمونه العالم المستعمر و القابل للاستعمار، الأمر الذي تعرضنا فيه لتجربة شخصية[3].

و في رأي مالك بن نبي أن المجتمع يتكون من ثلاث مركبات هي: أشخاص أفكار و أشياء، و المجتمع مطالب بتحويل الكائن الذي صفته أنه "فرد" في "نوع" أي صفته شبه البيولوجية إلى "شخص" أي إلى كائن اجتماعي، و الثقافة هي المحيط الذي يصوغ كيان الفرد و يقوم به الروابط الاجتماعية.

و إذا كان المجتمع يتألف من "أشخاص" و "أفكار" و "أشياء" فإن غنى المجتمع و تطوره، يقاس بما فيه من أفكار لا من أشياء، و يضرب بن نبي على ذلك مثالا بألمانيا المدمرة بعد الحرب العالمية الثانية، حيث خسرت "أشيائها" بالكامل و لكنها استعادتها بسهولة بسبب غناها بالأفكار[4].

([1])- مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**، تر/عبد الصبور شاهين، ج1، طرابلس، لبنان، 1974، ص:25.
([2])- **المصدر نفسه**، ص: 25.
([3])- مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**، مصدر سابق، ص:26.
([4])- **المصدر نفسه** ، ص:34.

ثم أن الأفكار لوحدها لا تكون فعّالة عند تفكك شبكة العلاقات الاجتماعية، و يضرب بن نبي مثلا الإسبان الذين هزموا مسلمي الأندلس، فهم كانوا أفقر بالأفكار من المسلمين بكثيٍ، و لكن شبكة علاقاتهم الاجتماعية كانت أقوى و أفضل[1].

هذه الملاحظة التي يقدمها مالك بن نبي، تذكرنا بما حدث للحضارة الإسلامية أثناء هزيمتها على يد المغول الذي لا ثقافة عنده، إلا أن المسلمين انتصروا عليهم فيما بعد، بفضل النظام الاجتماعي الذي مثلته دولة المماليك، و بتأثير المركب الحضاري الإلهي الذي هو الإسلام.

هذا، و المجتمع كما يرى مالك بن نبي، يتراوح في كثافة شبكة علاقاته الاجتماعية بين حدين:

الجد الأول يكون فيه المجتمع في ذروة نموه، و يكون كل فرد عنده مرتبطا بجموع أعضاء المجتمع، و أما الحد الثاني فهو حالة المجتمع المتفسخ، الذي تحول إلى أفراد لا رابط يجمعهم.

و المجتمع في حالة انحطاطه، هو مجتمع مريض تضخمت ذوات أفراده ليصبح وجود العامل الجماعي المشترك صعبا أو مستحيلا.

و يرى **مالك بن نبي** أن هذه المرحلة ما يميزها، هو أن الأفراد في المجتمع المتفسخ و بسبب تضخم ذواتهم، و انحلال الروح الجماعية، يدو النقاش بينهم فيحاول كل منهم في النقاش، لا لأن يصل إلى حلول للمشاكل، و لكن أن يجد أدلة و براهين[2].

إن تورّم الذات تعبير على أن العلاقات الاجتماعية أصبحت غير صحيحة، و لذلك يتساءل مالك بن نبي، ماذا كان يمكن أ، يحدث في المجتمع الإسلامي المريض، الذي شاهدناه لاحقا ما حدث في المجتمع الإسلامي الصحيح، حيث عزل الخليفة خالد بن الوليد؟

لقد كان فعل الخليفة دون عقدة، و تقبلّه خالد دون عقدة أيضا، لأن علاقتهما كانت علاقة سوية منزهة، و لو حدثت هذه الحادثة في المجتمع الإسلامي بعد قرنين، أو ثلاثة لتزلزل هذا المجتمع[3].

ب-القابلية للاستعمار:

([1])-مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع** ، ص:35.
([2])-، **المصدر نفسه**، ص:40.
([3])-مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع** ، ص:41.

لقد تعرّض مالك بن نبي إلى هذه النظرية و هو يعالج إشكالية النهضة في العالم الإسلامي، حيث يرى أ، البلد الذي يتعرض للاستعمار، لابد و أن تكون أحواله الروحية و الاجتماعية و الاقتصادية قصد أشرفت على غايتها، و هذا ما شجع المستعمر على غزوه.

إن الفرق شاسع في رأي مالك بن نبي بين بلد مغزو، و بلد مستعمر، إذ في "الحالة الأولى يوجد تركيب سابق للإنسان و التراب و الوقت، و هو يستتبع فردا غير قابل للاستعمار، أما الحالة الأخرى، فإن جميع الظروف الاجتماعية التي تحيط الفرد تدل على قابليته للاستعمار، و في هذه الحالة يصبح الاحتلال الأجنبي استعمارا قدرا محتوما. فالاستعمار إذ ليس السبب الأول، الذي نحمل عليه عجز الناس و خمول عقولهم في مختلف بلاد الإسلام..." [1].

و من هذا المنطلق، فإن مالك بن نبي يرى أ، النشاط و الفعّالية تموت في المجتمع القابل للاستعمار، قبل أن يتعرض للاستعمار.

إن نظرية (الاستعمار و القابلية للاستعمار) ترتبط عند مالك بن نبي بآرائه حول الماضي الإسلامي، فهو يرى أن هناك نوعين من الأفكار:

1-الأفكار القاتلة.

2-الأفكار الميتة.

و على هذا، فإن أي مجتمع يفرز الأفكار الهدامة، فإنها تتحول إلى مجموعة من الأفكار الميتة تقف أمام طريق نموه، بقول **مالك بن نبي**: "إن الأفكار الميتة التي ورثناها عن عصر ما بعد الموحدين، أخطر علينا من الفئة الأخرى، و يكفينا أن نلقي النظر على قائمة الأفكار التي فعلت فعلتها في المجتمع الإسلامي... إن هذه الأفكار التي باعتبارها أصبحت ميتة تكون الجانب السلبي في نهضتنا، قد كانت تكون الجانب "القتال" في عهد التقهقر و الأفول... غير أنها بكل تأكيد لم تولد بباريس، أو لندن، بل ولدت بفاس و الجزائر و تونس و القاهرة ... إن كل مجتمع يصنع بنفسه الأفكار التي ستقتله، لكنها تبقى بعد ذلك في تراثه الاجتماعي" أفكارا ميتة". تمثل خطرا أشد عليه من خطر "الأفكار القاتلة" إذ الأولى تظل منسجمة مع عاداته و تفعل مفعولها في كيانه من الداخل"[2].

([1])- مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، دار الفكر المعاصر، دار الفكر دمشق، الطبعة الأولى، سنة 1986، ص:93-94.

([2])- مالك بن نبي، **في مهب المعركة**، دار الفكر، دمشق، ط3، سنة 1981، ص:130.

و الحقيقة أن الأفكار القاتلة و الأفكار الميتة، وجهان لعملة واحدة، ذلك أن الفكرة تكون قاتلة عندما تكون جديدة الظهور في مجتمع معين، فتعمل على تدمير مقومات الأمة، و هي لا تختفي، لكنها تتحول إلى مجموعة من الأفكار الميتة في جملة من الاعتقادات الفاسدة، التي تحجب الحقيقة التي تعمل على تنوير المجتمع و تقدمه.

إن هذه الأفكار الميتة هي المكون الأساسي لظاهرة القابلية للاستعمار.

هذا، و يشير **مالك بن نبي** إلى أن الاستعمار كان لديه من الوسائل، و القدرات، ما يعمل على تدمير الأمة، بل و الأهم من ذلك، قد كوّن علماء في علوم الأديان و الاجتماع و التاريخ و النفس، و قد استطاع بفضل توظيف الأبحاث العميقة أن يتتبع كل ما مر على المسلمين في تاريخهم الطويل، و في حياتهم الحديثة، إنه كان يشجع كل فكرة تساعد على الجهل، و التخلف، و أ، يخلقها لم يبتكرها المسلمون أنفسهم، و لهذا فإن الاستعمار يتلون بألوان عديدة، حتى يصعب على المسلم أن يرى الصلة بين المظهر الأول و الثاني، و لذلك كان الاستعمار فنانا ماهرا كما يقول مالك بن نبي، إذ أنه كان لا يخرج أعماله كلها إخراجا فنيا خداعا... و يذلل آية عقبة تعترض طريقه، مستخدما في ذلك علمه الواسع و مقدرته ... نجده يحول بين الشعب و بين إصلاحه نفسه، فيضع نظاما للإنسان و الإذلال و لتخريب"[1].

هذا و يرى مالك بن نبي أن هناك عاملين أساسيين هيأ للاستعمار من نشر الفساد في البلاد المستعمرة و هما:

1-عجز عالم أفكار المسلمين، بتأثير أوضاعهم العقلية، أن يفهموا عمل الاستعمار إلى حين يثير ضجيجا كضجيج الدبابات أو الطائرات، أو حين يكون من تدبير قارض، أو من عمل خبير في شؤون الصراع الفكري "فإنه يغيب عن فكرنا لسبب واحد و هو أنه لا يثير ضجيجا"[2]، و هذا رادع إلى أ، المسلمين لم يبلوروا بعد نظاما واقعيا لصد عدوان هذه الطائفة، و منعها من الوصول إلى أهدافها.

2-إن المسلمين لا يعرفون و هم يصدون العدوان، عما يدافعون، فتراهم يعطون الجهد الأكبر لمحاولة الدفاع عن الإسلام، كدين أو نظام نظري بعيد عن أرض الواقع، أي كمجموعة نصوص أو تراث فقط. و هذا في حد ذاته عجز، إذ ليس المطلوب من المسلمين أن يدافعوا عن الإسلام "الذي يجد في جوهره حصانته من

([1])- مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، مصدر سابق، ص:110.
([2])- مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**، ص:81.

عطاء الله إليه، و لكن في تعليم المسلمين كيفية الدفاع عن أنفسهم، بما في الإسلام من وائل الدفاع"[1].

و إن مالك بن نبي قد أوضح ما قام به المستعمر من تدمير لحياة المسلمين فإنه بيّن أيضا أن الكارثة التي ألمت بهم، كانت سببا في يقظتهم، ذلك أن الشعوب الإسلامية قد استسلمت لنوم عميق، بعد خروجها من دورة حضارتها[2].

إنه و بعد أن تم التخلص من الاستعمار المباشر في غالبية أقطار العالم الإسلامي، إذ استمر التخلف الاقتصادي، و الانحلال الاجتماعي، و تفاقمت التبعية للغرب في كل شيء حتى في الغذاء.

يقول **مالك بن نبي**: "لقد انتهى المجتمع الإسلامي منذ عدة قرون إلى آخر أطوار حضارته، و هو اليوم في مرحلة ما قبل التحضر من جديد، و لقد بذل جهودا كبيرا خلال ما يقرب من قرن لكي تدب فيه الحركة من جديد، و لكن إقلاعه يبدوا ثقيلا و بطيئا إذا ما قورن ببعض المجتمعات المعاصرة، مثل اليابان أو الصين الشعبية التي كانت متأخرة عنه بكثير".[3]

و" يرى المفسرون أن هناك نوعين من المعوقات: فالمدافعون عن الاستعمار يرجعون إلى الإسلام سبب تأخير الإقلاع، و أما حاملوا لواء النظرية القومية فيعززونه إلى الاستعمار، و كلتا النظريتين خطأ جسيم ... فالفريق الأول، عندما يحمّل الإسلام مسؤولية كل هذه الأوضاع يتجاهل حقيقة صارخة، و هي أن الاستعمار مسؤول عن النصيب الأكبر من الفوضى التي تسود العالم الإسلامي اليوم.

أما الفريق الثاني، فعندما يلقي اللوم كله على الاستعمار، يحاول أن يخفي سياسة التملق التي يتبعها مع شعوبه كونها لا تخفف من مضاء المشكلة و حدتها بل العكس تزيد الطين بله، مما يشبه عملية تخدير لهذه الشعوب، تلفتها عن مسؤوليتها في ورطتها الحالية"[4].

و تعرّض **مالك بن نبي** إلى نقطة جوهرية في عملية النهضة ألا و هي القيام بالواجب، و عدم الاكتفاء بانتظار الحصول على الحقوق، إن هذه النقطة يكررها مالك بن نبي في جميع مؤلفاته، حيث نظره أن الطريق الوحيد للحصول على الحقوق هو القيام بالواجبات.

([1])- مالك بن نبي، **الصراع الفكري في البلاد المستعمرة**، دار الفكر المعاصرة دار الفكر، دار الفكر دمشق، الطبعة3، سنة 1988، ص:72.

([2])- مالك بن نبي، **شروط النهضة**، مصدر سابق، ص:203.

[3] - مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، تر:ذ/عبد العظيم علي، مكتبة عمار، القاهرة، سنة 1971،ص97

([4])- مالك بن نبي، **مشكلة الافكار في العالم الإسلامي** ، ص:98.

إن قابليتنا للاستعمار ترجع في نظره إلى كوننا متقاعسين عن أداء واجباتنا، ذلك أننا نرفع شعارات كبيرة ، و لكننا نتكاسل عند تنفيذ الخطوات الصغيرة، التي لو ننفذها لبنينا المجتمع المثالي القادر على الدفاع عن حقوقنا.

و من الأمثلة التي يضربها مالك بن نبي، مثال اليهود الذين كانوا يعيشون في الجزائر أيام استلام حكومة موالية للنازية في فرنسا بعد الاحتلال الألماني لها عام 1940، فقد منعتهم الحكومة من الانتساب إلى المدارس و صدرت قوانين اقتصادية ضدهم، و لكن المدارس التي أغلقت قامت بدلا منها مدارس، تطوعية في البيوت تضم أساتذة، و مهندسين، و أطباء، و محامين، و تجارتهم أنقذوها بفضل تضامنهم الداخلي[1]. و يذكر **مالك بن نبي** في مضمار المقاربة مع المسلمين كيف، امتنع المتعلمون المسلمون أن يفعلوا شيئا مماثلا لمكافحة داء الأمية في المجتمع الجزائري، و في رأيه هذا هو التغيير الداخلي، الذي يعد الشرط الجوهري في تحقيق التغيير الخارجي، إنه سيستشهد مثالا بقوله تعالى: **"إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ"**.[2]

يقول **مالك بن نبي** أن الاستعمار لا يمانع في تمحور سياستنا حول مبدأ مطالبته بإعطائنا حقوقنا، دون أن نفعل نحن شيئا لتغيير وضعنا الاجتماعي، و قيامنا بالنهضة المطلوبة، إنه يؤكد على هذه النقطة دوما حتى حين يتكلم عن العلاقة بين تجمعان البلدان النامية، و البلدان المتقدمة. ففي مقالة عن" **"مؤتمر 77"** (*) الذي نشره في جريدة الثورة الإفريقية 5 نوفمبر 1967 ينتقد هذه الدول النامية، التي لم تحدد التزامات خاصة صارمة لكل عضو من أعضائها، بل اكتفت بمطالبة الغرب بدفع نصيب للتنمية يقول: "لقد كنا في الحقيقة ننتظر بنودا تحدد التزامات كل عضو في الوحدة، أو الجبهة الاقتصادية المزمع تشييدها، لكننا نجد في الوثيقة سوى كراسة المقترحات، التي ستقدم بنيودلهي إلى المخاطب الحاضر غير المرئي."[3]

و في الحقيقة نجد الكراسة هذه تطالب بالكثير، من العالم المصنع، إن لم نقل أنها تطالب بكل شيء، فتطالب مثلا 1% من مدخوله العام لتنمية البلدان النامية و من الناحية الأخلاقية لعل هذا جائز، و لكن المخاطب لا ينصت لهذا المنطق، و لا يتكلم

([1])- مالك بن نبي، **شروط النهضة**، مصدر سابق، ص: 209

[2] - سورة الرعد –الأية 11.

(*)- سمي بذلك لأنه يضم سبعة و سبعين دولة اجتمعت في الجزائر، أنظر: مالك بن نبي، **بين الرشاد و التيه**، ص:147 (الهامش).

[3] - مالك بن نبي ،**بين الرشاد والتيه** ، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان، دار الفكر دمشق، سورية، الطبعة الأولى، سنة 1987 ،ص130.

هذه اللغة، و هكذا انزلقت المداولات في الحديث عن حقوق العالم الثالث، عوضا أن تذكره "بواجباته" نحو نفسه"[1].

و هكذا فالنهضة عند مالك بن نبي هي مسألة داخلية أساسا، و لذلك فهو يقدم الواجبات على مبدأ الحقوق. و هو يعالج إشكالية النهضة، يشير إلى ما جرى في الجزائر حين بدأت عام 1925 نهضة كبرى بقادة العلماء الإصلاحيين، الذين بعثوا روحا جديدة في المجتمع، إذ نشأت المدارس، وامتدت النقاشات المثمرة في تجمعات الشعب الجزائري، و عمروا المساجد حتى احتج باعة الخمور لدى الحكومة (1927) و نشأت الحلقات الدراسية الليلية، التي كان روادها روادا سابقين لحلقات الدراويش. و الذي جرى كان تبديد هذه النهضة من تحت أوهام السياسة الفوقية، إذ شغلت الحكومة الزعماء بالانتخابات و المطالب. و هكذا جانبت النهضة طريقها "ميممة" وجهها شطر السراب السياسي، حيث تتوارى من ورائها بوارق النهضة و التقدم.

لقد أصبحنا لا نتكلم إلا عن حقوقنا المهضومة، و نسينا الواجبات، و نسينا أن مشكلتنا ليست فيما نستحق من راغبات، بل فيما يسودنا من عادات و ما يراودنا من أفكار، ون في تصوراتنا الاجتماعية بما فيها من قيم الجمال و الأخلاق، و ما فيها من نقائص تعتري كل شعب نائم.

و بدلا أن تكون البلاد ورشة للعمل المثمر و القيام بالواجبات، الباعثة إلى الحياة، فإنها أصبحت منذ سنة 1936 سوقا للانتخابات. و صارت كل منضدة في المقاهي منبرا تلقى منه الخطب الانتخابية، فلكم شربنا في تلك الأيام الشاي، و كم سمعنا من الأسطوانات، و كم رددنا عبارة "إننا نطالب بحقوقنا" تلك الحقوق الخلابة المغربية، التي يستسهلها الناس فلا يعمدون إلى الطريق الأصعب، طريق الواجبات"[2].

إن **مالك بن نبي** يشير في نصه إلى فرط التسيّس، حيث في نظره قد أغفلنا عن بعد النهضة الاجتماعي، و ركزنا على البعد السياسي، الذي يتمحور حول فكرة استلام السلطة لكل من يريد أن يطبق وصفته السحرية، التي تسمح لمجتمعنا بالخروج من أزمته، و مرضه الحضاري.

و بهذه العقلية تم تأجيل كل عمل نهضوي اجتماعي "صغير" بانتظار العمل السياسي "الكبير" مع أن النهضة مؤلفة من أعمال صغيرة، تتمثل في مجموعة من الواجبات الملقاة على عاتق كل فرد، و ليقوم الفرد بواجباته يجب أن، يحس بالمسؤولية، إلا أن فكرنا السياسي علّمه أمرين: أولا تأجيل كل عمل بانتظار اليوم الموعود المتمثل في

([1])- مالك بن نبي، **بين الرشاد والتيه**، ص: 148.
([2])- مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص:42-43.

التحرر من الاستعمار، أو قيام الدولة الاشتراكية، أو قيام الدولة التي تطبق الشريعة الإسلامية.

ثانيا: تعليق كل مأساة من مآسينا على عدم تنفيذ وصفه من الوصفات الجاهزة التي قامت عليها الإيديولوجية السياسية المعاصرة، إذ مشاكلنا كلها ناتجة عن: الاستعمار، أو النظام الطبقي، أو عدم تطبيق الشريعة الإسلامية.

و الاحتجاج على عدم تطبيق الشريعة الإسلامية تم بنفس الطريقة السياسية التي يصفها ملك بن نبي بأنها التمحور حول الحقوق، لا حول الواجبات، إذ لم يطرح الإنسان العربي على نفسه فكرة السير بمقتضى ما تريده منه الشريعة من بناء اجتماعي متين، بعيدا عن عيوب العشائرية و الإقليمية و المحسوبية، و تجاوز الأنانية الشخصية، و تقديم الكفاءات و وضعها في المكان المناسب و عدم تضييع الوقت.

إن هذه البنود النهضوية كان يمكن القيام بها حتى لو كانت السلطة السياسية لا تطبق الشريعة الإسلامية! و من هنا، فإن مجتمعنا أحوج ما يكون إلى ثورة نهضوية داخلية، تأتي من أسفل لا من أعلى، و إن قامت فإنها تجبر البناء الفوقي على أن يتماثل معها. و هذا معنى الحديث الذي استشهد به مالك بن نبي في أقواله: "كما تكونوا يولى عليكم" و معنى الآية **"إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ". (الرعد، الآية 11)** إنه علينا ألا ننتظر التغيير الذي يأتينا من قوة خارجية عنا، شخص، أو دولة، أو وصفة جاهزة و جيدة تحل المشاكل. يقول **مالك بن نبي**: "لا شك في أن عقائدنا السياسية تدين لتلك القيم الفاسدة للحضارة، تلك العقائد التي تمثلت عندنا اليوم في أسطورة الشيء الوحيد و "الرجل الوحيد" الذي ينقذنا ... فالتاجر الذي تنتج تجارته يجزم بلا تردد بأن النجاة في الاقتصاد، و آخرون يرون الشيء الوحيد في البيان و تزويق الكلام، و هكذا انتقل من وهم لنتخبط في وهم، و لا ندري كم من السنين سوف نقضيها لندرك عجز "الأشياء الوحيدة" عن حل المشكلة الحضارة أولا و قبل كل شيء"[1].

ج-المنهجية و الفعالية:

و هي قدرة فريدة تميّز بها مالك بن نبي في إبراز مشكلة العالم المتخلف باعتباره قضية حضارة، إنه يكشف لنا منهجيته الفذة حين حديثه عن الدورة الخالدة إذ يقول: "إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، و لا يمكن لشعب، أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، و ما لم يتعمق في فهم

(1)- مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص:215-216.

العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها، و ما الحضارات المعاصرة، و الحضارات الضاربة في ظلام الماضي، و الحضارات المستقبلية، إلا عنصر للملحمة الإنسانية منذ فجر القرون إلى نهاية الزمن"[1].

و المنهجية في فكر **مالك بن نبي** ضد الجمود و لتوقع، إنها الديناميكية في معالجة شؤون الحضارة، يقول: "فالفكرة من حيث كونها فكرة ليست مصدرا للثقافة أعني عنصرا صالحا لتحديد سلوك، و نمط معين من أنماط الحياة، فإن فاعليتها ذات علاقة وظيفية بطبيعة علاقتها بمجموع الشروط النفسية الزمنية، التي ينطبع بها مستوى قد يتغير بطريقتين: فهو عندما يرتفع تعرض له في الطريق أفكار ليست من القوى الجوهرية التي نتجت عنها الحركة التاريخية، فإذا بهذه الأفكار تتقادم ثم تختفي ... ففكرة حجر الفلاسفة التي كانت من أكبر دوافع الفكر العلمي خلال العصر الوسيط، هذه الفكرة قد ماتت منذ أعلن **لا فوازيه** نتائج أبحاثه الكيميائية .. و هو عندما يهبط ينقطع في منابع خلقية، و عقلية صدرت عنها فتكتسب هذه الأفكار وجودا صناعيا غير تاريخي، وبذلك تفقد كل معنى اجتماعي"[2].

هذا، و مالك بن نبي و هو يتعرّض لعامل التحجر الفكري، و علاقته بالوسط الاجتماعي، و زمانه، يعطينا شاهدا من التاريخ، إن العلماء رغم بروز أفكارهم، فإن هذه الأفكار لا تعطي ثمارها إذا كان المجتمع متخلفا، و لذلك يقول:"و من أمثلة ذلك أن تراث ابن خلدون قد ظهر في العالم الإسلامي، و هو مع ذلك لم يسهم في تقدمه العقلي أو الاجتماعي، لأن هذا التراث في ذلك العصر كان يمثل فكرة لا صلة لها إطلاقا بالوسط الاجتماعي"[3].

و يضيف قائلا: "و مهما يكن من شيء فليست الفكرة في تلك المرحلة هي التي تفقد وحدها معناها الثقافي و قدرتها على إبداع الأشياء بل إن الشيء نفسه يفقد أيضا مقدرته على الأفكار"[4]. كما أشار أيضا إلى أثر الفكرة و مدلولها في الوسط الاجتماعي من حيث تحضر المجتمع أو تخلفه، فيقول: "و خذ على ذلك تفاحة (نيوتن) الشهيرة و تخيّل ما كان يمكن أن تؤديه لو أنها بدلا من أن تقع على رأس ذلك الرياضي الكبير وقعت على رأس جدّه الذي عاصر عهد جيوم الفاتح؟

([1])- **مالك بن نبي شروط النهضة** ، ص:20.
([2])- مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**، ص:47.
([3])- **المصدر نفسه** ، ص:47.
([4])-**مالك بن نبي ،مشكلة الثقافة ،ص47.**

إن المؤكد أنها لم تكن لتخلق فكرة الجاذبية، بل ستكون حينئذ كومة صغيرة من الروث بعد أن أكلها جد (نيوتن) بكل بساطة"[1].

هذا، و تبرز قيمة الفعالية و النشاط الإنساني في حركة التاريخ عند بن نبي إذ يقول: "إذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع و التاريخ، و إذا سكن سكن المجتمع و التاريخ، ذلك ما تشير إليه النظرة في تاريخ الإنسانية منذ أن بدأ التاريخ، فنرى المجتمع أحيانا يزخر بوجود النشاط و تزدهر فيه الحضارة و أحيانا نراه ساكنا لا يتحرك يسوده الكساد و تغمره الظلمات ... على أنني حينما أرى في حركة التاريخ حركة الإنسان في ركوده فإن ذلك يضعني أمام مشكلة تحت عنوان الفعالية، فعالية الإنسان في التاريخ"[2].

إن التاريخ ليس مجرد أحداث زمنية تتعاقب، بل هو أحداث اجتماعية، إنه مجموعة من الأحداث المترابطة منطقيا. إن ما يجري في التاريخ متأثر بسلوكنا، و مواقفنا و إراداتنا في تغيير الأشياء، وفقا للوظيفة الاجتماعية التي حددها القرآن الكريم، و لذلك فشرط الفعالية، هو أ، ينظر الإنسان لنفسنه كصانع لتاريخ و محرك له.

و إذا كان الفرد في المجتمع قم تم عليه حالات يكون فيها فاعلا، و حالا أخرى لا يكون فيها كذلك، فإن مرد ذلك برأي **مالك بن نبي** إلى أ، الفاعلية تستثار في الأفراد حين يسود المجتمع القلق و الشعور بالخطر و الإحساس بمسؤولية البحث عن طريق الخلاص و هكذا، فوجود حواجز نفسية و تاريخية و ركام ثقافي مغاير، هو الذي يمنع أو يحد من فاعلية القيم الأصلية في الحركة الاجتماعية، فالقيم التي صنعت الحقبة التاريخية المجيدة في فضائنا العربي الإسلامي، هي القيم التي في متناول أيدينا اليوم، و لكن اختلاف الناس، و طريقة تفاعلهم مع القيم من جهة، و وجود ركام تاريخي على جوهر القيم من جهة أخرى، هو الذي يمنع عملية التفاعل الطبيعية بين إنسان هذا العصر، و القيم الإسلامية الكبرى اليت صنعت تلك الحقبة التاريخية المرجعية[3]. و لهذا يجب:

1-تغير الإنسان و إزالة ركام التخلف و الانحطاط عنه، و غشاوة النظر و ضبابية الرؤية التي تمنعانه من التفاعل المطلوب مع تلك القيم، حيث لو عاد إنسانا في وضوح رؤيته، و صفاء سريرته، و نقاء قلبه، كما كان إنساننا بالأمس، لعملت تلك القيم عملها، و دفعت بهذا الإنسان إلى اقتحام الصعاب و المجهول.

([1])-**المصدر نفسه** ، نفس الصفحة.

([2])- مالك بن نبي، **تأملات**، مقال الفعالية، ص:125.

([3])- محمد محفوظ، **الفكر الإسلامي المعاصر و رهانات المستقبل**، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، سنة 1999، ص:83.

2-تنقية الفضاء المعرفي و الفكري من الزوائد ، و هو الذي يساعد الإنسان على التفاعل الحي مع القيم الأصلية. و التجديد الثقافي المطلوب، لا يعني خلق منظومة فكرية جديدة لا تمت بصلة إلى القيم الإسلامية الكبرى، و إنما يعني إزالة ركام التخلف و الانحطاط من موقعين أساسيين:

موقع الإنسان الذي تأثر بشكل أو بآخر من عصور التخلف، و موقع القيم التي شابها بعض الزوائد التي اعتبرت بعد فترة تاريخية بأنها جزء من القيم، إن تنقية هذين الموقعين، يؤدي بنا إلى التفاعل مع منظومة فكرية قادرة على الرد الحس، على الحاجات الجديدة الناجمة عن التطور الاجتماعي بتقديم الحلول لها[1].

د-المعادلة البيولوجية و المعادلة الاجتماعية للفرد:

يتعرض مالك بن نبي في تمييزه بين المعادلتين لتجربة تاريخية يذكرها في مؤلفاته، و هي تجربة إندونيسيا في أواخر الأربعينيات حين كلفت اختصاصيا ألمانيا هو الدكتور "شاخت" بوضع مخطط للنهوض باقتصادها، و كان هذا الاختصاصي نفسه قد وضع مخططا للاقتصاد الألماني بين عامي 1933-1936 إلى نهوض عاصف.

و في اندونيسيا، وضعت إمكانيات اقتصادية تحت تصرف الخبير المذكور، هي أفضل من إمكانيات ألمانيا، إلا أن المخطط الذي نجح في ألمانيا أخفق في اندونيسيا. و السبب يقول مالك بن نبي: "لا شك أن "شاخت" وضع مخططه على الشروط التي يقدمها للشعب الألماني مباشرة و بطريقة آلية أثناء مرحلة التطبيق، ثم لا شك في أنه طبق هذه الشروط آليا في التجربة الإندونيسية، أي وضع مخططه على معادلته الشخصية كفرد من المجتمع الألماني، بينما ستجري التجربة الإندونيسية بطبيعة الحال على أساس معادلة الفرد الإندونيسي، بحيث تعثرت التجربة الإندونيسية على خطأ مخططها "شاخت" في تقدير المعطيات البشرية في المجال الاقتصادي"[2].

و يقول مالك بن نبي أن هناك لكل إنسان معادلتين: معادلة بيولوجية تسوي بين الإنسان و أخيه في كل مكان، بحيث يستطيع هذا كل ما يستطيع الآخر، إلا فيما فضل فيه بعض الأفراد عن الآخرين. و معادلة اجتماعية تختلف من مجتمع لآخر، و في مجتمع واحد تختلف من عصر إلى آخر في درجة النمو أو التخلف.

إن المعادلة الأولى فهي موهوبة من الله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم و ميزه على العالمين بالتكريم، فهي منحة منه، عز و جل إلى كافة البشر.

([1])-محمد محفوظ، **الفكر الإسلامي المعاصر و رهانات المستقبل** ، ص:84.
([2])- مالك بن نبي، **المسلم في عالم الاقتصاد**، دار الفكر، دمشق، سنة 1979، س:93-94.

أما المعادلة الثانية فهي هبة المجتمع إلى كافة أفراده، كقاسم مشترك يطبع سلوكهم، و يحدد درجة فعاليتهم أمام المشكلات بصورة تميزهم عن أفراد مجتمع آخر، أو عن جيل آخر من مجتمعهم إذا كان الفاصل الزمن كافيا لطبع المجتمع بأسلوب آخر يتفق مع معادلة اجتماعية أخرى[1].

و لكن يا ترى كيف تتكون المعادلة الاجتماعية؟ إنها إما أن تكون بطريقة تلقائية مع الأيام، و إما تكون بعمل إرادي تريد ما تفعل و تفعل ما تريد لمواجهة ظروف و ضرورات قاسية. و يضرب مثلا للحالة الثانية باليابان و الصين الحديثتين.

و المجتمع الإسلامي بدوره يجب أن يختار في طريق طويل، تاركا الأيام تصيغ معادلته الاجتماعية عبر التجارب و المحن، و إما يطرح المشكلة بصورة منهجية كما فعلت اليابان و الصين. و هو يفضل الطريقة الثانية، لأن هذا المجتمع كما يقول: "يواجه حالة طوارئ تفرض عليه أن يتخذ قرارات صارمة بالمجال الاقتصادي، كما تتخذ قيادة عسكرية قراراتها لمواجهة ظروف استثنائية"[2].

المنطق العلمي:

إن مالك بن نبي و هو يتتبع حركات الشعوب و تفاعلها مع نوازع الحياة بكل ما تحمل من معنى الصراع، يرى أن أي نشاط هادف لا بد له من منطق عملي ملموس، و فكرة المنطق هنا تعني كيفية ارتباط العمل بوسائله و معانيه، و ذلك حتى لا نستسهل أن نستصعب شيئا بغير مقياس يَسْتَمِدُّ معاييره من واقع الوسط الاجتماعية، و ما يشتمل عليه من إمكانيات.

إنه ليس من الصعب على الفرد المسلم أن يصوغ مقياسا نظريا يستنتج به نتائج من مقدمات محددة، و لكنه من النادر أن نعرف المنطق العملي، أي استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة بوسائل معنية[3]، و على هذا ما دفع النزعة الوضعية إلى التخلي عن الأفكار المثالية، و اعتبارها رجراجة لا تحتوي على أفكار تحقق نفعا. و نحن أحوج ما نكون إلى المنطق العملي في حياتنا لأن العقل المجرد متوفر في بلادنا غير أن الفعل التطبيقي الذي يتكون في جوهره من الإرادة و الانتباه فشيء يكاد يكون معدوما[4]، حيث أن السبب يكمن في افتقاد الضابط الذي يربك بين العمل و هدفه.

([1])-**مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد** ، ص:94.
([2])-**المصدر نفسه** ، ص:99.
([3])- مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**، ص:85.
([4])- محمد محفوظ، **الحضور و المثاقفة**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، سنة 2000، ص:129.

يقول **مالك بن نبي**: "إننا نرى في حياتنا اليومية جانبا كبيرا من اللا فاعلية في أعمالنا، إذ يذهب جزء كبير منها في العبث و المحاولة الهازلة. و إذا ما أردنا حصرا لهذه القضية فإننا نرى سببها الأصيل في افتقادنا الضابط الذي يربط بين العمل و هدفه، بين سياسة وسائلها، بين ثقافة و مثلها، بين فكرة و تحقيقها، فسياستنا تجهل وسائلها و ثقافتها لا تعرف مثلها العليا"[1].

و لهذا فنحن نشكو برأي مالك بن نبي من افتقادنا إلى "المنطق" في حياتنا و هو استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من وسائل معنية. إن المسلم لا يحسن الاستفادة من الوقت، و لا مما لديه من العلم و لا مما لديه من المال، و هو لا يفكر ليعمل بل ليقول كلاما مجردا، بل هو قد يبغض الأفكار المنطقية التي يمكن أن تتحول إلى عمل و نشاط.

فكرة التوجيـــه:

و لتحقيق الفاعلية النهضوية المنشودة يطرح مالك بن نبي فكرة التوجيه إذ الحضارة عنده كما مرّ معنا مكونة من ثلاثة عناصر هي "الإنسان و التراب و الوقت".

و "الإنسان" هو الرجل و المرأة، و هو يفرد للمرأة فصلا خاصا يطرح فيه مشكلتها في منظوره الدائم: "نحن لا نرى لزاما علينا أن يكون تناولنا للموضوع بعيدا عن تلك الأناشيد الشعرية التي تدعو إلى تحرير المرأة، فالمشكلة لا تتحدد في الجنس اللطيف فحسب، أو في بنات المدن، أو بنات الأسر الراقية، بل فوق ذلك تتعلق بتقديم المجتمع و تحديد مستقبله و حضارته"[2].

هذا، و يعود إلى مشكلة الفرد و توجيهه إذ يرى أنه يؤثر في المجتمع بثلاثة مؤشرات: بفكره و عمله و ماله، و من هنا يجب أن نبحث في توجيه الثقافة و توجيه العمل و توجيه رأس المال[3].

و التوجيه عنده "قوة في الأساس و توافق في السير و وحدة الهدف[4]، فكم من طاقات و قوى لم تستخدم لأننا لا نعرف كيف نكتلها و نستثمرها، و كم من طاقات و قوى ضاعت فلم تحقق هدفها حين زحمتها قوى أخرى صادرة عن نفس المصدر، متجهة إلى نفس الهدف!فالتوجيه هو إدارة ملايين السواعد العاملة و العقول المفكرة في أحسن الظروف الزمنية المناسبة لكل واحد من هذه الملايين. "و في هذا تكمن فكرة

([1])- مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص:96.
([2])-مالك بن نبي، **شروط النهضة** ص:159.
([3])- **المصدر نفسه** ، ص:145.
([4])-مالك بن نبي، **شروط النهضة** ص:107.

توجيه الإنسان الذي تحركه دفعة دينية، و بلغة الاجتماع: الذي يكتسب من فكرته الدينية معنى "الصناعة" و معنى "الكفاح"[1].

توجيه الثقافة:

النهضة عند مالك بن نبي تصفية للعادات و التقاليد في الإطار الخلقي و الاجتماعي من رواسب الماضي الضارة، و بناء فكر جديد هو الفكرة الإسلامية الصافية التي تخطط للمستقبل، و هذا الهدف شغل الإصلاحيين أمثال "محمد عبده" و "عبد الحميد بن باديس" و أما المنهج الجديد للتفكير فعناصره أربعة: الدستور الخلقي، و الذوق الجمالي، و المنطق العلمي و الفن التطبيقي أو "الصناعة".

أ-التوجيه الأخلاقي:

هدف الأخلاق عند مالك بن نبي هو تحديد قوة التماسك للأفراد في مجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية، و هذه القوة ترتبط في أساسها بغريزة الحياة في الجماعة عند الفرد، و التي تتيح له تكوين القبيلة و العقيدة الدينية و الأمة. و يرى مالك بن نبي أن القبائل الموغلة في البداوة تستخدم هذه الغريزة لكي تتجمع، و المجتمع الذي يرغب في تكوين حضارة بفعل تجمعه يستخدم نفس الغريزة، ولكنه يهذبها و يوظفها بروحية خلقية سامية، هذه الروح الخلقية منحة من السماء إلى الأرض، يأتيها من نزول الأديان عندما تولد الحضارة و مهمتها في المجتمع ربط الأفراد بعضهم ببعض، قال تعالى: "وأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لَكِنَ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"[2].

ب-التوجيه الجمالي:

يشير **مالك بن نبي** عنصر الجمال و هو يتحدث عن عناصر الثقافة، حيث يرى أنه لا يمكن لصورة قبيحة أن توحي بالخيال الجميل فإن مستوى النفس يتجلى منظرها أقبح، و المجتمع الذي ينطوي على صورة قبيحة، لابد أن يظهر أثر هذه الصور في أفكاره و أعماله و مساعيه[3]، و الأفكار باعتبارها روح الآمال التي تعبّر عنها أو تسيرها إنما تنبثق من الوجه الحسن الموجود في الحدود الاجتماعية، التي تظهر على صورته الحقيقية. فالذوق الجميل الذي ينطبع فيه فكر الفرد يجد الإنسان في نفسه نزوعا إلى الإحسان في العمل و البحث عن الكريم من العادات.

ج-الصناعة (الفن التطبيقي):

([1])-**مالك بن نبي ،شروط النهضة** ،ص **107.**

([2])- **سورة الأنفال**، الآية: 63.

([3])- مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**، ص:81.

إن الصناعة بالنسبة للفرد وسيلة لكسب عيشه، وبناء مجده، و لكنها للمجتمع وسيلة للمحافظة على كيانه و استمرار نموه[1].

هذا، و الاختلاف مضامين الثقافة يؤدي إلى الآثار على المستوى المجتمعي. فإذا كانت مضامين الثقافة تحتوي على الديناميكية و الفعالية، فإن هذه الثقافة تكون عاملا "من عوامل النهوض بالحياة الاجتماعية.، لكن إذا كان مضمون الثقافة فاسدا يحتوي على أفكار هشة، فإنها تؤثر على فاعلية المجتمع، و تحرّكه نحو النمو و التطور.

إن التاريخ يوضح لنا أن عالم الأفكار هو الأساس في عملية النهوض الحضاري لأي مجتمع و أن بقاء نظام الأفكار و استمراره سليما و فاعلا ينقل المجتمع إلى الواقع الأحسن.

و هذه المسألة أشار إليها مالك بن نبي و أكد عليها بقوله: "لقد أرانا تاريخ ألمانيا الحديث، كيف أن بلدا شهد الانهيار الكامل لعالم أشيائه، قد استطاع باحتفاظه بعالم أفكاره أن يبني كيانه من جديد"[2].

إن العناصر الثقافية التي قام مالك بن نبي ببلورتها، يهدف من خلالها البحث عن أطر علاجية للمشكل الحضاري، الذي تعانيه الأمة العربية و الإسلامية من تخلف و انحلال، في شتى الميادين الاقتصادية و الفكرية، و هذا الجهد الفكري الذي بذله، إنما هو بمثابة درع واق تجاه حركة التفكك، التي كان يتعرض لها المجتمع العربي و الإسلامي من جراء المرحلة الاستعمارية البغيضة.

يأتي اهتمام مالك بن نبي بالثقافة في البناء الحضاري، كونها تلخّص تجربة المجتمع و وعيه بذاته و محيطه، و جاء هذا الاهتمام في زمن بدأ الابتعاد التدريجي عما هو ثقافي و دوره التاريخي، إلى ما هو سياسي كنظرية و ممارسة"، و هكذا يمكن القول على حد رأي "برهان غليون"، أن الاهتمام بالثقافة لذاتها، أي لما تعبر عنه و ما تمثله في النسق الاجتماعي بقي اهتماما ضعيفا في العالم العربي، و اعتبرت الثقافة بشكل عام أقل قيمة في أحداث التغيير الاجتماعي، من العوامل السياسية و الاقتصادية، بالرغم من حصول المناقشة كلها تقريبا في الميدان الثقافي، و لم يهتم الدارسون العرب بالثقافة إلا من زاوية ما تستطيعي أن تقدمه من دعم للممارسة السياسية أو الاجتماعية[3].

([1])-مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة** ، ص:88.

([2])- مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**، ص:34.

([3])- برهان غليون، **اغتيال العقل**، مجلة الثقافة العربي "بين السلفية و التبعية"، الجزائر، سنة 1990، ص:22.

هكذا، فإن مالك بن نبي و هو يهتم بالثقافة، إنما هو بذلك يعيد لها الاعتبار ضمن الدور الذي تلعبه في عملية النهضة، و ترقية الجوانب المعرفية و الاجتماعية، إنه لا يعزل الثقافة كأفق و حركة عن حقل الحضارة التفاعل مع الآخر الحضاري، كما أنه عمل على بلورة نظرية الثقافة من واقع اتصال و التحام الثقافة بالحضارة، باعتبارها أحد الحقول الأساسية للحضارة.

و العناية بالثقافة يعني أن نصل إلى مستوى التجديد و الإبداع، لأن بقاء الأمة تستهلك الثقافات و الأفكار التي صنعها الغير في ظروف تختلف عن ظروفنا إنما يحوّلها إلى أمة جامدة لا تستطيع الحركة و الانسجام مع متطلبات العصر. إن التجديد الفكري و الثقافي، هو الذي يكشف عن عوامل الحركة و التطور و يعمّق البناء الاجتماعي.و إذا كانت الحركة الوهابية كمثال لمنطق حركة التجديد الحضاري للأمة قد مضى على تجربتنا ما يقرب من قرنين و نصف، و هي فترة ليست بالقصيرة عن عمر البناء الحضاري، و إذا قارناها بتجارب مجتمعات أقل شأنا من حيث التجربة التاريخية و المرجعية الفكرية، و كذا الإمكانيات البشرية و المادية، إنها انطلقت معنا أو جاءت بعدنا، و تمكنت بفعل حركتها من اختصار الزمن، و بناء قدراتها الذاتية، و الظهور على مسرح الأحداث كقوة فاعلة.

و لهذا يمكن التساؤل: أين نحن اليوم من أهداف حركة التجديد الحضاري للأمة؟ و إلى أي حد نجحها من هذه الأهداف؟ و ما ذا بقي؟ و أي حد نجحنا في التناسب بين الجهد و الوقت؟ و هل بإمكاننا أن ننجز أكثر مما أنجزنا؟ و لما لم ننجز ذلك؟ هل حاولنا طرح هذه التساؤلات و بحثنا بجدية عن أجوبة علمية و موضوعية مقنعة؟

إذا كان بعضنا قد طرح هذه التساؤلات، و حاول الإجابة عليها فإلى أي مدى وفقت هذه المحاولات؟

و إلى أي مدى استفيد من هذه المحاولات في ترشيد حركة التجديد الحضاري، و توجيهها على مستوى الدعوة و الدولة و المجتمع و الأمة؟

إنه و بالنظر إلى الواقع المحزن الذي يطبع حياة الأمة، فإن ضعفا كبيرا سجل في هذا المجال، حيث حركة النهضة الإسلامية الحديثة ظلت محرومة من سند وظيفي فعال ألا و هو المراجعة و التقويم.

و بما أن العالم بأسره يعيش زلزالا إيديولوجيا و سياسيا، فإننا أحوج ما نكون إلى فن مراجعة ظروفنا و إمكاناتنا و ثغراتنا، لا لكي نجلد ذواتنا و نبكي على أمجادنا،و إنما لكي نستعيد عافيتنا و نسد ثغراتنا و نستوعب نقاط الإيجاب في هذا التطور الرهيب الذي يجري في العالم، و نبتعد عن السيئ منه. ذلك أننا أمام هذه التطورات السريعة

بحاجة إلى الاتزان النفسي و المعرفي لدراسة الأمور تقويم القضايا و الأفكار، و لا شك أن فن المراجعة هو الذي يوفر هذا الاتزان، و يبعدنا ردود الأفعال المرتجلة القائمة على استلاب ذاتنا و نفي إمكاناتنا و فضائلنا التاريخية و المعاصرة[1].

هذا، و لا شك أن النكبات المتلاحقة، و التطورات السريعة في مختلف الميادين، تلزمنا جميعا أفراد و جماعات الوقوف مع النفس، و التأمل في هذه المتغيرات، و دراستها بموضوعية و اتزان، و العمل وفق النتائج المترتبة على ضوء تلك الدراسة الموضوعية. أما أن نصرخ مع الصارخين حول ضرورة المراجعة الشاملة لوجودنا، و كياننا، و أفكارنا، و منظوماتنا المعرفية و المنهجية، دون أن ندرك تداعيات هذه الصرخة أو المنهجية المقترحة لعملية المراجعة، فلا شك أن هذه الصرخة أو المنهجية ستؤدي إلى المزيد من الانهيارات، و نبذ الأبنية الذاتية التي تشكل المحصلة النهائية جزءا من حظوظ دفاعنا الحضارية[2].

إن من يتأمل التاريخ يجد أنه ليس هناك مجتمع مكتوب عليه قدر الهزيمة دائما، أو الانتصار دائما و لكن الهزيمة و الانتصار ظاهرتان إنسانيتان تتحكم فيهما جملة من العوامل الذاتية و الموضوعية.

فالمجتمع الذي تتوفر فيه عوامل المنعة و التفوق، يحقق ذلك على الصعيد العلمي، أما المجتمع الذي يتخلى عن تلك العوامل لاشك، أنه يصاب بالإحباط و التقهقر.

و عليه فالرؤية الموضوعية تعني الابتعاد عن التهويل و التهوين، و البعد عن الشطط و المغالاة، و عن اليأس و التأييس المؤدي إلى الاستقالة المعنوية الفردية و الجماعية.

هذا، و أن فقدان الثقة بالنفس من جراء نكسة أو هزيمة يؤدي إلى الاستسلام للمنظومات الفكرية و الثقافية للغالب، و هذه المسألة أشار إليها العلامة ابن خلدون عندما أكد على أن المغلوب مولع بمحاكاة الغالب و الاقتداء به، لأنه يعتقد أن انتصاره راجع إلى صحة مذاهبه و عوائده.

كما أن تجريح الذات و جلدها على مختلف المستويات، ما هو في حقيقة الأمر إلى اختفاء الابتعاد المثقف أو المفكر عن مواطن الإبداع الفكري و الثقافي و الأدبي، و تحولهم إلى غابة للماضي، و حجابا لعدم رؤية الحاضر. فالقراءة الموضوعية

([1])- محمد محفوظ، **الإسلام، الغرب وحوار المستقبل**، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، سنة 1989، ص:154-155.

([2])- **نفس المرجع**، ص:155.

للظواهر الاجتماعية و الإنسانية المفرحة منها و المحزنة، تحتم علينا النظر إلى الأمور انطلاقا من أسبابها الحقيقية و عواملها المباشرة[1].

و بناء على هذا، و تأسيسا لحقيقة التطورات السريعة التي تجري في العالم تتأكد ضرورة التقيد بالقوانين الموضوعية في دراسة التطورات و الظواهر الاجتماعية و الإنسانية الأخرى، لأن توفر هذه القوانين، هو الذي يمكننا من قراءة هذه التطورات و التحولات بشكل سليم و دقيق، و من هنا فإن فن المراجعة يقتضي:

1-توفير أسس الفحص و المقدمات العقلية و النظرية لعملية المراجعة، إذ لا يعقل أن تتم المراجعة انطلاقا من ردود أفعال، أو محاكمات سياسية، بل من الضروري أن تتوفر التقنية التاريخية و المعاصرة لفحص الظاهرة فحصا موضوعيا و متزنا.

2- التقيد بالمنهج الموضوعي دون جلد الذات، أو تحميل الآخر المجهول أساس الإخفاق و عوامل الهزيمة.

و على هذا، فإن فن المراجعة يقتضي أيضا دراسة الظاهرة و الكشف عن قوانين عملها و حركتها، و عن طبيعة العلاقة التي تربط بين عناصرها المختلفة، و عن طريق هذه الدراسة نصل إلى النتائج الأخيرة بعيدا عن المسبقات الفكرية أو الاجتماعية، و نتعرف عن الأسباب الموضوعية لنمو الظاهرة أو ضمورها. و حتى لا تكون عملية المراجعة عملية عبثية، أو دون أهداف محددة و واضحة.

لابد من وضوح المقصد و تحديد الغايات المرجوة من عملية المراجعة. و بالتالي فإن فن المراجعة يعني تقبل الحقائق، و عدم إلوائها بما يناسب النظام المفاهيمي الخاص[2].

إن فن المراجعة يعني الانطلاق من حس المسؤولية الذاتية و تحمل مسؤولية الإصلاح، فلا يكفي التعرف على الداء و مكمن المشكلة، بل البدء بالمكافحة و صناعة الدواء الناجع لذلك الداء.

إننا نعيش على مشارف القرن العشرين، و ما يقارب القرن الكامل من مروره من النهضة العربية، و مساراتها النظرية و الواقعية، للوصول إلى حقيقة الجواب حول: لماذا لم يصل المجتمع العربي إلى تطلعاته الحضارية و مطامحه الاقتصادية و السياسية؟

([1])-محمد محفوظ، **الإسلام، الغرب وحوار المستقبل** ، ص:155-157.
([2])-محمد محفوظ، **الإسلام، الغرب وحوار المستقبل** ، ص:156-157.

إن المراجعة التاريخية و الحضارية على مستوى الخطاب الثقافي و الحضاري، و مستوى الحركة العلمية تشكل حالة طبيعية في مسيرة النهضة العربية، المتطلعة إلى تطوير المجتمع العربي، و دفعه إلى مستوى متقدم، لأنه من غير الطبيعي على الثقافة و الواقع العربيين، بعد أن أفاقا من سباتهما التاريخي و الحضاري، على مظاهر التقدم و التطور الأوروبي في جميع المجالات، أن يحققا الطموح، و ينجزا التقدم و التطور، بمجموعة نوايا صالحة و تطلعات مشروعة، إنما لا بد من أن يسند التطلع للمشروع بمشروع نهضوي، يتجه نحو حفز الطاقات، و شحذ الهمم باتجاه توفير الضروري و الحضاري في المجتمع العربي، و هذه الظاهرة قد انتبه إليها **مالك بن نبي** عندما حذر من الاعتقاد بأن الحضارة هي تكديس لمنتجات تكنولوجية نجلبها من الغير (الغرب).

إن النهضة قبل أ، تكون وضعا اقتصاديا متطورا، و اقتناء دائما للتقنية الحديثة، و التكنولوجية المعاصرة، هي تطوير في التنظيم الفكري للمجتمع، و في ثقافة الناس، و نمط تفكيرهم، و نظراتهم إلى الأمور و القضايا.

و لذلك فقد ارتكب بعض أقطاب النهضة خطأ فادحا، حينما اعتقدوا أن النهضة هي عبارة عن نقل التقنيات المتطورة و نظم الإدارة الحديثة، من الأرض الأوروبية إلى الأرض العربية الإسلامية ... و بالتلاقي هؤلاء قد اختزلوا مشروع النهضة العربية في التقليد المبتسر للغرب، في النظم و الإدارة و متطلبات الحياة، دون تأسيس قاعدة فكرية و اجتماعية لمشروع النهضة العربية[1].

و لهذا فالسؤال المطروح هو: ما هي دواعي المراجعة و المسائلة لمشروع النهضة العربية؟

أ-حفظ طاقات الأمة من التبدد و التشتت، حيث أصبح المشروع النهضوي أيا كان شكله و منهجه يستهلك الكثير من طاقات الأمة و إمكانياتها المادية و المعنوية، و لهذا فإننا بحاجة لأن نقوم بمراجعة واعية و رشيدة لتجربة النهضة العربية، حتى يتسنى لنا القفز على ثغرات المسيرة النهضوية، و نعمق نقاط الإيجاب فيها، و بهذا نحفظ إمكانات الأمة و طاقاتها، و نمنع عمليات إهدارها في أطر و مشاريع، و آفاق، لا تؤدي إلا إلى المزيد من تعميق التخلف و آليات الانحطاط الحضاري في عالمنا العربي الإسلامي.

ب-إن الأمة و عبر تاريخها الطويل، دخلت عالم الحرب الفكرية و العقائدية التي زادت من أزمة الأمة الحضارية، و عمقت تداعياتها و آثارها في كل الجوانب و

(1)-محمد محفوظ، **الإسلام، الغرب وحوار المستقبل** ، ص:158.

الحقول. فالكثير من طاقا الأمة و إمكاناتها البشرية و المادية ذهبت لتأجيج نار الصراع و التنافس السيئ، و بين مدارس فكرية و سياسية، كل واحدة منها تدعي أنها تمتلك الحقيقة المطلقة، و المنهج السليم و القويم لإخراج الأمة من واقعها المأزوم، و يبقى واقعنا ساحة و مادة لمعارك هذه المدارس.. لهذا تتأكد ضرورة مراجعة تجربتنا النهضوية، حتى نتمكن من إنهاء الحروب الإيديولوجية و السياسية، التي خاضتها مجمل المدارس العقائدية و السياسية، التي تمتلك مساحة من التأثير في الشارع العربي و الإسلامي ... فالمساءلة و المراجعة للتجربة النهضوية مسألة مصيرية لتحديد الأرضية التي نقف عليها، إذ أننا و بعد قرن كامل من انبثاق النهضة العربية أصبحنا نعيش الاضطراب و الفوضى، و غياب الأرضية الواضحة، و البوصلة النظرية التي ننطلق منها، و نقوّم الأمور من خلال معاييرها و مقاييسها.

و في هذه المسألة يشير "طارق البشري" بقوله: "كنا في الماضي نقف على أرض الموروث و نتحاور فيما يصلح لها من حضارة الغرب و أدوات لندخله عليها، ثم صرنا أو صارت كثرتنا تقف على أرض الوافد أو أرض خليط، و نتحدث عن التراث، بعد أن كان آباؤنا يتساءلون عما يأخذون من الوافد ... فالمساءلة الجادة و المراجعة النقدية البناءة، هي إيذان أنها مرحلة الشعرات المتأججة و الانتقال إلى عالم العمل و الفعل"[1].

ج-إن دراسة الخطاب العربي المعاصر يكشف لنا أن هذا الخطاب استعاض في مشروعه مقولة النهضة بالحداثة و التجدد. و لا شك أن الحداثة ثمرة النهضة، لأنه لا يمكننا تحديث بنيتنا و نظامنا الثقافي، و الاجتماعي، و الاقتصادي دون حالة نهضوية تسري في عروق أبناء المجتمع العربي، و أنه لتوجه خطير أن نستبدل مفهوم النهضة بالحداثة، ذلك لأن النهضة مرتبطة بالأسس، و الحوافز، و نظام القيم، غير أن الحداثة مرتبطة بنتاج تلك المقولات و العناوين السابقة.

و لهذا فإن استعاضة العرب و المسلمين مفهوم النهضة بمفهوم الحداثة، ما هو إلا حلقة من حلقات التقهقر الحضاري الذي نعيشه جميعا. إذ النهضة هي قاعدة التحديث، و مرتكزها النفسي و العملي[2].

إنه لا يمكن تحقيق حداثة فعلية بدون مشروع نهضة، يستوعب عقل الإنسان قبل عمله، و نمط تفكيره قبل نمط معيشته، و نظرته على ذاته قبل نظرته إلى الآخر، و تحدد واجباته قبل بيان حقوقه.. و لهذا نجد أن دعوات المفكرين إلى ضرورة تحديث

([1])- مجلة، **منبر الحوار**، دار الفكر، بيروت، لبنان، صيف 1989، أنظر أيضا: محمد محفوظ، **الإسلام، الغرب، و حوار المستقبل**، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، سنة 1998، ص:158-159.

([2])- محمود محفوظ، **الإسلام الغرب و حاول المستقبل**، ص:159.

أوضاعنا، و الدخول في حالة الحداثة، لم تلق تجاوبا يذكر، و السبب يعود لغياب مفهوم النهضة في واقعنا، فشرط الحداثة النهضة، فلا حداثة بلا نهضة، و من يتصور غير ذلك يحول الحداثة إلى سلعة تباع و تشترى.

هكذا، فالمساءلة و المراجعة لمسيرة تجربتنا النهضوية العربية، تعني إعادة العقل العربي و الخطاب إلى حقيقة مفهوم النهضة و قيمها الأصلية، لأنها مسألة وعي و حضور، لا العيش في حال اليأس المتوفرة أسبابها في واقعنا، أنه يجب إزالة آليات التخلف عن عقولنا، و بذلك نمتلك وسيلة التفاعل الخلاق مع هذه الفكرة و التجربة.هذه المساءلة و المراجعة التي نقصها، تعني انتاج قيم الحيوية و الفاعلية في وجودنا، و إفناء و إزالة كل المعوقات الذاتية من حاضرنا، و هي من أجل ذلك تجديد شروط الصرح الحضاري، و آلياته في مجتمعنا العربي و الإسلامي.

لأننا و بعد كل هذه السنين و الجهود التي بذلت في هذا السبيل، أحوج ما نكون إلى مساءلة دواتنا، مراجعة تجاربنا بروح نقدية مسؤولة، كي نستوعب الصالح منها و نطوره، و نتجاوز السيئ منها و نحاربه في عقولنا و واقعنا.

إن هذه الصيحة قد نادى بها مالك بن نبي و هو يقدم نقدا لاذعا الدعاة الحداثة وكذلك الإصلاحيين الذين جانبوا المنهج الصحيح.

هذا، و مما نتج عن انعكاسات غياب المراجعة و التقويم تجاه سير البناء الحضاري ما يلي:

-تكريس الأخطاء و الرداءة الفكرية، و توريثها للأجيال بصورة جعلتها جزءا من السيكولوجية الشعبية العامة التي تشترك حياة الأفراد و الجماعات و تتحكم في مواقفهم وتوجه سلوكا تهم إلى درجة "الاستلاب".

-تكريس الرداءة على مستوى الأداء أو فقه الإنجاز و ما ينجر عن ذلك من هذر خطير للإمكان الحضاري للأمة.

تكريس ظاهرة "الاستئناف" أو البداية الصفرية المزمنة في الجهد البنائي للأمة، بسبب جهل أو تجاهل "نقطة النهاية" بالنسبة للجهد السابق للانطلاق منها في علمية الاستدراك، و كل هذه النتائج السلبية، تصب في مجرى "المديونية الحضارية، و تباعد بينها و بين أهدافها النهضوية و الرسالية.

إن غياب آلية المراجعة و التقويم العملي الموضوعي لحركة البناء الحضاري للأمة، أثر بقوة على سير حركة التجديد الحضاري، عندما حرمها من فرز ما هو إيجابي، مما هو سلبي في منظومتي المفاهيم و منهجية الإنجاز، و لم يسمح للوعي الحضاري

بالانتشار في الأمة لتخليصها من الفكر الطفيلي المأزوم، و تحريرها من الكوابح الفكرية و النفسية و الاجتماعية التي أثقلت كاهلها، و حدّد من فاعليتها الحضارية[1].

و في هذا الإطار تبرز مسؤولية العلوم الاجتماعية، باعتبارها العلوم الأكثر تأهيلا لتقديم الإجابات العلمية الموضوعية للتساؤلات السابقة، من خلال المناهج التي تتوفر عليها.

إن علم الاجتماع الإسلامي اليوم مطالب بأن يأخذ مكانه المتقدم في معركة البناء الحضاري، للمساهمة في مراجعة و تقويم منظومتنا و المفاهيم و المناهج السلوكية، لإخراج العمل التقويمي من نطاق المحاولة الفردية و الرؤية الذاتية، إلى العمل المخبري الميداني.

إن مالك بن نبي طرح أفكارا أو فرضيات في غاية الأهمية، لكن الثقافة الفقهية و الوعظية الآلية أو الحرفية في التعامل مع الوعي و الواقع و التراث و المستقبل.. همشت الأفكار الجنينية الهامة، و حرمتها من النمو الطبيعي، و استكمال نضجها، و إفادة الأمة بها، في وقت هي أشد ما تكون احتياجا إليها، و بهذا وقع له مثل ما وقع لابن خلدون قبله، عندما لفه ليل لانحطاط الحضاري، ولم تمكن ظروف الأمة أفكاره الجديدة من النمو، و التبلور، و النضج، و التمثل في واقع الأمة[2].

إن العلماء الاجتماعيين المسلمين بحكم مرجعيتهم الثقافية النابعة من الوحي، أو من المنحى الحضاري، مؤهلون أكثر من غيرهم في ترشيد مواقف الحركة و الدولة و المجتمع، بواسطة الجهود التي يبذلونها في هذا المجال للارتقاء بالوعي إلى مستوى فقه سنن التغيير الحضاري.

لقد وفق مالك بن نبي - سواء على الصعيد المنهجي أو الفكري - في تقديم مراجع هامة، و تقويم موضوعي جريء لحركة النهضة الإسلامية الحديثة، لم تنل مصداقية السنون الطوال، بل زادت الكثير من آرائه و أطروحاتها تأكدا و بروزا، و لفتت إليها أنظار المهتمين بمستقبل الأمة[3]. إنه وضع الأزمة و النهضة في إطارهما الفكري و المنهجي الصحيح، عندما نبّه إلى ضرورة النظر إليهما، على أنهما ليستا سلسلة من

([1])- الطيب برغوث، **موقع المسألة الثقافية من إستراتيجية التجديد الفكري عند مالك بن نبي**، دار الينابيع للنشر و الإعلام - الجزائر، الطبعة الأولى، سنة 1993، ص:6-7.

([2])- الطيب برغوث، **الثقافة و إستراتيجية التجديد الحضاري**، مرجع سابق، ص:7-8، أنظر أيضا: الطيب برغوث، **مالك بن نبي و الاتجاه الحضاري في الحركة الإسلامية**، مجلة المستقبل، الجزائر، سنة 1991.

([3])- محمد المبارك، **مقدمة كتاب "وجهة العالم الإسلامي.**

الأحداث يعطينا التاريخ قصتها، بل على كونهما ظاهرة يرشدنا التحليل إلى جوهرهما ربما يهدينا إلى "قانونهما" و سنة الله فيها[1].

و ذلك من خلال تعمقه في: ظاهرة النهضة و كيف تتم؟ و ما هي القوانين التي تحكم سيرها؟.

و ظاهرة الأزمة، و كيف تحدث؟ ما هي "القوانين" التي تحكم سيرها؟[2].

و قد حاول رحمه الله في دراسته لهذه كلها، تأصيل منهج فكري، يتمحور حول ثلاث أسئلة جوهرية، و هي: حضارتنا الإسلامية، كيف قامت؟ و كيف انهارت؟ و كيف نعيد بناءها؟[3].

6.3محاور فكره الأخلاقي و السياسي و الاقتصادي.

1.6.3مفهوم الأخلاق:

1.1.6.3أخلاق الفكر و العمل بين النظرية و التطبيق: لا شك في أن لكل علم من العلوم موضوعه الخاص، فإذا كان علم الاجتماع يهتم بدراسة الظواهر الاجتماعية، و علم السياسة يهتم بدراسة النظم السياسية و طبيعة العلاقات الدولية، و علم الكيمياء يتناول وجود العالم الكيميائي، فإن الأخلاق جملة من القواعد التي تضبط السلوك البشري و تحدد أهدافه وبواعثه. إنها "بحث المبادئ الكلية و المعاني الجامعية التي تشتق من تلك الواجبات الفرعية، كالبحث عن حقيقة الخير المطلق و فكرة الفضيلة من حيث هي، و عن مصدر الإيجاب و منبعه، و عن مقاصد العمل البعيدة و أهدافه العليا"[4]، و مهما اختلفت المذاهب الأخلاقية فلي تحديد معنى الأخلاق و موضوعاتها، و لكنها تبقى دوما تعبّر عن الإمكانيات في بناء مجتمع راق و متوازن. إنها في رأي "دوركايم" ليست من صنع الأفراد، و إنما من صنع المجتمع و وضعه، و إننا نبدأ بالشعور بالقواعد الأخلاقية على نحو سلبي، حيث تحمل إلى الطفل من خارج و تفرض عليه، فتبسط سلطانها و نفوذها[5]. و لهذا فالحتمية العلمية، و الموضوعية الأخلاقية، في رأيه تفرض على جل الباحثين في قضايا الأخلاق تخطي مختلف الآراء و المذاهب الميتافيزيقية، ما دامت تسعى في مجملها إلى إقامة منظومة حقوق وواجبات تدعى، أنها موضوعية ذات قيمة شاملة.

([1])- مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص:92.
([2])- أنظر، **ميلاد مجتمع**، ص:69.
([3])- أنظر، الدكتور أسعد السمحراني، **مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا**، مرجع سابق، ص:91-92.
([4])- عبد الله دراز، **دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية و الدولية**، دار القلم، الكويت، سنة 1973، ص:97.
([5])- عادل العوا، **القيمة الأخلاقية**، مطبعة جامعة دمشق، سنة 1960، ص:60.

و هذا "ليفي بريل" ينادي بضرورة هدم النظريات القديمة في الدين و المنطق، و الأخلاق، فالأخلاق على حد رأيه عبث، و أن البحث فيها ليس لها أية قيمة، إنها جهود ضائعة. إنه ينظر إلى الأخلاق على أنها ليست سوى فرع من فروع علم الاجتماع أو ما يسمى بعلم الآداب العرفية. و تقتصر مهمة هذا العلم على وصف السلوك البشري على ما هي عليه، و ليس ما يجب أن يكون.

إن التصور الغربي اتجاه موضوع الأخلاق ضمن التطور العلمي التكنولوجي، قد أصيب بالعقم سواء عند "دور كايم" أو "نتشه" أو غيرهما، فهم إذا يتصورن بأن الأخلاق قد تقهقرت أمام التقدم العلمي، إنما يعكرون حياة الإنسان، و يقضون على كل جهد بما فيها ذلك الجهود العلمية.

2.1.6.3موضوع الأخلاق:

لقد لاحظنا سابقا كيف أن الأخلاق هي مجموعة من القواعد و المبادئ التي تضبط سلوك الفرد وفق منهاج منظم، و بذلك فجمال الأخلاق أشمل و أوسع من مجالات العلوم الأخرى. فإذا كان علم الاجتماع يتناول الظواهر الاجتماعية، و علم الطب يهتم بدراسة الإنسان من الجانب الفيزيولوجي، و لا يتعدى اختصاصه، و كذلك الحال في العلوم الأخرى كالفلك و علم الفيزياء .. فإن موضوع الأخلاق أوسع و أشمل من كل هذا، إذ يتناول النشاط البشري بكل حيثياته. ثم أن الأخلاق تتعدى المجال الفني و العمل العلمي.

إنها تراقب عمل الفيزيائي، أو الكيميائي أو الطبيب، حين يحيد عن السلوك الشريف، و ذلك عندما يعمل على غش غيره أو حتى نفسه. و هذه ظاهرة إنسانية مؤلمة يصفها "محمد جواد مغنية" إذ يقول: "جريحا من البيض في الولايات المتحدة الأمريكية احتاج إلى علمية نقل الدم، و لم تتفق فصيلة دمع إلا مع فصيلة دم ملون، و قد تبرع هذا المسكين إلى الجريح بدمه لوجه الله و الإنسانية، و لكن الممرضة أخذت الزجاجة التي فيها دم الملون و كسرتها و تركت الجريح يموت كي لا يختلط دم العبيد بدم السادات"[1].

إن هذا السلوك الذي قامت به العاملة في دولة متطورة، ليعبر عن قمة العنصرية، و انعدام الوعي الثقافي و الأخلاقي لدى الفرد الغربي.

([1])- محمد جوا مغنية، **فلسفة الأخلاق في الإسلامي**، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة 2، سنة 1979، ص:21.

إن هذه النزعة نجدها حتى عن كبار الفلاسفة الغربيين، فهذا "نتشه" يقول: "خلق الأقوياء ليحكموا الضعفاء، و ولد الضعفاء ليخدموا الأقوياء، و لما ضاقت الأرض على المعذبين و البائسين لجأوا إلى الحيلة و ابتدعوا الأخلاق و حسن السلوك بالعمل و المساواة، و أنه يحب الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه. و معنى هذا أن الأخلاق لا أساس لها من الواقع، و أن مصدرها الأول و الأخير حيلة المغلوبين تماما كرفعهم المصاحف يوم صفين"[1].

هذه الفكرة نلمسها عند السفسطائيين قبل "نتشه" بقرون في التاريخ، إننا مع "نتشه" في مبدأ القوة تجاه التغلب على الصعاب و العراقيل.

و ليس من جانب مبدأ استيلاء دولة على أخرى، كما أننا أيضا لسنا مع الذين ..... القوة وفقا للقاعدة الأخلاقية الخالدة التي يلخصها الدكتور "عبد الله شريط": أن تكون الأشياء العظيمة للعظماء و الأشياء النادرة تبقى للأفذاذ دون سواهم، فإذا كانت الأشياء التافهة تعظم في عين صغار الناس، و تصغر في عين العظيم العظماء، فكيف نسوي نحن بينهم فيما لم تسو بينهم فيه الحياة و طبيعة الأشياء"[2].

و لكن الموضوعية تدعونا إلى أن نكون مع "نتشه" و كذا مع "المفكر الجزائري" في مجال القوة أن تكون الثروة على التقاعس، و سلوك الطريق السهل في الحياة و القعود على المنحدرات، و هذه الظاهرة نبهنا إليها القرآن الكريم: "و هيدناه النجدين فلا اقتحم العقبة" ... إن تذمر الفلاسفة و المفكرين من ميوعة الأخلاق هو في الحقيقة ثورة ضد الإنسان الذي اختار المنحدرات على العقبة، و الإنسان شأنه في هذا شأن الماء الذي لا يجري من أسفل إلى أعلى، إلا إذا سلطنا عليه ضغطا و قوة دافعة إلى أعلى عبرّ عن ذلك **مالك بن نبي**[3].

فالهم الوحيد هو جعل الإنسان يتخلص من عجزه و ركونه إلى حياة السهولة، حياة الذل و الخمول، و الركود!.

و لكن كيف يتخلص المسلم من هذه الحالة؟ و كيف نستطيع القضاء عليها؟.

يجيب **مالك بن نبي** على هذه التساؤلات بكلمات واضحة، حيث يوضح بأن العالم الإسلامي يعاني من حالة ضعف لا مثيل لها.

بل أنه يعاني من العجز التي يتمثل في نوعين من الذهان:

([1])-محمد جوا مغنية، **فلسفة الأخلاق في الإسلامي** ، ص:22.

([2])- د/عبد اللطيف عبادة، **صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي**، دار الشهاب للطباعة و النشر، باتنة - الجزائر، الطبعة الأولى، سنة 1984، ص:118.

([3])- مالك بن نبي، **المسلم في عالم الاقتصاد**، دار الفكر دمشق، سنة 1979، ص:87-88.

1-ذهان السهولة، و يتمثل في النظر إلى الأشياء على أنها سهلة بسيطة، و هذا الذهان يقود إلى نشاط أعمى.

2-ذهان الاستحالة، ويتمثل في النظر إلى الأشياء على أنها مستحيلة فيصاب النشاط بالشلل.

ثم أن ذهان الاستحالة يتجلى في ثلاث مسلمات أصيب بها العالم الإسلامي و هي:

- لايمكن لنا فعل شيء لأننا جاهلون.
- عاجزين على أداء هذا الفعل لأننا فقراء.
- لايمكن تصوّر هذا الأمر لأن الاستعمار في بلادنا.

يرى **مالك بن نبي** أن هذه الاستحالات الثلاث المزعومة بأن:

1-نحن جاهلون -هو واقع- و هو أثر من آثار الاستعمار، و لكن في رأيه أين هو عمل الدوائر المثقفة في بلادنا؟ أليست الثقافة هي السلاح ضد الأمية؟

2-نحن فقراء، ما في ذلك شك، و لكننا لا نحمل بين جناباتنا، هما لعلاج هذا الوضع باستخدام الوسائل المتاحة لنا استخداما مجديا.

3-ضرورة استخدام ما تحت أيدينا من وسائل استخداما مؤثرا، و بذل أقصى الجهد للرفع من مستوى الحياة بالوسائل العارضة، و استخدام الوقت و بعبارة أخرى فإن المشكلة تتمثل في:

-المزيد من الفعالية مع تجنب الإسراف في الوقت و الجهد.

-إرادة صادقة في التغيير، فالصين الشعبية لم تصنع مجدها بالآلات الحديثة، بل بسواعدها، و بطاقة شعبها الذي تحركه إ رادة حضارية حقق بها أسطورة "يوكنج" الذي حول الجبال، إن تطور الصين يعود إلى كونها طبقت في خطط تنميتها مبدأ الاتكال على الذات، أي التغيير الاجتماعي.

"فالقضية إذا، بالنسبة للعالم الإسلامي، ليست قضية إمكان مالي و لكنها قضية تعبئة الطاقات الاجتماعية، أي الإنسان و التراب، و الوقت، في مشروع، تحركها إرادة حضارية لا تحجم أمام الصعوبات، و لا يأخذها الغرور في شبه تعال على الوسائل البسيطة التي بحوزتنا منذ الآن و لا ننظر بها حقنة من العملة الصعبة، و لا أي مشروع من نوع مارشال"[1].

(1)- مالك بن نبي، **المسلم في عالم الاقتصاد**، دار الفكر، دمشق، سنة 1979، س:73.

و يضيف قائلا: "إن الصين الحديثة، صاحبة المعجزة الكبرى في هذا القرن، خرجت من العدم فتحوّلت معالمها، كما حوّلت، من أجل بناء سدودها و طرقها، المليارات من الأمتار المكعبة من التراب، لا بالآلات الحافرة و الناقلة، المفقودة في بلد نشأ، و لكن بفضل سواعد أبنائها و على أكتافهم ... تحدوهم الأسطورة المعبرة عن طاقة الإنسان عندما تحركه إرادة حضارية، فتذكروا أو ذكروا أن جدهم "يوكنج" حوّل الجبال"[1].

إن السّر في التحول الذي يشير إليه **مالك بن نبي** يكمن إلى جانب الاتكال على الذات في الفكرة الدينية أو الأخلاقية، إذ منها تتبع عناصر القوة، و الدين وحده هو الذي يمنح الإنسان هذه القوة. فلقد أمدّ بها ألئك الحفاة العراة رعاة الشاه من بدو الصحراء الذين اتبعوا هدي النبي **صلى الله عليه و سلم** و بهذه القوة وحدها يشعر المسلم -رغم فاقته و عريه الآن- بثورته الخالدة التي لا يدري من أمر استخدامها شيئا[2].

فالإسلام بما ينطوي عليه من قوة روحية في نظر **مالك بن نبي**، يشكل بالنسبة للذين يتمسكون به درعا من أن تحطم الأيام، أو يذوبوا في بوتقة الاستعمار. و رغم ما للدّين من أهمية في توجيه السلوك إلا أن الفلاسفة الماديين بمختلف آرائهم حاولوا عدم الدين. و الأخلاق عندهم ما هي إلا حواجز تعطل الإنسان على التفتح و الإبداع، و بذلك لا بد من تحطيمها.

إن الفلسفات الحديثة و المعاصرة سواء كانت البرغماتية أو الماركسية أو الوجودية عبّرت عن غاياتها، و وضحت موقفها من الأخلاق. فهذا ماركس يعتقد أن الدين أفيون الشعوب، و هذا سارتر يرفض الدين و يعتبره مكبلا للحريات، إن الإنسان في نظره ليس سوى ما يصنعه من نفسه، إنه يؤمن بالإباحية و يرفض كل القيم السماوية و حتى الوضعية. و هذا التفكير دفع بأقطاب الإباحية إلى المناداة بالانتحار، فهذا ألبير كامي يقول: "الحياة لا معنى لها و لا تستحق أن تعاش، و عليه فالانتحار أمر طبيعي و مقبول"[3].

و انطلاقا من هذا، فإن البشرية لن تبلغ هدفها، و لا تحقق سعادتها، إلا بالرجوع إلى الإسلام الذي يعمل على تطهير الطبيعة البشرية من أدرانها الدنيئة.

و **مالك بن نبي** باعتباره ينحدر من أسرة عريقة تجمع بين مكارم الأخلاق و التدين الصحيح، فإن أغلب مؤلفاته مطبوعة بصيغة أخلاقية[4]، إنه ينظر للحضارة على أنها وليدة الروح بكل ما تحمل من الكلمة من معاني دينية و أخلاقية، و أنها تتفكك و

([1])- **نفس المصدر**، نفس الصفحة.
([2])- د/عبد اللطيف عبادة، **صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي**، مرجع سابق، ص:120.
([3])- محمد جواد مغنية، **فلسفة الأخلاق في الإسلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، سنة 1979، ص34.
([4])- د/ عبد اللطيف عبادة، **صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي**، مرجع سابق، ص: 108.

تضمحل بسيطرة الغريزة البهيمية، و هذا التدمر حمله أن يشن ثورة على إنسان ما بعد الموحدين الذي في رأيه كان مسخا للإنسان المسلم.

ثم مفهومه للتنمية التي في نظره تقوم على ترجيح كافة الواجبات على الحقوق، إنه يقول: "فالسياسة التي تنهض أساسا بالمطالبة بالحقوق و تهمل جانب الواجبات، لا تعدوا أن تكون قد اتجهت هذا الاتجاه على أساس اختيار ضمني أو صريح، بين مفهومين أخلاقيين: الواجب و الحق.

و بمجرد اختيارها أو تفضيلها لأحد الطرفين، تكون قد وضعت في أساس الحياة الاجتماعية كلها -بما فيها الاقتصاد و الثقافة- إنه يرى أن الرأسمالية في نظرتها الإباحية إلى الاقتصاد قد أهملت الترابط بين القيم الاقتصادية و الأخلاقية، و لكن الإسلام عكس ذلك، فهذا الرسول **صلى الله عليه و سلم** في نظره يعطينا قضية المتسول الذي أتى يتساءل عن "رغيف خبز" كان له الحق" أن يأخذها من المجتمع بدليل الزكاة في القرآن والتي أمرنا الله بها.

و كان **النبي صلى الله عليه و سلم** أدرى الناس بتطبيقه، كما كان صلى الله عليه و سلم أجود من الرياح السخية في الربيع لتقديم هذه اللقمة لمسكين جاء يطلبها، و لكن أعمال النبي **صلى الله عليه و سلم** تشريع أو عبرة لأمته، فأشار الرسول على من حوله من الصحابة رضوان الله عليهم بأن يجهزوا هذا الفقير ليحتطب، و أشار على الرجل بأن يحتطب ليعيش من صنع يده"[1].

ثم مفهومه للثقافة الحقيقية في وظيفتها الاجتماعية تقوم على مبدأ التبادل المتمثل في الإرغام الاجتماعي و الموقف النقدي للفرد، و هو مبدأ أخلاقي مستوحى من القرآن و السنة.إنها تركيب متآلف للأخلاق و الجمال و المنطق العملي، هذا التركيب في نظر **مالك بن نبي** ضروري حتى لا ينقاد المجتمع إلى الدروشة أو الخلاعة.

و الأخلاق بهذه الصورة، إنها تمثل محور النمو الاجتماعي، و الثقافي، و الاقتصادي.إنها تتجه نحو السلوك العملي للأفراد في دفع عملية التنمية، حتى لا يقع المجتمع في الإفلاس. و للخروج من هذا المأزق نبه الفلاسفة و المفكرون إلى عمل القيام بالواجبات قبل القيام بالحقوق.

فهذا المفكر الاجتماعي "أوجيست كونت" نبّه بأن لكل فرد واحد واجبات نحو المجتمع و لكن ليس لأي واحد حق.

([1])- مالك بن نبي، **المسلم في عالم الاقتصاد**، مصدر سابق، ص:88-89.

و بأن الضمانات العادلة: تنتج فقد عن التبادل الشمولي للواجبات الذي يعوض أخلاقيا الحقوق السابقة و يتجنب أخطارها السياسية، و على هذا الأساس فليس للفرد من حقوق، بل له واجبات فقط، لأنه إذا قام كل واحد بواجباته نحو غيره، فإن الحقوق ستكون مضمونة دون أن يكون من الضروري الحديث عنها[1].

إذا كان الفيلسوف الغربي قد ركز في مجال الأخلاق على القيام بالواجبات دون المطالبة بالحقوق، و هي فكرة يمكن أن يستغلها الدكتاتوريون اتجاه شعوبهم، فإن **مالك بن نبي** قد عالج المشكلة بطريقة أخرى. إنه نظر إلى الدور الإيجابي الذي يلعبه أداء الواجبات في بناء سرح الحضارة، و إلى الدور السلبي التي يتمثل في الإفراط بالمطالبة بالحقوق، و لهذا شدّد نقمته العارمة على إنسان ما بعد الموحدين، الذي ركن إلى التسكع حتى أنه شبهه بالأميبا، لأنه لا ينقض على الفرائس الهيّنة، و يتكل على عناية الإسلام كي ترزقه، و هذا الحال أدى إلى احتلال الاستعمار لبلاده.

إذا، و المجتمع الراقي هو الذي لا يفكر في التوازن بين الإنتاج و الاستهلاك، كمطالبته في العدالة بين الواجبات و الحقوق، لأن التوازن يكون ضارا يؤدي إلى ركود المجتمع و الاقتصاد، بل البحث عن الوثبة إلى الأمام، و لذلك فالتطور يقتضي تفوق الواجبات عن الحقوق لتحقيق محصول وافر الذي يعبّر عنه بلغة الاقتصاد: "فائض القيمة" و عليه فإن كل سياسة تقوم على طلب الحقوق، إنما هي ضب من الهرج و الفوضى أو هي "يد" تطيل عمر الحياة في الحقل الفكري و تلك البوليتيكا بالمعنى الشعبي للكلمة[2].

و هكذا، ما هي العلاقة بين الحق و الواجب؟ إنها علاقة تكوينية تبين لنا أن الشعب ليس بحاجة إلى المطالبة بالحقوق، بل عليه استخدام الوسائل التي تحقق له ذلك، و هذه الوسائل تتمثل فيما يبذله من نشاط، لأن الحق بذلك يأتي تلقائيا، و لهذا فالإنسان في الدول السائرة في طريق النمو عليه أن يتحدث قليلا عن حقوقه و كثيرا عن واجباته، إذ بذلك يمنع الاستعمار من احتلال بلاده.

و عليه فإن كانت اليابان و الصين قد تمكنتا من اللحاق بركب الدول المتقدمة، فإن ذلك ليس بعزيز على بلدان الذي يحتوي على مخزون وافر من المواد الخام، شريطة أن نتكلم لغة الواجبات و نتحاشى طريق السهولة.

لا شك أن تكوين **مالك بن نبي** الأخلاقي و الاجتماعي، قد أثر في فكره، كيف لا و هو ينحدر من أسرة عريقة تجمع بين مكارم الأخلاق و التدين الصحيح، ثم أن جده كان

([1])- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، **الطبعة الرابعة، دار المعارف بمصر، سنة 1966، ص:324.**
([2])- د/ عبد اللطيف عبادة، **صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي**، مرجع سابق، ص:114.

أتباع (**صالح بن مهنا**) المصلح القسنطيني الكبير، إنه نشأ و تربى على مكارم الأخلاق و المثل العليا، و لذلك فإن معظم مؤلفاته مصطبغة بصبغة أخلاقية[1].

إنه ينظر إلى الأخلاق على أنها المقياس الذي تقدر به قيمة أي عمل سواء في ميدان الأبحاث العلمية أو السياسية.

2.6.3السياسة عند مالك بن نبي:

1.2.6.3بين السياسة و الدين الأخلاقي:

لقد انصرف مالك بن نبي عن السياسة ممارسة مباشرة ،أو جعلها تخصصا أكاديميا وذهب إلى العمل الفكري عبر بناء المشاريع الثقافية وطرح مشكلات الثقافة وإصلاح أعطاب العقل والفكر وبناء مشاريع النهوض الثقافي،وعيا منه بأن السياسة الصحيحة تتأسس على الفكر السليم ومن هنا كان اشتغاله بالأفكار السياسية الكبرى التي تؤسس لرؤية سياسية ناجعة يمكن أن تترجم ،إن وجدت رجال سياسة أكفاء ،إلى مشاريع نهضة حقيقية ،فلقد أشار بن نبي ،على هذه الإشكالية بتحليل عميق ودقيق :فما أروع قوله "إن صناعة السياسة تعني ،إلى حد كبير ،تغيير الإطار الثقافي في اتجاه ينمو تنمية متناغمة ،عبقرية أمة ،ومن هنا فصناعة السياسة تعني في آخر المطاف ،صناعة الثقافة ...وعلاقة السياسة بالثقافة تمر حتما بهذا الثالوث ،بحيث إذا فكرنا في الثقافة في بلد من العالم الثالث ،وجب علينا أن نفكر في اللحظة نفسها بالقوى غير الواعية التي تمثل اللاثقافة ،والقوى الواعية التي تمثل ما ضد الثقافة وكلا القوتين تبدوان كقوة مشتركة تعمل في المحيط الاجتماعي.[2] " ولذلك وجب علينا أن نحيي روح المفكر مالك بن نبي رحمه الله ،حين اشتغل عن السياسة بالثقافة ،من أجل السياسة .وبذلك انصرف مباشرة إلى مكمن الداء ،ليعالج جذريا أعمق الإختلالات في العالم الإسلامي ،وأكثرها إعاقة للنهوض ،وهي ليست بالأساس سياسية بالمعنى الضيق للكلمة ،بل هي في العمق ثقافية بامتياز .وهي الحقيقة التي غفل عنها المثقفين الذين انجذبوا إلى إغراء السياسة انجذاب الفراشة إلى النار ،فما أصلحوا شيئا مما حلموا به ،ولا أبقوا على منتوجهم الفكري ومصداقيتهم لدى الأمة فالجميل في تعابير بن نبي الدقيقة ،أنها تتحدث بنوع من الإصرار ،على أن هذا المشكل قائم بالتحديد في العالم الثالث الذي يعاني من التبعية ومن آثار الاستعمار الإجرامية والمستدامة فالوضع في العالم المتقدم بخلاف ذلك قطعا فالسياسي عندهم ينبني على المعرفي ،ويؤطره الثقافي.في حين تبنى السياسة في العالم الثالث على المزاجية والفردية والمصلحة الضيقة ،بل إن روادها في الغالب من المصابين بداء ما اسماه بن نبي

([1])-د/ عبد اللطيف عبادة، **صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي** ، ص:108.

[2]- مالك بن نبي ،**بين الرشاد و التيه**، دمشق، دار الفكر، سنة 1978،ص77.

بـ"القابلية للاستعمار "،تلك الآفة التي وسمها وهو يتحدث عن الاستعمار بقوله :«أما قرينته الشمطاء –القابلية للاستعمار – فحصتها الدناءة والسفالة والنجاسة والخبث والخيانة »[1] لقد أشرنا إلى أن بن نبي ،لم يشتغل بالسياسة أكاديميا ولم يمارسها عمليا ،بل نظر إليها من زاوية التغيير الحضاري والعمق الفلسفي والبعد الفكري المجرد .ونكتفي في هذا الصدد بالإشارة إلى أم أفكاره السياسية:

2.2.6.3تعريف السياسة عند مالك: هي "العمل الذي تقوم به كل جماعة منظمة، في صورة دولة تكون وظيفتها محددة بدستور أو بتقاليد عريقة تضبطها"[2]، و الجماعة التي تدخل في مضمون السياسة هي مجموعة من الأفراد الذين تجمع بينهم روابط تاريخية، و جغرافية، تتلخص في وحدة مسوغات و وحدة مصير و قد تكون الجماعة بهذا المفهوم "الأمة"[3].

و يرى **مالك بن نبي** أنه إذا كانت السياسة فن الحكم و هي عمل تقوم به الدولة، باعتبارها الجهاز الذي ينظم و يسيّر شؤون المجتمع، فإنه لا يكفي للدولة أن تحصر عملها في ميثاق وطني، ثم تضبط بعدها طريقة معينة لوقاية ذلك الميثاق في مختلف أعمال التخريب و التشويه، بل ينبغي أن يحدد مفهوم السياسة على صورة أكثر وضوحا، باعتبار أن السياسة لا يمكنها أن تكون العمل الذي تقوم به الدولة أو الأمة كلها، إلا بقدر ما تكون مطبوعة في عمل كل فرد منها[4].

و السياسة بهذا المعنى هي منهج حياة يهتم بالفرد و الدولة، إذ لا يمكن للدولة أن تنفرد سلطتها عن الفرد و تهمله، بل لا بد من وجود تجانس و تناغم بين عمل الفرد و الدولة كي يتحقق ضمير الرد، باعتباره مصالح حيوية مشتركة، و مسلمات متفق عليها بين جمهور من الناس يكون جسم الأمة و إجماعها"[5]، و أن هذا التجانس لا يمكن أن ينطلق بطريقة عشوائية، فالسياسة التي تريد تلقين مبادئها و أهدافها لهذا الضمير، عليها أن تجعله حكما يصدر بكل حرية حكمه في مسوغاتها و أهدافها"[6].

و السياسة بإمكانها مغالطة هذا الحكم (الضمير) من خلال شعاراتها المزيفة، لكنها لا تستطيع أن تفعل دائما، فالتعزيز بشعب يمكن لفترة، لكن غير ممكن لفترات طويلة.

---

[1]- مالك بن نبي ،**بين الرشاد و التيه** ،ص 174. وقد وصف في الفقرة التي قبلها "الاستعمار " بقوله " سنجد الدهاء والمكر والخداع والشراسة من نصيب الاستعمار لا ينازعه في هذه الفضائل أحد وعلق على الفقرتين معا بكلمة تحتاج إلى تأمل عميق :" إنه ما أصابني الاستعمار بأذى يعطل نشاطي ،إلا عن طريق هيئة دينية إسلامية ،أو سلطة في بلاد عربية "ص 174.

([2])- مالك بن نبي،**بين الرشاد والتيه**، ص86.

([3])- **المصدر نفسه**، نفس الصفحة.

([4])-مالك نبي ،**بين الرشاد و التيه** ،ص:79.

([5])-**المصدر نفسه** ، ص:82

([6])-**المصدر نفسه**، ص:72.

و لهذا فالسياسة الناجحة، هي التي تأخذ بعين الاعتبار لعمل الفردي لأن فعلها لا يقتصر على تحديد عمل الدولة في اتجاه معين. "فالتعاون بين الدولة و الفرد لابد له من جذور في عقيدة تستطيع وحدها أن تجعل ثمن الجهد محتملا مهما كانت قيمته لصاحبه فيضحي هكذا بمصلحته حتى بحياته في سبيل قضية مقدسة في نظره"[1].

و التآزر بين الدولة و الفرد يتبين إذا توفر عامل جوهري هو، العامل العقيدي فالعقيدة تستطيع وحدها أن يكون للجهد قيمة محتملة مهما كان ثمنه.

و يستنتج من هذا أن السياسة التي تفصل بين الدين و الدولة لن تكون سياسة ناجحة، لأنها سياسة لا تستند إلى دين أو عقيدة تغرس في الفرد عامل القابلية و الاستعداد للتضحية و البطولة خاصة في الحالات الصعبة.

و عليه فالتعاون بين الدولة و الفرد (المواطن) شرط أساسي لإنجاز مهام نبيلة تقوم على الثقة و التضحية و مواجهة أهوال الزمن، و إنه لن يتحقق ذلك إلا على عقيدة راسخة، و الدولة إذا ما تجاهلت عاملا لعقيدة، و انصرفت نحو أغراض شخصية تحقق مآرب الحاكم، فإن التعاون بينها و بين المواطنين يصبح مبتورا، و لكن يكون لسياستها أي أثر نفعي في واقع البلاد. لأنه "إذا ما تعذر التعاون فإن القطيعة المعنوية سوف تعزل الدولة عن المواطن، و تشل الطاقات الاجتماعية، و تشتتها تشتتا تكون نتائجه عدم الانسجام و عدم التناغم، و معارضات طاغية في فوضى يسودها شعار "عليك بخاصة نفسك"[2].

ثم إلى جانب عامل العقيدة يرى **مالك بن نبي** أن التجانس بين عمل الدولة و عمل الفرد، لابد أن يقوم على عامل أخلاقي، ذلك أن "السياسة بدون أخلاق ما هي سوى خراب الأمة"[3].و أن السياسة عندما لا تتضمن الأخلاق، و لا يكون هدفها خدمة الأمة و الشعب، بل خداعه و استغلاله عن طريق "البوليتيك" إنما تتحول إلى خراب الأمة.

إن السياسة لا تتسم بالثبات و الاستقرار، هي التي اتجهت لخدمة مصالح شخصية دون الاستناد إلى قيم أخلاقية، و هي بذلك تكون قاصرة عن تحقيق التجانس و الوئام بين عمل الدولة و عمل الفرد، و هذا الفعل يؤدي إلى تدهور العلاقة بينهما، و يحوّل المواطن إلى معول يهدم الوطن بدل المساهمة في بنائه، لأنه يصبح يجري وراء

([1])-**مالك بن نبي ،بين الرشاد والتيه** ، ص:85.
([2])-مالك بن نبي ،**بين الرشاد و التيه** ، ص:71.
([3])-**المصدر نفسه** ، ص:69.

مصالحه الشخصية، و تتحول الدولة إلى جهاز يقمع كل تحرك و في كل نشاط للمواطنين[1].

و السياسة الناجحة و هي التي تعمل على غرس الثقة بين الدولة و المواطنين لتحقيق الأمن و الاستقرار، و قد وضح **مالك بن نبي** أهمية الثقة في الحوار الذي دار عن السياسة بين الحكم الضنى "كونفوشيوس" و تلميذه "تسي كونغ" الذي سأل أستاذه عن السلطة فأجابه: يجب أن توفر السلطة ثلاثة أشياء هي: لقمة العيش الكافية لكل فرد، و القدر الكافي من التجهيزات العسكرية، و القدر الكافي من ثقة الناس في حكامهم.

فمسألة "تيسي كونغ" و إذا كان لابد من الاستغناء عن أحد عن هذه الأشياء الثلاثة فبأيها تضحي؟ فرد الأستاذ: بالتجهيزات العسكرية، و يعود "تسي كونغ" فيسأل فإذا كان لابد من الاستغناء عن أحد الشيئين الباقيين فبأيهما تضحي؟ فأجاب الأستاذ: في هذه الحالة نستغني عن القوت، لأن الموت كان دائما هو مصير الإنسان، و لكنهم إذا فقدوا الثقة لم يبق أي أساس للدولة"[2].

و يضيف مالك بن نبي بقوله: إن الشريعة الإسلامية حسدت هذه الفلسفة السياسية في العلاقة المتبادلة بين المحكومة و الحكام.

فعلى المواطن: السمع و الطاعة، لكنه في الوقت الذي يلحظ فيه تجاوزا من رجل السلطة لأحكام الشريعة يرفض السمع و الطاعة، فالعلاقة المتبادلة بين الحاكم و المحكومة تصبح مقوطعة لا تلزمهم بشيء[3]. و فعلا فإن الواقع يثبت أن الثقة حين تفقد بين الدولة و الجماهير، فإنه تحول الساحة إلى الفوضى و اللا استقرار، مما يجعل المواطن غير مطمئن على أملاكه و حتى على روحه.

و إلى جانب الثقة هناك عامل "حسن المعاملة" بين الحاكم و المحكوم، و قد أشار **مالك بن نبي** بقوله: "فالحاكم ليس فقط رجلا نزيها و عفيفا كما كان شأن جميع صحابة الرسول **صلى الله عليه وسلم**، بل يقتضي أيضا حسن المعاملة.

([1])- د/يوسف حسين، **نقد مالك بن نبي للفكر السياسي الغربي الحديث**، دار التنوير للنشر و التوزيع - الجزائر، الطبعة الأولى، سنة 2004، ص:88.

([2])- مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، سنة 1988، ص:132.

([3])- المصدر نفسه، ص:132-133.

فأبو ذر الغفاري و هو من أكثر وجوه عصر النبي **صلى الله عليه و سلم** رفض طلبه رغم ما يكنه للصحابي الجليل من تقدير عميق حتى آخر يوم من أيام حياته. فالنزاهة لا تكفي وحدها، يجب أن تضاف إليها الكفاءة و أكثر من ذلك الملائمة"[1].

هذا، و حسن المعاملة يتجلى في قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع ذلك الأعرابي الذي رفض السمع و الطاعة له، فما عفنه عمر و ما نغص عليه حياته إلا أنه قدم إليه بكل تواضع التبرير عن قطعة القماش التي أعطاها له ابنه عبد الله ليكمل بها جلبابه نظرا لطول قامته.

إن أمير المؤمنين **"عمر ابن الخطاب"** عامل هذا الأعرابي معاملة حسنة.

و من الصفات الأخلاقية التي تجعل الحكم راشدا توفر "الطاعة"، لأن الحكم الإسلامي يقوم على مبدأ طاعة المحكومين للحاكمين، قال تعالى: **"يا أيها الناس آمنوا أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و أولى الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله و إلى الرسول إن كنتم تؤمنون باليوم الآخر"**[2].

إن المحكوم عليه بالطاعة و السمع للحكام في حالة تحلي الحاكم بضوابط الشريعة الإسلامية، لكن إذا خالف الحاكم الشريعة فلا سمع و لا طاعة له، فالطاعة مشروطة في الإسلام بإتباع الحاكم شريعة الله.

و من الشروط الواجب توفرها في الحاكم **"الحنكة السياسية"** إذ النزاهة وحدها لا تكفي، فهذا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) يعزل **"عبيدة بن الجراح"** رضي الله عنه لا لنقص في كفاءته أو نزاهته، و لكن لفطنته في الحرب يفوقه فيها غيره، لقد جاء في كتاب أبي بكر إلى عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ما يلي: "أما بعد فإنني قد وليت خالدا قتال الروم بالشام فلا تخالفه و اسمع و أطع أمره. فإني وليته عليك و أنا أعلم أنك خير منه، و لكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليس لك..." [3].

و هكذا فالمحاباة في تقليد المناصب تؤدي بالمحكومين إلى فقدان الثقة في حكامهم، و لكي تستمر الثقة بين الحاكم و المحكومين وجب استبعادها.

و من نجاح الحاكم في تسيير شؤون الرعية تحليه النقد الذاتي، الذي هو ضرب من الإقرار بالذنب، أو الإعلان عن الخطيئة في المجتمع المسلم، و قد أعطانا مالك بن

([1])-مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي** ، ص:133.

([2])- **سورة النساء**، الآية 59.

([3])- د/يوسف حسين، **نقد مالك بن نبي للفكر السياسي الغربي الحديث**، دار التنوير، الطبعة الأولى، سنة 2004، ص:96.

و أنظر أيضا: محمد عبد الله، **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي و الخلافة الراشدة**، الطبعة الخامسة، بيروت، دار النفائس، سنة 1985، ص:392.

نبي، مثالا في هذا بأمير المؤمنين "**عمر بن الخطاب**" رضي الله عنه الذي أحس بنشوة السلطة، فما كان منه إلا أن استدعى الصحابة رضوان الله عليهم و جمعهم حذو المنبر ليعلن أمامهم: أنه لا يمكن شيئا مذكورا، بل هو أقل من اللاشيء، و أنه لا يعد و كونه مجرد راعي ماشية جعل منه الإسلام أميرا"[1].

إن هذا التواضع و النقد الذاتي الذي ينبعث من أمير المؤمنين، إنما يعد قدوة لغيره في القضاء على الغرور، و الكبرياء و التمادي في الخطأ، و عليه فإن الإقرار بالذنب يريح ضمير الإنسان مما يحمل من إثم تجاه غيره و نفسه و يعيد له الثقة في مجابهة المسؤوليات.

هذا، و إذا كنا قد وضحنا العلاقة بين السياسة و الأخلاق فإن الدين له الأثر الأكبر في توجيه السلوك و تقويم اعوجاجه.

و إذا كان الدين يتضمن المفاهيم المرتبطة بأصل الإنسان، و جوهره، و مصدر الكون، و طبيعته ... فله أيضا أثره العلمي في توجيه السلوك الفردي و الاجتماعي، و في تكييف النظم و المؤسسات، و في تحديد الفضائل و الأخلاق و القيم أنه بوجهيه الإيماني و العقائدي، و كذا العلمي السلوكي مرآة صالحة تعكس لنا مفاهيم الحضارة و صورتها العامة[2]. فالإيمان هو الذي يعطي الحضارة الإسلامية هويتها، و هو الذي يربط بين أجزائها، و قد وضح "**محمود شاكر**" كيف بلور **مالك بن نبي** الفكرة الدينية في تأسيس الحضارة حيث يقول: "هذا المنهج الذي سلكه مالك، منهج يستمد أصولة من تأمل طويل في طبيعة النفس الإنسانية، و في غريزة الإنسانية، التدين في فطرة البشر، و في تاريخ المذاهب و العقائد التي تسوم بالتناقض أحيانا، و لكنها تكشف لها عن مستوى التدين في كل إنسان"[3].

و هذا، "**محمد المبارك** يقول: "إن **مالكا** يبدوا في آثاره لا مفكرا كبيرا، و صاحب نظرية فلسفية في الحضارة فحسب، بل داعيا مؤمنا يجمع بين نظرة الفيلسوف المفكر، و منطقه و حماسة الداعية المؤمن و قوة شعوره، و أن آثاره في الحقيقة تحتوي تلك الدفعة المحركة، التي سيكون لها في بلاد العرب أولا، و في بلاد الإسلام ثانيا، أثرها المنتج و قوتها الدافعة، و قلما استطاع كاتب مفكر أن يجمع بين سعة

([1])- مالك بن نبي، **آفاق جزائرية**، تر/الطيب الشريف، الجزائر، مكتبة النهضة الجزائر، سنة 1984، ص:194.
([2])- سليمان الخطيب، **فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي**، الطبعة الأولى سنة 1993، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر، ص:124.
([3])- مالك بن نبي، **الظاهرة القرآنية**، مقدمة الأستاذ محمود محمد شاكر، ص:18.

الإطار و الرقعة التي هي موضوع البحث، و عمق النظر و البحث و قوة الإحساس بالشهور"[1].

و هذا "عمر كامل مسقاوي" يوضح لنا كيف إن **مالك بن نبي** نبه المسلم إلى كيفية الخروج من عالم التقوقع و الجمود، إذا ما هو عرف كيف يوظف العقيدة في سلوكه توظيفا حسنا فيقول: "إن مالك يطرح الإسلام كقيمة قادرة على استعادة دورها في صنع الإنسان، و هو من هذه الزاوية يضح الحلول في إطار من الفعالية الإسلامية القادرة على التغيير، هذه الفعالية هي الأوثق في ضمير المسلم المتخلف، لأنها تبعث في نفسه مسوغات لسلوكه ذات اتصال علوي، و هي ترهق حسه الاجتماعي بقدرة فاعلة تمنحه صلابة الإرادة و حكمة العلاقة الاجتماعية، و عمق النظرة في أسرار الكون، و هو من هذا الجانب يمنح الفكر الإسلامي نظرة في عمق التجربة الحضارية، تق..... عثرات التقليد و التقوقع في معطيات الحضارة الغربية، و هو إذ يختار الإسلام، لا يجعل اختيارا غير قابل للتطبيق، إذا ما توفرت شروط الانبعاث الاجتماعي"[2].

و الانبعاث الاجتماعي الذي يشير إليه **مالك بن نبي** ينبع من تعاليم الدين الإسلامي، إن هذه التعاليم بما تحتويه من قيم تدفعه، و تشحذ فكره إلى مزيد من الفعالية. و لا ننسى في رأيه أن القرآن الكريم وضع حولا لكل القضايا و المواقف التي تواجه البشرية: "و لسنا في حاجة إلى حدث طويل لكي نؤكد أن الفكر الإسلامي، قد وضع حلولا لمشكلات العالم الإسلامي، و ما يعانيه من إنسان العصر الحديث من قضايا و مواقف، إن القرآن الكريم قد وضع حلولا لهذه القضايا و المواقف، و يجب أن نعمل على ضوء هذه الحقيقة، فمن ناحية المشكلات الاجتماعية كالزواج و المعاشرة و الطلاق... الخ كما وضع تشريعا للمسائل الدنيوية كالبيع و الشراء و التجارة.

و من ناحية، فإن القرآن يضع في أعماق عقيدتنا الاستعدادات التي تؤهلنا لتطبيق المعاملات المتعددة، و يحفزنا على الإبداع و الابتكار"[3].

و يعلل مالك بن نبي أسباب تعثر النهضة الإسلامية، رغم أنها تملك عوامل التحضر في "الإنسان و التراب و الوقت" إلى عامل جوهري تتحد به من خلاله كل الشروط لتركيب الحضارة. إنه عامل "العقيدة الدينية"، أو الفكرة الدينية، يقول: "و في رأيي أن السبب في ذلك أن هذه العوامل تتطلب إلى جانبها عاملا آخر لا غنى عنه .. هو العامل النفسي، هذا العامل الذي يصطلح على تسميته بالعقيدة، و البعض الآخر

([1])- مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، مقدمة الأستاذ "محمد مبارك"، ص:13.
([2])- **جريدة "المنطلق"**، العدد الأول، بيروت، سنة 1997، ص: 45 و ما بعدها.
([3])- **مجلة "الشبان المسلمين"**، العدد 171، ربيع أول 1391هـ ماي 1971، ص:16-17.

يسميه "أيديولوجيا" فنحن إذن أمام قضية واضحة وضوحا كاملا، إن الشروط اللازمة لتكوين الحضارة موجودة بين أيدينا، بمعنى أن عندنا أكرم و أفضل العناصر الموجودة في العالم، و عندنا أخصب المساحات الترابية، و عندنا الساعات الزمنية الكافية للإبداع و الابتكار، ويتبقى علينا أن نفكر ما الذي ينقص هذه الأمور كلها"[1]، فيتبيّن: "أن الذي ينقصنا هو العمل بموجب العقيدة الإسلامية، الإسلام وحده هو الذي يمكن من أن يعيد المسلمين إلى عالم الحضارة الخلافة المبدعة..." [2].فالسياسة الحقة هي التي تدفع بشعوبها إلى التطور ،كما تعمل على تنقية الأجواء العالمية منكل عوامل الهيمنة والسيطرة ،لان العالم اليوم مشحون بالتوترات تغذيه سياسة القوة وكأن الحضارة تبنى على القوة لاغي ويشير مالك بن نبي إلى هذا فيما يظهر جليا في الخصوم الذين يتنافسون على طول المحور الذي يربط واشنطن –موسكو .

وكنتيجة لما سبق يمكننا أن نسجل مع مالك بن نبي أنه إذا كان :"العلم دون ضمير ما هو إلا خراب الروح "فالسياسة من دون أخلاق ما هي إلا خراب للأمة "[3].

3.2.6.3علاقة السياسة بالحضارة :

إن السياسة في علاقتها بالحضارة تمثل التجسيد الواقعي لها ،فحالة التخلف الحضاري مثلا لا يمكن أن تنتج إلا وضعا سياسيا مترديا،وهو ما نلاحظه في العالم الإسلامي ،كتخلف الممارسة لسياسية وانحطاطها الفكري والأخلاقي ،كانعكاس لتخلفها الحضاري .فالسياسة بذلك هي الانعكاس الأمين لمرحلة ما من مراحل الحضارة ،في جوانبها الأخلاقية والفكرية والاجتماعية .باعتبارها ممارسة تجسد هذه الأبعاد الثقافية والحضارية .

ويقدم مالك بن نبي مثالا عن ذلك من خلال العلاقة بين السياسة و الاقتصاد كأنموذج عن مكانة السياسة في الإطار العام للحضارة : " وعمليا يجب أن تسير النظرية الاقتصادية جنبا إلى جنب مع النظرية السياسية، كما تحيل المبدأ النظري إلى قانون للعمل والنشاط فتضمه بذلك إلى دوافعه وإلى نسقه وأسلوبه والطريقة الواحدة التي يصبح بها المبدأ أو الفكر جزءا من التاريخ هي أن يتحول إلى عمل إلى دافع عمل ،إلى طاقة علمية ،إلى إمكانية عمل "[4] .

([1])-**مجلة "الشبان المسلمين**، ، ص:16-17.

([2])- **المرجع نفسه** ، نفس الصفحة.

[3]- مالك بن نبي ،**بين الرشاد والتيه** ،ص 80.

[4]-مالك بن نبي ،**المسلم في عالم الاقتصاد** ،مصدر سابق ،ص 19.

كما تعتبر السياسة أداة توجيه ،تستخدم بغرض توجيه الحياة ذاتها ،وفق المعايير الاجتماعية والأخلاقية والسياسية ، باعتبارها ترسم لهذه الحياة الاجتماعية مسارها،وللفرد وضعه ،فالسياسة هي :"الميدان الذي تتجلى فيه الخصائص الفكرية والأخلاقية والاجتماعية التي تتصف بها بيئة معينة وشعب معين ،إن هناك علاقة مباشرة بين السياسة والحياة :فالأولى تخطيط للثانية ،وما السياسة في جوهرها إلا مشروع لتنظيم التغيرات المتتابعة في ظروف الإنسان وأوضاع حياته ، هذه العلاقة التي تحدد وضع الفرد باعتباره غاية كل سياسة ،تعد الفرد أيضا عاملا لتحقيق تلك الغاية " [1].

وتعبر السياسة عن إرادة المجتمع وقناعاته عندما تصبح الوسيلة التي يجسد بها مبادئه ، حيث تظهر على شكل تشريع يجسد قناعات هذا المجتمع على مستوى الواقع وهو ما يمنح الحضارة الوجود الموضوعي ،يقول مالك :" إن إرادة المجتمع وقدرته تضفيان صفة موضوعية على وظيفة _ وهي جملة العوامل المعنوية والمادية اللازمة لتنمية الفرد_ وهي نفسها تتموضع في شكل السياسة ،في صورة تشريع يمثلان إسقاطا مباشرا لعالم الأفكار على الصعيد الاجتماعي والأخلاقي " .[2] ولكي تقوم السياسة بوظيفتها التغييرية ، وجب وضعها في مكانها المناسب ضمن الإطار العام ،باعتبارها الوسيلة التي يستعملها المجتمع في التعبير عن تصوراته وقيمه أو ثقافته ، في صور شتى تضمنها السياسة كمواد تشريعية أو ممارسة اقتصادية.

وباعتبار السياسة هي أداة التنفيذ ،فإنها تأخذ مضمونها و بالتالي وجهتها القيمية وبعدها العالمي بفضل ما تقدمه لها الثقافة من مضمون وتوجيه وبعد :"إذ السياسة حينئذ تكسب بعدا وطنيا وعالميا ،بفضل ما تهب لها الثقافة من تفتح على القيم التي اكتسبها الفكر الإنساني عبر آلاف السنين "[3].

إن السياسة ليس منوط بها فقط العمل على المستوى المحلي داخل الدولة مثلا ،أو في البعد الزمني القريب ، بل تمتد إلى المستوى العالمي وتأخذ البعد الإستراتيجي طويل المدى ، حيث تمنح لها الحضارة هذا الامتداد في الجغرافيا المكانية والزمانية ،وهو ما يعني القدرة على الرؤية والتصور الصحيحين للأمور ، لذلك يقول بن نبي :" إن السياسة لا يمكنها أن تغير مصير مجتمع ما لم يتم تحديدها في كنف تصور عام للعالم باعتبارها التعبير العيني الملموس لثقافة حضارة مرتسمة على مخطط "تعبئة" وإستراتيجية.[4] ولقد وضع مالك بن نبي حلا سياسيا يجب سلوكه ،فوجب أن يتصف

---

[1]- مالك بن نبي ، **المسلم في عالم الاقتصاد** ،مصدر سابق ،ص 96.
[2]- مالك بن نبي ، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي** ،مصدر سابق ،ص43.
[3]- مالك بن نبي ،**بين الرشاد والتيه** ،مصدر سابق ،ص90.
[4]- مالك بن نبي ، **آفاق جزائرية** ،مصدر سابق ،ص14.

بالشمولية، والعلمية .باعتبار أن السياسة هي" العمل الذي تقوم به جماعة منظمة في صورة دولة "[1] فإنها مطالبة بالنزوع نحو البحث عن حلول للمشاكل بانتهاج طرق منهجية وعلمية تراعى فيها طبيعة المشكلة في أبعادها العامة والشاملة حيث ترتبط السياسة بالعلمية من حيث التخطيط العلمي للحياة ، لكي لا تقع في أحد من نقاط القصور السياسية كالتسيب ،أو التبرير ،أو الإفراط ،أو التفريط ،وهذا باعتبار السياسة "مشروع لتنظيم التغيرات المتتابعة في ظروف الإنسان وأوضاع حياته " .[2] وتبعا لهذه النظرة الشمولية للمشكلة ،يحرص مالك بن نبي على توجيه النشاط السياسي توجيها علميا فيضع لذلك ثلاثة شروط :

أولا : الوضوح وتحديد الأهداف بها من دقة ، لأن الغموض وسيلة للتعمية وكثرة التأويلات وانتفاء المسؤولية ،وهو باب للفوضى والتسيب والتبرير.وكلها من نقاط القصور التي تعيق الفعل الحضاري .

ثانيا :مراعاة العدل في وضع التشريعات ،وتطبيقها ،لتحقيق أهداف السياسة حتى لا تبقى حبرا على ورق .

ثالثا: وضع جهاز رقابة نزيه ،لتفادي الظلم نتيجة الجهل أو التعسف ،وذلك بتحقيق استقلالية القضاء .[3] وعليه فإن المعركة التي تخوضها الشعوب اليوم هي معركة فكرية وليست مادية.

3.6.3محاور فكره الاقتصادي :

إن النجاح في بناء النظام الاقتصادي لابد وأن ينطلق من الفرد وينتهي دائما إليه باعتبار أن الإنسان هو محور النشاط في الحضارة ،وعلى هذا الأساس يبدو أنه من المستحيل بناء اقتصاد قوي دون مراعاة المحتوى الداخلي للإنسان الذي يتناول جوانبه النفسية والروحية وبناءا على هذا فما هي أسس النهضة الاقتصادية حسب مالك بن نبي ؟

1.3.6.3أسس النهضة الاقتصادية حسب مالك بن نبي:

النهضة الاقتصادية إذا ليست هي هذه النظرة أو تلك الخاصة بعلم الاقتصاد بل هي مرتبطة بجوهر اجتماعي معين. وبهذا تكون المجتمعات النامية مازالت بعيدة عن الوعي الاقتصادي والعمل بمبدأ رأس المال الاجتماعي ،ووجب عليها أن تعدل خطط التنمية وحسب بن نبي «فمن اللازم أن نتناول المشكلة الاقتصادية في هذه البلاد من أساسها. أي ابتداء من عناصرها النفسية. وفي هذا المستوى يكون حلها منحصرا في تكوين وعي

[1]- مالك بن نبي ،**بين الرشاد والتيه** ،مصدر سابق ص 86.
[2]- مالك بن نبي ،**وجهة العالم الإسلامي** ،مصدر سابق ص 96.
[3]-بن نبي ،**بين الرشاد التيه** ،مصدر سابق ص87-88.

اقتصادي بكل ما يستتبعه في التكوين الشخصي للفرد، في عاداته، وفي نشاطه، وفي مواقفه أمام المشكلات الاجتماعية»[1] وتتمثل أسس النهضة والحركية الاقتصادية للبلدان النامية في:

أ/ استقلالية العمل عن الإمكان المالي في التنمية: ويقصد بالعمل: «المجهود الذي يبذله الإنسان سواء أكان فكريا أو جسديا ويؤدي إلى خلق المنفعة أو زيادتها لإشباع حاجاته المختلفة»[2] وهنا تكمن أهمية العمل كونه يلعب أدوارا مختلفة في الحياة الاقتصادية، سواء في مجال الإنتاج أو كمصدر للدخل أو كونه موردا بشريا إلى جانب مساهمته في تحقيق عملية التنمية الاقتصادية.[3]

لكن قضية ربطه بالمال أصبحت تشكل عائقا أمام القيام بمشاريع استثمارية خاصة في البلدان النامية التي لا تفكر في مشروع اقتصادي إلا بربطه مباشرة بالمال أي على اعتبار أن العمل مقيد بشروط مالية ،وينبهنا مالك بن نبي إلى جوهر هذه المشكلة في قوله: «إن النشاط الاقتصادي لا يمكن من دون تدخل المال ... ومن هنا يبتدئ تعثر الفكر الإسلامي بصعوبات تنشأ من طبيعة موقفه من الأشياء، لا من طبيعة الأشياء ذاتها»،[4]

إن التقدم الاقتصادي المنشود في الدول النامية حسب بن نبي لا يتم إلا عن طريق رأس المال الحقيقي وقوتها العاملة المصممة على النهضة وفق إمكاناتها الاجتماعية، فالاستثمار المالي وحده غير كفيل بحل مشكلات البلدان المتخلفة، لا كما ولا كيفا، وعلى هذا تعطى الأولوية في الاستثمار للأفراد على الأموال ،وهذا ما نجده في تجربة ألمانيا،وتجربة اليابان، وتجربة الصين الشعبية .

إن القضية إذن بالنسبة لدول المحور الناشئ ليست قضية إمكان مالي كما هو سائد اليوم لكنها بالدرجة الأولى قضية تعبئة الطاقات الاجتماعية بسواعد أبنائها وعلى أكتافهم ،حيث يرى «أن الإنتاج الاجتماعي يرتقي بقدر ما يكون النشاط الفردي موجها لسد حاجات غير فردية، أو بعبارة أخرى، بقدر ما يكون موجها لمصلحة العامة».[5] إنها القاعدة التي تتجسد بصورة دقيقة في ظاهرة تقسيم العمل .

ب/أهمية الاستثمار الاجتماعي في الحركية الاقتصادية: لا يمكن للعالم النامي أن يغير أوضاعه الاقتصادية إلا بقدر ما يطبق خططا اقتصادية تكون أفكاره فيها متطابقة مع واقعه وتتفق مع أبعاده النفسية بجعل الإنسان القيمة الاقتصادية الأولى، وبوصفه الوسيلة التي يمكن من خلالها تحقيق الحركية الاقتصادية وخطط التنمية، ويؤكد بن نبي ذلك في

---

[1]- مالك بن نبي، **فكرة الإفريقية الآسيوية** ،تر: عبد الصبور شاهين، ط3، دار الفكر، دمشق، سوريا ،2001م ص 162.

[2]- محمود الوادي و آخرون، **الأساس في علم الاقتصاد**، دار اليازوري العلمية للنشر و التوزيع، الأردن ،2007، ص41.

[3]-مدحت القريشي، **اقتصاديات العمل**، ط1، دار وائل للنشر والتوزيع، الأردن ،2007م، ص 17.

[4]-مالك بن نبي، **المسلم في عالم الاقتصاد**، المصدر السابق، ص 42.

[5]-مالك بن نبي، **تأملات**، المصدر السابق، ص ص36-37

قوله:«... ولابد من أن نلاحظ من ناحية أخرى أن العوامل الاقتصادية كلها، مهما كانت درجة تعقدها، هي مرحلة أولى، نتيجة الإنسانية الأولية، وأنه من الممكن إذن لبناء الاقتصاد في بلد في مثل هذه المرحلة، أن نقدر القيم الاقتصادية بالقيم الإنسانية ».[1]أي أن المقومات الإنسانية هي رصيد كل شعب، و هي أساس بناء المقومات الاقتصادية، و«يمكننا أن نضع على هذا المنوال القائمة التالية:

الإنسان	الاقتصاد
اليد والوقت	وسائل الإنتاج
عقول	إطارات فنية
تركيز العمل	تركيز رؤوس الأموال» ([2])

وتظهر أهمية رأس المال الاجتماعي عندما نلاحظ التفاوت بين المجتمعات، فالعنصر البشري هو العنصر الأساسي في العملية الاقتصادية لكونه العنصر المنتج والمستهلك .

ج/المسلمة الثنائية للديناميكا الاقتصادية: الديناميكا الاقتصادية تعني حسب مالك بن نبي التفاعل بين عمليتي الإنتاج والاستهلاك الذي تحدده عملية التوزيع، فعندما نحدد طبيعة الحاجة التي يلبيها الإنتاج نحدد طبيعة التوزيع وحجم شبكته ،حيث يقول: «عملية التوزيع هي التي تطبع الحياة الاقتصادية، وتميز أسلوبها الخاص لأنها تحدد هدف الإنتاج من ناحية، ورقعة الاستهلاك من ناحية أخرى، لتنشأ بواسطتها حركة التفاعل بين المنتجين والمستهلكين»[3]، وعلى هذا الأساس يحدد لنا شروط الديناميكا الاقتصادية في صورة مسلمتين:

- لقمة العيش لكل فم .
- العمل واجب على كل ساعد.[4]

فيقول: « ...من أجل تحقيق شروط الإقلاع، يجب أن يقوم التخطيط على مسلمة مدرجة كمبدأ عام لكل تشريع اجتماعي اقتصادي ألا وهي: كل الأفواه تستحق قوتها، وكل السواعد يجب عليها العمل»[5]، أي أن شرط الحركية الاقتصادية حسب مالك بن نبي مقرونة بهذه الثنائية. هي ضرورة وشرط أساسي لاستمرار التفاعل بين الإنتاج والاستهلاك.

د/أسبقية الواجب على الحق في المعادلة الاقتصادية: لبلوغ التنمية حسب مالك بن نبي لابد من انتهاج إستراتيجية تقديم الواجبات على الحقوق ،فواجب العمل على كل ساعد الممثل في الإنتاج وحق لقمة العيش لكل فم الممثل في الاستهلاك ،هي الإستراتيجية التي

---

[1]- **المصدر نفسه**، ص 56.
[2]-**المصدر نفسه** ،الصفحة نفسها .
[3]-مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد ، ، ص79.
[4] -**المصدر نفسه** ، ص80.
[5]-مالك بن نبي، **بين الرشاد والتيه**، المصدر السابق، ص 175.

تحدد سلوك المجتمع النامي في استثمار موارده ،ويختصر لنا العلاقة بين هذين المفهومين الأخلاقيين في المعادلة الجبرية التالية: واجب + حق = صفر. [1]

فهذه المعادلة في نظره هي التي تحدد الوضع الاقتصادي للمجتمع حسب توجهه نحو أحد احتمالاتها ،فعندما تكون الغلبة للواجب تكون النتيجة إيجابية باستثماره لفائض إنتاجه يكون بذلك مجتمعا ناميا، أما التساوي والتكافؤ بين طرفي المعادلة أي بين الحق والواجب فيولد لنا نتيجة سلبية هي مجتمع راكد ،إضافة إلى أنه إذا كان الحق أكبر من الواجب يولد نموذج المجتمع المتخلف الذي هو مجتمع سينهار.

ه/تحديد وسائل المخطط التنموي وكيفية استثمارها:

يصنف مالك بن نبي الوسائل التي تساعد في تطور أي بلد من البلدان النامية تصنف كما يلي:

- فلاحته وهي تنقص أو تزيد بدرجة وسائله البدائية.
- ما يملك من مواد خام في السوق»[2] أي أن سائر الرصيد الاقتصادي لوطن متخلف في ساعة الصفر من إقلاعه وفي مرحلته الابتدائية تتجلى في الزراعة من ناحية، والمواد الأولية الخام من ناحية أخرى ،وهذان هما ثديا الاقتصاد في البلدان النامية ووسيلتا بعثه[3] وسائر العوامل الأخرى تعد إضافية: إذ كل قرض أو استثمار يأتي من الخارج لا يمكن أن يكون القاعدة التي يقوم عليها مخطط ما.[4]

فتطبيق الاستغلال الرشيد إذن للموارد المتاحة في مشروع النهضة الاقتصادية يرتكز أولا على قطاع الزراعة كونه نقطة انطلاق أي اقتصاد كونه يقوت سائر الأفواه ويشغل بالتدريج كل السواعد يجمع بين الإنتاج والاستهلاك، والوصول إلى المرحلة الصناعية مرهون بفائض في الإنتاج الزراعي.[5] « إن بلدا متخلفا ليست لديه العملة ذات قيمة دولية يستطيع بها تجهيز صناعاته بالآلات الضرورية، فإن عملته، هي المادة الخام المصدرة إلى البلدان المصنعة، ومما يفيض عن استهلاكه من القمح أو الأرز، أو ما ينتج من قطن فهذه المواد هي ما لديه بوصفها وسيلة استثمار في الخطوة الأولى، من أجل اقتناء ما يحتاجه في ميدان التصنيع».[6]

إن هذا الفائض في الإنتاج الزراعي حسب مالك بن نبي يكمن في تطبيق الاشتراكية على وسائل الإنتاج ،والتي يعرفها لنا بقوله: «فاشتراكية وسائل الإنتاج لا ترجع إلى مبدأ مذهبي، بل إلى ضرورة تحددها ظروف خاصة بالوسط، وبإمكانياته الحالية... أن يستلهم

---

[1]-مالك بن نبي، **المسلم في عالم الاقتصاد**، المصدر السابق، ص 87

[2]-مالك بن نبي، **بين الرشاد والتيه**، المصدر السابق، ص 173.

[3]-مالك بن نبي، **المسلم في عالم الاقتصاد**، المصدر السابق، ص 25

[4]-مالك بن نبي، **بين الرشاد والتيه**، المصدر السابق، ص 173

[5]-مالك بن نبي، **المسلم في عالم الاقتصاد**، المصدر السابق، ص 30.

[6]-مالك بن نبي، **بين الرشاد والتيه**، المصدر السابق، ص 174.

سياسة مخططة من نظام المزارع الجماعية توفر له القدرة على التأثير»[1]، وخطط التنمية في البلدان النامية يجب أن تواجه الإصلاح الزراعي من جانبين، الأول تخصيص الأراضي لمهمة الإنتاج وفقا لمعطيات اقتصاد القوت واقتصاد التنمية من جهة ثانية، والجانب الثاني وضع جهاز فعال يحمي المساحات الزراعية المنتجة .

وإلى جانب القطاع الزراعي نجد المواد الخام حيث يقول: « ليس تحت تصرف العالم الثالث وسيلة تساعده في الوضع الراهن على تنفيذ برامج تنمية سوى المواد الخام التي في أرضه. فإذا كانت هذه المواد في السوق العالمية رهينة البورصات تصبح خطط التنمية صعبة أو مستحيلة»[2] حيث ينبه إلى مشكلة تسويق المواد الأولية التي تكون تحت رحمة العملة. هذه المشكلة التي يرى بن نبي أنها ترتبط في جوهرها بمنطق الأسواق المالية بكل ما يحمله هذا المنطق من اصطناع وميكيافيلية وتزييف[3] بين محور المادة الأولية الذي تقطنه الشعوب المتخلفة والتي تصدر المواد الخام تلك التي لا تملك وسائل تغييرها وتصنيعها في بلادها، ومحور الصناعة الذي يتوفر على درجة من الازدهار والرقي في الحياة الاقتصادية حيث تقوم صناعات التحويل والتغيير.

ولكي نعالج تسلط العملة على المادة الأولية، فإن من الواجب أن نحرر المادة الأولية من العلاقة التي تخضعها لظروف السوق الراهنة[4] «هذه العملية ليست ممكنة إلا إذا قرر العالم الثالث إنشاء مصرف المواد الخام تجاه مصرف العملة، سواء كان اسمها البنك العالمي للتنمية أو غير ذلك... فالأدوار موزعة في الوضع الراهن توزيعا تمثل فيه المادة الخام دور العرض والعملة دور الطلب... هذا الوضع الذي يلزمنا بإنشاء مصرف المادة الخام لإصلاح حال المادة الخام التي تمثل العرض، في العمليتين الأساسيتين: إنتاجها و تسويقها».[5]

2.3.6.3الرؤية الحضارية للاقتصاد في البلدان النامية حسب مالك بن نبي:

حتى تحدد البلدان المتخلفة وجهتها الاقتصادية يجب أن تتخلص أولا من التبعية للعامل المقلل ألا وهو الاستعمار، فمن العبث أن يطلب من مستغل أن ينهي استغلاله، بل يجب التفكير في إيجاد إطار جديد، في صورة تدابير من شأنها أن تلغي تلقائيا الاستغلال إنها مشكلة حضارة هذه الشعوب حتى تتمكن من الانتقال إلى الوضع الإيجابي الفعال. حيث يقول مالك بن نبي: «أما عدم التوازن بين العالم المصنع ،والعالم الثالث فهو قضية أخرى: إنه مشكلة حضارة... على الثورات السياسية التي حققت في العالم الثالث الاستقلال بثمن غال، أن تزدوج الآن مع ثورات ثقافية تحقق إنهاء حالة تبعية فكل وطن

---

[1]-مالك بن نبي، **المسلم في عالم الاقتصاد**، المصدر السابق، ص 29.
[2]-مالك بن نبي، **بين الرشاد والتيه**، المصدر السابق، ص 150
[3]-مالك بن نبي، **المسلم في عالم الاقتصاد**، المصدر السابق، ص 30.
[4]- مالك بن نبي، **المسلم في عالم الاقتصاد** ، ص 32.
[5]-مالك بن نبي، **بين الرشاد والتيه**، المصدر السابق ،ص 151.

أفلت من اليد التي كانت تمشيه في التيار السياسي، كما "تمشي" الأم طفلها، عليه أن يتعلم أيضا المشي وحده في الميدان الاقتصادي دون يد تمسكه».[1]

فلو تأمل أهل الاختصاص في الاقتصاد حسب مالك بن نبي الآية الكريمة: ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[2]ولو تدبروا بعض الدراسات المتعمقة في البحث عن جذور الاقتصاد لأدركوا أن القضية في جوهرها أيضا تكمن في: «مستوى تغير مسوغات الوجود في المجال النفسي، وفي كلمة واحدة وبصورة أوضح في المستوى الحضاري(...) أي أن الاقتصاد ليس قضية إنشاء بنك وتشييد مصانع فحسب، بل هو قبل ذلك تشييد الإنسان وإنشاء سلوكه الجديد أمام كل المشكلات»[3] أي أن القضية إذن ليست قضية أدوات ولا إمكانيات. إن القضية كانت في أنفسنا،إذ علينا أن ندرس أولا الجهاز الاجتماعي الأول وهو الإنسان.[4]ومنه فالإنسان هو مفتاح التنمية في رتبة القيمة الاقتصادية الأولى، على شرط أن تكون إرادته شرارة مقتبسة من إرادة حضارية. فالتخطيط من الناحية الاقتصادية لا يعطي النتائج نفسها بسبب الاختلاف في المعادلة الاجتماعية ما يؤدي إلى الاختلاف في الفعالية بين المجتمعات، إذن التنمية في العالم الثالث لن تتحقق إلا ضمن تغيير جذري في طيات النفوس، هذا الذي عبر عنه مالك بن نبي بقوله: «فالتنمية لا تشترى من الخارج بعملة أجنبية، غير موجودة في خزينتنا. فهناك قيم أخلاقية واجتماعية وثقافية لا تستورد، وعلى المجتمع الذي يحتاجها أن يلدها»[5] ومنه نرى أن الحياة الاقتصادية لا ترتبط فقط بأجهزة ذات طابع فني ومالي وتنظيمي، بل هي مربوطة بجهاز موجود في المعادلة الشخصية لدى الشخص الذي يفكر في التخطيط وينفذ الإستراتيجيات .

إنه ليس من الضروري ولا من الممكن، أن يكون لمجتمع فقير، المليارات من الذهب كي ينهض، وإنما ينهض بالرصيد الذي لا يستطيع الدهر أن ينقص من قيمته شيئا، الرصيد الذي وضعته العناية الإلهية بين يديه: الإنسان، والتراب، والوقت»)[6] فكل حضارة تستلزم رأس مال أولي مكون من الإنسان والتراب والوقت فهي مركب من هذه العناصر الثلاثة الأساسية . والحضارة حسب بن نبي: «ومن الوجهة العملية التطبيقية فإنها - بوصفها مشروعا لعمل مخطط- تحرك أقصى ما يمكن من الطاقات الاجتماعية (...) لكن على شرط أن هذا العمل المخطط يحمل كل معناه، على أن يكون عمل بناء لا عمل تكديس، لأن الحضارة لا تصنعها كومة من الأشياء المستوردة، وإنما هي بناء تطبعه

---

[1]-**المصدر نفسه** ،ص 159.
[2]-القرآن الكريم: سورة الرعد / الآية 11.
[3]-مالك بن نبي، **المسلم في عالم الاقتصاد**، المصدر السابق، ص 59.
[4]-مالك بن نبي، **تأملات**، المصدر السابق، ص 129.
[5]-مالك بن نبي، **بين الرشاد والتيه**، المصدر السابق، ص 195.
[6]- مالك بن نبي، **بين الرشاد والتيه** ، ص 69.

فكرة معينة، كما تطبع فكرة المهندس المعماري العمارة التي شرع في بنائها»[1]، فالبناء وحده هو الذي يأتي بالحضارة لا التكديس، إن علينا أن ندرك بأن تكديس منتجات الحضارة الغربية لا يأتي بالحضارة، والاستحالة هنا اقتصادية، فنحن لو أردنا أن نكدس عناصر حضارة لنكون منها حضارة ،لأصبحنا أمام أشياء للحضارة لا تعد ولا تحصى. و لو أننا قدرنا ثمنها فلا نستطيع تسديده خلال ألف سنة .

ثم إن هناك مغالطة منطقية، فالحضارة هي التي تكون منتجاتها وليست المنتجات هي التي تكون حضارة. وهذا لا يعني أن ندع ما انتهى إليه الآخرون لنبدأ الطريق من أوله. إن علينا أن نأخذ من حضارة الغرب المعدات التي نستخدمها في إنشاء حضارتنا. فإذا لم يكن باستطاعتنا صنع الآلات مثلا فيجب علينا أن نستورد هذه الآلات من الخارج، إلى أن يأتي يوما نستغني فيه عن منتجاتها. على أنه من العبث أن أركب الجمل في عصر السيارات، ومن العبث الأكبر التبذير للأموال، أن أقتني أفخر السيارات ولا حاجة لي بها، فنحن في مرحلة البناء يجب علينا أن لا نبذر في الموارد حتى تعم الفائدة.

يتضح لنا مما سبق أن البلدان النامية في الميدان الاقتصادي تواجه أزمة حضارة، يجب عليها أن تحققها على محور تاريخها وبثقافتها ومؤهلاتها، وأن تحقق وضعا وفقا لمعادلتها الاجتماعية وبإمكانياتها الاقتصادية، تتغير معه كل القيم الحضارية، وينتج بالتالي تغيير كلي في طبيعة العلاقات ذاتها، بين العالم المصنع والعالم النامي تلك العلاقات التي يمكننا وصفها بأنها علاقات الاستعمار بالقابلية للاستعمار ،وعلاقات الإنتاج الصناعي بالزراعة والمادة الخام، وعلاقات مشكلات القوة بمشكلات البقاء، فتتغير هذه العلاقات حتى لا يبقى الحوار التاريخي بين الطرفين حوارا بين سيد و مسود، بين قوي وضعيف، بين متحضر دون مستوى الإنسانية الأخلاقي، ومتخلف دون مستوى الحضارة الاجتماعي، لأن كل تغيير على مستوى العالم الثالث يفرض تغييرا أخلاقيا و سياسيا على محور الدول المتقدمة.[2]

ويحثنا مالك بن نبي على عدم جعل النظريات الاقتصادية حكرا على الجامعات فقط لا تخرج عن نطاق تدريسها و تعلمها كنظريات بعيدة عن واقعنا العملي والاجتماعي للنهوض باقتصاد الدولة، هذا ما يظهر لنا جليا في قوله: «ولكي تؤتي النظريات الاقتصادية تأثيرها الاجتماعي يجب ألا يقتصر في دراستها على منصة الجامعة بوصفها علما وقفا على بعض المتخصصين، بل يجب أن يطبق هذا العلم على التجارب الجماعية التي يقف فيها وعي كل فرد وإدراكه أمام المشاكل المادية، مقدما بذلك لعلم المتخصصين ظروف صلاحيته للتأثير»[3] أي أننا بهذا نحيل المبدأ النظري إلى قانون للعمل والنشاط، ونحول المبدأ والفكرة إلى عمل يصير به جزءا من التاريخ .

---

[1]-مالك بن نبي، **تأملات**، المصدر السابق، ص 121

[2]-.مالك بن نبي، **تأملات**، المصدر السابق، ص119.

[3]-مالك بن نبي، **المسلم في عالم الاقتصاد**، المصدر السابق، ص 18.

فبعد أن بينا معالم الحركية الاقتصادية في المشروع الحضاري كما حددها مالك بن نبي نستخلص النتائج التالية:

- ✓ أن الاقتصاد في فكر مالك بن نبي ليس فقط علما نتعلمه، ولكنه قبل كل شيء وعي و استعداد فكري وسلوكي أو بكلمة واحدة ثقافة، إن الاقتصاد ليس خارجا عن ذات الإنسان، بل هو جزء من جوهره وذاته، إنه تراكيب ذهنية قبل أن يكون مسألة مواد أولية أو مال أو تكنولوجيا أو حصص في السوق.
- ✓ القابلية للاستعمار لها آثار سلبية في الجانب الاقتصادي والاجتماعي وحتى الجانب الحضاري للإنسان حيث تسهم في انتقاص فرص واستراتيجيات النهوض بالأمة، بما يواكب تحديات ورهانات الواقع الداخلي و الخارجي.
- ✓ حاول مالك بن نبي بآرائه فك قيود وضعتها أفكار الاستعمار على البلدان النامية و لذلك وجب تصفية الأذهان من المعامل المقلل أو القابلية الاستعمار .
- ✓ بالرغم من محاولات الاستنهاض الاقتصادي والتقدم التي استخدمت فيها الدول النامية أفكارا مستوردة، لم تقو تلك المحاولات على شد الإنسان للعمل من خلالها، لأنها لم تعبر عن تطلعاته ،ولم تراع قيمه وخصوصياته .فأي مخطط نفكر فيه بأفكار الآخرين ونحاول إنجازه بوسائل غيرنا معرض للفشل من الناحية العملية.
- ✓ يقدم لنا مالك بن نبي عددا من الشروط لتحقيق الحركية الاقتصادية في الدول النامية وتفعيل اقتصادياتها من خلال الغوص في الجوانب الاجتماعية والنفسية للإنسان النامي كمحرك أساسي لعملية التنمية .
- ✓ أي نظام اجتماعي في بلد ما لابد أن يتبع نظاما اقتصاديا موازيا له.
- ✓ أي مبدأ اقتصادي لا يمكن أن يكون له أثر إيجابي ومقدرة تامة على النهوض باقتصاد الدولة إلا إذا وجد في وضع لا يتعارض فيه مع عناصر المعادلة الشخصية السائدة في الوسط الذي يراد تطبيقه فيه متفقا فيها مع تجربة اجتماعية معينة.
- ✓ النهضة الاقتصادية في البلدان النامية يجب أن تجعل من الإنسان القيمة الاقتصادية الأولى، بوصفه وسيلة تتحقق بها خطة التنمية.
- ✓ إن المشكلة الاقتصادية في البلدان النامية لا جدوى من تناولها إن لم يكن هذا التناول من أساسها، أي ابتداء من عناصرها النفسية، فالبلدان النامية إذن لا تمتلك الوسيلة المادية فحسب بل إنها تفتقد أيضا للاستعداد النفسي والعقلي الذي ينمي اقتصادها.
- ✓ كل وطن متخلفا يجب أن يستغل كل الطاقات ويستثمرها، يستخدم عقله وسواعده وكافة وسائله، وكل شبر من ترابه، فتلك هي الآلة التي يجب ضخها من أجل الدفع بها لإنشاء حركة اقتصادية واستمرارها في ما ينفع البشرية.

- ✓ يجب على المجتمعات النامية أن تتدارك تخلفها الناشئ عن عوامل اقتصادية بحتة ،وهو التخلف الناشئ عن اقتصاد مازال في مرحلته الابتدائية، ليس له ما يعتمد عليه فيها سوى الفلاحة والمواد الأولية الأساسية وهما جوهرا الاقتصاد.
- ✓ كل برنامج للتصنيع في البلدان المتخلفة يواجه مشكلة الإنتاج الزراعي من جهة، ومشكلة تسويق المواد الأولية من جهة أخرى.
- ✓ تملك البلدان النامية من القدرات ما يؤهلها ليس لإنقاذ وضعها الخاص فحسب، بل لإنقاذ البشرية كلها، إن هي أدركت ما تضم من طاقات، وشحذت هممها، وعقدت عزائمها لتحسين أوضاعها.
- ✓ إن عالم الاقتصاد مرتبط بالقيم الحضارية ارتباطا وثيقا .كما يستبدل الثوب القديم تستبدل الأمم الأفكار التي انحطت بسببها وبذلك تتجسد الحركية الاقتصادية بتغير الإنسان نفسه وخصوصا عندما يدرك معنى جديد لوجوده في الكون باعتباره الإنسان محور الحضارة .
- ✓ الهوة الحاصلة بين عالم الفكر وعالم التطبيق هي السبب الأساسي في التخلف الحاصل في العالم النامي، ما يوجب نقل الأفكار إلى حيز التطبيق العملي لتكمل عجلة البناء دورتها ،عالم الاقتصاد ليس عالم الكميات والأرقام إلا في المرتبة الثانية، أي بعدما تبعث فيه الإرادة الحضارية الحركة والحياة.

ومهما يكن فإننا نرى كيف يرتبط عالم الاقتصاد بالقيم الحضارية ارتباطا لا يمكن معه أن نتصور نجاح خطة اقتصادية ،تقتنع بأرقام وإحصائية وأدوات مادية ،إن لم يكن إنجازها آخذا في الاعتبار قيمة الإنسان ذاته في رتبة القيمة الاقتصادية الأولى على شرط أن تكون إرادته شرارة مقتبسة من (إرادة حضارية) .

الفصل الرابع: مقارنة بين المفكرين في نظرتهما لفلسفة الحضارة.

1.4مقارنة في المحتوى والبعد الفكري:

بعد الدراسة التي مرت معنا حول فكر بديع الزمان سيعد النورسي ومالك بن نبي اتجاه الحضارة فإلى أي حد استطاعت اجتهادات كل من بديع الزمان ومالك بن نبي حول مشكلات الحضارة أن تعبر عن هموم وانشغالات الإنسان المعاصر عموما والإنسان المسلم على وجه الخصوص ؟

_ إن فكر بديع الزمان ومالك بن نبي حول قضية الحضارة لم يكن نظريا ،وإنما ارتبط بواقع الإنسان حيث الأول صبغ بصبغة قرآنية فكانت دراسته للحضارة والتي يعني بها "المدنية الحاضرة "أو "المدنية الإسلامية "فلم يجد تعريفا علميا دقيقا فلخصها النورسي في خمسة أسس وهي: القوة بوصفها ركيزة الحياة الاجتماعية والنفعية بوصفها الهدف الأعظم للمدنية والصراع بوصفه الدستور الذي يحرك المدنية الحاضرة والعنصرية باعتبارها المحور الذي يستند إليه في توجيه العلاقات وأخيرا تشجيع الرذيلة وتلبية رغبات النفس الأمارة بالسوء فلقد نذر جزء كبير من رسائله وكتبه لتأصيل القول في هذه الأسس وتعريف الأجيال بدورها في سائر تحركات المدنية الحاضرة . فلقد أعطى البديل وحصره في أسس المدنية التي يباركها القرآن وهي الحق والفضيلة والرابطة الدينية والتعاون ،والاحتكام إلى الهدي الإلهي في ضبط الأخلاق والقيم .في حين مالك بن نبي كانت دراسته للواقع دراسة علمية صنفت ونظمت مختلف العناصر ،وأخرجت المفاهيم في صيغ علمية تقترب من أن تكون قوانين وهذا العمل يرجع إلى كونه أقرب إلى تخصصه العلمي فأثناء انتقاله من مستوى التحليل إلى مستوى التركيب استفاد بن نبي من أساليب متنوعة في قراءة الأفكار والظواهر مما يجعلنا نستنتج أن الأفكار في منهجه قد نطقت بلغات عدة لتعبر عن حقيقة واحدة ولعل منطق القرآن ومنطق الفقه الإسلامي ومنطق الرياضيات قد مثلوا الدعائم الأساسية المرشدة لمنهجه في توضيح الظواهر التي درسها وخاصة ما تعلق منها بالعلاقات الخفية بين العالم الإسلامي والغرب .

فلا أحد يجهل معادلته الشهيرة المتعلقة بنشوء الحضارة :الحضارة =الإنسان+التراب+الوقت .فليس من السهل وضع مجموعة من العناصر ضمن علاقة رياضية حتى تكون النتائج مترتبة عن المقدمات .كما نجد أن كل منهما نقدا الحضارة الغربية وقدما الحلول التي يعانيها الإنسان في دول العالم الثالث .

_ إن رؤية بديع الزمان ومالك بن نبي للحضارة رؤية تطور وتقدم ،وليس رؤية ثبات وسكون حيث أن بديع الزمان تدمر من الجمود الذي أصاب المسلم في الوقت الراهن ملحا على ضرورة الإستفاذة من القرآن والتجارب العلمية الحديثة والرجوع إلى الإيمان لأن مصطلح التقدم والتخلف الذي وضعه الغرب برأيه كان مشوها

،لأنهم ابتعدوا عن الدين ،فليس بالضرورة أن نحكم على المجتمعات بالتخلف أو التقدم لأنهما ظاهرتان نسبيتان تخضعان للإرادة البشرية .في حين أن مالك بن نبي ركز على مفهوم الفاعلية الذي يعد أساس النشاط الحضاري .واعتبر أيضا أن العقيدة هي أساس الفاعلية فمن خلال اقتران التفكير بالعمل من خلال العقيدة يؤدي إلى التقدم في مختلف مناحي النشاط الحضاري .

_ الحضارة بمنظور مالك بن نبي هي ثمرة للثقافة التي تقوم عليها ،ولذلك فالأساس الفكري والروحي هو العنصر الأساسي الذي يبنى عليه الوجه المادي ،من تقنية وعلوم وإسهامات مادية والحضارة لا تستطيع إلا أن تكون ثمرة فكرها ،إنه ربط بين الفكرة الدينية وبين جميع أوجه النشاط الإنساني ،وأن من أخطر التحديات التي تصيب الكيان الحضاري أن يتحرك المجتمع في نشاطه وقد بدأ يتخلى عن رصيده الروحي والقيمي ولذلك فسيادة المبدأ الروحي أمر ضروري للاستمرار الحضاري .

فبناء الذات الحضارية لا يمكن في غياب فهم الذات واستيعاب الجذور العقيدية التي صاغت الكيان الحضاري للأمة ولذلك رأى مالك بن نبي أن كل تخطيط حضاري لابد وأن يسند إلى محيطه الثقافي ،والتنمية لا تشترى من الخارج ،حيث القيم الأخلاقية والاجتماعية ، والثقافية لا تستورد. فمحاولة نقل مفاهيم الفكر الغربي إلى الواقع الإسلامي أمر لايحقق استقلالنا الاقتصادي ،والسياسي ،بل يجرنا إلى التبعية ويسهم في تضييع ذاتنا الثقافية الإسلامية واغترابنا عن أنفسها .

وإذا كان كل من بديع الزمان ومالك بن نبي قد عايشا الثقافة الغربية وتعمقا فيهافإن ذلك كان سببا في تحررهم منها ووقوفهم موقف الناقد والمحلل لا موقف الناقل والمردد فباعتبار النورسي غربي المنبث فلقد اطلع على الحضارة الغربية وتغذى من مشاربها وتعمق في قضاياها ومشاكلها فلقد أفاض في انتقاد الجوانب السلبية لهذه الحضارة وركز على القيم الأخلاقية لما لهذا العنصر من أهمية خاصة في معالجته لمفاسد الحضارة الغربية فربط بين هذه الحضارة والعالم الإسلامي سعيا منه في تبصير المسلمين بمكامن الداء في هذه الحضارة الغربية أملا في درء مفاسدها قبل أن يعم الطوفان الذي عم القارة الأوروبية نفسها فأثنى على الجوانب الإيجابية التي ساهمت في ترقية الإنسانية وانتقد الجوانب الهشة التي دفعت المسلمين إلى التخلف كما أشرنا سابقا فلقد وقف على جملة من القضايا الجوهرية في حياة الأمة الإسلامية فكان لابد من تصفية المدينة الغربية بمصفاة الشريعة الإسلامية والدعوة إلى حضارة مؤمنة ففي نظر النورسي أن الأمم التي تنطلق من القيم وتتمسك بها لابد لها من أن تكافئ بتقدم وتطور . فيرى بن نبي أن أصل الحضارات الإنسانية هو الإيمان والعقيدة التي يعتقدها كل شعب وأمة ليؤصل بها أبعاد حضارته الثلاثة الإنسان

والوقت والتراب فقوة المعتقد يشكل قوة الحضارة فنجده يعبر عن مصطلح الإيمان بالحياة الروحية ،والإيمان القوي ،وبالفكرة الدينية فلا يمكن أن يصير المسلم فعالا في بناء الحضارة إذا لم يتحقق فيه معنى حب الخير للإنسانية ويبلغ هذا الخير الذي هو الإيمان للحضارات المادية التي تعيش في تعاسة وفراغ روحي(...) لأن الحضارة العلمانية حضارة الصاروخ ،حضارة الإلكترون ،اكتسبت هذه الأشياء وضيعت بعدا آخـــــــــر تشعر بفقدانه وهو بعد السماء .[1]فالعودة إلى الإيمان تدفع بالمسلمين إلى التحضر فقدم مالك بن نبي هو الآخر بكل موضوعية انتقادات إلى الحضارة الغربية التي تاهت في عالم الشيئية على حساب القيم الروحية الأخلاقية وقدم نقدا للإنسان المسلم الذي أصابعه العجز في فهم حقيقة الأشياء .

_ إن ما قام به بديع الزمان سعيد النورسي من جهد إنما يمثل إطلاعه على أحوال المسلمين في كل الشعوب المستضعفة في العالم في ظل الهيمنة الغربية وهو بذلك امتلك ناصية النقد للمنتوج العربي الإسلامي وإصلاح ما يجب إصلاحه ،إلى جانب نقذه اللاذع للحضارة الغربية التي ينتمي إليها والرافضة لكل الحضارات في حين يرى مالك بن نبي أن الحضارة الغربية اختصت كل شيء لمقاييس الكم وبذلك اضمحلت القاعدة الروحية،لأن الغرب يجري دائما وراء المادة دون البحث عن القيم الإنسانية فعلى الرغم من أن الحضارة الغربية تعيش تناقضات بين الكم التكنولوجي والانحلال الخلقي فهي في نظر مالك درس مفيد للمسلمين كي يتجنبوا ما وقع فيه الإنسان الغربي وعلى الإسلام الحي أن يتميز بالتفكير النقدي ،وأن عليه الاحتكاك بالعظماء الغربيين لأن الانفتاح على الحياة الداخلية والحياة الخارجية هو الدرب الأسهل لنهضة العلوم في العالم الإسلامي . وبخصوص الحركة التغريبية ،انتقد مالك البعثات الطلابية التي لم تتصل بالغرب للإستفاذة من العلوم التي تبنى أوطانها ،لكنها اتجهت لنقل ثقافة لا تليق بأمتها ،ولذلك فالمسلم لم يقرأ الغرب قراءة نقدية تجعله يستفيد من عثراته ،وهذا الرأي يتفق فيه مع النورسي الذي يدعو المسلم إلى قراءة الغرب والإستفاذه من تجاربهم الناجحة بل والأكثر من ذلك عليه أن يحتاط في الوقوع في التبعية .

كما نجد أن كتابات بن نبي حول الحضارة تمثل منهجا لنقد مظاهر استلاب شخصية المسلم في القرن العشرين ،مقابل قوى الغزو الفكري ،حيث أصبح المسلم المعاصر وكأن وجوده هامشي على خارطة الكيانات الحضارية المعاصرة فالحضارة عند المفكرين ظاهرة شاملة ،لذلك كان تفسيرهما لكل الظواهر الاجتماعية تفسيرا حضاريا فعلى حد رأي بن نبي لا يمكن لشعب أن يتعمق في فهم مشاكله ،ما لم يتعمق

[1]- مالك بن نبي ،دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين :ط1977،2،ص 34-35.

في فهم العوامل التي تبنى عليها الحضارات وتهدمها .والشيء الذي تميز به مالك عن النورسي في تفسيره للحضارة هو توظيفه لطريقة التحليل والتركيب ،حيث في الأولى يستعملها عندما يلجأ إلى التاريخ الإسلامي خاصة ليستعين بالأدلة على صحة نظريته خاصة عند حديثه عن دور الدين في بعث الحضارة وعن مراحل الدورة الحضارية ،أما التركيب فنجده يستعمله في المعادلة الجبرية في تفسير قضايا المجتمع كقوله بأن الحضارة تساوي (الإنسان +وقت +تراب) .فهذه المعادلة هي محاولة جادة من مفكر تعمق في الواقع الإنساني ،وتوصل في النهاية إلى أن التخلف سببه ذاتي ،مادامت العوامل الموضوعية المؤدية إلى التقدم متوفرة ،لكن الفعل الإنساني لم يتحقق في الدول النامية ،وفي المجتمع الإسلامي خصوصا .

_ومن المظاهر التي تعرض لها مالك بن نبي بالنقد هجومه على النزعة الكلامية والميل إلى المديح ،إذ برأيه أن النزعة الكلامية فصمت العلاقة بين الفكر وصورته كما انتقد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تحول عملها عام 1936 من مجال التعليم وصناعة الرجال المؤهلين لتحميل المسؤولية ،إلى مجال السياسة التي هي ليست سوى بيع الكلام وتمييع الحقيقة لأغراض شخصية ،أما الميل إلى المديح فيظهر في تمجيد الإسلام وامتداح خصائصه ،غير أن مالك بن نبي يرى أن الثابت لا يحتاج إلى إثبات وكان من الأجدر على المسلمين هو الاجتهاد في صنع حياتهم بما ثبت لديهم من حقائق. وهذه الظاهرة تعرض لها النورسي الذي رأى بأنه لأمر تدنيسي وعبث أن يقرأ القرآن كما تقرأ موسوعة تحتوي على كل المعارف الإنسانية فمن يقرأ رسائل النور يجد أن النورسي يرى بأن القرآن الكريم هو المصدر الأساسي للعقيدة الإسلامية وأنه هو المسلك الذي يجب أن يقدم على سائر المسالك في مجال الاستدلال عليها ،وأن كل تقديم للعقل عليه يعده انحرافا قد يؤدي إلى الضلالات فعلى الرغم من القيمة التي أعطاها النورسي لعلم الكلام باعتباره علم يتعلق بأهم قضية في حياة الإنسان ومن هنا جاء نقده للمتكلمين،لأنهم قدموا العقل على النقل فصعبوا الوصول إلى الحقائق التي يعرضها القرآن بيسر ووضوح فحتى وإن وصلوا إليها فإنها لا تورث اطمئنانا وكقناعة كتلك التي يورثها القرآن بأدلته السهلة الواضحة .وبذلك يرى النورسي بأن المعرفة الناشئة عن علم الكلام معرفة قاصرة لأن أصحابها سلكوا لإثباتها طريقا طويلا تستعصي على الأفهام ،وهو بهذا يتفق مع الصوفية الذين يرون بأن المعرفة الناتجة عن العقل ليست هي المعرفة الكاملة الموصلة إلى اليقين والعلم الكامل بالله [1]

[1]-حامد الغزالي ، أبو إحياء علوم الدين ،دار الفكر العربي ، ص 86-87

وعليه فيمكن أن نقول بشكل عام أن هناك ثلاثة مآخذ يسجلها النورسي على منهج المتكلمين :

أولا :تقديم العقل على النقل .**ثانيا** : اتخاذ مسالك في الاستدلال بعيدة عن مدارك الناس .**ثالثا** :مخاطبة العقل دون بقية لطائف الإنسان . فعلى الرغم من نقد النورسي للمتكلمين وتحفظه على منهجهم عموما وعلى بعض أدلتهم ،إلا أننا نجده قد ذكرهم في بعض المواضع من رسائله .بما يشعر بتقديره لمجهود اتهم فهو يصفهم بأنهم "علماء أعلام"[1] وبأنهم "عباقرة "[2]فتبدو الأمور التي قد يراها أهل الفلسفة عظيمة جليلة تافهة لا تكاد ترى بين مقاصدهم.[3] كما نجد قد استعمل بعض قواعد المتكلمين في الاستدلال كالسبر والتقسيم[4] ،والإلزام [5]وقياس الغائب على الشاهد[6] وتبنى بعض نظرياتهم .[7]

فحاول بذلك إحداث علم كلام جديد قادر على نصرة العقيدة الإسلامية والوقوف في وجه التحديات المختلفة ،التي وإن بدت اقتصادية واجتماعية وأخلاقية فإن لها حتما خلفية فلسفية .فحاول أن يجسد الوعي الذي يجب أن تبنى عليه دعوات الإصلاح وذلك بالجمع بين التراث وبين منجزات العصر جمعا يحقق حياة المسلم ما كان في حياة أسلافه من تناسق بين الأصالة والمعاصرة .

- وإذا كان بديع الزمان سعيد النورسي من المفكرين الذين نظروا للحضارات فاستطاع هضم الشعوب والحضارات السابقة ،وأحاط بجميع تجاربها حتى غذت رسائله منهاجا في المدارس التركية ونشرت في أقطاب العالم العربي والإسلامي ،وقدم بكل جرأة انتقادات للحضارة الغربية وأيضا للسياسة المتزمتة فقام بفضح التمويه العقائدي للسياسة.إلى جانب حثه على التعايش السلمي والتواصل الحضاري الذي يأمل من ورائه التقارب بين الشعوب وحل مشكلة التخلف والمجاعة والفقر ونزع فتيل الحروب كما قدم أيضا بديع الزمان ومالك دراسة مستفيظة عن واقع العالم الإسلامي مبينان الآفات التي تعوق التقدم الحضاري في المجتمعات الإسلامية كل بطريقته الخاصة ،وقد بين مالك أن مشكلات التخلف الحضاري في العالم الإسلامي لا يمكن أن تتم دون التمسك بالمقومات التي صاغت البناء الحضاري في

---

[1]-النورسي ،الكلمات ،ص 824.
[2]-المصدر نفسه ، ص 401
[3]-المصدر نفسه ،الصفحة نفسها .
[4]-زسالة طبيعية ،اللمعات ،ص 268-263.
[5]-المصدر نفسه ،ص 270.
[6]-وهو المسلك الأكثر في كل رسائل النور .
[7]-مثل نظرية (الكسب الأشعري)

الإسلام أما بالنسبة لبديع الزمان يرى بأن يقظة الأمة تكون بالعمل الإيجابي والاجتهاد ومكابحة النفس في ظل التمسك بالإيمان.

_ وفي مسألة تعايش الثقافات فقد تعرض المفكران إلى هذه المسألة كل بطريقته الخاصة وإن كان بديع الزمان توسع في هذا الموضوع. يقول في موضع

إن تصادما لآراء ومناقشة الأفكار لأجل الحق في سبيل الوصول إلى الحقيقة إنما يكون عند اختلاف الوسائل مع الاتفاق في الأسس والغايات فهذا النوع من الاختلاف يستطيع أن يقدم خدمة جليلة في الكشف عن الحقيقة وإظهار كل زاوية من بأجلى صور الوضوح ولكن إذا كانت المناقشة والكشف عن الحقيقة لأجل أغراض شخصية والتسلط وإشباع شهوات نفوس فرعونية ونيل الشهرة وحب الظهور فلا تتلمع بارقة الحقيقة في هذا النوع من بسط الأفكار بل تتولد شرارة الفتن فلا نجد بين أمثال هؤلاء اتفاقا في المقصد والغاية بل ليسعى الكرة الأرضية نقطة تلاق ذلك لأنه ليس لأجل الحق [1]".

يبين النورسي في هذا النص العلاقة بين الحـــوار والاختلاف سواء أكان هذا الاختلاف فكريا أم عقديا أم سياسيا لكن بشرط أن تكـــــون الغايـــــــة هي الوصول إلى الحق فهنا الاختلاف يقتضي الحوار والنقاش. وهذا سيمكننا طبعا من:

–الاستفادة من علومه ومنجزاته العلمية والحضارية والتكنولوجية.

-نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله ،ونشر الإسلام إنما يكون بالتواصل والحوار والإقناع لا بالعنف والإكراه لأن الإسلام سلام ولأن الإنسان مدني بالفطرة والمدني ينبغي التحاور معه وإقناعه بالدليل والمحاكمة العقلية .

وينبها النورسي بأن الحوار مع الغرب لا يعني:

أ_ الانسلاخ من الدين وإهماله لأن علاقتنا بالدين غير علاقتهم به يقول: " ألا فليعلم المهملون غير المكترتين أنهم لا يحببون أنفسهم بالانسلاخ من الدين لأي أجنبي كان وإنما يظهرون أنهم على غي هدى ليس إلا "[2]."بل أكثر من هذا هو أن التهاون في تطبيق الشعائر الدينية يفضي إلى ضعف الأمة ،والضعيف يغري العدو فيكم ويشجعهم عليكم ولا يوقفهم عند حده [3]."

ب- لايعني أيضا تقليد الأجانب وإتباعهم والتأثر بهم في كل شيء ،لأنهم "سلبوا أموالنا وأوطاننا بثمن بخس فقد سلبوا منا قسما من أخلاقنا الرفيعة وسجايانا الحميدة والتي بها يترابط مجتمعنا وجعلوا تلك الخصال الحميدة محورا لرقيهم وتقدمهم ودفعوا إلينا نظير ذلك رذائل طباعهم وسفاهة أخلاقهم".[4]

---

[1]-النورسي ،المكتوبات ،ص 348.

[2]-النورسي ،صيقل الإسلام ،ص 530.

[3]-النورسي ،المثنوي العربي،ص204.

[4]- النورسي ،الخطبة الشامية ،ص 56.

إن التخلف العلمي والضعف المادي والتأخر التكنولوجي والهوان المعنوي والتهميش الحضاري يجعلنا ننظر إلى الغرين نظرة مغلوطة ونسلك في تعاملنا معه سلوكا يكرس تخلفنا ويجعلنا نسقط في الاندهاش والانبهار والتقليد والإتباع فوضع النورسي ضوابط للحوار مع الغرب بعد السعي الدائب لأجل الإقناع بالحوار متمدن في مع الإنسان المتمدن في الغرب فيضع الأستاذ بين أيدينا جملة من الضوابط لأجل عملية الحوار يتعلق بعضها بتحرير مقاصد الحوار ،ومسالك التعامل مع الآخر والشروط الأخلاقية والمعرفية لتحقيق المسعى بفعالية عالية ولخصهافيما يأتي:

أ _ ينبغي أن يكون التواصل مع الأجانب بغاية إعلاء كلمة الله وكل مؤمن هو مكلف بالقيام بهذا الواجب.

ب_ ينبغي أن يكون الحوار و التواصل قائم على الندية والتكافؤ العلمي والرقي المادي الحضاري حتى يكون الحوار حقيقيا منتجا.

ج_ أن يتحقق الإسلام فينا قولا وعملا فنرفع الأوهام ونحقق الصورة ونظهر للغرب حقيقة الإسلام وفضائله أي أن نظهره بمظهر الجمال والحسن المحبوب .

د_ الإقناع بالدليل والمحاكمة العقلية .

ه_ الاعتماد على الكتب المقدسة الصحيحة يقول النورسي بهذا الصدد :

"إن الذي يسوق جمهور الناس إلى الإتباع وامتثالا لأوامره هو ما يتجلى به المصدر من قدسية ،هذه القدسية هي التي تدفع جمهور الناس إلى الانقياد أكثر من قوة البرهان ومتانة الحجة ".[1]

بعد الدعوة إلى الحوار والتواصل النورسي مع الغرب والأجانب فقط يسعى جاهدا لتطوير فنصل إلى الاتفاق والتعاون مع المتدينين منهم ضد العدو المشترك الذي يسعى على هدم الأديان وتخريب القيم والأخلاق ونشر الظلم والعدوان وهو ما يتجلى لنا من قوله "إن أهل الإيمان والحقيقة في زماننا هذا ليسوا بحاجة إلى الاتفاق الخالص فيما بينهم وحده بالمد عوون أيضا على الاتفاق حتى مع الروحانيين المتدينين الحقيقيين من النصارى فيتركوا مؤقتا كل ما يثير الخلافات والنقاشات دفعا لعدوهم المشترك المعتدي"[2]

[1]-النورسي ،**صيقل الإسلام** ، ص299.
[2]-النورسي ،**الملاحق** ،ص347.

فعالمنا هذا متعدد الثقافات،وكثير من المجتمعات نجد فيها أنماطا من التعدديات:تعددية عرقية ،دينية ،فكرية :تعددية لغوية إلى غير ذلك ،وحيث يكون التعدد الثقافي والتنوع الحضاري والاختلاف الفكري تكون الحاجة ماسة إلى الإقناع والحوار والتواصل ،المشروع وبتعدد الثقافات واللغات والمجتمعات تتعدد أوجه الفاعلية وتتعدد قنوات التأثير في ظل هذه الظروف العالمية يدعو الأستاذ إلى الحوار المضبوط والتسامح المشروع والتعاون المقبول .فالتسامح في غير سياق الحروب محبوب والتواصل موقع الندية والتكافؤ مطلوب إنه رجل الحوار والإقناع والحجاج. هذا بعض مما ورد عن النورسي في قضية الحوار والتعايش مع الآخر والاختلاف الذي دعا له النورسي . فالفكرة التي خامرت المفكرين في وضع حد للعنف والحروب التي شهدها القرن التاسع عشر ،وازداد لهيبها في القرن العشرين بحكم تطور التقنية وتكالب الدول الغربية في الهيمنة على الأسواق.لذلك وضع النورسي مجموعة من الضوابط للحوار مع الغرب والإستفاذه منه بما يخدم الإنسان المسلم وما ينفعه ودرء ما يجلب مفسده فالحضارة الغربية عنده اتخذت مسلكا واحدا وهو الإنتاج والاستهلاك المادي ،دون التفكير في أي مسعى أخلاقي يدفع الشعوب إلى العيش في سلاك ،وبرأيه إذا تصفحنا تاريخ الشعوب غير الغربية نجدها شيدت حضارات يمكنها أن تساهم في إسعاد البشرية الشيء الذي يلغي فكرة المركزية الغربية وبالتالي فإن إنقاذ البشرية من هذا الوضع المتأزم لا يكون إلا بالرجوع إلى الأديان السماوية وإلى الإسلام بصورة خاصة ومن هنا فالحوار عنده هو التلاقح المتبادل بين مختلف الثقافات والحضارات .

أما مالك بن نبي فلقد عالج المشكلة من زاوية أخرى حيث في نظره أن الحوار يكون بتناسي أحقاد الاستعمار ،والدخول في جو من التعايش الثقافي ،لأن نزعة الحقد برأيه عمياء ،لن تشجع المساعي التي تدفع على تكوين عالم قائم على السلام والوئام .

فالثقافة الأفروأسيوية لا يمكنها لأسباب أن تجد إلهامها الجوهري في مجرد نزعة معادية للاستعمار يجب أن تبحث عن روحها الأخلاقي في مجموع الحكم الروحية والتاريخية التي تقرها الشعوب الأفروأسيوية بوصفها نوعا من التراث يشبه ما قدمته الإنسانيات الإغريقية اللاتينة إلى الغرب .[1]فهدف الحوار بين المفكرين هو إنقاذ الإنسان من البؤس وشر الحروب فمالك يرى "أن انقد الإنسان من شر الفقر والبؤس من جهة ومن حتمية الحروب من جهة أخرى هما الضرورتان المحدثتان للمشكلة كلها ،مشكلة بقائه ،ومشكلة اتجاهه وهذه الضرورة المزدوجة تسيطر بصورة طبيعية على تحديد ثقافته

[1]- مالك بن نبي ،**مشكلة الثقافة** ،تر /عبد الصبور شاهين ،دار الفكر ،ط4،سنة 1986،ص107-ص108

"[1]فيجب أن ندعم ثقافة السلم ونبذ العنف ،و لن يتحقق هذا إلا بحوار شفاف بعيدا عن العلو والتسامي الذي طبع به الإنسان الغربي .
وفي إشكالية النهضة يركز مالك بن نبي على واقع المسلم في ظل الصيرورة التاريخية والواقع الدولي لذلك يتساءل لماذا تقدم الإنسان الغربي وتأخر غيره مع أن هذا الأخير يملك كل الإمكانيات المادية.
إن المشكلة في نظره مشكلة أفكار قبل أن تكون منتجات مادية ،ونحن على حد رأيه نشكو من افتقادنا إلى المنطق العملي في حياتنا ،حيث المسلم لا يحسن الإستفاذة من الوقت ولا من العلم ،ولا مما لديه من مال ،ولا يفكر ليعمل ،بل ليقول كلاما مجردا والنهضة عنده تصفية للعادات والتقاليد ،والإطار الخلقي والاجتماعي من رواسب الماضي الضارة وهذه الفكرة تطرق لها أيضا بديع الزمان حيث نوه بأعمال الحركات الإصلاحية التي تدعو إلى التجديد والفعالية وبديع الزمان وهو يعالج إشكالية النهضة يتساءل ماهي الدواعي التي أجبرت المسلمين على عدم المساهمة في التقدم العلمي ماعدا بعض الاستثناءات ويجيب على ذلك بأن السبب يرجع إلى أصحاب سلطات القرار الرئيسية بسبب السلطة السياسية وسلطة الثروة فالقوي يأكل الضعيف وأفاض بالشرح والتحليل ذلك في رسائله.والنهضة في نظر مالك تقوم علة معرفة العلاقة بين النشاط العلمي والفكري فمتى انعدمت هذه العلاقة عمي النشاط واضطرب ،وأصبح جهدا بلا دافع ،وكذلك حين يصاب الفكر أو ينعدم فإن النشاط يصبح مختلا أو مستحيلا والنهضة عنده تقوم على سواعد أبنائها ،لا تستورد من الخارج والدين عنده هو أساس بعث الفاعلية والنشاط وكذلك نجد هذا عند بديع الزمان الذي يرى بأن المجتمعات لا يمكن لها أن ترقى إلا بالرجوع إلى العقيدة الإسلامية.
_ تعرض كل من بديع الزمان ومالك بن نبي إلى إشكالية فهم الإسلام حيث بين النورسي أن بالقرآن نحيا وبه يستقيم منهجنا وتتحد غاياتنا حتى لو وقعت اجتهادات جزئية فيقول "بأن القرآن الكريم مرشدنا وأستاذنا وإمامنا

ودليلنا في كل أعمالنا "[2] فالقرآن جعله يبصر الكون والحياة والتاريخ بعين تستوعب الأشياء لكنها تنفذ إلى ما وراء الأشياء وتفسر "حركة التاريخ " تفسيرا جامعا للعوامل المنظورة المادية والعوامل المعنوية غير المنظورة .ويركز على الوازع الأخلاقي والروحي الذي فقد حقيقته في التطبيق ذلك أن المسلم أصبح يعيش مزدوج الشخصية فبدلا من أن يؤثر على المحيط أصبح المحيط يؤثر فيه فسعى النورسي أن يكون الإسلام عالميا بما يحمل من خصائص ثابتة ،لكن تعثر المسلمين يرجع إلى الانزلاق عن مضامين الإسلام .وإلى التطبيق الاجتماعي له مما جعله يفقد توازنه وانغماسه في

[1]-مالك بن نبي ،**مشكلة الثقافة** ، ،ص108.
[2]-النورسي ،**المكتوبات**،ص476.

اللهو والترف .في حين أن مالك بن نبي اعتبر أن ما ينقص المسلم هو منطق العمل لا منطق الفكر .
وإذا كان بديع الزمان أشاد بالصوفية واعتبرهم فرسان الحوار الحضاري فتأثر بهم وشهد بإيجابيات التصوف التي تخدم الإيمان وتدعمه ووقف على مزالق الطريق الصوفي ومخاطره وقد كان للطريقة النقشبندية أثر كبير عليه إذ استقى منها كثيرا من المصطلحات واستفاد من منهجها التربوي .
لذلك وجد التصوف في منهج النورسي المكانة والتقدير الجدير به فهو يقدر التصوف الصافي النابع من القرآن والسنة ،ويعتبر التصوف مرحلة من مراحل الارتقاء الإيماني ولكنه لا يمثل قمة هذا الارتقاء. في حين أن مالك بن نبي أعاب عليهم تحويل الإسلام إلى طقوس ،إن الإسلام لا يدعو إلى قطع الصلة بالحياة والتخلي عن الواجب ،بل ينبذ الشرائع المتطرفة المادية الصرفة وكذلك المثالية البحتة .فكان لابد من تجديد تفسير القرآن ليتم فصل الحاضر عن سلبيات الماضي .

وبخصوص مستقبل الإسلام يذهب النورسي إلى المقارنة بين المدنية الغربية المادية ذات البنية الملحدة ،وبين حضارة الإسلام ذات البنية الإيمانية ،فلابد أن ينتهي بالنصر للإيمان والحق .فلا وجود إلا بالروح والضمير والعقل والمادة معا ولا إنسانية إلا بالوحي والعقل .....والنبوة والعلم ....وبما أن المدنية الأوروبية والأمريكية قد مزقت هذا النسيج المتكامل....واكتفت بالعقل والمادة ...فإنها لم تعد قادرة على الاستمرار في القيادة مهما كانت كثافة السحب التي تحجب الحقائق و القيادة وبالتالي لابد أن تعود للإسلام وحضارته ...ولابد أن يتقدم المسلمون الصادقون الصالحون لإنقاذ سفينة الإنسانية .فهذا ما يراه النورسي فلدى الإسلام مؤهلات النصر والتفوق والسيادة ...لديه الحقيقة الإسلامية فهو أستاذ جميع الكمالات ..ولديه حاجة البشرية الملحة إلى هذا القائد الحقيقي للمدنية الصحيحة اللائقة بالإنسان فكما صدقت توقعات النورسي في الماضي البعيد فسوف تصدق بإذن الله توقعاته بانتصار الإسلام في المستقبل القريب.أما مالك بن نبي فيرى أن الإسلام يتجه من حوض البحر المتوسط إلى آسيا ،والعالم الإسلامي في المنطق الأسيوية برأيه قادر على تجديد نفسه حيث يتحول غلى طاقة ناشطة ،إذ الجو الجديد ليس مؤلفا من طبقات ،بل هو شعبي إلى جانب الاستعداد الفطري للعمل فمستقبل الإسلام يطرح نفسه بعبارات بسيطة وواضحة جدا .
-وفي مجال الاقتصاد يستند النورسي إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة فقام بتدقيق المواضيع الاقتصادية بحسب نفس المصادر فتعتبر الأفكار التي بينها في هذا المجال نجدها تندرج ضمن إطار تحديد وتحليل الاقتصاد الإسلامي .والذي هو منهج سلوك المستهلك في الإسلام .فالاقتصاد عنده يثمر القناعة ،والقناعة تنتج العزة ،استنادا إلى القول "عز من قنع وذل من طمع "كما أنه يشحذ الشوق بالسعي والعمل ويحث عليهما ويسوق سوقا إلى

الكد وبذل الجهد فيهما .فإذا ما سعى المرء في يوم ما وتقاضى أجره مساءً فسيسعى في اليوم التالي له بسر القناعة التي توافرت لديه ،أما المسرف فإنه لا يسعى في يومه الثاني لعدم قناعته وحتى إذا سعى فإنه يسعى دون شوق وهكذا فإن القناعة المستفيضة من الاقتصاد تفتح باب الشكر وتوصد باب الشكوى ،فيظل الإنسان في شكر وحمد مدى حياته ،وبالقناعة لا يلتفت إلى توجه الناس إليه لاستغنائه عنهم،فينفتح أمامه باب الإخلاص وينغلق باب الرياء .أما مالك بن نبي فيرى أن الفرد في فترة الاستعمار لم يتكون لديه وعي اقتصادي ،إنه كان مقلدا والتقليد كان أميل إلى تقليد الحاجات منه إلى الوسائل وبعد الاستقلال السياسي وقفت النخبة المثقفة بين موقف اختيار ،إما الليبرالية أو الاشتراكية،وفي رأيه أن كليهما لم ينفعا مجتمعاتنا ،لأنهما قامتا على قاعدة معادلة اجتماعية خاصة بالغرب بعيدة عن ذهنية مجتمعنا ،والنهضة الاقتصادية برأيه تقوم عن طريق الاستثمار الاجتماعي،فلابد من دفعة جديدة من خلال الدور الإنساني في العملية الاقتصادية. وفي بحثه عن عوامل تعثر التنمية الاقتصادية في الجزائر يقول :حاول ابن بلا أن يقيم التسيير الذاتي ،بادئا بالمشروعات الزراعية الكبرى التي كان يستثمرها المستعمرون حتى ذلك الحين ومستوحيا من هذا المفهوم الإسلامي ،الديني و الاقتصادي في آن واحد لأموال الوحدة الاجتماعية الاشتراكية ،غير أن التشديد كان أكثر فأكثر على أولوية الصناعة الثقيلة وعلى التأميمات،تبعا للنموذج السوفياتي كما يواكبه من بيروقراطية و تكنوقراطية ،بدلا من البدء في التطوير الريفي والمساهمة الحقيقية للجماهير ...ويخلص إلى القول بأن نقل التكنولوجيا يزيد في آن واحد تكلفة المشاريع الصناعية ،والبطالة والتبعية للأجنبي .

فهناك أهداف سامية متعالية تمس كل الناس ،لكن المنهاج يتيح في كل مرحلة من التاريخ إدخال القيم المتعالية .ويخلص إلى القول أن هناك مبادئ أبدية خاصة بالعلاقة بالله ،ثم هناك القوانين الخاصة التي بها ينظم الناس شؤونهم الاجتماعية .فمالك بن نبي لم يقع في هذه المتاهات ،حيث أن النبوة لها خصائصها التي تمتاز بها ،إذ أن يونس وارميا ،ومحمد (ص) أفرادا أرادوا أولا أن يتملصوا طواعية من دعوة النبوة فقاوموا ،لكن دعوتهم استولت عليهم أخيرا ،فمقاومتهم تدل على التعارض بين اختيارهم ،والحتمية التي تطوق إرادتهم وتتسلط على ذواتهم .[1] والقرآن في رأي مالك بن نبي امتاز بميزة فريدة هي أنه تنقل منذ أربعة عشر قرنا دون أن يتعرض لأدنى تحريف .ثم إن تدهور المسلم أيضا في نظر مالك يعود إلى تفضيل المطالبة بالحقوق على الواجبات وانعدام روح الفاعلية والنشاط الذي كان عليه في زمن نزول القرآن .فلا يمكن للإنسانية أن تعيش في وئام وسلام إلا برجوعها إلى النموذج الإسلامي ،حيث انتشار العدل والتسامح والبعد عن كل تعصب ديني أو عرقي .

[1]-مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ص 92.

فأزمة المنهج في العلم المتخلف في نظر مالك بن نبي تنحصر في نقطتين رئيسيتين :
أولا :إن العالم المتخلف أدرك الحضارة بمنظور خاطئ ،غذ تجلت لديه في مفهومها الصبياني حيث أصبح مثل الطفل الذي لا يملك من العالم المحيط به سوى ما يظهر له من أشياء وبذلك أخذ يجلب الأشياء من العالم المتحضر معتقدا ، أنه بإمكانه من خلال هذه الأشياء بناء حضارة متطورة إلا أن هذه العملية لا تخرج من كونها سوى تكديس للأشياء ،إضافة إلى هذا هناك تكديس في الأفكار ،تتجلى في استيراد أنواع من المناهج والمشاريع والمفاهيم في حين تظل الفائدة المجنية منها معدومة أو كالمعدومة. [1]
ثانيا : إن العلم المتخلف من خلال ما اتبعه من تكديس للأشياء والأفكار فقد السيطرة على بنائه الثقافي ،حيث تداخلت عنده الأشياء والأفكار وأصبح لا يفرق بين الصالح والطالح بين ما هو إيجابي وما هو سلبي ،بين ما صنعه وما استورده ،وهو لهذا يعاني من مشاكل متنوعة هي كالتالي :

على الصعيد الأخلاقي :تتمثل في تقويم كل الأمور بمقياس الأشياء وبمقياس المنفعة المادية.
على الصعيد النفسي :تتمثل فيما يعانيه الإنسان المتخلف من مركب النقص أما الإنسان الغربي.
على الصعيد الاجتماعي :تتمثل في انتشار ألوان الفوضى في المؤسسات الاجتماعية ،وفي عدم احترامه للقوانين والوقت ،وفي انتشار الأمراض الاجتماعية كالبيروقراطية والرشوة واختلاس أموال الدولة .
على الصعيد الفكري :يتمثل في النزوع إلى العناية بالشكليات والتسيب الثقافي.
على الصعيد السياسي : تتمثل في تفكك أفراد المجتمع الواحد ،وتضارب مواقفهم ،وفي عدم وجود رباط إيديولوجي بين شعوب العالم المتخلف لانتشار التفكك العضوي بينها لعدم الاستقرار في المجال المفهومي.
على الصعيد الاقتصادي : تتمثل في استلام العالم المتخلف لسيطرة الأشياء المستوردة التي حرم منها لعدم قدرته على صناعتها ،وفي التهاون في استغلال طاقته الإنتاجية وتطورها .[2]
وبناءا على ما سبق فإنه لا يمكن تحقيق النهضة ،و إنشاء اقتصاد واضح المعالم ،إلا بتضافر المقومات المتكاملة التي يملكها العالم الإسلامي ،"لأن وطنا متخلفا لابد أن يستثمر سائر ما فيه من طاقات ،يستثمر كافة عقوله وسواعده ،ودقائقه كل شبر من ترابه فتلك هي العجلة الضخمة التي يجب دفعها لإنشاء حركة اجتماعية واستمرار تلك الحركة". [3]

[1] _ مالك بن نبي ،آفاق جزائرية ،ص 175،176.
[2] -عكاشة شايف ،مرجع سبق ذكره ،ص 93.
[3] - مالك بن نبي ،بين الرشاد والتيه ،مصدر سبق ذكره ،ص 17.

2.1.4مقارنة في المنهج :

_ إن دراستنا لأفكار بديع الزمان ومالك بن نبي ومحاورهما ،تؤكد أن قضية الحضارة ومشكلاها قد مثلت المحور الرئيسي لاهتمامها فلقد سلكا منهجا واحدا وهو المنهج السلفي الذي ينطلق من القرآن والسنة إلا أن دعوة النورسي كانت تعتمد على منهج شامل منضبط بالمصدرين هما القرآن والسنة والذي ركز فيه على مواجهة كل التحديات والمخاطر التي كانت تريد تشويه هوية هذه الأمة و مسخ شخصيتها وإبعادها عن عقيدتها فلم يجد النورسي المنهج الشامل في أي علم من العلوم التي درسها ولا في الكتب الضخمة التي قرآها إنما وجد ذلك المنهج في القرآن والسنة النبوية فحسب كما يبدو ذلك في كتاباته ورسائله التي تستند إلى حقائق القرآن وتميزت بالدعوة القرآنية فأصبحت خدمة القرآن غاية الحياة بالنسبة لبديع الزمان . فمنهجه يقوم على الاستدلال القرآني المحرك نحو العمل والفعل ولا يقف به عند حدود الاعتقاد النظري المجرد وهذا ما ميزه عن مناهج المتكلمين التي تعتمد على الاعتقاد النظري .وأهم ما ميز رسائل النور أن الروح الصوفية هي الروح المسيطرة على منهج النورسي فعلى الرغم من تأكيده على أنه يعتمد على الكتاب والسنة وعلى الاستدلال القرآني فهو يتعاطف مع الصوفية رغم نقده لهم .فكتب رسائل النور بروح المتصوف فيما يخص قضايا العقيدة وعلم الكلام على الرغم من أنه اعتمد على الأدلة العقلية البرهانية .كما نجد بديع الزمان يستعمل المنهج الإستقرائي ،خاصة في البحث عن تجليات أسماء الله فكل شيء يبدأ من الله سبحانه وينتهي إليه فيقوم منهجه في ذلك على دراسة المجرد في المجسد والانتقال من المجسد إلى المجرد ولا يتوقف هذا التحليل على الجزئيات بل يرقى من خلالها إلى نطاق أوسع من المعاني فهو يبصر ما وراء تلك "الأجزاء المتناثرة والوقائع المتضادة والأمور اللامعقولة" ويربطها "بالمعاني الحقيقية لأفعال لله "[1] ومنه فلقد صاغ النورسي رسائل النور في قالب جديد ومنهج سديد ،لم يتبع فيه طرق التأليف المعروفة ولا مناحي الكتابة المألوفة ،بل اعتمد طريقة فريدة وأسلوبا شيقا متميزا ،فاعتمد التنويع في عرض الأفكار ،والعمق في تحليلها ،والسعة في ضرب الأمثال ،والشمولية في بسط المضامين العلمية ،والوظيفية في إيراد النصوص وسياقها ،والتدرج بالقارئ من العام إلى الخاص ومن الخاص إلى العالم ،ومن الأعلى إلى الأدنى فصيغ مضمون الرسائل في منهج محكم لا يصدر إلا عن خبير متبصر متمرس .

_ إلا مالك بن نبي فلقد استند بحثه في مشكلة المسلمين على أساس من علم النفس وعلم الاجتماع وسنن التاريخ .لذلك كان منهجه شاملا وانطلق فيه من ثلاث نقاط :

1_ **منهج التركيب المتآلف الشمولي**: [2]وهو منهج معالجة يسمح بالنظر إلى المشكلة في بعدها العام وهو ما يلتقي مع منظوره للمشكل باعتباره مشكلا حضاريا وهو ما يعني الانتقال من العام إلى الخاص .

---

[1] - النورسي ،سيرة ذاتية ،ص 22.

[2]- بوراس يوسف ،الفكر السياسي عند مالك بن نبي ، دار هومة ،الجزائر ، 2013، ص 197.

2_ **وحدةالتحليل**:حيث يجعل مالك بن نبي من الحضارة كإطار شامل وحدة التحليل الأساسية في منهجه، لتناسبها وطريقة المعالجة وتضمنها كل أبعاد الأزمة.ونقصد بوحدة التحليل ذلك الإطار النظري بكل مفرداته وقواعده ومبادئه وضوابطه ومفاهيمه والذي نستخدمه من أجل معالجة الإشكالات والتساؤلات التي تطرح علينا في سياق البحث في قضايا التجديد ،والمجتمع والإنسان ،والحضارة ،وغيرها [1]ووحدة التحليل هنا هي الحضارة .

3_ **توظيف العلوم الإنسانية الغربية**: وذلك بغرض تحليل قضايا الأمة،وتتمثل هذه العلوم في علم الاجتماع وعلوم النفس السلوكية والتحليلية والاقتصاد السياسي وفلسفة التاريخ ،وغيرها . [2]والملاحظ أن مالك بن نبي قد نجح في مقاربة مشكلات الأمة مستفيدا من المناهج والمعارف الغربية، دون أن يتنازل عن منظوره الحضاري الإسلامي.[3]

فلم يكن مفكرا إصلاحيا بل كان في جوهره "شخص الفكرة تعبيرا عن رؤية منهجية واضحة ،ومفكرا معرفيا أدرك أزمة الأمة الفكرية ووضع أصبعه على أس الداء .إنه من دون شك واحد من رواد مدرسة إسلامية المعرفة وإصلاح مناهج الفكر.

_كانت هذه مقارنة ومقاربة لفكر ومنهج كل من بديع الزمان سعيد النورسي ومالك بن نبي حول نظرتهما لفلسفة الحضارة فما هي غايات وآفاق فلسفة الحضارة بينهما ؟

3.1.4غايات وآفاق فلسفة الحضارة عند بديع الزمان ومالك بن نبي

إن القلق إزاء مستقبل الإنسان ظاهرة موصولة بسالف الأمم والأزمات فمحاولات الإنسان معرفة المستقبل بشتى السبل ظاهرة تاريخية حقة .غير أنه من سمات هذا العصر الأساسية التفكير في المستقبل ،إذا لم يعد الإنسان في عصرنا ينظر إلى المستقبل على أنه ذلك المجهول الذي ليس للإنسان إزاءه إلا التسليم به ،إذ ماحاجتنا إلى بذل الجهد في مجال قدره الله وحدده ونخن الضعفاء أمم قدرته لا نملك حولا ولا جهدا لتغيير ما خطه القدر ؟أم أنه الفرار من مقتضيات العهد والأمانة وفرار من واجبات الاستخلاف والتسخير خوفا من الابتلاء ؟ وانطلاقا من هذا سوف نحاول بنظرة استشرافية الإجابة عن عدة تساؤلات جوهرية حول الآفاق المستقبلية للحضارة وكذا وجهتها فإذا نظرنا إليها من خلال ما به تتحدد وتتخصص أي مفهوم الحضارة عند كل من بديع الزمان ومالك بن نبي فهي تتعلق عنده بتلك العملية التفاعلية المستمرة بين الفكرة الدينية والعقل الإنساني والواقع ،ومن ثم فإن الآفاق المستقبلية تبقى مقولة فارغة إذا لم تضف إلى هذه العملية التفاعلية المستمرة بين الفكرة الدينية والواقع والعقل. فإذا تمكن الإنسان من إدراك جيد لمثل هذه العملية التفاعلية وتجاه تطورها أو على

---

[1]-عبد العزيز برغوث ،من أساسيات المنهج الحضاري عند مالك بن نبي ،مجلة بونة للبحوث والدراسات ،العددان 4،5/ ديسمبر،2005،الجزائر ،ص33.

[2]- عبد العزيز برغوث ،من أساسيات المنهج الحضاري عند مالك بن نبي ،ص 33.

[3]- بوراس يوسف ،مرجع سبق ذكره ،ص 198.

الأقل الاتجاهات الممكنة لها،أمكن له تبين آفاق المستقبل لحضارته ،وفي هذا لابد من التنبيه إلى أن الحديث عن آفاق المستقبل للحضارة يكون مجرد مغامرة خطابية إذا هو لم يستند إلى ثلاثة ركائز أساسية :

_ الإدراك الجيد للواقع الراهن والماضي .
_ الإدراك العلمي والمنهجي للفكرة الدينية .
_ وتوافر إرادة التحضر بالشكل الذي ينبغي أن يكون.

وهي ثلاثية تتفاعل مع بعضها كل منها شرط للأخرى ،فإرادة التحضر شرط في اتجاه الإدراك السليم للواقع ومفاصله ،والإدراك الجيد لمفاصل الواقع الراهن والماضي شرط للإدراك العلمي والمنهجي للفكرة الدينية ،وهو شرط لنجاح إرادة التحضر وهكذا ....الخ

وتصور مثل هذا التفاعل في عصرنا هو بمثابة تحديد لنموذج .[1]حضاري مستقبلي ،حيث يخضع هذا النموذج لخصائص الواقع الإنساني المعاصر ويستجيب لحاجاته ،ولم يدع مالك بن نبي أن بإمكانه بلورته ولكن حسبه الدعوة إلى التجديد بعد المراجعة والتقويم ،حيث لا نترك للآخر أن يحدد لنا واقعنا ويشكل لنا بدائل المستقبل ،والمهم ليس النظر إلى المستقبل كزمن مجرد إنما كواقع مقبل ينبغي استكشاف كنهه ،والتحكم في أشكاله . لذلك سوف نتناول هذه الآفاق المستقبلية من خلال عنصرين :

_ يشكل العنصر الأول مرحلة المراجعة والتقويم أو الاستيعاب إشارة إلى دعوة مالك بن نبي لاستيعاب عبر الواقع الراحل في تفاعله مع الفكرة الدينية والعقل.

_ ويشكل العنصر الثاني مرحلة التجديد إشارة إلى مرحلة تصور الواقع المقبل في تفاعله مع الفكرة الدينية والعقل.

فعندما يتحدث مالك عن الاستيعاب أو المراجعة فهو يقصد ذلك البحث الفلسفي للتاريخ من حيث هو رافد من روافد الحضارة ،فالتاريخ من صنع الإنسان بالدرجة الأولى فلا هو قدر محتوم تخطه المشيئة ولا قدر أعمى تخطه الحتمية التاريخية ،فهو يقدم رؤية أكثر تفاؤلا حين يضع بين يدي الإنسان مفاتيح التغيير بل مفتاح المصير وذلك حين نعلم أن الأسباب التاريخية كلها تصدر عن سلوكنا وتنبع من أنفسنا أي من إرادتنا في تغيير الأشياء تغييرا يحدد بالضبط وظيفتنا الاجتماعية [2] .فالتاريخ في حقيقته ما هو إلا تجسيد لإرادة الإنسان وسلوكه ،إنه قائمة إحصائية لنبضات القلب وحركات اليد ومواهب العقل. [3] فمالك بن نبي وضع الأزمة التي تعيشها الأمة الإسلامية في إطارها الفكري والمنهجي الصحيح ،عندما نبه إلى ضرورة النظر إليها على أنها ليست سلسلة من الأحداث يعطينا التاريخ قصتها ،بل على كونها ظاهرة يرشدنا التحليل إلى جوهرها ،وربما يهدينا

[1]- مالك بن نبي ،الأفريقية والأسيوية ،تر ،عبد الصبور شاهين ،دار الفكر ،دمشق ،ط3 ،2001،ص 125.
[2]-مالك بن نبي،تأملات ،ص 130.
[3]-المصدر نفسه ،الصفحة نفسها.

إلى قانونها وسنة الله فيها[1] من خلال تعميق النظر في ظاهرة الأزمة ،كيف تحدث ؟ وما هي القوانين التي تحكم سيرها [2]فقد حاول مالك بن نبي وبديع الزمان سعيد النورسي من خلال دراساتهم حول مشكلات الحضارة ومن خلال رسائل النور التي شع نورها العالم تأصيل التفكير الإستشكالي الذي يتمحور حول ثلاثة أسئلة كبرى وهي :

- كيف قامت حضارتنا الإسلامية ؟
- وكيف انهارت؟
- وكيف نعيد بنائها ؟[3]

فهذا التفكير يقوم على أساس النظر إلى الأبعاد التاريخية التي تمكننا من استيعاب تلك الأسئلة الثلاث.

حيث يكون البعد الأول متعلقا بالبعد النفسي ،وفيه تكون دراسة التاريخ دراسة للإنسان من حيث كونه عاملا نفسيا زمنيا في بناء الحضارة .[4]

أما البعد الثاني فهو البعد الاجتماعي عندما ينظر إلى الحضارة أنها مظهر من مظاهر الحياة والفكر الجماعي ،ومنها يكون التاريخ دراسة لشرائط نمو معين،لا يقوم نموه على خصائص الجنس أو عوامل السياسة بقدر ما يخضع لخصائصه الأخلاقية والجمالية والصناعية المتوفرة في دفة تلك الحضارة .[5]

أما البعد الثالث فهو البعد الكوني أو الميتافيزيقي ،فعندما نرى أن تطور المجتمع مشروط ببعض الصلات الضرورية مع بقية المجموعة الإنسانية أي عندما ننظر بأن هناك أسبابا خارج محيط المجتمع غير منظورة دخلت في تكوين الحدث التاريخي .[6] فللتاريخ مغزى ومسار تصاعدي حلزوني ولهذا المغزى قوانينه الخفية التي تحافظ على دوامه وتحافظ على مسار التاريخ باتجاهه وهذا ما يسميه بن نبي الجانب الميتافيزيقي وأحيانا الجانب الكوني .[7]

وتأتي أهمية العناية بفقه الاستيعاب عند مالك بن نبي :

من كونه أولا: المحاولة العلمية الجادة في مجال المراجعة والتقويم لمسيرة الحضارة فقد وفق رحمه الله في تقديم مراجعة هامة ،وتقويم موضوعي جرئ لحركة الحضارة الإسلامية ،لم تنل مصداقيته ،السنين الطوال ،بل زاد الكثير من آرائه وطروحاته تأكدا وبروزا ولفتت أنظار المهتمين بمستقبل الأمة .[8]

---

[1]-مالك بن نبي ،شروط النهضة ،ص 92

[2]-.مالك بن نبي ،ميلاد مجتمع ،ص69.

[3]-مالك بن نبي ،القضايا الكبرى ،ص 54.

[4]-مالك بن نبي ،وجهة العالم الإسلامي ،ص 25

[5]-مالك بن نبي ،القضايا الكبرى ،ص 67

[6]-مالك بن نبي ،وجهة العالم الإسلامي ،ص 25.

[7]-المصدر نفسه .

[8]-محمد مبارك ،مقدمة كتاب وجهة العالم الإسلامي ،ص 10.

_ ومن كونه ثانيا وفق في رسم الإطار الصحيح لقضية صناعة الحضارة وتحديد كثير من شروطها.

_ ومن كونه ثالثا: التصور الجدلي السليم لتفاعل الفكرة الدينية والعقل والواقع.

كما طرح مالك بن نبي مشكلة الأمة عندما أكد بأن مشكلة الإنسان عموما هي مشكلة الحضارة.[1] وأي تفكير في حل أزمات الإنسان لا يستوعب هذه الحقيقة فحضوره على مسرح التاريخ كالمعدوم ،فلاهي مشكلة سياسية بالأساس،ولا هي عقدية أو أخلاقية ،وإنما حضارية تشمل كل هذه العناصر فوضح هذا بمعادلة ثلاثية الأبعاد تستوجب حل ثلاث مشكلات :

_مشكلة الإنسان وتحديد الشروط لانسجامه مع سير التاريخ .

_مشكلة التراب وشروط استغلاله في العملية الاجتماعية .

_مشكلة الوقت وبث معناه في روح المجتمع ونفسية الفرد.[2]

فربط ذلك بعمل منهجي مستقبلي وهو التخطيط ،وبفكرة مستقبلية وهي عالمية الطرح .فالكلام عن التخطيط وعالمية الطرح لا يقصد منه الاكتفاء بالتنظير والتحليق بعيدا عن جدلية الفكرة الدينية والواقع والعقل ،إذ على المسلم التقيد بمنظومته الأخلاقية المعتمدة أساسا على المنطق العملي الذي يقصد به استخراج ما يمكن من الفائدة من الوسائل المتاحة .[3] في ميدان العمل وليس في ميدان المنطق النظري وهذا يعني كيفية ربط العمل بوسائله وغاياته ،[4]مهما كانت بسيطة لأن التاريخ يبدأ من مرحلة الواجبات المتواضعة الخاصة بكل يوم لا في معناها المعقد ،كما يعقده أولئك الذين يعطلون التاريخ بدعوى أنهم ينتظرون الساعات الخطيرة على حد تعبير مالك بن نبي .[5] فهذه نظرة صائبة نجد مؤيداتها في تاريخ الاجتهاد الذي أغلق بابه يوم ابتعد المسلمون عن العمل نوعن أداء الواجبات فتم غلق باب الفُهوم وفتح باب التقليد وهذا الأمر نبه إليه رسولنا الكريم في كثير من أحاديثه يقول :« لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسئل عن خمس :عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيم أبلاه،وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وماذا عمل فيما علم ».[6]منبها إلى هذه العناصر الحضارية في حياتنا وفي أعمالنا فلفظ "يا ابن آدم " لفظ عام بالمعنى الأصولي يشمل المسلمين وغير المسلمين لذلك فمما ينبغي على المنظومة الأخلاقية الإسلامية الهيمنة عليه في نظر مالك بن نبي هو:

_سلوكيات الواقع الإسلامي .

_سلوكيات الواقع العالمي .

---

[1] -مالك بن نبي ،فكرة الإفريقية الأسيوية ،ص77

[2]-.مالك بن نبي ،تأملات ،ص201

[3]-مالك بن نبي ،مشكلة الثقافة ،ص 85.

[4]-مالك بن نبي ،مشكلة الثقافة ،ص58

[5]- مالك بن نبي ،في مهب المعركة ،دار الفكر ،دمشق ،ص78،بتصرف .

[6]- الترميذي ،السنن ، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ،باب في القيامة ، حديث رقم 4،526/2416.

والدور الأول ملقى على عاتق المسلم الذي هو ملزم بأن ينظر إلى الأمور من زاويتها الإنسانية ،حتى يدرك دوره الخاص في مجتمعه ودوره في الإطار العالمي . فإذا نظرنا غلى واقعنا الإسلامي وجدناه يعاني من اللافعالية ،إذ يذهب قسم كبير من أعمالنا في العبث والمحاولات الهائلة بسبب افتقادنا الضابط الذي يربط حركتنا :بين عمل وهدفه ،وبين سياسة ووسائلها وبين فكرة وتحقيقها .[1] فإذا عالج المسلم هذا الأمر وحاول تجسيد المنطق العملي في واقعنا السلوكي ،فإنه من بين الحلول أو المعالجات التي تلوح في الأفق التربية المخططة بمراحلها ،وكذا منهج الإقناع بهذا المنطق العملي لجميع فئات المجتمع الإنساني ودراسة بدائل المستقبل من خلال مشاهد سلوكية لأن التربية هي أساس تطورات الأوضاع الحاضرة أما إذا اتجهنا إلى الواقع العالمي وعرفنا المآزق السلوكية التي يعانيها أمكن القول أن هيبة الأمة الإسلامية قد تكفلها لها أحيانا منظومتها السلوكية ،إذا ما تناغمت هذه المنظومة السلوكية بمنطقها العملي مع المرحلة التي تجتازها الإنسانية ،أو التي ستجتازها في المستقبل إذا تم طرح هذه المنظومة السلوكية بمنطق عملي منهجي والمساهمة في تدريب المجتمع الإنساني عليها .

فما في العالم كله اليوم من منجزات حضارية ليس سوى مقدمة لما سيأتي به الله على يد الحضارة الإسلامية الجديدة التي تولد إنسانا لا ينظر إلى الماضي،ولكن يتطلع إلى المستقبل بمقومات جديدة ورؤى جديدة ،وضمن منهجية كونية شاملة يجمع فيها بين القراءة بالله والقراءة بالقلم وينفتح بكل قواه الإبداعية على حركة الحياة .ولادة هذا الإنسان إنسان الحضارة الإسلامية الجديدة لا تأتي محكومة بمنهجية الصراع والأفق الضيق الذي يختزل الإنسان مابين حدي الحياة والموت،وإنما تأتي محكومة بمقاصد الحق والسلام ،بمقاصد العدل والمساواة والحرية ،بمقاصد التوحيد والتزكية والعمران وبمقاصد العهد والأمانة والابتلاء والتسخير و الاستخلاف هذه المقاصد تجعل من ولادة هذا الإنسان ولادة متسعة الأبعاد،ولادة قوية كقوة الكتاب نفسه ،فهو ليس مجرد تحد إسلامي ،وإنما هو بعث عالمي سيظهره الله على العلم كله ،وتفجير لكافة الإمكانيات المتهيئة في عقل هذه الأمة عبر تفاعله مع الفكرة الدينية والواقع .

2.4نتائج البحث :

إن هذا البحث أتاح لي الغوص في كنز معرفي لعلم من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، عاش زمن الخلافة الإسلامية، والدولة التركية العلمانية، وتبصر للبون الشاسع بينهم في الأسس والمرتكزات والأهداف والغايات، وتمخض من هذه المعايشة طرحا لصناعة المستقبل، وتصورا شموليا يعين أبناء الأمة الإسلامية على عملية الاسترجاع الحضاري، ورؤية ترشدهم لمواجهة الحداثة الاستعمارية المادية ، مع استلهامه واستحضاره في كل طرح، أو رؤية، أو تصور، للمشهد النبوي

[1]- مالك بن نبي ،في مهب المعركة ،ص146.

والعصر السعيد للصحابة والخلفاء الراشدين، بفكر معاصر يواكب مستجدات الحاضر، وجاعلا من الإيمان التحقيقي نقطة الانطلاق والاستناد والاستمداد في كل ما يعرض من فكر ورؤى.

وأرى - من وجهة نظري - أن الرسائل كالبحر، لا يعطي ما بداخله إلا لمن تعلم فنونه، لذا تطلب البحث مني معايشة الرسائل كما تعايش معها الأستاذ النورسي حيث إن القراءة العابرة لاستخلاص النصوص وشرحها، لن تؤتي ثمارها بدون القراءة المتأنية، والربط بين النصوص المتناثرة في أحشاء الرسائل لقضية أو موضوع واحد، والمعايشة الفكرية والوجدانية، مع الالتزام بالموضوعية العلمية، والحيادية المنهجية.

ومن خلال هذه الدراسة المتواضعة، أجد أنها تتضمن على أهم النتائج التالية:

1- أن هناك عاملين كان لهما أكبر الأثر في البناء الفكري للإمام النورسي ودعوته الإصلاحية على أساس الإيمان، ولا ينفصل أثر أحد العاملين عن الآخر، وهما:

- الأثر الديني: الذي ترسخ في عقل و وجدان النورسي منذ طفولته، من خلال التربية والبيئة والمحافظة على تعاليم الإسلام، وتثقيفه بالعلوم الدينية وحفظه للقرآن.

- معاصرته للتحولات التركية سياسيا واجتماعيا وثقافيا واقتصاديا، ومعايشته للحربين العالميتين، وللعداء السافر على الإسلام، وفرض الأنموذج الحضاري الغربي.

ولكن على الرغم من عدم الفصل بين الأثرين، إلا أن الأثر الأول كان بمثابة البوصلة الموجه لكل ما يطرحه النورسي من أفكار ورؤى وتصورات، لمواجه وتصحيح مسار العامل الثاني، الذي أخذ يغزو العقول، ويلوث القلوب، فكان نتاج هذين العاملين رسائل النور، والتي يعدها النورسي بأنها درس إيماني مستمد من القرآن الكريم.

2- أننا في واقعنا المعاصر، وخاصة بعد ثورات الربيع العربي، نود أن نستلهم الخطى التي سار عليها النورسي في منهجه الإصلاحي المتكامل ودعوته للنهوض الحضاري، ومواجهته للحداثة الغربية المادية، ورفضه للاستبداد... إلخ، تلك الخطى التي رسمها لنفسه ولطلابه وللإنسانية جمعاء، قائمة على أن التغيير والإصلاح والتقدم يكون بالحروف وليس بالسيوف، بالكلمات وليس باللاكمات.

3- أن ارتكاز النورسي على القرآن الكريم كمصدر أساسي، يعد أنه ارتكاز مماثل لتجربة الدكتور عبد الله دراز، وإن كان النورسي سابقا له في تحقيق تلك التجربة، وكان شموليا، والأهم من هذا أنه جعل القرآن نقطة الارتكاز والانطلاق لجميع مصادره سواء النبوة أو العقل أو الكون، وهذا يستدعي من أتباع هذا الكتاب - القرآن الكريم - تكرارية هذا الارتكاز في معالجة جميع القضايا، لشمولية القرآن بجميع ما يخص الإنسان في حياته وآخرته. .

4_ قدرة النورسي العجيبة على الربط والتلازم بين المصادر المتنوعة، وكشفه عن تفسيرات جديدة لمعجزات الرسل والأنبياء، وإعادة صياغة المفاهيم والمصطلحات وذلك فيما يلي:

تفوق النورسي بعدم الارتكاز على مصدر واحد، وقدرته على الربط بين مصادر فلسفته - القرآن، والنبوة، والعقل الإيماني، والكون - وتلازمهم، وبيانه لحاجة الكون كساحة حضارية لمنهج القرآن وإرشاده، وقيادة النبوة في تفعيل القدرة التسخيرية للتعمير والإصلاح.

_ ثم قدرته على صياغة جديدة لمعجزات الأنبياء، جعلتها تتخطى حدود الزمان والمكان وإخراجها من كهفية العقل المسلم ونظرته لها على اعتبارها قصة تروى متعلقة بنبي أو رسول، وتفسيرها حسب واقع العصر ومستجدات الحياة، وبرؤية إيمانية مستقاة من القرآن، وذلك لمواجهة الحداثة المادية، وتحفيز الإنسان المسلم على التقدم والنهوض.

- قدرة النورسي على إعادة صياغة المفاهيم و تحرير المصطلحات، حيث استطاع تحويل مسار المفهوم الجهادي المعروف بحمل السلاح ومواجهة الأعداء، إلى الجهاد المادي تارة، والجهاد المعنوي و جهاد النفس تارة أخرى، مع تأكيده على الجهاد بمعناه الاصطلاحي، وسوق الجيش إلى الجهاد عند الضرورة.

5- أن النورسي لم يحصر فكره في قالب مذهبي معين، بل كان يؤطر لكل مرحلة بما يناسب واقعها، لهذا نجد أنه قد تحرر بمفاهيمه و مصطلحاته من سجن المصطلحات المذهبية والفكرية، سواء الكلامية الجدلية، أو الشطحات الصوفية، أو الفلسفية السفسطائية، وخاصة مصطلح الإيمان، الذي أكسبه معاني جديدة وفق الإكراهات الواقعية، واستخدمه كنقطة ارتكاز محورية للبعث والإحياء والدفع الحضاري للأمة.

6- اتسم موقف النورسي من الحضارة الغربية بالموضوعية والمنهجية العلمية - إلى حد كبير - وكشف عن دراسته وعمق فكره واستيعابه للتطور التاريخي للحضارات، وخاصة الحضارة الغربية، التي عكف على تشريح أسسها ومرتكزاتها و مراحل تطورها، ثم التنبؤ بسقوطها وزوالها، ولكن الذي يشد الانتباه في موقفه.

من الحضارة الغربية، هو ربطه الوثيق بين الحضارة والدين والأخلاق، وقبوله لعملية التلاقح الحضاري واحترام التعددية الثقافية، وخاصة مع أوروبا النصرانية التي خصها بخطابة المختصر، كما أننا نلحظ من خلال سرده لأسباب نهضة أوروبا، أنه لا يرتكز على عامل واحد للنشوء الحضاري، فعلى الرغم من قناعته بأهمية المال في النهوض الحضاري، إلا أنه لا يجعله العامل الأوحد، والبيئة رغم أهميتها، إلا أنها ليست العامل الأوحد للنشوء الحضاري، ورغم مكانة الإنسان وأهميته في فكر النورسي، إلا أنه لا يقبل تصنيف البشر، أو يركن بالنهوض الحضاري عند جنس دون أخر، لكل الأجناس البشرية في رحاب الحضارة الإسلامية تلاقوا في

تشييد نهضتها، ومنها رسخ قناعة لدى النورسي بكذب الادعاء بما يسمى صراع الحضارات.

7- إن سرد النورسي لأسباب نهضة أوروبا، والتي دفعتها للتقدم والرقي، هو بمثابة قبول ضمني يجب أن نلازمه ونربطه مع طرحه وتصوره للأسس والمرتكزات للمدنية الإسلامية، والتي كبديل تعويض عن الأسس والمرتكزات السلبية للمدنية الغربية، حيث إن البعض قد يظن أن ما تم طرحه من أسس للمدنية الإسلامية، هي أسس ومرتكزات أغلبها قدمها معنوية، وهذا غير صحيح، فما عرضه أثناء حديثه مع أوروبا النصرانية، وسرده لأسباب نهضتها، ثم الجوانب الحضارية في فكره، يجب أن ننظر إليها في بوتقة واحدة، حينئذ سيترسخ لدينا قناعة تامة، بأنه أسهب وأوفي في طرحه لجميع الجوانب الحضارية، وما تقوم عليه من أسس ومرتكزات، مادية ومعنوية، وبشمولية تصل إلى حد الاكتمال.

8- يتلاقى النورسى مع المصلحين والمفكرين في تفسيره لعوامل التقهقر والانحطاط الحضاري للأمة الإسلامية، وجعلها تحتل المكانة الأولى في التخلف والجهل والفقر ولكن السبق للنورسي حين لم يرتكز في تفسيره العوامل التأخر أو التقدم على عامل واحد فقط، كما أن تفسيره ابتعد كثيرا عن سرد الخواطر والهموم،

9_لقد برز واضحا مركزية البعد الإيماني في تصور النورسي وطرحه للجوانب الحضارية، وكشف لنا عن رؤيته المستقبلية لواقع العالم الإسلامي في الجانب الاجتماعي والثقافي والسياسي والاقتصادي، وهي رؤية مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية بنظرة عصرية توافق متطلبات الحاضر، بل وجعلها ملازمين له في جميع تصوراته، ولكن أهم ما نستنتجه في الجوانب الحضارية، هو استحضاره الأهمية الأخلاقية في كل ما يعرض.

10 _أن النورسي يوجه أنظارنا إلى التعامل مع القرآن والسنة أثناء سعينا للتقدم والنهوض، لأنهما يحتويان على كل ما يعين الإنسان على التقدم والنهوض، ولأنهما تضمنوا على مبادئ حضارية كلية ومطلقة، وعلى أسس ونظم لا تتغير بتغير الزمان والمكان، ولكن على الرغم من هذا فإنهم مهدوا لحرية الإنسان واختياره في كيفية صياغة وتطبيق تلك المبادئ والأسس حسب حاجات العصر ومعطيات الواقع، فالقرآن والسنة منحونا المبادئ والأسس للنظام السياسي، ولكنهم لم يمنحونا شكل النظام السياسي، وتركوا كيفية اختيار الشكل حسب ما يتطلبه كل زمان ومكان

11-نظرية مالك بن نبي تحررت من التفكير التقليدي الذي حصر واقع العالم الإسلامي في مشكلات العقيدة والفقه .

12_ بروز معالم التفكير العالمي في الطرح البنابي مما يجعل النظرية تمتلك الحس المعرفي والنظرة المستقبلية وتصلح أن تكون مشروع تربوي .

13_ يعتبر الإنسان النموذج عند مالك بن نبي هو تجاوز لفكرة "نهاية التاريخ "سواء التي نادى بها هيغل أو التي ينادي بها حاليا فرانسيس فوكوياما .

14_حاول بن نبي قدر الإمكان أن يضع نظرية عالمية تستطيع أن تجعل الإنسان مهما كان نوعه أو جنسه أو فكره يتعايش وفق جو إنساني متسم بالحوار الحضاري ونلمس ذلك من خلال كتابه "فكرة الأفرو-آسياوية ".

15_نرى أن النورسي ينظر إلى الإنسان بشمولية متكاملة ، فتكاملية الإنسان عنده تبدو من خلال تكوينه التكاملي الذي يشمل على :التكوين العقائدي والفكري المعرفي الذي تستقيم به رؤيته ونظرته للكون والحياة بحثا عن الحق والخير والتكوين النفسي الذي به يبذل جهده من أجل تحقيق مشروعه الإستخلافي في الحياة والتكوين السلوكي والعملي وأخيرا التكوين الاجتماعي والثقافي الذي يجعله مواكبا للتطورات وغير معزول عن تيار الوعي العالمي ومعتزا بثقافته وتراثه وتاريخه فتكاملية الإنسان عند النورسي تعني هذه الصفات مجتمعة في وحدة منهجية شاملة بحيث تتجسد واقعا حيا في تفاعلاته الحياتية ، فيكون بذلك معبرا عن حقيقة المنهج الإسلامي ونموذجا للإنسان الرسالي الكامل ولعل هذا ما يمثل مركزية الإنسان في الفكر النورسي كما نجد أيضا هذا البعد التشخيصي التصحيحي التكاملي في طرح بن نبي ورؤيته للإنسان فقد شخص حالة الإنسان وصحح مقوماتها وأعطى الحلول لتقدمه وتطوره صناعة وتشيدا.فصناعة الإنسان هي أسمى صناعة تقدمها الدول لتقوم بنهضتها وفق أسس راقية ومتينة .

16- لتحول مجتمع من وضع متخلف إلى آخر متقدم يستدعي دخول ذلك المجتمع في دورة حضارية متمثلة في عنصرين هما الإرادة الحضارية و الإمكان الحضاري وذلك بمنهج علمي وهي التي طبقها مالك بن نبي فبتحليله النظري توصل إلى أن كل حضارة ما هي إلا إنسان +تراب +وقت= حضارة بحيث يمثل الإنسان الجهاز الاجتماعي فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ ، فمشكلة العالم الإسلامي إنما تنبع من الإنسان وإليه تعود كما رأى بن نبي أنه يمثل قيمتين :الأول ثابتة لا تتأثر بالتاريخ وهو كونه كائنا بشريا حباه الله بالتكريم والثانية متغيرة كونه كائنا اجتماعيا.

17- نجد الإنسان يؤثر في حركة المجتمع بثلاث مؤثرات وهي:بفكره وبيده وبماله وبالرغم من وجود هذه العناصر الثلاثة إلا أنه لابد أن تكون هناك عناية بثقافة وفكر الإنسان من أجل خلق فعالية قصوى كما لابد من العناية بماله من أجل استثمار اجتماعي منتج ،فالمجتمع الذي يساهم في تكوين بناء عالمه من خلال ثقافة لها آفاق بإمكانه أن يقوم بإنجاز تركيب حضارة .فتوجيه قدرات الإنسان بهذه العناصر الثلاثة إنما تتم في نظر بن نبي من خلال التوجيه الثقافي فالثقافة هي الدم في جسم المجتمع فمحاولة إصلاح أي مجتمع إنما يبدأ بثقافته والتي تعتبر السبيل الأول للوصول إلى الحضارة.

18- قانون التغيير الاجتماعي لدى كل من المفكرين ينصب على الإنسان فهو العنصر الجوهري الذي يتغير بواسطة الدين ويغير هو بدوره المحيط الاجتماعي كما أن للدين الدور الأساسي في الإنشاء الحضاري فكلما ابتعدنا عن الدين واقتربنا من

الشهوات والغرائز انهارت الحضارة.لذلك نجد بأن بديع الزمان سعيد النورسي يوجه أنظارنا إلى التعامل مع القرآن والسنة أثناء سعينا للتقدم والنهوض لأنهما يحتويان على كل ما يعين الإنسان على التقدم والنهوض ولأنهما تضمنوا على مبادئ حضارية كلية ومطلقة وعل أسس لا تتغير بتغير الزمان والمكان.

ومن خلال هذا نلاحظ التقارب في الأفكار مابين بديع الزمان ومالك بن نبي إلا أن النورسي انطلق في تحليله من المنهج القرآني ومالك بن نبي بحكم تكوينه الرياضي نجده يستخدم المفاهيم العلمية في تنظيراته واعتماده على المنهج الجدلي لتفسير حركة التغيير في الإنسان والمجتمع.

19_أرى أنه من الضروري استنباط مناهج دراسية من رسائل النور، يتم دراستها في جميع المراحل التعليمية،وذلك لاحتواء الرسائل على العديد من العلوم والمعارف، وهذا في حد ذاته كفيل بإخراج نطاق التعليم من دائرة التقليد والتكرار، لننتقل إلى دائرة الإبداع والابتكار، ونقضي على الجهل، الذي ألحق ضررا فادحا في الفهم الديني والاستيعاب العلمي، وبزوال ذلك يكون التقدم والنهوض الحضاري للأمة الإسلامية وكان لابد من إدماج نظرية بن نبي حول النهضة في برامج التربية والتعليم في مختلف مراكز البحث في العلوم الإنسانية أسوة ببعض الجامعات العالمية.،كما يجب تكثيف البحوث والدراسات في الجانب الحضاري، بتشكيل فرق بحث وتسليط الضوء على التجارب التنموية الناجحة في العالم الإسلامي التي اعتمدت على أفكار هذين المفكرين والتنقيب عن الأسس والمرتكزات التي تساهم في النهوض والتقدم، وإيجاد تفسير لتراجع الأمة حضاريا، حتى يمكننا من خلال هذه وهذا ما يمكننا من الدراسات رؤى المفكرين والمصلحين الذين أفنوا حياتهم من أجل رفعة الأمة، خاصة وأنني وجدت خلال إعداد بحثي ندرة البحوث التي تتناول ذلك، وأغلب من عكفوا على دراسة فلسفة الحضارة، تناولوها من منظور مفكرين غربيين، وهو عكوف يطابق التوجه لغير القبلة في الصلاة، ولعل نظرة على ما كتبه مالك بن نبي، والنورسي، ومحمد الغزالي .. إلخ، وغيرهم كثير، كفيل بإثراء ومعالجة الخلل الحضاري للأمة.

فأريد أن أؤكد أن بديع الزمان سعيد النورسي ومالك بن نبي يبقى فكرهما لابد من دراسته وتحليله والتعمق فيه فهما بمثابة حلقة في الفكر الإنساني العالمي فوقفا على الداء وأعطى الدواء فيعدان بذلك مثالا يحتذى به حتى نرتفع عن الأحداث والمحن التي يعيشها العالم الإسلامي اليوم ونرتفع بأفكارنا وأفعالنا إلى مستوى أخلاقي إنساني فعال فعلى الرغم من كل الدراسات التي تم إنجازها حول فكرهما .
فإن فكرهما الحضاري لازال لم يكشف عنه بما يمكننا من صياغته على شكل مشروع عملي متكامل يمكن استخدامه كمرجعية وأساس لتناول وعلاج مشكلات الحضارة في العالم الإسلامي المعاصر .فلقد بشرا هذان المفكران باستعادة الدور الريادي للأمة ووضعا ميكانيزمات النهوض الموضوعية في قراءة إستشراقية مستندة على معطيات تاريخية فحاولا بذلك تجديد الهمم والإعداد لإقلاع الرواسب ومسايرة التطورات الحادثة بخلق ديناميكية تفاعلية تجعل المجتمع يحافظ على

استمرار يته وبناء حضارته فكانا بذلك متميزان في الطرح،علميان في المنهج متفتحان على غيرهما ،عالميان النظرة في معالجتهما للحضارة كغاية إنسانية نبيلة تشترك فيها البشرية ككل وتدعو إليها.

20- نجد أن الهدف من تعرض مالك بن نبي لمشكلة الحضارة هو النهضة بعالم يعيش في تخلف وكانت كتاباته موجهة إلى الشعوب التي خرجت من الاستعمار الذي خلف وراءه الجهل والتخلف والفقر وهي لا تملك سوى الدين، ويكاد يضيع منها هو الآخر في غمار الجهود المبذولة من أجل النهضة، فحاول مالك بن نبي أن يعيد للشعوب الإسلامية ثقتها بنفسها خاصة ونحن في هذا الزمن نعيش في عالم يبدو فيه امتداد الحضارة الغربية قانونا تاريخيا لعصرنا فيحذر من خطر التخلي عن الدين حتى لا يسود الفراغ الروحي لذلك يبين بن نبي أهمية الدين وكيف يمكن استغلاله لأنه القاعدة الأساسية التي نبني من خلالها عالم الأشخاص وبالتالي تنعكس العلاقات التي تسود عالم الأشخاص على جميع النشاطات.

وفي تفسيره للحضارة فلقد انتقد مالك بن نبي خاصة في" فكرة دور الدين في الحضارة" ولقد ذكر نفسه هذه الملاحظة التي وجهت له رغم التعديل الذي أضافه مالك بن نبي إلا أن هذه الفكرة بقيت غامضة لدى البعض ومن بين هؤلاء محمد محمد حسنين . فهذا الأخير يرى أن الفصل الذي خصصه بن نبي للدين كان أكثر فصول كتابه(شروط النهضة) غموضا فرغم التوفيق الذي حالفه في عرض الأدوار الثلاثة التي يمر بها الدين فإن التوفيق قد جانبه عند الحديث عن القوة الروحية في الإسلام .

كما ينوه محمد حسنين إلى القول بالاتجاه إلى التراب ليس قولا جديدا فقد أصبح في حكم الحقائق الثابتة الآن أن النهضة الصناعية تتطلب لكي تسير بدون تعسر –قيام نهضة زراعية سابقة عليها فمالك بن نبي لم يأتي في هذا المجال بجديد لكن ،فضيلته تكمن في أنه استطاع أن يلتقط هذه الحقيقة المعروفة لدى الغرب من بين خضم الأفكار المنتشرة هناك وأن يركز عليها باعتبار أنها أكثر وسائل التقدم ملائمة لنا وأن يقدمها لنا في وقت مبكر ،فق كتب شروط النهضة في الأربعينات .إلا أنه في نظرنا أن بن نبي لم يكن يقصد بالتراب ما فهمه هذا الدكتور ،أي قيام نهضة زراعية بل استعمل بن نبي كلمة تراب وهو يقصد المادة أي عالم الأشياء كعنصر من عناصر الحضارة، وفضل استعمال كلمة تراب بدل مادة لأنه صار لها عدة مفاهيم .

وكما لاحظ غازي التوبة تقريبا نفس الملاحظة فقال "مالك بن نبي "وقع في خطأ فكري نتج عن تحريك "القابلية للاستعمار" لذهنيته فأعطى التراب قيمة زائدة عن حدوده إذ وضع هذه المعادلة.

إنسان +تراب +وقت = حضارة

ليس من شك أن الإنسان هو مقياس الحضارة لأنه أثمن ما في الحياة فصلاح الحضارة وفسادها يقاسان بمدى النفع أو الإضرار به ،بمدى الانسجام أو التنافر معه ،ليس من أحد أن ينكر أن الحضارة تستغل التراب الآن أحسن استغلال ،و تستفيد من الوقت أروع استفادة ،وقد أعطته نتيجة ذلك ركاما ترابيا ضخما لم تشهده أية حقبة تاريخية سابقة وفي الوقت نفسه لم يختنق الإنسان في أية حقبة تاريخية سابقة كما هو

خاتمة :

يقال أن أصعب خطوة يصادفها الباحث هي لحظة تحرير الخاتمة كونها آخر ما يكتب وأول ما ينتقد ومن ساء مدخله ساء مخرجه ومن حسن مولجه سلم مختمه ومن هذا المقام ما علينا إلا تدوين خاتمة تعكس مقدمات الدراسة وهواجسها الخاصة وأن الدراسة تتعلق بمفكرين كانا لهما دور كبير في تقدم الأمة الإسلامية من إبداع في السؤال والتزام في النقد والممارسة والدقة في التحليل والتشخيص والصدق مع الذات بنزوع نحو الغد بإنسانية مفتوحة ، بروح التغيير و المبادرة في التنفيذ .

فوجب علينا إحياء القرآن الكريم وسنة المصطفى الكريم ، حيث يصبح سلوك المسلم حضارة تمشي أسوة بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي كان سلوكه قرآنا يمشي ،ولأننا أفرطنا في نقد العقل والفكر ولم نقم بنقد الفعل فمأساتنا الكبرى هي في الفعل أكثر منها في العقل أو النقل .

فلقد وضع النورسي ومالك بن نبي الإطار الحضاري كوعاء شامل لفكرهما حيث اندرجت مختلف الموضوعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فتميزا بعمق أفكارهما وسعة نظرتهما ،وتحليلاتهم الدقيقة ،فاشتغلا بالهم الإنساني والحضاري بكل تعمق وتحليل بصورة منهجية وبكل صرامة فاتسم أسلوبهما الفلسفي بالعلمية والتقنية فرسما صورة الحضارة بكل زواياها وأبعادها وهذا ما ميزهم عن الآخرين .

مختنق في عصرنا ولم يشق الإنسان بترابه ووقته كما شقي في قرننا ولم يتأذ الإنسان بمنجزاته كما تأذى إنسان الآلة ،فاستغلال الإنسان إذن للتراب والوقت لا يعطي بالضرورة حضارة حسب المعادلة. (إنسان +تراب +وقت = حضارة).

فقد يكون: **(إنسان +تراب +وقت = دمار)**

والوضع الصحيح للمعادلة هو إنسان متوازن = حضارة ولما كان المسلم حتما متوازنا تصبح صورة المعادلة: إنسان مسلم = حضارة. [1] ولكن رغم هذه الانتقادات الموجهة إلا أنها ليست مما يدحض نظريته لأن أفكاره متسقة و لا يوجد فيها تناقض . وما يسعنا قوله هو أن بديع الزمان النورسي ومالك بن نبي تركا لنا أثرا علميا رزينا فكانت نتيجة أبحاث النورسي ممثلة في" رسائل النور" من إحدى عشر مجلدا كما كانت نتيجة أعمال بن نبي سلسلة كتب تحت عنوان "مشكلات الحضارة" فعالجا مشكلة الحضارة كل بطريقته الخاصة.

[1] _ غازي التوبة :**الفكر الإسلامي المعاصر** ، دار القلم :بيروت ،ط3،1977،ص78.

قائمة المصـــــادر والـمـــراجـــع

المصادر والمراجع:

أولا: المصادر.

-القرآن الكريم

- الحديث النبوي الشريف

أولا :مصادر بديع الزمان النورسي

1. بديع الزمان النورسي ،الشعاعات ،تر إحسان قاسم الصالحي ،اسطنبول ،دار سوزلر ، ،ط1، 1992.
2. بديع الزمان النورسي ،**الكلمات** ،تر إحسان قاسم الصالحي ،اسطنبول ،دار سوزلر ،ط1، 1992.
3. بديع الزمان النورسي ،اللمعات ،تر احسان قاسم الصالحي ،دار سوزلر للنشر ،اسطنبول،القاهرة 2004. سعيد عبد الفتاح عاشور ،حضارة الإسلام،طبعة المعهد العالي للدراسات الإسلامية ،القاهرة ،2004.
4. بديع الزمان النورسي ،**المكتوبات** ،تر إحسان قاسم الصالحي ،اسطنبول ،دار سوزلر ،،ط1، 1992.
5. بديع الزمان النورسي ،**صيقل الإسلام** ،تر إحسان قاسم الصالحي ،اسطنبول ،دار سوزلر ،ط1، 1995.
6. بديع الزمان النورسي ،المثنوي العربي النوري ،تحقيق :إحسان قاسم ،سوزلر ،القاهرة ،2004.

ثانيا: مصادر مالك بن نبي :

7. مالك بن النبي، **إنتاج المستشرقين**، القاهرة، مكتبة عمار للطباعة و النشر و التوزيع، سنة 1970.
8. مالك بن نبي ،**الأفريقية والأسيوية** ،تر ،عبد الصبور شاهين ،دار الفكر ،دمشق[1] –مالك بن نبي تأملات .

9. مالك بن نبي ،**دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين** :ط1977،1 – حامد الغزالي ، أبو إحياء علوم الدين ،دار الفكر العربي .

10. مالك بن نبي ' **النجدة** 'المطبعة العالمية 'القاهرة '1997.

11. مالك بن نبي '**أفاق جزائرية** 'تر الطيب الشريف 'مكتبة النهضة الجزائرية '(د.ت)الجزائر.

12. مالك بن نبي '**مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي** 'تر محمد عبد العظيم علي. دار الفكر .1979.

13. مالك بن نبي '**ميلاد مجتمع** 'تر عبد الصبور شاهين 'دار الفكر 'دمشق '1974

14. مالك بن نبي، **الصراع الفكري في البلاد المستعمرة**، دار الفكر المعاصرة، لبنان، الطبعة الثالثة، 1988.

15. مالك بن نبي، **الظاهرة القرآنية**، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق، دار الفكر، الطبعة 4، سنة 1978.

16. مالك بن نبي، **المسلم في عالم الاقتصاد**، تر/عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سنة 1979 .

17. مالك بن نبي، **المسلم في عالم الاقتصاد**، دار الفكر، دمشق، سنة 1979.

18. مالك بن نبي، **بين الرشاد و التيه**، دار الفكر المعاصر، دمشق، سورية، الطبعة الثانية، سنة 2001.

19. مالك بن نبي، **تأملات**، دار الفكر دمشق، سنة 1978.

20. مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ترجمة عمر كامل مسقاوي، و عبد الصبور شاهين، مكتبة دار العروبة، القاهرة، ط1، 1969.

21. مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية ،تر: عبد الصبور شاهين، ط3، دار الفكر، دمشق، سوريا ،2001.

22. مالك بن نبي، **فكرة الأفريقية الأسيوية في ضوء مؤتمر باندوغ**، دمشق، دار الفكر، سنة 1981.

23. مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**، تر/عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط الرابعة، سنة 1974.

24. مالك بن نبي، **وجه العالم الإسلامي**، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان، 2000م،

25. مالك بن نبي ،ميلاد مجتمع ،ج1،**شبكة العلاقات الإجتماعية** ،تر/ عبد الصبور شاهين ،تر ،عمر كامل مسقاوي _لبنان .

ثانيا: المراجع

ا)الكتب:

1. ابن خلدون عبد الرحمان ،**المقدمة** ،د ط،دار الشعب.
2. أبو الحسن الندوي :**ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمون** ،دار الكلمة للنشر ،المنصورة مصر ،2011.
3. أبي الأعلى المودودي ،**الحضارة الإسلامية أسسها ومبادئها**،دار الخلافة للطباعة والنشر.
4. أحمد عبد الحليم ابن تيمية ، **العبودية** ،تحقيق : محمد حامد الفقي ،مكتبة السنة المحمدية.
5. أحمد عبد الرحيم السايح :**فلسفة الحضارة الإسلامية** ،المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ،1989.
6. أحمد محمد سالم :**تجديد علم الكلام قراءة في فكر بديع الزمان النورسي**.
7. الأخضر شريط ،**في الحركة التاريخية وتفسير التطور الحضاري عند مالك بن نبي** ، منشورات عالم التربية ،ط1،2008.
8. آدم ميتز، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، تر/محمد أبو ريدة، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الدار التونسية، تونس، سنة 1986.
9. أديب الدباغ ،**مطارحات في المعرفة الإيمانية عند النورسي**،ط1 ،مركز الكتاب للنشر ،القاهرة ،1997،ص 31-32.
10. أشرف عبد الرافع الدرفيلي ، **الحرية والمعرفة** .
11. بربوتي حقي إسماعيل، **الإنساني و اللاإنساني في قيم الحضارة الغربية**، مجلة الوحدة، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، سنة 1991م، العدد86.
12. برهان غليون، **اغتيال العقل**، مجلة الثقافة العربي "**بين السلفية و التبعية**"، الجزائر، سنة 1990.
13. بينوشبرتراند ،**التباسات الحضارة** ، تر :هدى مقنص ،المنظمة العربية للنهضة -بيروت ،ط1،2013.
14. تركي إبراهيم محمد ،**في فلسفة الحضارة ،قضايا ومناقشات** ،ط1،دار الوفاء لدن،القاهرة ،2005.
15. الترمذي ،السنن ، **كتاب صفة القيامة والرقائق والورع** ،باب في القيامة ، حديث رقم 526/2416،4.

16. توفيق محمد سبع :**قيم حضارية في القرآن** ،ج2،سلسلة البحوث الإسلامية ،1982

17. توينبي أرلوند ،مختصر دراسة التاريخ ،تر فؤاد محمد شبل ،ط1،ج1،القاهرة ،1964.

18. الجابري ، **قضايا في الفكر المعاصر** ،بيروت ،مركز دراسات المستقبل العربي ،ط1997،1،ص128.

19. حسن أيوب :**السلوك الاجتماعي في الإسلام** ،ط5 ،دار التراث العربي ،القاهرة ،1987

20. حسن رمضان فحلة، **مقومات الحضارة الإنسانية في الإسلام**، دار الهدى، الجزائر، ط1، 1989، ص18.

21. خديجة النبراوي ،**دور رسائل النور في يقظة الأمة** .

22. الخطيب سليمان ،**أسس مفهوم الحضارة في الإسلام** ،ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر.

23. خليل عماد الدين ،**التفسير الإسلامي للتاريخ** ،دار العلم للملايين ،ط3،بيروت ،1978.

24. خير الدين التونسي ،**أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**،تقديم المنصف الشنوفي ،الدار التونسية ،تونس 1972.

25. رفاعة الطهطاوي :**تخليص الابريز في تلخيص باريز** ،الهيئة المصرية لعامة للكتاب ،القاهرة ،1974.

26. زياد خليل الدغامين : **من قضايا القرآن والإنسان في فكر النورسي** ،سوزلر ،القاهرة ،2009.

27. زينب رضوان :**النظرية الاجتماعية في الفكر الإسلامي** ، دار المعارف ،القاهرة ،1982،

28. السعد نورة خالد ،**التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي** ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ط1 ،سنة1997.

29. سعيد عبد الفتاح عاشور ،**حضارة الإسلام**،طبعة المعهد العالي للدراسات الإسلامية ،القاهرة ،2004.

30. سليمان الخطيب، **فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر،بيروت ط1993،1.

31. سيدقطب : « **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته** » ، دار الشروق، القاهرة، 2007م.

32. شبنجلرأزوالد ،**تدهور الحضارة الغربية** ،تر أحمد الشيباني ،ج2،مكتبة الحياة بيروت ،سنة 1964.

33. الشرقاوي محمد ،**أدب التاريخ عند العرب** ،دار العودة ،بيروت .

34. شفيتزر ألبرت ،**فلسفة الحضارة** ،تر عبد الرحمان بدوي ،ط2،دار الأندلس،1980.

35. شكيب أرسلان في كتابه "**لماذا تأخر المسلمون ...ولماذا تقدم غيرهم**"،_**المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الفكري عند مالك بن نبي**، تقديم :رشيد رضا ،دار البشير ،القاهرة ،1985 .

36. صحبي أحمد محمود ،**فلسفة الحضارة** ،مؤسسة الثقافة الجامعية ،الإسكندرية ،(د.ت) .

37. الصفصافي احمد القطوري : **حزب العدالة والتنمية والتجربة التركية المعاصرة** ،القاهرة ،2012.

38. الطيب برغوث، **مالك بن نبي و الاتجاه الحضاري في الحركة الإسلامية**، مجلة المستقبل، الجزائر، سنة 1991.

39. الطيب برغوث، **موقع** دار الينابيع للنشر و الإعلام – الجزائر، الطبعة الأولى، سنة 1993.

40. عبد التواب يوسف ،**الحضارة الإسلامية بأقلام عربية وغربية** ،الدار المصرية اللبنانية ،القاهرة ،1994.

41. عبد الحليم عويس : **رجل الإيمان والتجديد في وجه العلمانية والتقليد سعيد النورسي** ،سوزلر القاهرة ،2003.

42. عبد الرحمان شهبندر، **القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي**،القاهرة ،مطبعة المقتطف ،1963.

43. عبد الرحمان مرحبا، **من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الطبعة الثالثة، سنة 1983.

44. عبد اللاوي موسى ،**الحضارة الإسلامية وآثارها على المدينة الغربية** ،دار العلوم ،عنابة ،2008.

45. عبد اللطيف عبادة، **صفحات مشرفة من فكر مالك بن نبي**، ط1، دار الشهاب للطباعة و النشر، باتنة–الجزائر، سنة 1984.

46. عبد الله دراز، **دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية و الدولية**، دار القلم، الكويت، سنة 1973.

47. عزت قرني :**العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة** ،عالم المعرفة ،الكويت ،1980.

48. عفت الشرقاوي، **أدب التاريخ عند العرب**، مكتبة الشباب، القاهرة.

49. عكاشة شايف، **الصراع الحضاري في العالم الإسلامي**، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، سنة 1988.

50. الغامدي سعيد محمد ،**مقدمة في الصدمات الحضارية** ،ط1،مركز صناعة الفكر للدراسات والأبحاث 2015.

51. ماركس–انجلر، مختارات–في أربعة أجزاء، دار التقدم موسكو، "**الاشتراكية الطوباوية و الاشتراكية العلمية**"، الجزء 3، سنة 1970.

52. محمد إقبال ،**تجديد التفكير الديني في الإسلام** ،ط1،تر،عباس محمود العقاد،القاهرة ،1955.

53. محمد الغزالي ،**الاستعمار أحقاد وأطماع** ،ط4، نهضة مصر للنشر،القاهرة ،2005م.

54. محمد الغزالي ،**مشكلات في طريق الحياة الإس**لامية ،نهضة مصر ،القاهرة ،2005.

55. محمد جواد مغنيمة، **فلسفة الأخلاق في الإسلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، سنة 1979.

56. محمد رشيد رضا في كتابه «**شبهات النصارى وحجج الإسلام** ، دار المنار، القاهرة، 1367

57. محمد عبد الله، **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي و الخلافة الراشدة**، الطبعة الخامسة، بيروت، دار النفائس، سنة 1985.

58. محمد عمارة، **عالمنا حضارة؟ ...أم حضارات؟**، دار الوفاء، الطبعة الأولى، سنة 1997.

59. محمد فريد وجدي ، مقدمة المصحف المفسر ، طبعة دار الشعب ،القاهرة.

60. محمد محفوظ، **الإسلام، الغرب وحوار المستقبل**، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، سنة 1989.

61. محمد محفوظ، **الحضور و المثاقفة**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، سنة 2000.

62. محمد محفوظ، **الفكر الإسلامي المعاصر و رهانات المستقبل**، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، سنة 1999.

63. محمد ممدوح العربي : **الأخلاق والسياسة في الفكر الإسلامي والليبيرالي والماركسي** ،الهيئة المصرية للكتاب ،القاهرة ،2006.

64. محمود الوادي و آخرون، **الأساس في علم الاقتصاد**، دار اليازوري العلمية للنشر و التوزيع، الأردن ،2007.

65. محمود خضيري زينب ،**فلسفة التاريخ عند ابن خلدون** ،القاهرة ،دار الثقافة ،1979.

66. مدحت القريشي، **اقتصاديات العمل**، ط1، دار وائل للنشر والتوزيع، الأردن ،2007.

67. منى علي يوسف: **فلسفة التاريخ عند هاردر** ،رسالة ماجيستير ،جامعةالقاهرة .

68. مؤنس حسين ،**الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها** ،ط2،الكويت ،المجلس الوطني للثقافة والفنون للآداب ،1998.

69. نورة خالد السعد، **التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي**، الدار السعودية للنشر و التوزيع، سنة 1418هـ.

70. يوسف القرضاوي حيث :**الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف** ،دار الشروق ،القاهرة ،2001.

71. يوسف القرضاوي، **الخصائص العام للإسلام**، ط3، مكتبة وهبة، القاهرة، سنة 1986.

72. يوسف حسين، **نقد مالك بن نبي للفكر السياسي الغربي الحديث**، دار التنوير للنشر و التوزيع، الجزائر الطبقة الأولى، سنة 2004، ص:100.

73. يوسف كرم، **تاريخ الفلسفة الحديثة، الطبعة الرابعة، دار المعارف بمصر، سنة 1966.**

74. السقا سعيد محمد.م ،**فلسفة الحضارة وحوار الحضارات** ،دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ،2010.

75. نصر محمد عارف ،**الحضارة** ،**الثقافة** ،**المدنية** :دراسة في سيرة المصطلح ودلالة المفهوم ،واشنطن ،المعهد العالمي للفكر الإسلامي ،ط1، 1994.

76. ول ديورانت ،**قصة الحضارة** ،تر زكي نجيب محمود،(القاهرة ،لجنة التأليف والنشر ط2 ،1956.

77. أحمد شلبي، **المسيحية**، الطبعة الثامنة، مكتبة النهضة المصرية، سنة 1984.

78. أسعد السمحراني، **مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا**، دار النفائس، ط1، سنة 1984.

79. سليمان الخطيب، **فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي**، الطبعة الأولى سنة 1993، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر.
80. بوراس يوسف ،**الفكر السياسي عند مالك بن نبي** ، دار هومة ،الجزائر ، 2013.
81. عادل العوا، **الإنسان ذلك المعلوم**، ط 2، منشورات عويدات، بيروت باريس، 1982م.
82. فيصل عباس، **الفلسفة و الإنسان**، دار الفكر العربي، ط1، بيروت، سنة 1996.
83. زريق قسطنطين ،**في معركة الحضارة** ،دار العلم للملايين، ط4،بيروت ،1981.
84. محمد عبده ،**الإسلام دين العلم والمدنية** ،مكتبة النافذة ،الجيزة ،2006.
85. **مناهج الالباب المصرية إلى مباهج الآداب العصرية** ،القاهرة ،1869،والمرشد الأمين للبنات والبنين ،1872.
86. عادل العوا، **القيمة الأخلاقية**، مطبعة جامعة دمشق، سنة 1960.
87. كولن ولسن ،سقوط الحضارة ،دار الآداب –بيروت ،ط3 ،1972.
88. ألكسيس كاريل: **الإنسان ذلك المجهول**،ط2، مؤسسة المعارف ،بيروت ،1977.
89. سيد قطب ،**في ظلال القرآن** ،دار الشروق، ط7، 1978.
90. شلبي أبو زيد ،**تاريخ الحضارة الإسلامية** ،مكتبة القاهرة ،1984.
91. الرازي فخر الدين ،**تفسير الرازي** ، دار الفكر،ج3،بيروت ،1985.
92. محمد الغزالي ،مائة سؤال عن الإسلام ،دار ثابت ،القاهرة ، 1996.
93. **جريدة "المنطلق"**، العدد الأول، بيروت، سنة 1997.
94. عشراتي سليمان ، **النورسي في رحاب القرآن** ، سوزلر ، القاهرة ،1999م.
95. هاني إدريس ،**حوار الحضارات** ،المركز الثقافي العربي ،ط 02، 2002.
96. سيد قطب ،**المستقبل لهذا الدين** ،دار الشروق ،القاهرة ،2005.
97. محمد عبد الله دراز :**دستور الأخلاق في القرآن** ،مؤسسة الرسالة ،2005.
98. سيد قطب ،**مقومات التصور الإسلامي** ،دار الشروق ،القاهرة ،2006.

ب :المعاجم والموسوعات:

1. ابن فارس ، **معجم مقاييس اللغة** ،تحقيق عبد السلام هارون ،دار الجي،بيروت،ط1991،1.

2. ابن منظور ،**لسان العرب** ،الطبعة الجديدة الصادرة عن دار المعارف ،القاهرة

3. اندريه لالاند :**موسوعة لالاند الفلسفية** ،تر دكتور خليل احمد خليل منشورات عويدات بيروت ،باريس،(ب،ت)ج1.

4. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادي ،**القاموس المحيط** ،دار ابن الخوارزمي ،القاهرة ج2.

5. محمد مرتضي الزبيدي ،**تاج العروس** ،دار مكتبة الحياة ،بيروت ،م3.

6. من إصدار مجمع اللغة العربية في مصر ، **المعجم الفلسفي** ،عالم الكتب بيروت ،1979.

7. جميل صليبا ،**المعجم الفلسفي**،دار الكتاب اللبناني ،بيروت ،1971،ج1.

8. جميل صليبا ،**المعجم الفلسفي**،الشركة العربية للكتاب ،بيروت ،1994.

ج- المقالات والدوريات والمجلات :

1. عبد العزيز برغوث :أعمال مؤتمر ،**نحو فهم عصري للقرآن** ،**موقع نظرية العلم في عملية الاستخلاف والتحضر عند النورسي** ،نسل ،تركيا ،1998

2. داود عبدا لكريم زكريا :**عنايه الإسلام بالعلم والمعرفة** ، نقلا من صحيفة الدعوة الإسلامية ، العدد رقم 1122.

3. زينب عفيفي شاكر :**الرؤية النورسية للعلم الإيماني ودوره في بعث الأمة الإسلامية** ، أعمال مؤتمر العلم والإيمان والأخلاق لأجل مستقبل أفضل للإنسانية .

4. عبد العزيز برغوث ،**من أساسيات المنهج الحضاري عند مالك بن نبي** ،مجلة بونة للبحوث والدراسات ،العددان '4،5 /ديسمبر ،2005،الجزائر .

5. محمد بنتهيله: أعمال مؤتمر، **العولمة والأخلاق في ضوء رسائل النور**.

6. محمد عبد النبي :**بديع الزمان والمناعة من آثار العولمة** ،**أعمال مؤتمر العولمة والأخلاق** .

7. مصطفى فوضيل :**النظرة القرآنية للإنسان** ،المؤتمر العالمي الخامس للنورسي ، البحوث العربية ،2002.

8. مجلة، **منبر الحوار**، دار الفكر، بيروت، لبنان، صيف 1989، أنظر أيضا: محمد محفوظ، **الإسلام، الغرب، و حوار المستقبل**، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، سنة 1998.

9. عمارطالبي ،**محاضرة جامعية** ،1412، 1978

ثالثا:مصادر ومراجع باللغة الأجنبية :

- la grande Encyclopédie (inventaire raisonné des sciences des lettres et des arts) H.la miaulât et Cie .Editeur

-علاقة الفلسفة بالحضارة والتاريخ**http://filosofia-nabilmeciad.eklablog.com/**

تاريخ التصفح **10/02/26،2022**سا و**30**د.